



يحيى الظاهر عبد الله

الكتاب الحاملة

ثلاث شجر كثر برتقلا
الدق الصندوق أنا وهي العالم
الرقصة لمباحة ور هو
حكايا الاميرة حكاياتنا
الظهور الإسوة كلب
الحق القيمة
الراو الماع الشمس



الطبعة الثانية

١٩٩٤

يحيى الطاهر بحمد الله الكتابات الكاملة

- * ثلاث شجرات كبيرة تثمر إبريقاً
- * الدف والصندوق .
- * أنا وهى وزهور العالم .
- * الرقصة المباحة .
- * حكايات للأُمير حتى ينام .
- * حكاية على لسان كلب .
- * الطوق والأسورة .
- * تصاوير من التراب والماء والشمس .
- * الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة .

الطبعة الثانية

١٩٩٤



الناشر : طائر المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة
ج. ٢٠٠٠ ت : ٤٧٢٧٠٢٩

الخطوط - المؤلف محمد بغدادى
اعمال الجرافيك عزيز المصرى
مونتاج غالية حمد الله

اشراف

عطيات الأبنودى
حسين حموده



يحيى الطاهر جدد الله

□ ولد عبد الفتاح يحيى (اسمه الأول) الطاهر محمد عبد الله في ٣٠ إبريل ١٩٣٨ بقرية الكرنك مركز الأقصر بمحافظة - قنا في أسرة متواضعة . كان أبوه شيخا معهما يقوم بالتدريس في إحدى المدارس الابتدائية بالقرية . أما أقاربه فمعظمهم من المزارعين ماعدا قلة منهم مارست النشاط السياحي القائم على مائتيه هذه المنطقة من آثار مصرية قديمة .

□ ماتت أمه وهو صغير ، فربته خالته التي أصبحت - استمرارا لأعراف موروثه - زوجة لأبيه فيما بعده . وله من الإخوة والأخوات - الأشقاء وغير الأشقاء - ثمانية هو الثاني في الترتيب .

□ ظل بالكرنك إلى أن حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة وعمل بوزارة الزراعة فترة قصيرة ثم انتقل عام ١٩٥٩ إلى مدينة قنا . وهناك التقى بالشاعرين: عبد الرحمن الأبودي وأمل دنقل . وقد كان هذا اللقاء بداية

رحلة طويلة وصداقة ممتدة بين الثلاثة . في هذه الفترة كان يحيى الطاهر شعوفاً بكتابات العقاد والملازى وكان الأبنودى مهتماً بالموروث الشعبي العامى أما أمل دنقل فكان اهتمامه بالموروث العربى الفصحى . في ذلك الحين لم يكن يحيى قد مارس أى شكل من أشكال الكتابة . وكان يقوم بدور الناقد لأعمال صديقيه في كثير من الأحيان . وبدأ الثلاثة يقيمون أمسية أدبية ثابتة في الجامعة الشعبية (الثقافة الجماهيرية فيما بعد) .

□ في عام ١٩٦١ كتب يحيى الطاهر أولى قصصه القصيرة (محبوب الشمس) وأعقبها بقصة (جبل الشاى الأخضر) .

□ في نهاية شتاء ١٩٦٢ انتقل عبد الرحمن الأبنودى إلى القاهرة وانتقل أمل دنقل إلى الاسكندرية بينما ظل يحيى الطاهر مقيماً مع أسرة الأبنودى في قنا مايقرب من عامين .

□ في عام ١٩٦٤ حقق يحيى الطاهر بالأبنودى في القاهرة وأقام معه في شقة واحدة بحثي « بولاق الذكور » حيث كتب بقية قصص مجموعته الأولى « ثلاث شجرت كبيرة تنمر برتقالاً » .

□ في القاهرة بدأ يتردد على المقاهى والمتنديات الثقافية وبدأ يعرف كظاهرة فنية متميزة . فقد كان يحيى الطاهر يلقي قصصه التى كان يحفظها بذاكرة قوية إلى حد الغرابة ودوغما اعتاد على أبيه أوراق . وكان يرى في ذلك محاولة لأن تقرب المسافة بين كاتب القصة والرواة الشعبيين . قدمه يوسف إدريس في مجلة « الكاتب » وعبد الفتاح الجمل في الملحق الأدبي لـ « جريدة « المساء » . وسرعان ما احتل مكانه كواحد من أهم وأبرز القصاصين والروائيين المصريين الذين شكلوا - ما عرف بعد ذلك بما يسمى « الجيل أدباء الستينات » .

□ في أكتوبر ١٩٦٦ صدر أمر اعتقال لمجموعة من الكتاب والفنانين المصريين منهم يحيى الطاهر والأبنودى . إلا أن يحيى ظل هاربا لفترة ثم قبض عليه وأطلق سراح معظمهم ومنهم يحيى الطاهر في إبريل ١٩٦٧ .

□ في مارس ١٩٧٥ تزوج ، وأنجب بنتين « أسماء وهالة » وإبنا سمّاه « محمد » توفى بعد ميلاده بفترة قصيرة .

□ أعمال يحيى الطاهر

مجموعات قصص

- ثلاث شجرات كبيرة تقمر برتقالا ... الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠
- الدف والصندوق .. وزارة الإعلام - العراق - بغداد ١٩٧٤ (الطبعة الأولى) .
- أنا وهى وزهور العالم .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ .
- حكايات للأخبر حتى ينام - وزارة الإعلام - العراق - بغداد - الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- حكايات للأخبر حتى ينام .. دار الفكر المعاصر - القاهرة ١٩٧٨ (الطبعة الثانية) .
- الطرق والإسورة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب -
القاهرة ١٩٧٧ .

تساوير من التراب والماء والشمس .. دار الفكر المعاصر القاهرة ١٩٨١ .
• الرقصة المباحة .. مجموعة قصص قصيرة ، كان يحيى الطاهر قد أعدها
للنشر في مجموعة قبل وفاته . بعض قصص هذه المجموعة كان قد نشر في
صحف ومجلات ، وبعضها لم ينشر من قبل « يتضمنها هذا الكتاب » .
• حكاية على لسان كلب لم تنشر من قبل .

[أ] ترجمت له أعمال كثيرة إلى ثمانى لغات مختلفة . وتصدر له دار
« هاينان » بانجلترا مختارات قصصية تحت عنوان « جبل الشاى
الأخضر » ترجمها إلى الإنجليزية دينيس ديفيز .

□ لم يمارس يحيى الطاهر عبد الله ومنذ انتقاله إلى القاهرة أية أعمال أخرى
سوى كتابة القصة والرواية القصيرة وكتابة بعض قصص الأطفال .

□ توفي يحيى الطاهر عبد الله في حادث سيارة على طريق القاهرة الواحات في
يوم الخميس ٩ إبريل ١٩٨١ ودفن في قريته « الكرنك »

ثلاث حشرات كبيرة
تشميرت قالا

إهداء

للمقبل .
للزوجة العذراء مع الخالدين فوق قمم الأوتوبس المسنونة،
لأبي الشيخ بالكرك القديم .
خليل كللت بمسرح الجيب بالقاهرة .

يسين الطاهر بحمد الله

(ولكنى حين أسعید فی ذاکرتی جمیع الظروف والملابسات ، أعقد أنى
قد أتین بصیماً یفصح عن جانب من المنابع والدوافع التى تسلت إلى ما کوة
تحت شتى ضروب الشکر والتخفى ، وأغرمتى بالشرع فی أداء ذلك الدور
الذى قمت به ، هذا إلى أنها دأمتى فجزتى إلى العزم بأن ما أدیته إنما
اخترته بمحض إرادتی الحرة السلیمة وحکمتی الرشیلة) .

هرمان میلر
فی « مونی دیک »

جبل الشأى الأخضر

كان جدى يصبب الشأى فى الأكواب من ثلاثة أباريق صغيرة ، وقد فرغ : تناول أريقاً كبيراً مملوئاً بالماء الساخن وملأ الأباريق الثلاثة من جديد وأعادها إلى المجمة ، من جواره أمسك بالإريق الأكبر من كل الأباريق — والمسمى بالكؤزة لطول عنقه — وصب منه الماء البارد فى الإريق الكبير حتى الحافة وأعادها أيضاً إلى المجمة .

كنا صامتين فجدى لم يكن قد تكلم بعد ...

كنت أرقب المجمة : الأباريق الصغيرة الثلاثة كانت ترقد فى الرمد الناعم .. والماء كان يتقلب داخلها تحت قسوة الوهج ويقلقل الفطاء الحارس .. والماء المحترق كان يهرب من تحوييف العنق ويصفر .. وكانت أفواه الأباريق الثلاثة تبخر الدفء فى جو الغرفة الشتوى .. وكان الإريق الكبير يصفر صفيراً عالياً — فهو يرقد فى قلب المجمة تتحلقه عيون الجمر الملتببة وتتسلقه حتى المنتصف وتتوهج على سطحه النحاسى اللامع شديدة الاحمرار .

كنت أعى أنه لابد يرقبنى — وقد مسح المكان بعينيه وحاصرني ولاحق بصري وأمسك بالشئ الذى سقطت عليه عنى ليواجهنى به ككل مرة أمام الجميع .. يصعد الدم وتتفخض به عروقى وتكاد تنفجر .. ويلتهب وجهى ويظل ساخناً يتشقق كما يحدث لأناء الفخار داخل الفرن الحار .. تكون الكلمات فى فمى كخيوط

الصوف المغزول : مملوكة بالوبر الجاف وقد تشابكت وصنعت أعداداً هائلة من
العقد .. أعرف أنه الخجل ، أمام الجميع أحس أنني بغير ملابسى .. يصرخ
باعتقاده القاطع بأننى أبول على نفسى أثناء نومي يرغم أننى لم أعد طفلاً ..
ينسب ذلك لحيى للنار المشتعلة .. وولعى بالجمر الأحمر المتوقد .. عيون الجميع
تتعلقنى .. تظل تتسلفنى .. أحسها تكوى منى الجنين .. تتوالى الحروق وتأكـل
جسمى وتتوالى اللسع الحار .. وأنفجر باكياً ..

عينى أغمضتهما بسرعة .. وفتحتهما نصف .. فتحتهما عليه : جالساً
بجوارى وقد أسقط على عينيـه الغاضبتين ، همهم ، لم يكن جدى قد تكلم بعد ،
رقه بغضب .

— كامل .. أخضر ولا أحمر ؟

رد أبى فى عجل وكان متخرجاً ..

— أبوة ياها .. أحمر .

كان جدى يوزع علينا صنوف الشاى .. طلبت لى شاياً أخضر .. ولما
كانت عواطف أختى والى تصغرى بتسعة شهور كاملة قد طلبت لنفسها من
جدها شاياً أحمر .. وكنت مدركاً أن الأمر يحتاج من جانبى لقدر من السرعة فى
التصرف لينتـى تماماً .. قلت محدثاً جدى فى صوت واطيء وجعلته مرحاً :

— مش انت زمان يا جدى كنت صغير زينا .. وكنت تشرب الشاى الأحمر
لكن كبرت وعرفت ان الشاى الأحمر يحرق الدم فشربت الشاى
الأخضر ..

كان جدى يبتسم .. كنت أنظر له وكنت أعشى أن أقرأ وجه أبى ..
قلت غاطباً جدى :

— طيب ليه عواطف الصغيرة تشرب الشاى الأحمر .. والله العظيم ثلاثة يا
جدى دماها كله حيتحرق .. أصل دماغها ناشفة من نوع الحجر وعارئة
الكسر ..

كانت عواطف متلمة .. وكان جدى يبتسم مازال .. أما أبى فقد
فاجئنى :

— مفيش غويك اللى دماغه ناشفة وعارئة الكسر ..

نظرت الى يده ممسكة بالكوب مبتكراً حتى منتصفه بالشاى الأحمر ..
أدركت أننى تعجلت ، خاطبته :

- أصلها مش بتسمع الكلام .
- قال لأى فى أمر قاطع :
- روح شوف البهايم فى الحوش .. خل نوال اختك تحيب اللين بسرعة .
- ونظر لى عمى « شرقاوية » وقال فى أمر أخف :
- خدى البنت ونضفى شعرها فى الشمس يه .. خليها تغسله بعد كده .

كنت قد جريت حتى السقيفة ونحطيت السقف العارى النائم تحت الشمس الحرة من الغيوم — قبل أن تصل عمى « شرقاوية » ممسكة أختى عواطف بيدها وكانت أختى عواطف متململة فأخرجت لها لسانى وجهت باتجاه الحوش .. كنت أسمع عواطف تشتمنى .

- إن شاء الله ضربة دم يابو ..
- كانت تفهم أننى سأضربها فلم تكمل .. نظرت لها وأبدت الشر ..
- قلت :
- طيب يا أم قملة ..

كنت أستمعها تبكى مجرورة خلف عمى وأنا أدفع باب الحوش : كانت نوال أختى واللى تكرىل بتسعة شهور كاملة — راقدة فوق ظهر جاموستا .. وكانت نائمة بصدرها وقد حضنت عنق الجاموسة بكلتا ذراعيها .. وكانت تمرجح ساقها وتحك فخذها بطن الجاموسة الأسود السخين .. كنت أرى أصابع قدمها التى تواجهنى كخمسة مسامير دقت أسفل بطن الجاموسة .

صرخت معلناً عن وجودى فقفزت نوال على الأرض مفزوعة ودلقت ماجور اللين المملوء .. وجهت أنا لأنقل الخبز لأى وجلى .

مررت بالسقف : كانت الشمس الحرة من الغيوم قد ألميته بالسخونة .. وكانت عواطف وعمى « شرقاوية » محتمتين بظل الجدار القصير .. وكانت عواطف راقدة فوق حجر عمتها .. وكان رأسها نائماً بين الفخيلين .. وكانت عمى تقلب شعر عواطف وتدهنه بالجازز الأبيض من كوز صفيح يجاورهما ..

فى الغرفة كان جدى يصب لنفسه كوباً من الشاي الأخضر .. وكانت أمى موجودة ترضع رمضان أختى الصغير جداً .. قلت لأى إن نوال دلقت اللين وإننى

وجلدتها فوق ظهر الجاموسة وإنما كانت تحرك ساقها .. وقلت إن أصابع قدميها العشرة كانت كعشرة مسامير من الحديد دقت أسفل بطن الجاموسة .. اصفر وجه أمي وسحبت ثديها من فم الولد رمضان فبكى .. وأرقدت هي ثديها تحت ثوبها الأسود « الباتستا » ، أما أبي فقد قام منتصباً كالقصب المشدود المسنونة الرأس ، وكان جلى يدوس شفته السفلى تحت أسنانه ، أما أمي فقد خرجت من الغرفة ولاحظت أنها راغبة في البكاء ..

وفي لحظة كان أبي قد عاد وصرخ بأنها غير موجودة .. وزعق طالباً أمي .. وصرخ فيها طالباً منها أن تحضر نوال من تحت باطن الأرض .. وفي غمضة العين كانت أمي قد أحضرت نوال وهي تجرها ونوال تصرخ بصوتها العالي الباكي لأنها وأبي بأنتي كذاب .. صرخت فيها بدوري :
— أنا مش كذاب .. انت اللى كذابة .

سقط كف أبي على صدغي بقسوة أوقعتني وصنعت خيطاً من الدم : كان دافئاً .. كنت ملقى على أرض الغرفة التربة المرشوشة بالماء .. وكان أبي يسحب نوال من ضفيريها ويجريها على الأرض .. كانت عمتي « شرقاية » قد جاءت وكانت أختي عواطف منكشمة وملتصقة وممسكة بثوب عمها .. وكان جلى ممسكاً بسيخ ينتهي بحلقة وعطاف يقلب به الجمر .. كان يأمر أبي في غيظ :
— اضرب .. اضرب يا كامل .

كنت أشعر بطعم الطين في فمي وجانب وجهي نائم على السطح الترابي الذي لم يعد جافاً .. وكان الدم يسيل من جانب فمي ولا يتوقف .. وكان ساخناً مازال .. وكانت نوال أختي معلقة من عرقوبها بحبل مشدود إلى وتد ثبت بجدار الغرفة .. وكان أبي يصعد ويهبط بكل جسمه كتور مذبح .. كان يرفع يده ويهوى بمصاة لينة رفيعة ويضرب الجسم العاري .. والدن كان يشخب من الجسد العاري ويغطي وجهي ولا يجعلني أرى ..

كانت أمي تصرخ .. وكان صوتها باكياً .. وكان أخي رمضان على صدرها لاشك بيكي .. وكانت تخاطب أبي :

جززها يا كامل .. كفاية يا كامل وتيجوز .

كنت مغمض العينين وكنت أبكي .. وكنت ملازمت على الأرض نائماً

ولم أعد متنبهاً للدم يطفّر حاراً من جانب فمى .. ولم أع بعد لماذا طلبت
أمى من ألى أن يكف عن ضرب نوال وأن يزوجه .. لكنى كنت أتمنى لو
يم ذلك .. أن تتزوج نوال وأن يكف ألى عن ضربها وأن تخرج من هنا
البيت .

كانت أمى قد لمحتى وأرقدتلى على الفراش الأرضى وغطتلى بالحرام
الصوف .. ولكنى كنت أرتعش .. كانت تقدم لى الكوب .. وكنت قد
طلبت أن أشرب .

زعق ألى :

— ايه ده ؟ ..

قالت أمى :

— ميه ورماد ..

صرخ ألى :

— ارميه يا بهيمه .. اذى الولد ميه بسكر .. واعصرى كان لمونتين ..

قالت أمسى :

— مغيث لمون عندنا .

قال ألى :

— أطلع أنا أجيب لمون .. وانت دوى السكر فى المية .

كنت أدرك أننى سأنام وكنت عطشاً .. وكنت أدرك أن أحلاماً كثيرة
ستأتى .. وكانت كل الأصوات قد غابت .. وربما كانت نوال بمن بصوت
واطىء .. واطىء ولا يمكننى أن أسمعه .. ولا يمكننى أن أسمع خطو قدميه
الحافيتين تنفرسان فى الرمل الساخن الجفاف — وقد هبط من فوق ظهر
ناقته « عاتكه » .. وبلغ الجبل وصعدته .. يجمع من حوافيه أعشاب
الشأى الأخضر .. الخضراء .. ويأتى معه أيضاً بحبات الليمون الخضراء .

الكابوس الأسود

تغطي الشريط الحديدى — متدحرجاً من المسقط الحجري — إلى يؤو الساحة الخراب : واجهه يرد المكان المنخفض بأسنان مدبية ، واستقام لعينيه كائن العراء الخرابى : وقد غطاه قوس الأفق الرمادى بعمامة خلت من الأعمار والنجوم .. وتحت قدميه كان يمتد فرش المكان القفر ينشع بالبول ونطف الفرائز الوضعية . آتخذ : أحس بأنها الكوايس السوداء رفيقة الرعب — حيث يأخذ عالم الشعور والجسد والروح وزنه الثقيل .

حضرت تلك الجملة (الأحمق والجاهل كلاهما يفتح جفنيه حيث أسقط العماء الضرورة) ، أطبق جفنيه تاركاً جسده الثقيل يزحف موثقاً بحبال النداء المنقطع : يمد باعة سجن وكبد وكلاوى وفجل وبلع أمهات — هناك أمام وخلف وفوق القنطرة الخشبية — لكل من تغطي الشريط الحديدى مرشدين إلى العزبة .

كان هناك أمام القنطرة الخشبية ، وكانوا هناك باعة سجن وكبد وكلاوى وفجل وبلع أمهات — فوق وأمام وخلف القنطرة الخشبية — بعربات سترها الخيش خشية المطر المتوقع .. عالها : قتائل غار تنطوح رؤسها المدبية الصفراء وتزفر الدخان الأسود .. وقد عبر القنطرة متخطياً نداء القاعلة المجوز (أيوه يايبه أنا هه) .. وكلماتها تنكسر مهزومة خلف ظهره — شعر بطعم نصر تحقق لأول مرة (لقد ظفرت بخدمة مجانية) .

بين ذراعي ضباب رمادى هامد كانت ترقد بيوت العزبة : كتلة فاحمة صماء .
تخيل طائر الرخ الأسطوري واقفاً فوق يعضته ذات الحجم الخرافي كأكبر ما تكون
مدن العصر ، تلك القشرة السمكية الصلبة الملساء اللامعة تحت الشمس ..
تتكسر عليها حراب عثة الرمال ، تخفى تحتها طبقة ليفية من وبر الجمال وشعر
النساء المتوحشات وصوف الخراف البنية وفراء أرانب الجبل وأمعاء التماسيح
والقنفاذ ، ثم جوف عميق تسبح فيه أسماك كبيرة وصغيرة وعقارب وأجساد عارية
تلتف حولها الحيات .. أنهار جارية بدم النفاس والولادة وليل الطهور والزفاف :
تشق الدروب الغارقة في العتمة ومواء القطط ونبح الكلاب وعواء الذئاب وهديل
الحمام والآه والآه ونقيق الضفدع ونعيق البوم .. محوّر مسكوبة ولعاب وبصاق
وبول وقء .. وأشجار صبار تتلألأ منها غيران ميتة وخنازير نافقة .. وأجساد
لرجال ونساء وأطفال معلقة شعورهم بأفرع شجرة الحشيش التروانية السحب :
تنفث من مساهما الأبيض الرمادى الأسود الترابى المغبر على الرحم الكبير الفاغر
ينز بالدم والقبح والصدید وترعى داخله الديدان وتحم حوله الغيران ناهشة ناعقة
وتقطر منه مياه الحموم وتضربه الريح الملتأثة والشمس الصفراء .. ريح تصفر
وأجراس أديرة وكتائب تدق وتعلو أصوات المؤذنين والديكة فوق أنات الجرحى
تحت الأنفاس والمرضى داخل الأنفاق وبطن المناجم وحركة الأرغفة تستوى في
القرن الساخن .. والجرار تكسرت عن الخمر والعسل والحليب ممزوجاً بدم
الأسرى : تتكسر أجسادهم تحت حوافر الجياد .. وفم طفل يمتص ثدى حاضن :
يحيط به ذباب البقر والحمير الوحشي اللاسع الطنان .. صفق السلاسل بسيقان
الخنول وكرات الحديد .. والسياط فوق ظهور العبيد : تشان .. تشان .. في
مارش الجنائز الأبدى تعرفه فرقة الأرض الملكية للخنفس المنتصر والصرصر الحكيم
تحت قوس النصر .

اصطلم بحجر — كان يمكن أن يخمن موضعه — وكاد يتكفىء عليه أن
يكون حفراً : الطويق يضيق بعد ذلك ويصنع لساناً يمتد داخل الشريط المائي
ويتنهي بالبيوت ..

ككل مرة : يستل بأشجار الصفصاف : سوداء ملتوية الأعناق ، ودائماً
هى رائحة الماء العطن : تنفذ حادة إلى المعلنة تعبد نصف زجاجة الياتسون ..

« هو الشتاء اللعين » — قال : « الصيف يسقط — هنا — في الماء العطن :
أقمار ونجوم تستحم مع آلاف الآلاف من الأسماك الصغيرة وترسلنى إلى بيت

زوجى الصنصافة المعجوز . قال — (أكو أشجار الصنصاف .. أكو أن
تقهري عوانس الصنصاف الملالة الشعور) ضحك لأنه أحس أنه يتكلم بمجدية
ويحزن أكثر مما يجب ، ومع ضحكاته تتكسر بعيداً في الرحاب الأربع ، استخف
اللعبة ، كان يزقق واضعاً كفيه على فمه (العانس .. ال .. ع ..) ، كان
يضحك ثم يبكى وانتظر الصدى المتكسر في الرحاب الأربع (أجساد نحيلة
واطئة .. صدور واطئة .. ثدى واطيء .. الناحلات .. الشاحبة .. فقط
شعر .. لا يملكون سوى شعر .. الإناث .. الرجال .. النساء .. الحمقى ..
الأثنى ليست شعر .. الحمقاء .. آ .. نا .. ر .. أ .. ا .. ج .. و ..
ل

كان محاصراً بالسكون والظلمة والتعب — وقد كف عن النداء ، أحس بأن
روحه منهكة ، وأنه فعلاً مضطهد ومقهور وأنه حقيقة يتعذب ، شعر بالخوف لأنه
غمرور ووحيد ، تكرر حكاية الفتى المغترب العائد من حرب الحوادث : يطلب
موطنه البعيد الخيالي .. وزوجته الجميلة الخرافية .. وقتاه البعيد .. وشيوخه
الأسطوري ، تفرقت الطرق أمام عينيه .. أغمضهما ماداً يده لجنيات الطريق ،
هنالك في الكهف الأسود : التفّت حول جسده الأقوى العملاقة ملكة ملكات
البيان وظلت تنهشه ، تحت الألم واللثة كان يحلم بهم ينتظرونه في الموطن البعيد
الجميل ، وبالليل يكون البرد .. تغريه بأغطية الصوف .. تضمه لجسدها
الميت .. يظل مشلولاً إلى العود الياس بقوة السحر وأغطية الصوف المحجبة .

حضره كيف جاءته عروساً (كان الرجال يحيطونه وكلهم أقاربه ، كانت
العروس مع النسوة والأطفال وكلهم أقارب في الحجرة الأخرى ، قال بينه وبين
نفسه : « كيف أتوا بكل هذه الأعناد » أكمل ابن عمه — الشقيق الأكبر
للعروس — وكان ألقع اللسان : « ركبنا الساعة ستة صبح امبارح .. ولكنه وقد
عرف » زوجته « يتصور الأمر أقرب إلى المعقولة هكنا (التوق تمشي خبيثاً .. تاركة
خلف ظهرها مضارب القبيلة في الجنوب ، الفتيت داخل الموادج يمدحن قلوبهن
بالبعيد القريب الخيوى : سرياً وغامضاً ومدهشاً ، يسبق القافلة حصان العروس
الأبيض .. يلفها البياض المحلى بالترتر : يشرق ضاحكاً للقمر الضاحك في
الأعلى ، يقود القمر القافلة إلى الشمال — حيث هو العريس ، ومن بنادق

الرجال غير المرخصة حكومياً لعلع الرصاص فوق العيوس الملفة والوجوه المعصبة والأنوف المثقوبة تتدل منها الحلقات ، والقمر لعلع والزغاريد لعلعت أيضاً من أجله وأجل عروسه العلواء — وقت ذاك — وقصت بالأناشيد والأيدى بالدقوف وغنت العلنارى أهانج من رجز العجايز المجربات) .

يمكنه أن يغمض عينيه ويرأها تحت لمبة الغاز .. جالسة تنفخ نار « الكانون » .. بوجهها الدخاني وعينها اللامعتين (سكران يا بن عمى) .. يحزن صغرى وصوت من الكهف البعيد (كلت) .. يجلس على الصنلوق الخشبي .. كان جهاز عرسها .. طار غطاؤه المقيى وبات في الركن تسكنه الفريختان .. ماتزال لفائف الصحف القديمة تغطيها الإطار الصفيعى المشرش الصدئ .. وفي الوسط كانت عروس شبيهة بعرائس الحلوى في الموالد تغالب طبقة الدخان وتطل بملاحمها التي نقشت بدم الفراخ وعصير الخنا .

كان الضفدع قد صبحا في وعيه وبدأ ينق .. كان يأتي من الشطون ومن جوف الحقول غير المنظورة مقلقاً .. وأيضاً كان يأتي من جوفه ويحدث قلقلة يعضخها إحساسه المبهم المرفوض بأن الضفداع ذات الجلود الغريبة والأشكال الحيوانية البشعة تسكن معدته وتجرى في أمعائه .. كان غير قادر على منع القيء المنذفع من فمه وهو يطرد رائحة الضفدع الكريهة .. وشعر ببرودة ملابسه المبتلة .. كانت السماء تسقط المطر على أرض اللسان الممتد الموصل للبيوت وقد سحقطت فوقه يرقى متلب ورعد مجنون .. وكانت أرض اللسان تجري هاربة إلى الوراء بعيداً عن البيوت ، كان المسير والوقوف والتوازن على الأرض الزلقة الجارية للخلف الهاربة من قدميه — صعباً يل مستحيلاً ، كان يمنع سقوطه في الشريط المائي حاضناً شجرة الصفصاف .. ولكن عودها الهش تقصف تحت ثقله ، وجد نفسه في الماء المتكلس وقد أحاطته الأعشاب واللزوجة والعفن .. وكانت قدماه تفوصان في السطح الرخو البارد ، وتذكر أن العم لا يجدى حتى فيما لو كان يحسن العم ، لم يكن هناك غيو ليصرخ ويناديه .. وكان اللسان يجري هارباً من البيوت .. كان بمقدوره أن يصرخ .. كان الماء بعيداً عن فمه ..

معطف من الجلد

كان المطر مازال يسقط .. وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة تماماً وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الكثيرة تعد بالمنهد ، كنت قد ابتسمت .. فتسللت قطرات من الماء كانت على وجهي إلى شفتي : أحسست بمجمعي كله « متشبعاً » بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد — في الظلمة — كتجموع هائلة بين الأرض والسماء المنطقتين كنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة .. وكنت أتابعها .. وكانت تعود : بدقات المطر والماء الهارب إلى البالوعات ، كان الشارع خالياً .. فالمطر لم ينقطع منذ الصباح .

كنت قد بلغت سدة الشارع : كان هناك — أمام البوابة المغلقة — ثلاثة أشخاص ، وبدا لي الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر .. كما لو كان معلقاً ومتدلّياً من السماء ، وبدت لي المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً — وهكذا كانت تبدو لي دائماً في الليالي المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميله أمام البوابة المغلقة — وانسل من بين الأعمدة المنتصبة على الخط الحديدى ، وكانت هناك

صرخة تمخذه — وكنت قد تبعته — فبهشت المبرحة إلى ضحكة مرة ، كنا قد
نفذنا من الجانب الآخر فجعلت ضحكات الرجلين ألام البوابة ، كان القطار
قد مر فتحوّل الضحكات إلى مزق — وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل —
فاعترض له : وباعدت بين وجهي وبين التفاتته السريعة ، كنت قد هبطت
المنحدر — ومن خلفي كان الرجل ينتظر زميله — وضربت في الأرض الخلفية
الواسعة : كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر : التي تحولت إلى برك صغيرة من
الوحل

كانت الساعات الباقية من الليل كافية ليصل القطار إلى مدينة
« الأقصر » — ومنها إلى « قرية الكرنك » : نصف ساعة « بالخطوط » وثلاثة
أرباع الساعة بالقدم ، كنت قد سميتها « اينكا » .. وكنت اسمي بيتا (قصر
الشتاء) ، وهناك في (قصر الشتاء) كان المعجوز ينهي صلاة العشاء عجولاً
لينام — ربما كان « الآن » يصرخ كالعادة في إخواني الستة : ناموا .. لتأخذكم
الوهامي .. « أنتم ستة والواحد منكم يفلت بلد » في خطابه الأخير — قال إنني
أحطط : هم ثمانية — ثمانية الولد رمضان ، والبنت ؟ وكان علي — أنا — أن
أصمها ، وقال : الملعونة تبكي دائماً ، ربما كانت تبكي — الآن — وربما كانت
نائمة (للصغيرة — قطعة اللحم الحمراء — يا جامع السحب .. الحليب ..
لاجل عندك .. المعزة وأمي) — هكذا — لكن ربما كان الآن يعرف كل شيء
(إنهم يقلبون عليك الدنيا : اترك هذا المكان وابحث عن مكان آخر — كان
صديقي (خليل) وكنا نسكن سوياً ، وكنت أحبه — قال : إنهم هم —
لاهم — وإن اليوم الأحد ، ونطق بالأب « جايون » و « بالأحد النامي » ..
وقال : اترك هذا المكان فوراً ، قلت لماذا ؟ قال : إنه الجنون — وأن الأرض تلوم
وإننا في ١٩٦٦ ، وكنت أعرف ، وقال : نحن الذين نطعم الجوارد وتحت الحافر
يسقط البشر وقال : نحن نصنع المأساة ، وتحدث عن البورصة والنقابة والسلمة
والقنبلة والمسكرات والعمل — ولعن الساسة وتكلم عن الكرملين والرايح ، وذكر
البيت الأبيض والحمام البيضاء والخيرات والأناشيد التي يهبها ديكرت الفرنسي
مجاناً ، وكنت قد صرخت فيه .. لماذا ؟ وقال : إنه لا يدري ، وقال : إن العربية لا
تسقط مطلقاً في المنحدر وكنت أرتعش ، وقال : هي فترة بالسجن .. ولن أقتل ،
وقلت : لست خائفاً ، وقال : هل تفكر في .. ونطق بالألمانية ؟ — وكان يقصد
تلك التي أحبها ، وقلت : لا — وكنت في حضنته — وقال : إنني خائف فلماذا
أنكر ..

كنت قد مسحت الطين العالق بمخائي — والياق تلك الزئاعشة بأطرافى
وبالداخل ، وكنت قد دققت الباب وجاءت حركة من الداخل ثم سكنت —
فعاودت النق ، أدرت ظهري للباب : أمسك بقليل من الشجاعة — وحتى لا
يفاجأ . كان المطر قد كف — الآن — وكان ظلى يرتعش وهو يسبح —
هناك — متكسراً فى حفر الرجل الصغيرة وكان مصباح الشارع البعيد يمد له
حبلاً واهياً من الضوء .

عندما فتح الباب — لم يصلق إنه — أنا ، كان وجهه مليئاً بالنعشة ،
سحبني للداخل ، كنت ألهث بين ذراعيه العملاقين وصدره « الأصيل »
الهاطل ، أطفئنى وهو ينشج : انك يا ... وتنبه إلى باب الحجرة المفتوحين —
فوارب باب إحداها — سألتى : قلت شوقى ، ضمنى من جديد فى غلظة :
مش معقول .. الواحد فى حلم — قالها بفخامة ووجهه يطفر بالهجة ، كانت
لحظة مناسبة لأطلق دموعى بلا عجل ، قال وهو يحيطنى بذراعيه وكأنى ابنه :
ولا يهلك شدة وتزول .. اقعد — وأشار إلى كنية بالصالة .

كنت متشبهاً بالأرض — بقدمى — وقد ضمنت فخلى ، كان الباب —
الذى واريه — قد اتسعت فتحته قليلاً .. وكان الضوء الأحمر يزحف بظلاله —
مع ضوء الصالة — هناك فى الحجرة الأخرى المفتوحة : تعلقت بساق الطفل —
النائم — العارية لأهرب من صنيه ، عندما وضع يده على فخلى تأرجحت
الصورة التى بأعلى الباب ، عندما نظرت إليها من جديد كانت ثابتة ، سألته :
نايليون ، لم أكن أطلب الجواب — فقط كنت أود لو أمسك بطرف الخيط ،
أجاب : لا .. ده جهوفن لكن ازاي هيت ؟ طبعاً تعرف ما حدث « لفلان » و
« فلان » لقد سألو عك ؟ وضحك مشيراً : إن للحائط أذنأ .. وإن الظرف ..
وقلت : أعرف ، وقال : ازاي هيت ؟ قال — وقد صمت : والله راجل ، وردت
وقد انتابنى زهو : إنهم يبحثون عنى فى كل مكان .. بالصعيد .. فى العاصمة ..
بالمقاهى .. سألو كل معارفى ، قال وقد انتفض قائماً : أعملك شأى — ورجع
بعد أن مشى بخطوتين — انت أكلت ، صمت ، قال : هنا فى البيت مفيش
أكل .. ح أخرج أجيب من بو ، قلت : لا ، قال : لكن .. قلت : لا ..
هات سيجارة ، كان قد توجه إلى المطبخ ليصنع الشأى — بعد أن أشعل لى
السيجارة .

كنت أنظر إلى لسان الضوء الأحمر وهو يلحق ساق الطفل العارية — عندما اختفى فجأة — وسمعت خطو أقدام عائلة وجسم يتكسر على السرير في الحجرة الأخرى (الشقة من حجرتين : حجرة له ولزوجته وحجرة للأولاد .. يمكنني أن أنام مع الأولاد ، كنت أنام وثلاثة من إخوتي الكبار على سرير واحد .. وكانت البقية تنام مع العجوزين على سرير واحد .. ولكن المجوز يصير في خطابه الأخير على أنهم : ثمانية .. ثمانية) .

جاء صوته الغليظ من المطبخ مصطبداً بالمطبخ وبالسقف وبصمت الليل والأرضية والآثاث واطمئنانى النقى : على فكرة هنا فيه قراقيش ، لم أرد ، لقد قابلنى في احتفال رغم أن صلتى به ليست بالوثيقة ، لقد قال لى أكثر من مرة إننى يجب أن أزوره في بيته ، وعدته أكثر من مرة ولم أذهب ، في كل مرة كان يقابلنى كنت أتذكر موعده ، كان يعاتبنى ويؤكد لى أننى يجب أن أزوره في بيته ، اليوم : جئت بالعنوان الذى كان قد أعطانيه أكثر من مرة .. وجدته مصادفة وأنا أحرق بقية من أوراق كانت معى ، كان طيباً في مقابلته ومحتفلاً ، كان كما قال عنه صديقى الذى عرفنى به : محمد شهيم .. فلاح بما تحوى الكلمة — كان صديقى يقول هذا وعينه لا تفارق الوشم المنقوش على صدغ محمد — قال صديقى : إن محمد من عائلة ريفية ضاربة في الأرض .. وإن مظهره قليل من غبوره .. وإنه شهيم — هنا ما بهم — قد أبهى عنده لمدة أسبوع حتى أفكر أو أبجد مكاناً آخر — ستكون درجة الجنون الذى يطاردنى قد هبطت قليلاً — محمد شهيم — حتى — لم يسألنى كيف عرفت البيت بمفردى .

كان قد جاء بالشاى وسألنى : تشرب ميه ، قلت : شكراً ، قال : يا سلام أين كنت عندما ، قلت : حيث لا مكان ، قهقه في ضحيج : حيث لا تاريخ .. لا .. قاطعته : ممكن أفضل عندك أسبوع ، قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة : ممكن ، أعطانى سيجارة وأشعلها وأشعل لنفسه واحدة أيضاً ، كنا وكأنا فرغنا من الكلام تماماً — أنا وهو — : الصمت ورشفت الشاى ونفثت الدخان ، بعد لحظة — قام وتوجه لى الحجرة المفتوحة : أمسك بالفطاء ولقه حول الساق العلوية ، قال — وكان قد قفل باب الحجرة وعاد : الولد الكبير يلم الفطاء عليه ويمر أخوه الصغير . وده حال كل يوم يا سيدى — وصمت — بس تعرف يا .. شوقى أنى مراقب ، قلت وقد توقفت عن شرب الشاى : لم ؟ وقال : لا أعرف .. ممكن .. إنما الأولاد .. شوقى صعب والله ، قلت : سأبحث

عن مكان آخر .. كنت أنظر إلى الوشم الأخضر على صدغه وكأنتى أتعلق به ،
وكان هو — ينظر إلى الصورة المعلقة فوق الباب — ضحك — وقال : يا راجل
ازاى تخلط بين نابليون وبتهوفن ، كنت قد فرغت من نصف كوب الشاي ،
قمت .. قال : أشوفك . قلت : طبعاً كنا أمام الباب — وكان راغباً في أن
أكسر — أنا — هذا الخنجل الذى يمنعه من أن يحتضنى ، مد يده — كنت قد
مددت يدى ، قال — وكان ظهرى له : مع السلامة ، كانت السماء قد شدت
قوسها واطلقت نجاهى سهماً من نار ، تراجعت فاصطلمت بضلفة الباب
المقفلة ، تنحى بجسمه الهائل عن الضلفة الأخرى — وقال : ادخل .. قلت وأنا
أدارى خوفى بالضحك : دائماً .. دائماً .. منذ كنت صغيراً وأنا أخاف البرق ،
قال : ادخل وانتظر .. كنت قد شددت ياقة « الجاكيت » إلى أعلى — قلت :
انه من الجلد ونصيصاً للمطر .

حصار طروادة

كنا صباح الأحد ، وكنت حزينا ، وكانت الصحف — الثلاث — ترحب بمقدم الربيع ، وكانت الإذاعة المصرية تنشد تقرير مصلحة الأرصاد الجوية : « الجو اليوم رائق .. اليوم السماء صحو . اليوم الشمس مشرقة ، عموماً الطقس جميل » ، ألا أننى .. لقد فاجأنى الخنزير — قلت — وكنت أقصد الحزن لا الربيع ، ورأسى تحت الصنبور كنت أحدثه (الحزن طبعاً) : « عنى إلى الجحيم .. عنى .. سنوات وأنا أجالد (مع الماء المتساقط من رأسى بالوسخ اختلطت دموعى — كنت أبكى) ، وأنا فى الشارع — أوقفت شخصاً كان يمشى بسرعة : سرعة من هذا النوع الذى يجعلك تنحنى كميذان القمح التى تريد أن تحمى سنابلها من الريح الداهية المتوجهة (بأمر أرتميس طبعاً) نحو السفن الأثينية المتوجهة بدورها إلى طروادة وهيلين (كان أجاممنون قد ذبح إفجينا بالطبع) ، أوقفت الشخص وأفهمته أن ليس معى كبريت وطلبت سيجارته المشتعلة لأشعل سيجارتى ، وقلت له وقد ابتسم : أمامك أمر مهم ؟ . قال : بالطبع .. وأشار إلى دار سينما قريبة من المكان : أمامها طابور هائل من الراغبين فى فيلم « الصقر » ، الصقر : قصة كتبت بالدم والنار على رمال الصحراء .. اختيرت له قلعة منيعة بوسط الصحراء يحيط بها عشرات من مصورى السينما وآلاف من الفرسان) ، وقال إنه لا مانع من أن يصطحبني ،

وقلت له إن حزنى من هذا النوع الذى لا يحتمل التراجيديات ، وأفهمنى بطريقة ساحرة (طريقة يجيدها معلمو الإذاعات التجارية ..) كأن « أسبرو صديقك » .. « الواحدة والنصف ودقيقتين حسب ساعتي ماركة تيتوس » ، أفهمنى أن الفيلم كوميدى وأنه بطولة « فرّاد المهندس » (ممثل مصرى هزلى شهير : مثل $\frac{3}{4}$ أفلام القطاع الخاص و $\frac{1}{4}$ أفلام القطاع العام ، والمجموع واحد صحيح وتحتسب هكذا : $\frac{3}{4} + \frac{1}{4} = 1$) ، وقلت له : الآن — لا مانع عندي ولكنى أفضل الهرم (كنت أقصد تلك المساحة الصحراوية الهائلة التى تسكنها أهرامات خوفو وغفرع ومنقرع الثلاثة) ، وضع يده ثم لفنى ببراءة وقال : استرير الهرم .. طبعاً تقصد ؟ ، لاحظ وجوى فسألتى : ألك صديقة ؟ ، قلت : بالطبع .. ، قال : أنت صديقى ، وتوجه إلى محل قريب وأدار قرص التليفون : كان يتحدث ويضحك ويضحك ويضحك — ثم طلب منى أن أحادث صديقتى ، أدرت قرص التليفون واتصلت بها وقالت : إنه لا مانع عندها وستأتى حالا ، ودفعت لصاحب المحل العجوز ثمن مكالمتى ومكالمتى صديقتى ، وقال الرجل العجوز إن صديقتى تكلم مدتين ، ووجدت صديقتى يمسك بعنق العجوز ويكاد يزهقه ، أفلتما فوجدت العجوز يمسك بعنقى : كنت أغوص فى غمار من الراحة تحت قبضتيه ، ولكنه ضايقنى وأشعل معدنى برائحة فمه الكريهة ، خلصت نفسى منه بمعاونة شاب (من النوع الذى يعلق شنطة رياضية مرسوم عليها مضررين متقاطعين أو صورة للملاكم العالمى « كلاى » أو أى شيء من هذا القبيل) ، دفعت ثمن ثلاث مكالمات وتوجهت إلى محطة الأتوبيس ووجدت صديقتى هناك وبصحبته فتاة سمراء عقصت شعرها من الوسط وأخلته سائلاً للخلف كذليل الحصان ، كنت غاضباً (غضب من هذا النوع الذى حدثنا عنه هوميروس عندما طلب من ربات الشعر أن يلهمنه التفتى بغضبة ابن ييلوس الذى ترك المعركة الطروادية الشهيرة وبصحبته فرسان المورميدون بسبب وقاحة أجاممنون قائد الجيوش) كان يضحك وكنت غاضباً وقال وهو يقدمنى لها : صديقتى ، قالت بلهجة ساحرة « آن شاتيه » ، (نفس الطريقة التى استخدمتها الممثلة الإيطالية « صوفيا لورين » فى فيلم — نسيت اسمه كما نسيت الموقف أيضاً — ولكنى متأكد أن « صوفيا » لم تكن تلوك « اللبان » لا أعتقد أن غضبى كان سينطفئ) (خصوصاً وأن صديقتى تخيف جداً) لولا اهتمامى الشديد بنظرات من يحيطون بنا (قطعاً سحرهم الطريقة التى تقف وتلبس وتحدث بها فتاة صديقتى « صوفيا لورين ») ، بعد لحظة جاءت صديقتى وركبنا الأوتوبيس ،

تم التعارف بسرعة ، ووجدت غضبي يتلاشى إلا أن حزني الثقيل ظل ثقيلاً (لأن عمره عشر سنوات) ، ووجدتني أعاتب صديقي بطريقة لطيفة عما حدث وعن تركه لى وعما .. ولكنه أخذ يضحك ويضحك ويضحك وضحك الفتاتان (وهذا ما أغاظنى) ، ووجدته يقف فجأة ويصرخ فى وجهى أنتى لقيط وأنه يعرف كل شيء وأنتى ابن فلان بالتبنى .. وهكذا ، وهكذا وجدتني أفضل الانسحاب على البقاء معه (رغم أن اليوم مشرق وجميل وصالح للزهوة بصحبة الأصدقاء) وقلت لفتاتى : سأنزل فى المحطة القادمة ، وقالت : إنه لطيف وإنه يشبه فؤاد المهندس وإننى فاقد لل « هيومرسنس » — وكانت تعنى أنتى لا أنملى بخلق كوميدى ، وقلت لها : إننى حزين — حزن من هذا النوع الثقيل .. عمره الآن عشر سنوات ، وقلت : فاجأتى هذا الصباح (الحزن المفاجيء مرض عصرى يعرفه المثقف عندما يصطبغ وعيه بشروط التاريخ فيصرخ : « هذا سجن .. هذا محكمة .. إنه حبل المشنقة .. هو الشارع ، أنا مفصول من عملى — يقولون : إننى قاتل .. إننى سارق .. إننى .. هؤلاء غرباء لم أقابلهم قط ، مولاى الشيخ وسيدى القس — لكنها الحياة الوحيدة الممكنة ، انتهى الأمر .. إنهم على حق .. لقد كانت حياتى ، والمسؤول هذه الطريقة التى أفكر بها .. يمكننى أن أكون حزيناً) قالت : إنه لم يخطئ وإن الطقس بديع والجو مشرق وجميل وإننا ذاهبون الى استريو الهرم بصحبة الأصدقاء ، قلت لها إننى أعرف مكاناً أفضل وأناسا أفضل ، وإننى حملت بالأمس أنتى : (كنت أجلس فوق ذؤابة « جبل ايدا » وكنت تجلسين فوق ذؤابة جبل « بيرجاموس » وحملت « أرتميس » ربة الريح حديثنا وأعطينا نسائم عطرية فالتقينا تحت صفصافة « زوس » الشهيرة ، وكنت تلبسين ثوب باليه طرزته « أثينا » ذات العينين النجلاوين ، وظللنا نرقص على أنغام « أبولون » وكان « بوسيدون » رب البحر يقذف بالحصى والأحجار من البشر تحت أقدامنا) : بشر من هذا النوع — وأشرت إلى شبيه فؤاد المهندس ، وقالت : إنها تفضل استريو الهرم ، ولم أجد مفرأ من أن أعلن غضبى وأقف غلياً مكانى معلناً أنتى سأهبط : المحطة القادمة ، وقالت له وهى تبسم : إننى أركب رأسى دائماً .. ودائماً عنيد ، وقالت إنها سيئة البخت ، ووجدت الشاب يضع يده على كتفها ويلاطفها لتكف عن البكاء ، ونظر إلى وأفهمنى أنتى حيوان ، وما هكذا تعامل بنات الناس وأنتى لست « جنتلمان » وأنتى أيضاً جاهل (كان يقصد أن الطقس رائع والشمس صحو واليوم جميل وربما الريح مواتية) ، والحقيقة لقد فاضت نفسى ، ولم أعد أحتمل (لو كان الشاب

ضئيل الجسم لمزقه) وقررت أن أهبط : المحطة التالية مباشرة ، (كانت قد فانتنى ثلاث عطات بسبب إقناع صديقتي وسماعى لكلام الشاب الرقيق) ، كان الأنوبيس قد توقف وحاولت أن أخلص نفسى من الوسط ولم أفلح — كنت قد تزحزحت حتى أصبحت قريباً من الباب ولكن الأنوبيس تابع سيو فقررت أن أهبط المحطة التالية مباشرة ، وعندما توقف الأنوبيس حاولت الهبوط وزاد أملى عندما وجدت شخصاً هائل الجسم يدفعنى إلى أمام — لكن : ناس كثيرون ركبوا من هذه المحطة مما جعل الشاب الهائل يدفعنى بشدة إلى جانب ويهبط ، وصحمت ضحكة الأربعة من الخلف (مؤكداً أن فؤاد المهندس قال نكتة) ، صاروا ستة .. سبعة .. كان كل من فى الأنوبيس يشاركون بالضحك .. ضحك .. ضحك ، (جيوش أثينا تزحف ، والحالد يرعد من فوق أولمبيوس ، والبحر ينظف نفسه : أندروماك حزينة .. بنيلوى تنتظر ، سهم باريس جميل طروادة — فى كعب أخيل ، وسهم أخيل — أثينا — فى صدر هكتور — طروادة ، وسيف هكتور يحضن الجيد — درع اثينا — إين تيلامون ، سقطت عشرة أعوام .. سقطت طروادة — ها هى المشاعل تقول يا تليماخوس الصغير ، وعشر سنوات للعودة يا أوليس : اثاكا جميلة .. اثاكا جميلة .. اثنا ..) ، كنت أضغط نفسى لأبكى ، ووجدتني أغرق — أنا الحزين — فى الضحك .

الوارث

سرق مطواة جدى : ذات الحدين .. والمصدقة بناب الفيل ، أخفيها وسط
حبات البامية اليابسة ببطن الجرة المكسورة الرقية — حتى لا يراها خالى عندما
يزورنا فيأخذها .

قالت أمى : لقد أخذ خالك كل شيء تركه جدك .. وميراثنا أكثر من
قيراطين يدفع إيجارهما .

كانت تنقل الأربعة اللينة من الظل إلى بقعة مشمسة على السطح ، قالت ؛
إننى لو كبرت وصرت شيئاً آخر غير أبى لأخذنا كل ميراثنا من خالى وهو أكثر
من المطواة والقيراطين بكثير ، وقالت : (إن أبى كان متساعاً عليه الرحمة ..

حين رأتنى أطلع النخلة ورأت بحزام قميصى مطواة جدى ، خبطت صدرها
خبطتين خالفتين ، ليتنى لم أحصل على المطواة من خالى — هكذا صرخت من
أسفل ، وحضنت أنا عود « البكريه » نخلتنا بصدري وكلتنا ذراعى ، كانت تخاف
على من « البكريه » فهي عالية عالية .. وأمى ليس لها فى الدنيا غيرى ..

قطعت جهديتين من « البكره » بمطواة جدى .. وصنعت شبكتى المثلثة .. جعلت الرفاعة على شكل صليب .. وخطت فى تجويف المثلث ثوباً من الدانتلا — كان لأمى ولم تلبسه إلا ليلة العرس .. جعلته مستطيلاً وخطت قطعتين فيه ..

لم يعد قلب أمى — بعد ذلك — ينخطف بعيداً : حيث المقابر وأنى ، فقد كفتت تماماً عن طلوع البكره .. عشقت صيد السمك من التربة التى تمنع البيوت ، أمى هى التى حصلت على « القرعة » .. تطفو فوق سطح الماء وأتعلق بها .. أحضنها بكلتا ذراعى .. هكنا على صدرى .. وتظل تسبح لى ونطوف حول البيوت والماء يتقافز خلفى .. أصنع كل ذلك بتحريك الساقين ..

هناك فوق سطح الماء يطفو الجسم .. يكون خفيفاً كهشة حمامة ، أضرب الأمام بقوة الذراعين .. والخلف بكلتا الساقين .. أسمع صوت الماء يملأ أذنى .. بذلك يصبح بعيداً ولا يهتئ نداء جنيات القاع .. وأكون قد أحسنت العوم .. ولا يطر قلب أمى شاردأ بين القبور والأرواح السوداء بحثاً عنى ..

كان الماء يتسرب من ثيوب الثوب ويبقى لى السمك الصغير .. يتقافز دائماً .. وأكون حريصاً من جئائى ألا يطول الماء .. عندما يسقط بكيس الشبكة السفلى — الرائد فى الماء — يكون قد يمسي ولكنه يظل يلعب .. وأبسم أنا : فساً أحفظ به طارجاً حتى نهاية اليوم ..

حين اصطدت تلك الشبكة الكبيرة : ظلت تفتح خيشومها وتغلقهما ، كانت عيناهما معلقتين تألتهن تلوران فى الحجر — ولكنهما كانتا مشدودتين إلى نقطة ما فى الفراغ الواسع .

غرفت بالكفين من طين الجرف وصنعت لها حوضاً .. ونقلت إليه الماء ، كانت تسبح فيه ورأسها مرفوع دائماً إلى أعلى .

وقد وصلت بيتنا : كانت هى قد كفت عن الحركة تماماً — وإن ظلت العينان مفتوحتين .. كلما الخيشومان ، وكانت العينان ترقان بلمعة غريبة .

شوت أُمى نصفها .. وصنعت من النصف الآخر « طاجن » متبل .

بالليل : جاء خالى لزيارتنا ، أكل من النصف المشوى ، ولم يقرب الطاجن .. كانت معدته مريضة من حوالى العامين — قال له هنا طيبب الصحة ، قال خالى : هكذا أنت شقى ، وأعطاني قرشاً . قلت لأُمى — بعد أن مشى خالى : عندما أصبح كبيراً لن يعطينى قرشاً .. حتى ولو اصطدت التماسح الذى أكل لحم « هنية » الأيضى ، وافقتى أُمى .

فوق السرير الجديد على السطح كنت أحوار النوم كعادتي : وكان ينزلق بمساعدة شعره الخبرى الناعم ولكنى كنت ألس شعر بطنه الخشن ، تشاغلته عنه بالسماء الدوارة وحاولت عد النجوم : كانوا عشرة وعشرة وعشرة ، ثم توقفت عن العد ، فكرت فى هنية زوجة « الجسمى » ، وجدها نائمة مع خولى عزية « بدران » ، كانت هنية عارية تماماً ، وكان الخولى عارياً تماماً ، قتلها « الجسمى » ، وقتله ، لف هنية فى ملابس الخولى ولف الخولى فى ملابس هنية ، حمل الجنتين داخل شوال كبير ورماهما للسك الصغير والكبير وديدان الماء — ولكن التماسح أكلهما . وطالت لحية الجسمى وطالت أطافوه وطال شاربه وغطاه الشعر ولم يعد فى حاجة إلى ملابس — هناك حيث يعيش شاردأ فى البلاد البعيدة .

كان الهواء الساخن يرقد جامداً بلا حركة فى الجو من حولى .. وكان رأس الجسمى يطل من فوق غخلتنا شديد السواد .. وكانت عين الشمس المملوءة بالجمر الأحمر قد تقلبت كثيراً على سطح بيتنا ذاك النهار .. وأشعلت الجدار الملاحق لجانبى الأيمن ، لكنى كنت أرتعش كفرخة مذبوحة يسكين ذات حدين ، كنت أحس جسمى بارداً .. وكان قلبى يتقافز بين ضلوعى .. خفت أن يطير بعيداً عنى : حيث القبور وأنى والأرواح السوداء واليوم الناعق والجسمى الشارد .. صرخت وانغمست أكثر فى حضن أُمى ، قلت : هى غيوم سوداء وكثيفة تتحرك أمام مقلى العين ولا يعود الإنسان يرى .. أليس كذلك أصبح ميتاً ؟! ، قالت أُمى : حتى متى أظل صغيراً ، ضمتنى إلى صدرها وظلت تمشط شعرى بأصابع يديها المرتجفتين ، قالت : متى تكف عن هذه الأحلام لتحمى نفسك من الكروايس السوداء ؟.

طاحونة الشيخ موسى

كأى رجل تزوج . تزوج الخواجة (يسي)
وكأى امرأة ولدت .. أغيب زوجها ابنيها (نظير)
وإذا كان الله وحده هو الذى يعطى ويأخذ — فقد أعطى الله كثيرا وأخذ
الكثير أيضا ماعدا — نظير — فقد أبقاء الله ، ليأخذ من الدنيا نصيبه .. ومن
والله اسمه ولقبه ومتجره الوحيد .

كان نظير يسي شبيها بوالده تماما — ومن شابه أباه فما ظلم — تاجر القربة
والمتمصرف فى تمهينها من شأى وزيت وسكر وغلل وما يستجد من أعمال ، تناول
الذكان بحرص والده .. لم يطل له سقفا ولم يعلق لافتة ، ولم يعط الأقة أقة ولا الرطل
رطلا .

دورة الأيام وحدها ، وتعاقب الخلف للسلف هو الذى غير من الخواجة نظير
شيئا ما .. ليجابه به أصحاب العقول المتفلسفة — على حد قوله — اشترى راديو
ملركة (صوت العرب) صغيرا؛ وعددا من علب السجائر الفروط وورق البفرة
والمعسل ، وبمدها — جاء بصندوق للحلاوة الطحينية . وأمام الشلة التى تكبر
يوميا لسماع القرآن ونشرة الأخبار .. استعمل وأبور السيتو والكنكة لعمل الشأى

وتوزيعه لقاء نصف قرش للكوب الواحد .. لا يستثنى من ذلك أحداً سوى (سُتى أبو سيفين) خفير الدرك والذي يقع في دائرته متجر الخواجة نظير ، وعملاً مبدأً للمرحوم والده — فكر تكسب وفتح عينك تفرق في بحور الذهب — فكر الخواجة نظير ونصف عين فقط عثر على ماكينة طحين نصف عمر .
وبعدما جاءت المتاعب تباعا .

ما أن اكتمل البناء وجاءت المكنة ، حتى هاج هياج القرية ..
صحيح أنه ليس بالبلد طاحون واحد للغلال وأن النسوة يذهبن (بخبرة كل يوم) إلى المدينة ، وجنّيات ستدخل جيبه ووداعاً ياقروش — ولكن — ماذا يفعل للشيطان ؟ ما الذى ركب عقل القرية ؟

بسببه سيضيع شهراً استغرقه البناء .. ومبلغاً وقدره في شراء ماكينة (خليل يه أبو زيد) وجنّيات مضمونة ستدخل جيبه . بنشكر ربنا ونحمده ع النعمة صبح ومسا .. والشيطان ما العمل فيه ؟ ما العمل ؟؟

أبحصل فيه كل هذا مجرد أنه يهد أن يوفر للقرية طول المشوار ، ويربح نفسه من فلسفة مستعمى نشرات الأخبار وثومة وحليم وتلحمة « سُتى » خفير الدرك ، ولكنه هرب من المعصر ليقع في الطاحون — كما يقول المثل ، اش فلسفة .. واش حواديت تحكى .. وكلام فارغ عن قرن التور الى شابل الدنيا ، قال كلام كثير .. ومن يسمع ، استشهد بكلام ناس عقلا .. ولا حد قاله انت فين .

يا خلق باهوه ، حانقصر المشوار للبنر ، والطاحون أهى في بلدنا ، وزيتنا في دقيقتنا ، وربنا يكفيننا شر الحوجة .

— أولاد ايه اللى ترمى داخل المكنة عشان تدور .. بالشرف الكلام ده مالهوش أساس ، أنا حاشغل أسطى عنده عشر سنين خيرة .. حيلور المكنة بلون عيل يرمى جواها .

. وتصطلم كلماته بالخاطب الأخرس ويتردد صداها رجفة بقلوب أباء يعبدون الأبناء . وأمّهات يفضلن تعب المشوار وشقاء العمر ولا المصيبة في الولد ..

والعمدة يلعلع بكلماته ويقذف بيده في وجه الخواجة نظير وكأنه نذير الشر .

١٠ ياخواجة أنا مسؤل هنا عن كل روح في البلد .. مايلزمناش مصايب ..
كفاية الى بنشوفه في البندر من المأمور ووكيله .. احنا فاضيين لايه والآ
إيه .. مش كفاية الخناق على المية والزرع وسرقة الدرة ؟؟ يعني ماهو احنا
من عمرنا بنشوف المكن مايلدورث إلا اذا أكل عيل صغير .. مش كل
المكن يصرخ (توت .. توت ..) يعني انت حاتفيو ياخواجة نظير ..
والا ماهو احنا بهائم .

ويعصرخ الخواجة نظير :

١١ ياخالق ياهوه .. الطاحون حتدور قدام عينيكم .. شقوها وبعدن
اتكلموا .. أنا صرفت عليها دم كبدي .. شهر بنيان ، ومكنة بالشئ
الفلاني ، وشقا العمر يضيع .

ويهمز الحائط الإنسان في قسوة وترطم شفاه ، وتنخلع القلوب على الأكياد ،
وتتلاطم الأيدي وكأنها تطلب رأس الخواجة نظير .

ويعلو صوت الخواجة ليكنم الصيحات :

١٢ المكنة قديمة .. قديمة ياناس .. يعني لازم أقول .. أدبني قلت ..
ارتاحوا .. اشتريتها من خليل يه أبو زيد بتاع البندر .. مايلزمهاش عيل ..
قديمة .. مكنة قديمة .. ارتاحوا كله .

وردد واحد في تساؤل مرهب :

١٣ إيه اللي خلّاه استغنى عنها ؟ لازم عطلت وعمايرة عيل تالي .. ماحناش
هبل يا خواجة — وينري الخواجة نظير ليسكت الصوت الشيطاني
ولكن واحدا ينسلخ من البناء الآدمي ويزعق :

١٤ مش معقول المكنة تدور من غير عيل .. بلاش منها ياخواجة .. ش ^{مكش}
ياشيخ موسى .. الشيخ يقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة .

وتنتاب البحر الإنسان نوبة صوفية ، فيهم في سماء المجهول والرجفة تأكله ،
ويعصمص الخواجة شفثيه ، ويأخذ وجهه وضعا غير متماسق ، ويفتح عينا واحدة
يزن بها المكسب والخسارة ، وينظر إلى محدثه خشية أن يخرج من يثر هذا الكلام
فتكون نهائيه .

— (يا دنيا .. قال الشيخ موسى .. يا ناس الواحد فيكم تأكل ضهو الشمس لغاية ما يتلايم على اللقمة .. يقوم يشتري باكو معسل لمزاج الشيخ ، يحرم نفسه من فردة حمام ولا فرخة مريها .. ويطفحها للشيخ ، وجعتم دماغنا بالشيخ .. الشيخ .. الشيخ .. على مين الشيخ بتاعكم دا ؟ .. هو الشيخ موسى وأنا نظير ولد يمى .. الطاحونة حششتغل .. برضاك وغصب عنك ياشيخ موسى . عايز من ناس البلد إيه ؟ معسل وأكل ؟ يا أخى الله يرزقك ويرزقنا . كله عايد عليا وعليك وعلى الولد من بعدى .. طيب أنا حاخسر النهاردة — لكن بكرو بدينى كله مكسب .. كله ذهب ، عايز منى إيه ؟ .. لفة معسل وأقة حلاوة .. حاخذ مملك .. كله يهون فى حب الولد والمال .. دى الطاحونة ذهب .. ذهب ياخلق تبنانة ، وبالشرف من بيتى بعد سنة لأنبيلك عمارة فى اليندر يا مفيد يابنى .. وبس تكبر ما يرضينى بنت (اندراوس باشا) عروسة ليك ..

وأفرج عن ابتسامة مكروبة ، وفتح كلتا عينيه ، ودار بالحشد القانع بالنصيب :

— (رضينا بالشيخ يا جماعة .. أنا واثق والعملة نروح له .. ياناس دا كله بركة .. قدمه تدخل الطاحونة ونعمة رتنا نحل فيها وتشغل .. المكنة مايلزمهاش ولد لو دخلها الشيخ .. مدد ياقطب ياكبير .. مدد .. كراماتك ياشيخ موسى ، دا له ندر عليا من زمان .. من يوم رتنا مارزقنى بمفيد .. حاخذ له لفة معسل وأقة حلاوة طحينية .. وأنا أقطع إيدى لو المكنة ماشغلتنش .. دا كله بركة ..

وهزول إلى الدكان ويخرج ويده اللفة ويتبعه طابور صامت إلى الشيخ موسى ، فعنده الحل والخلاص ، ويستأذن على الشيخ ، وينطقها الشيخ كالتبلة :

— النبى قبل الهدية .. لكن المكنة لازمها عيل صغير .. ويرتجف الخواجة نظير ..

— بركاتك ياشيخ موسى .. مددك واسع .. قد الدنيا .. مقامك كبير وتحصل .. بس انت أدخل الطاحونة وكله ينفك لجل خاطرك .

ويمتد تيار كهري من فم الخواجة نظير يسرى فى الجمع ، وتردد القلوب الخائفة على الضنا الغالى :

— ياواسع المدد مدد .. كرمك يا حاضرة الشيخ .. عشان خاطر قبر النبى
حيبك .. ويطلع الشيخ موسى يرقه مرات والخشية على نفسه ومقامه من
الأسطورة التى ستحطمه ، وفى رأسه طفل ممزق الجسد .. دمه يسرى فى
تروس المكينة الملعونة .. والصرخات التى أفزعت طفولته الساذجة (..
توت ... توت ..) والصيحات تستعطفه فى إرغام .. وساقاه مدفوعتان
إلى المصير فى زحف أسود .. مقيت .. كويه .. ولا فكاك من النهاية ولا
سبيل إلى الخلف : الجبل البشرى خلفه ، والبحر الأسطورى أمامه . ومن
بعيد قبة ملعونة رأسها فى السماء .. ستصبح فيما بعد أعشاشا لغيران
الخراب التى ستنهش لحمه وتصدد إلى فوق .. فوق . والأسطى قلر ملعون
كالشيطان الذى ركب عقل الناس — هذا اليوم — وابتماسته قاهرة ..
ويده صلبة هذا الملعون تشد الذراع فى لفات سريعة واثقة ..
— وبها واسع الكرم ، وبها ..

وتصر الثوروس فى طحن مكتوم من قلة الزهت ، وتشند القرقة وتعلو الصرخات
(توت . توت .) وتلعلع زغرورة .. وتبهمهم شفاه بالخلاص .
— مدد يا شيخ موسى .. ياقطب .. ياواسع المدد .. مدد .

ويتشعل الخواجة نظير على أكتاف الزفة ليعلق لافتة كبيرة بأعلى الجائط :
(.. طاحونة الشيخ موسى ، لصاحبها الخواجة نظير .. وابنه مفيد ..) .

محبوب الشمس

غرس محبوب قبضته الصغيرة في مجرى الميضة ، وقلب
طبقة من الطين بمحجم كفه ، ومضى يفتش بأصابعه النحيلة
عن الدود .. ألقاه في كوز من الصفيح .. ومضى صوب
« ترعة الدم » شرق البلد . حاملا كوز الصفيح بيد وحاملا
باليد الأخرى عودا من الغاب ، بطرفه خيط ينتهي بسنارة من
نوع الملب الصغير .

ومحبوب في الخامسة عشرة من عمره .. قصير جدا .. ونحيل جدا .. أبيض
شعر الرأس .. وكذلك كان لون حاجبيه .. ومن هنا كان الشيخ كامل إمام
مسجدا أبو عوض يتأمله في صمت المؤمن .. ويدور في فلك الحكمة الالهية التي
تنبت الدود في بطن الحجر ، والتي أثمرت هذا القرعة من والد طول السيمافور وأم
في حجم الدوفيل .. والحاج خليل والد محبوب طويل في إفراط .. وصاحب شعر
في لون الليل الشتائي .. والحاجة نفيسة زوجته غنية باللحم والشحم . وتلك ثروة
من الشعر الأصفر كسنايل القمح المستوية .

كانت القرية برجها ونسائها وأطفالها تأتي أن تدور في فلك الحكمة الالهية
بصمت ..

رؤية محبوب كانت تبث فيهم السخية .. وتدفعهم إلى الضحك ، وعلم قدرته على مواجهة ضوء الشمس .. دفعهم إلى أن يطلقوا عليه « محبوب الشمس » لا « عدو الشمس » كالعادة إمعانا في الذع التسمية .

وقد أغضب هذا اللقب محبوب من أغلب أهل البلد وجعله يحتمي بيته في أكثر الأحيان .. مما أغضب بلوره الحاجة نفيسة ، التي شكت للحاج خليل .. الذي حمل تكثيره للشيخ كامل إمام مسجد أبو عوض .

— ده غيل برضه يا سيدنا الشيخ .. واللى يكسر بخاطره يكسر رينا بخاطره .. وخطبة الجمعة ترد عقل المجنون .

ورجع بترضية الشيخ إلى الحاجة نفيسة ..

— يا حاجة الشيخ ييقول : « الرضا بالنصيب زى عمل الطبيب تمام .. ويا بخت من يصبر على المقسوم .. » وأضاف من عنده : « الناس حتلاق إيه تنبسط يه ، ما العيشة غم في غم .. خليه يضحكوا على محبوب يمكن لقوا مصابيح فيه »

ولما لم تنفج أسارير الحاجة ، ضغط الحاج بسمه مكروية .. أفلتها في حينها تملأ تجاويف الدار ببهقهة جوفاء : « بذمتك يا حاجة مش برضه راس محبوب شبه لوزة القطن .. شعرو الأبيض مش قال خير .. »

واكتفت الحاجة يومها بنظرة حنان هدهدت بها محبوبها الصغير ، أعقبتها بحسرة ملتاعة على عودة اليايس المصصوص بفعل فاعل .

واستمرت ضحكات السخية تطارد محبوب .. فلا خطبة الجمعة ولا غضبة الحاج خليل ولا مقاطعة الحاجة نفيسة لأغلب نساء القرية .. أوقفت مخلوقا عند حله ولا أعادت لمجنون عقله .. شيء واحد وهو الذي أخرس الأسنن وألمات الإبتسامة .. عندما غابت الشمس عن محبوب وعن القرية .. والتف الضباب الأسود بالسماء كالعليق الحشري بجملوع النيات .

غابت الشمس .. فطلع محبوب .. واختفى الناس كأنما ابتلعهم الأرض .. كان محبوب سائرا في طريقه والحقول خالية من الفلاحين .. وأعواد القطن منتصبه جافة من الحياة .. وقد انكمش اللوز بأعلاها كاليتيم ، وتحت الجميزة ..

كان مسعود خفيّر الجمعية التعاونية مستقليا على ظهوره وعيناه معلقتان بالفضاء
الأسود الكريه المسقوف بالهياي ، لم يكن منتبها لمحبيب الذي دبت قدمه في
الأرض بتشفت. وإصرار .. وما أن نظر إليه مسعود حتى أخرج له لسانه ، ومضى
في طريقه غير مكترث به وهو يرقص . وجمدت قدماه على كلمات مطاردة وكأنها
أوتاد ثبتته بالأرض :

— إحجل .. إحجل يا محبيب الكلب .

وتطلع بوجه خال من الحياة إلى مسعود ، وقلقه بكلمات سباحة :

— يا حسرة ما ضاعت السلفة على الجمعية .. حارس القطن ولا السلفة
يامسعود الميرى ..

ولما لم يرد مسعود ، شبك محبيب يديه في جذعه .. وتثنى في سخرية
كالخنظل ..

— يا عيني على القطن .. حاله ما يهونش على الكافر .. خسارة السماد
والقناوى .. إلا قوللى يا عم مسعود ، ما تخلوش قطن البلد وترحموا أبوها
من السلفة ..

ولما لم يرد مسعود أيضا ، مضى في طريقه قفزا صوب التربة .

ولا يدرى محبيب لماذا لم يرد مسعود ؟؟ لماذا لم تحركه كلماته رغم ما فيها من
قسوة ؟ لقد قال له « محبيب الكلب » وسكت .. ولكنه رد إليه الكيلة أردبا ..
أغلبه مسعود « بمحبيب الكلب » هذه ؟؟

وشاط صبره من جديد .. وتصاعدت إلى فمه مرارة الكلمة .. واندلعت في
رأسه سخرية الماضي التي ألزمت البيت ومحبيب الشمس .. بالأمس فقط كان
محبيب الشمس .. واليوم محبيب الكلب .. لم تعد هناك شمس حتى يصبح
محبوها .. كلاب تعوى فقط في اللانهاية ، ودار يبصره في الفضاء الميت وتبشته
الحسرة .. كلاب فقط تعوى في البعيد .. هو محبوها .. ذهب الناس . ابتلعهم
الأرض .. اختفت الشمس ولا يدرى أين ؟؟

وسقط كوز الصفيح من يده .. وتناثر الحديد .. وتلوت واحدة منها نحو
الشرق .. من نفس المكان الذي تطلع منه الشمس . وأخرى زحفت نحو
الشمس .. نفس المكان الذي زحفت إليه منذ عشرة أيام فاتئة ولم تعد ..

وماتت رغباته في أن يذهب إلى التربة .. وفرقع صوابه العشر .. واحد ..
اثنين .. ثلاثة .. سبعة .. عشرة .. وهكذا مر عليه اليوم الأول بمثل فرقة
الإصبع .. ومر الثاني .. واشتد طبول الصبية تستجد بالرب وتستعطف
الشمس (.. يارب .. يارحم .. طلى ياحلاوة طلى .. يا أخت القمر
طلى ..) .

بلغ اليأس نف الرجاء .. وبلغت الدور أهلها .. ماتت الفرحة .. واختفت
نظرة المصاطب وسهرات القمر ..

أصبحت القرية كلها ملكا له .. بأرضها وفضائها وكلاهما .. لا همة ولا
ناس ولا شيء .. عشرة أيام كاملة وهو يخط طريقه إلى « ترعة الدم » شرق البلد ..
ليصطاد أو لا يصطاد .. ولكنه منهوئ والى السلام .

دار رأسه كالمرجحة .. وبلغت الدور لعينة كمقابر الموتى .. دارهم قبر يحمل
أعر الناس .. (أمه وأبوه) ، (أبوه) ميت حتى ككل الناس .. في حاجة إلى
رمانة يحملها (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. و (الرمانة) كنز ..
كالقطن لو تفتح عنه اللوز .. متى يرجع (الشاطر حسن) من (جزيرة
الجان) .. وعلى كفه (الرمانة) .. (رمانة) تحمل كل لوز الدنيا .. والشرط
اللوز بغيره .

وأمه الحاجة نفيسة لم تعد تحكى حكاياتها عن الشاطر حسن .. ولم تعد تخبز
عيش القمح .. وغيف القمح لا يخمر إلا اذا طلعت الشمس ، عليه أن يأكل
عيش اللوز ما دامت الشمس لن تطلع .. وستأكل القرية معه عيش اللوز ما
دامت الشمس قد احتجبت من أجل خاطره ..

وسأل نفسه السؤال المثير .. والذي يتوه في فهمه أجدع عقل في البلد بما
فهم (عبد التواب أفندي) المدرس الذي يقرأ الجرنال .. ويسمع الراديو ..
ويناقشهم في عيشة (زمان) وعيشة (اليوم) ..

قد يفتح (عبد التواب أفندي) كل البلد بأن اليوم أحسن من امبارح .. وقد
يفشل همومهم بوصولة تليست الطرب .. ولكن أيقدر أن يفسر لماذا لا يستوى

رغيف القمح في القرية ، إلا إذا اكتوى بنار الشمس ؟ .. أهي يحيط الشمس
اليضاء التي تدخل في جوف الرغيف فينتفخ كالديك الرومي .. ؟ .

والله الذي يريز الدودة في بطن الحجر ، كما يقول والده أليس بقادر على أن
ينفخ الرغيف كالديك الرومي .. لماذا لا يفعل ؟؟ هل هو معه أيضا ؟؟ ويبدو
(الله) .. أن يعلم القرية الأدب وقصر اللسان ويمشي كل في حاله .؟.

وتطلع إلى السماء وود لو يحرق كثافات الضباب ليرى الله .. (الله) هناك
يتربع على عرش من الذهب وتحت قدميه تجرى حقول القمح .. ويده (رمانة) لو
انفردت حبا لشفيت (شهر زاد) من علتها .. ورجعت زهرة المصاطب وسهرات
القمر ، ونفض شكواه في بأس المم : (يارب اقصف بأجل مسعود الميرى) ..
آه لو وصلت كلمته إلى قلب البلد .. سيثبون لحمه .. « محبوب الكلب » ،
ولكن ماله والبلد ومسعود وكل شيء معه : الله في السماء .. والشمس من خلف
الضباب .. والحقول المترامية بلا حيلة ، وانقبض قلبه وكأنه يشيع جنازة ميت
عزيز .. «ميت قتله يديه ودقته مع الشمس وكفنه بالضباب .. ميت ككل الناس
الأحياء الميتين المكفين بالنور .. قطعهم بفرحة في مصيبتهم .. لقد فرحوا قبل
ذلك بمصيبتهم .. لكنه لم يفرح أبدا ، لأنهم لم يخرجوا من دورهم ليشركوه
فرحته .. الأهم لم يخرجوا ؟ وتبه وكأن التساؤل خرج في غفلة منه : يخرج الناس
ليختاروا له واحدا من اثنين .. محبوب الشمس أو محبوب الكلب .. أكتب عليه
هذا ؟؟

وجلس على الأرض وانتزع عودا يابسا من القطن ومضى ينثر الورق الأصفر :
الشمس .. الله .. مسعود .. رغيف القمح .. والجنازة .. الله . واختلطت
الكلمات والصور ، نظر إلى فوق وتمجرت عيناه تعل صدر السماء .. وكسا نور
عينيه ضباب كثيف ، دب قلبه وشاط صدره من الخيف : « ملعون أبو الدنيا
ومحبوب الكلب ومسعود الميرى .. والترعة .. ودود الميضة ، متى تطلع الشمس ؟
عشرة أيام .. حذاشر .. والقمح في الصومعة .. والصومعة في السماء .. إن لم
تطلع الشمس .. سيرعى السوس في السماء وسيأكل القمح .. ولن ينتفخ
الرغيف كالديك الرومي » . وتبني لو يصعد إلى السماء .. لو ينزل ملك .. ملك
يحملة إلى فوق .. لو يقابل (الشاطر حسن) .. فيساعده في العثور على
الرمانة .. ينفض معه الغيم ويفتش عن الشمس .. يفتش عن الرمانة .. وتندفق

شلالات الخير .. ويتأثر حب الرمان .. وتجري أنهار القمح .. وتستحم
الصبايا .. يحتضن (الشمس) .. يحتضن (الرمان) ويلور معها من الشرق الى
الغرب حيث تغيب ويحملها في الصباح .. ويلور بها كل دروب القرية .. ترفه
طبول الصبية بنداءاتهم الحلوة .. (يا أخت القمرة طلى .. طلى بالحلوة طلى) ،
هنا : تعصر أمه الغروب .. وتصبغ له شعوه بخناء الشفق .. وهنا : يقف في ثبات
ليواجه ضوء الشمس ، مخترقاً صدرها في عناد ، يرى ما بداخلها من
(حواديت) .. ويحكى للناس ، ويتسم لابتسامتهم .. وماله .. ما أنا (محبوب
الشمس) .. يقولها وقمه يلوك لقمة من رغيف القمح .

ليل الشتاء

- الصبح رياح يا سيد .
شد عليه الغطاء وفتح من محته :
— حاضر ياما .. حاضر .
- أزاحت عن قدميها حرام الصوف وأبعدت « نوال » عن ركبتيها . بكت البنت
فضربتها بيطن يدها :
— سد .. ولا التونو يعمل عمالك .. شوفي البنات اللي في منك ..
- قامت .. تحاملت وقامت ، واقتربت من سرير ابنها — أزاحت عن رأسه
الغطاء وقبلته .
— الصبح رياح يا حبيبي .
زام — قبلته من جلده .
— الصبح رياح .
- لم تفعلها طيلة الخمس سنوات الماضية ، كانت تقضى كل نوائجها في
النهار ، وعندما تغرب الشمس تجلس على سريرها ، تلف قدميها بنصف الغطاء ،
تحكى « لنعمة » « حلوة » .. تقدم ركبتيها « لنوال » فتنام عليها .. عندما يأتي

أبو سيد في أعينيات الليل كانت تكلمه من تحت الغطاء :
— الأكل عندك في « القليلة » إن كان سائق سخنة .

تعودت وتعودوا . بلا شكوى ولا كلمة سوء .. « الروماتيزم » علرها وكفاها
أوجاعه .

لم يجبرها أحد على القيام لتقبل « سيد » وتكرر له ما قاله على فراشها —
لكنها — أدرى بابنها من كل الدنيا .. من كل الناس . التسعة شهور بين
الضلوع ورضاع البر وفطام الحمص المصجون بالزبد وأعوامه التناثر كلها لم تغير
منه شيئا ، لم تجعل منه صورة لأمة ، الكل يعلم بأنها : ناقة .. صبور .. حمالة
حول .. سماعة أسية ، سيد شيء وهي شيء آخر ، غلوى نكد وتعيب قلب
وراسه أنشف م الحجر .

هذا ما أكده زوجها أكثر من مرة :

— ياستى أنا غريب عن البلد دى .. لأهل ولا حباب .. ولذك لازم يعرف
كده أنا مش قد حد .. بلاش أصرخ يلولية .. العلة منك .. والطب
عندك .

العله منها والطب عندها — هي أدرى بابنها من كل الدنيا .. دماغه ناشفة ..
ولابد من أن تلين ، وهي تعرف أن قبلتها لن تحول رأسه إلى « إصبع ملين » .

كما أن المشوار القصير من سريها إلى برير « سيد » سيظل قصيرا إلى الأبد .
رغم أنه طويل بسبب « الروماتيزم » ويحكم خمس سنوات من العادة — قصير
وقصير جذا في رأس سيد . رغم علمه بأنها تبذل في نهارها الكثير من أجل تدفئة
قدميها ، تجلس على السطح وتنتقل مع الشمس كاسحة الدوار بمقعدها ، كل هذا
تطليه دماغ « سيد » وتعجنه وتخيز منه كلمة كل يوم (بتعنى الشمس في
قرايز) .

زمان كان صغيرا ، عركت أذنه :

وإد .. اياك أسمع منك الكلام دا تالى .

عندما شب أفهمته بأنها أمه :

احترم من أمك وعياها يا « سيد » .

(اليوم .. في الصباح) .. كانت الشمس موزدة الخد ، غابت ثلاثة أيام
وجاءت موزدة الخد ، في الشتاء : كثيرا ما تغيب الشمس وتعود . لكنها في كل

مرة على ما رأيت « زينة » — هذا الصباح — لم تكن يمثل هذه العاقبة ، كانت الشمس أنثى شابة نضرة كما لم تر « زينة » تلك الأنوفة وهذا الشباب وهذه النضرة . مرة واحدة في عمرها .. مرة في الأربعين عاما (منذ عشرين سنة فائتة . انطلقت في بينهم زغرودة غمرت أختها الكبرى بعينها .. جرت « زينة » أغلقت باب حجرتها . كانوا يتحدثون في الخارج : « يشغل عسكري في البندر » . فتحت الصندوق « أبو عروسة » وقبلت ما يبطنه : مناديل الرأس .. القماش المورد .. زجاجات الريحمة .. أطباق الصيني ، وتناولت المرأة : كان وجهها في حمرة شمس الصباح . كانت فرحة بمجيء العريس — عريس الميرى — مرتب حكومي لحم وخضار وشحم يغطي عودها النحيل .. كان خنجل — فهي بنت وأختها غمرت .. كان كل شيء .. هنا وذاك كان على وجهها وعلى المرأة .. كان كل شيء .. هنا وذاك في قلبها وعلى خد الشمس هذا الصباح) .

رجعت الكثير زمان بخلوه ومرو ، عبت الكثير بقلبها وقدمها ، غرفت من الماضي حفئات شباب وسعادة وحرارة أحستها في قدمها وساقها وقلبها .

ضحت بهما وذاك وكل شيء وقامت ، هي أدري بأنهما من كل الدنيا ، لكي لا يطمعن ويعجن ويخبز « سيد » كلام ليس بكلام كل يوم ، ليظل كلام كل يوم هو كلام كل يوم فما عادت بهم .

لكن — سيظل المشوار بين سريهما وسرير « سيد » قصيرا قصيرا جلا . هذا وذاك وكل شيء سيطحنه وهمجنه ويخزوه « سيد » ليطعمها قلقا وعدم راحة . « لازم اعرف لازم يامه » ولد لحوح . وهي تعرف ابنها من دون الناس . لابد أن يعرف .. لابد أن تتعب هي — تقلق .. تطلع .. تنزل .. لكي يعرف ، ولكنها لاتعرف .. ولئن يرحمها ويعفيها ما لاتعرفه من أن يعرف ، مايزيد أن يعرفه .. لاتعرفه ولا يهمها أن تعرفه .

(منذ عشرين عاما انطلقت في بينهم زغروته .. غمرت أختها .. جرت .. توردت خلودها لأبها بنت .. لأن أختها غمرت .. لأنها فرحت به .. بأبيه — عسكري في البندر — مرتب حكومي .. لحم وخضار وحمية تغطي جسمها النحيل .. لاتعرف أكثر من هذا ولا تهيد (حتى عندما أصبح أبوه .. بشريط .. باثنين .. بثلاثة .. ببذلة صول .. لم تعرف ولا تهيد حتى بعدما لم يأت الخضار واللحم .. لم تعرف ولا تهيد .. لاتزيد رغم أنها ملازمت نحيلة بلا شحم ولا لحم .

ورغم هذا وذاك وكل شيء .. رغم أنها لاتعرف ولا تريد . كان أبوه يصرخ لم يرفع يده عليها طوال المعاشرة ولكنه كان يصرخ « يا ستي أنا غريب عن البلد دى .. لا أهل ولا أحباب .. ولذلك لازم يعرف كنه .. أنا مش قد حد .. مش قد حد .. بلاش أصرخ يا ولية العلة منك .. والطب عنك » ، لم تعرف مبررا لصراخ زوجها ، ابنها ولد ككل الأولاد ، يلعب ويخاف ويصاحب وليس في هذا عيب .

و .. و « سيد » يعرف أن أباه قال هذا الكلام لأنه .. لأنه مشغول بعمله ولا يقابله .. لأنه يأتي بعد أن ينام « سيد » . و « سيد » يعرف أن كلام أبوه له وليس لأمه ويعرف أن أمه لم تقل له كلام أبيه الذى هو له وليس لها . و « سيد » يعرف أن أباه يحل عقدة العقد لكل من هب ودب — ولكنه — لايقدر على حل مشاكل ابنه مع أهل البلد ، فهو « غريب عن البلد دى .. مش قد حد .. مش قد حد .. »

من هنا يريد « سيد » أن يعرف ، ومنها يريد أن يعرف . وهى لاتعرف ولا تريد .. لا تعرف لماذا أبوه « مش قد حد » ، ولا تعرف لماذا يخاف منه الناس فى البندر ولا يخافون منه فى « البلد دى » إلا أنه « مش البلد دى ؟؟ » .

(منذ عشرين سنة — يوم جاء — لعلت فى بيتهم « زغرونة » .. غمزت أختها .. قالوا : يشتغل عسكري فى البندر .. الأماس من « إسنا » .. إسنا .. ؟؟ .. لم تسأل أين هى .. لاتعرف ولا تريد ، جاء « عريس » .. ما تعرف وما تريد . كانت بنتا وجاء عريس .. خضار ولحم وشحم يغطى جسمها النحيل) ما تعرف وما تريد ..

كان زوجها يسافر ويأتى فى نفس اليوم ، منذ زواجهما .. سافر مرة .. اثنين .. ثلاثا على الكثير — لكنه — كان يأتى فى نفس اليوم . المشوار لـ « إسنا » قصير .. زوجها يأتى فى نفس اليوم . كانت تعرف أنه يذهب لبلده « إسنا » لأهله . فلكل الناس أهل . لم تطلب منه مرة أن يأخذها معه وتأتى فى نفس اليوم ، المشوار قصير .. لم تسأله عن بلده وأهله . فهى تعرف أن ماتعرفه لا تسأل فيه .. بلدها « الكرنك » فقيه أهلها . وبلده « إسنا » وفيه أهله والمشوار بين البلدين لا يكلف أكثر من يوم . يزار فيه الأهل والأحباب لكنها لا تريد . شكها أبو سيد .. صرخ .. زعق ..

— أخوكى فاكّر نفسه ابن عرب .. دا فلاح حتى مايسوى.. هو مش عارف
انه من (البحلورة) يعنى وساخة الضفر .. فهميه يا ستى .. فهميه
عشان ما يرفعش عينه لحاجبه .. فهميه .

كان زوجها ناثرا . وكذلك كان أخوها . كان نهرا أغبر وكانت حاترة . فهمي
تعرف أن هذا زوجها وذاك أخاها ، ولا أهمية عندها في أن تعرف أسباب الخناق .

تحمس « سيد » لوالده — لولاها — لطال لسان الابن وفرى لحم خاله . شدته
من قفاه وضربته على بطن كفه :
— واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك .

(اليوم) .. كبير « سيد » وقال إن الحق مع خاله وان كان خال م
« البحلورة » ف ده مش العيب كله .. العيب كله عنده هو .. فيه يامه .

عند أبيه . كبير الولد ويهد أن يعرف .. لاشئ يمنعه .. لا ضرب على بطن
يده .. ولا إخرس .. ولا شئ سوى أن يعرف .

معها الليل طويل .. تحضن .. « الجرام » الصوف وتفكر : ليل الشتاء طويل
لكن له صباحا . صباح له شمس يهب قديمها الدفء . صباح غد ، لا ككل
صباح .. صباح بشمس وكلمة لابد أن تقال ليعرف « سيد » يهد أن يعرف ،
وهي تهد الدفء .. كلاهما يهد الشمس والصباح . و « سيد » نائم ومنظر
ومتأكد .. ويهد أن يعرف ، مع الشمس لابد أن يعرف — وهو يعرف — ولكنه
منها يهد أن يعرف . وهي لا تهد الغد .. ولا الدفء بالغد .. ولا الشمس
بالغد — ولو جاء بكنوز سليمان لرفسته بقديمها . فلا شئ يعدل راحة البال
وغمضة العين . راحة البال وغمضة العين في ليل الشتاء بالدنيا وما فيها ، رغم هذا
وهذا .. ليل الشتاء . فليل الشتاء طويل .. طويل .. طويل — لكن — بعده
صباحا .

في الصباح تطلع الشمس .. تژذن الديوك .. يأتي الدفء فيتسلل إلى
قديمها .. تتركهما قنذب فيهما الحياة — تلدب الحياة في كل بيت فيتسلل
الأيام .. مع الأيام « سيد » ولد ككل الأيام .. يلعب .. يخافق .. يصاحب ..
وليس في هذا عيب . العيب يراه الأيام .. ويراه « سيد » فهو ولد ككل الأيام .

— العيب مش في خاللى ياتنا .. (البحارة) ماينعابوش .. دول بس
أعقاب .. غيبة مش م البلد انما أصلا .. الغيبة مش عيب ياتنا .. العيب
ف .. في أيها .. أنا عايز أعرف .. عايز ... صحيح .. صحيح ياتنا
العيب فيه ؟ لو طلال الليل؟ لو طلال وأكل الصباح وكل صباح لما عرف
سيد .. لما جاء الدفاء ليتسلل إلى قدمها وإلى كل البيوت ليتسلل الأولاد
ويتسلل المتاعب إلى قلبها ، ما هربت منه طيلة حياتها .. تكوم .. تكوم ..
ورسب على قلبها صقيعا لم تعرضه لحرارة النقاش مع زوجها أو أى واحد
آخر ، ست بيت في بيتها .. تحمي نفسها من كلمة هنا أو كلمة
هناك .. ما تعرفه أنهم أولادها وقى العين « سيد ونعمة ونوال » .. وما تهده
هو زوجها والبيت والأولاد . لكن عليها أن تعرف فوق ما تعرف وتهدي فوق
ما تهدي لأن ابنها يهتد أن يعرف ما هربت منه طيلة عمرها .

(منذ عشرين سنة — لعلت في بيتهم زغرودة .. غمرت أختها .. جرت
ودخلت حجرتها .. كان وجهها في حمرة شمس الصباح .. كانت فرحة بعريسها
(العسكري) عريس الميرى الذى سيحمل اللحم والخضار وسيغطي جسدها
الضامر بأطنان الشحم .. كانت خجلة فهي بنت وأختها غمرت ، كان كل
شء — هنا وذاك — كان على وجهها وعلى المرأة ، كانوا في الخارج يتحدثون ..
وكانت في الداخل تسمع — « يشتغل عسكري » .

دخلت بيته ولم تسأل .. (كان يذهب لأهله في بلده ويأتى في نفس اليوم ،
كان يأتى بلا خضار ولا لحم ولكنه كان يأتى .. والأيام أنت بشرى على كتفه و-
« سيد » البكر — لم تأت بالشحم ليغطي عودها النحيل ، صمتت وصمت
نال شريطا آخر وأنجبت هى « نعمة » .. حتى البنت ولدت صامتة كأُمها :
« ناقة .. صبور .. حمالة حمل .. سماعة أسية » .. لكن أخاها لم يصمت —
كان ثائرا هائجا — صرخ في وجه زوجها : « عملتها يا بتاع إسنأ .. شرينا المقلب
وخلاص .. أنا لما بمشى بطاوى دماغى .. لأننا م العرب عشان أقيم رأسى وسط
الفلاحين .. ولا أنا م الفلاحين عشان أقيم دماغى وسط أهل .. » صرخ
زوجها — كان ثائرا أيضا : « يعنى إيه .. أختك معاك .. عايزها خدنا .. أنا
راجل فاهم نفسى .. أنا مطلعتش السما .. لا اتجوزت عرية ولا خدت فلاحه ..
كنت عارف نفسى وعارفكم .. جمسا وبحلوة . إن كنت تجمسي فأنت مجراوى
فاكر نفسك ايه ؟

سكت أخوها وسكت زوجها وضربت هي « سيد » على بطن يده : « واد ..
الواحد بخاله وأبوه .. إغرس قطع لسانك . »

سكت أخوها وسكت زوجها ولكن الأولاد في الخارج لم يسكتوا ولسان
« سيد » لم يقطع كله في أبوه . خاله م البحاروة . (والبحاروة أغراب ..
والغريب في الكرنك بلا أهل ولا حسب .. مرور الأيام جعل البنات
(البحارويات) في عين رجال العرب وأبناء الفلاحين فكان النسب .. جرى
الدم في الدم لكن بنت العري حرام ع البحاروي والفلاح .. وبنت الفلاح حرام ع
البحاروي حلال للعري .. وبنت البحاروي حلال للجميع عريها كان أو فلاحا) .

لكن أخاها كان ثاقرا صرخ في وجه زوجها : « إنته جسمى .. جسمى .. أنا
بريء منك ومن أولادك ليوم الدين .. يلزجل أطاطى راسى وسط أهل .. دا
حرام .. ياشمخ .. روح منك لله . »

صرخ زوجها . صرخ في وجهها وهذا : أخوكى لازم يعرف إنه وساخة تحت
الضفر .. حمار يحط عليه الفلاح برعدة .. والعري يركب ويهر رجله .. مش أنا
منظم الكون .. لا كنت عايزه بحاروي .. ولا كنت عايز أكون جسمى أهل
جسسة .. وأنا صول .. كنت عايز أكون صول .. وكنت .. »

(جاء الإمام .. قرأ « الفاتحة » ووضع يد زوجها في يد أخيها وهنأت
النفوس .. حمل الإمام البطة التي سمتها لأنها حامل في « نوال » .. أخذ الإمام
البطة وجاءت نوال « ونزت » كيزان الدم ولم يعرضها مخلوق عن « حلة المرق »
لكنها كانت راضية . لقد وضع الإمام اليد في اليد وهنأت النفوس ..

— « تكرر أهل النسي له .. هاجر للمدينة .. وهاجر « البحاروة » إلى
الكرنك . قابلوه بالدفوف في المدينة .. وقابلت الرجال بنات « البحاروة »
بالدفوف .. حياة النسي سيقة .. المهاجرون أهله .. وهم عرب الكرنك وأشرف
قريش .. والأنصلر أحبابه وهم أنصلر المدينة وفلاحو الكرنك .. حياة النسي
سيقة .. جاء القوم متأخرين .

— قال النسي : « جم مسا .. كانوا يسقون في الخلاء وأدركهم المسله .. الجمسا
عرب .. عرب .. وفي الدين مبتغى الجامل .. »

أخذ الإمام البطة . وخطط السمن بالعسل .. هذا زوجها .. وكذلك
أخوها .

في الصباح سيبدأ إيجها .. وتقول له :
— أبوك جهسى .. والجمسا يا ضناها خييار الناس .. يشيلوا المة م النيل
يسقوا الناس .. بس لما اتأخروا ع النبی . قال : « جم مسا » ..
مكذبني ياسيد أسأل الشيخ » .

لو قال الشيخ ما قال يوم أخذ البطة ؟ .. لو لانت دماغ « سيد » الناشفة
فتسللت كلمات الشيخ ؟ .. مترتاح .. سيبقى البيت والأولاد والزوج ... سيبقى
كل شيء كما كان .. كما كان وإلى الأبد ..

• كل ما نخشاه .. أن تذهب همس الصباح ظنونها — لكن — ليل الشتاء طويل ،
تحضن « جرام » الصوف وتفكر : يوم جاء — منذ عشرين سنة — لعلعت في
بيتهم زغروية .. غمرت أختها الكبرى ، جرت . أغلقت باب حجرتها .. كانوا
يتحدثون في الخارج .

قاييل الساعة الثانية

— لايم .. سأكلمه .. نقرة على بابيه وأدخل ، لتكن نقرتين ربما تضيق الأروى
في دوامة الفكر ، تمام يا كمال نقرتان : ربما الرجل غارق في الأسى حتى
الأذن — الفجعة .. الجحيم .. تطلعت الزواحف لدنيا السماء (سيد
الأندية يتمرغ بوحن الاسماعيلية — الاسماعيل يسحق الأهل) دقات
الحقد بصدر المجهول ، لطفها بالغد وزحف القدر .. ما أبشع وجه
الصبح .

— لك الله يا سيدى المدير واللهم لاهماتة ولكنى متعب وفى حاجة إلى
راحة .. يومين راحة .. يومين يا سيادة المدير لا أكثر ، ماذا ؟ حاجة
العمل لا تسمح ، حالتى أيضا لا تسمح وللعمل حاجة لا تستقيم
بمجهد .. مرهق والله العظيم (ستز نفسك بالآثم .. تجلد) .

والعرق لازمة الجهد الوقور : عليه اللعنة ، والمندبل : أف — نصيحة أبو المجد
أفندى الباشكاتب :

— يا كمال يابنى انفض تراب الشارع قدام باب المصلحة ، وانت طالع خده
في رجلك .

(نصيحة عمر يابى .. مشاكلك ومعدتك لا يدخلان فى البند الحكومى ، الموظف منا حلقة بسلسلة البند .. طرفها فى السما ، الى ينبع يترص بها ، والأخروس بفضل سايه وتترى له اللقمة) .
(قرش الحكومة ياصغير لزوم القميص المكوى والجزمة المللمعة .. كلام لودنك .. المنديل لزوم الشطارة .. أسيكك بأه لحسين أفندى ولعشر سنين خيق) .

— معاك يا حسين أفندى المنديل باليد ، وحيات العرق على الجبين ، والملفات فوق المكتب بإضافات الفهم العميق للعلاقات الاحترامية بينك وبين رئيس القلم .. معناه شغل .. سبع سنوات دارها أخوك الثور المعنى حول الدرجة التاسعة مع الشغل والنفاذ وبعدها آمنت بحقيقة ... إن السجن تأديب وتعليم ، مسحت الجوخ لثلاث سنوات فلتل الثامنة وقفرت السابعة بعلاوة .. افهم يا موظف يا غشيم لأخريسودنك) — « تمام يا أخ عبد الستار » أذن معك مهروسة من حسين أفندى .. أى نعم وألف نعم .. (نر حيات العرق على الجبين : فرض ، وسنته وجود منديل ، سقوط نقطة على الورق : يبطل « الصلاة » .. ما معناه ياسيدى .. نقطة على الورق تربط حرفا بآخر ، تلضم جزوا بكل — وهذا — باطل : بشرية القانون — وحكمه : إرغام الحق على أن يتمسح بأعتاب المسعولة — لشهر .. لسنة .. لعمر كامل .. والعلم عند رى .. وما أوتينا إلا قليلا ..)

— زنهار ومليون سلام للأدمى داخلك يا عبد الستار ، لك العقل يابو المجد أفندى .. وفهمك — عال العال .. المنديل : مشكلة العمر ، العرق : أزمة البقاء ، نقطة عرق : تقسد عمرا وتقيم حياة ؟؟ يا سلام ؟؟ كم نحن مهمون .. أهمية بتناول الساعة وعقل الأدمى والحل للكرمة ..

— صباى فى عينك يابو المجد أفندى ، ورقة من ملف حسين أفندى تؤدى مهمة المنديل .. دورة السنوات العشر تسلوى شيئا ، (حالة العمل لاتسمح ، تحفظ بالملف ، البند لا يسمح ، تعل بالأمانات .)

— العرق مسيجف تحت الجلد .. ست ملوح والجنة تحت أقدام المدير .. لتسقط الأهمية ومعها المنديل وورق الملفات تحت أقدام لاعبى الأهل ..

سيجف عرق رجاله بلدنا تحت الجلد . محارة على شط النيل يا بلدنا ..
قوقعة يا بيتا .. على راسي يا بوي .. على عيني يا اخواتي .

— مجهود وتعبان يا سعادة المدير .. يومين راحة .. لا دخل للعمل .. والذى
مرهض من سنة .. دم مضغوط ضاغط يلهب صدره ، الكلمة أوقدها
ووقرها الضغط ، سابت لها مفاصل إخواني، رشاد : سقط بالإعدادية ..
عبد المنعم بدبلوم التجارة .. عواطف تزوجت من واحد في سن أبويا ،
غنى يا سعادة المدير .. غنى جدا . رغم كله رفضته .. ويمكن عشان
كله .. الاهانة من فوق لكن محدود ، الأدمية لا تباع ، قاموس الحياة
البسيطة علم أنى ما علمته السنوات العشر لحسنين أفندى — (يا بنى أنا
أدرى بشئون البيت وأحوال الدنيا .. البنت عار .. الشرف رغيث العيش .
الستر واجب .. الكرامة دين ربنا وسنة نبينا .. اتنين جتبه من مرتلك توفر
على أختك الجواز .. شاطر اعملها)

— شاطر يا بابا والبند أشطر .. الغربة مرار ، المرتب مستطيل حياقي وعقل ،
أنفاسي مكتومة وأحس بالاختناق .. فى حاجة إلى راحة .. يومين أجازة ..
أشياء لا دخل لها بدخول باب المصلحة (رشاد : سقط بالإعدادى وعبد
المنعم : بدبلوم التجارة وعواطف طلقت) .

— لابد من أن تباع مع الأرض يا أنى .. ماذا بعد — السن والفشل والرهو
والضغط والطلاق .. الكذب على الطبيب لتبلغ الصغرة سن الحلال
صلى طبيب القلب أنها تعيش من يومها خمس ساعات مع كوكب
الشرق .. كتب وثيقة الله .. ليحرق البيت والأمان بكذبة ، كذابون ،
عواطف : لازالت تحبو على أغنيات عبد الحليم حافظ ..

— يومين أجازة وسأحضر .. ماذا بعد — الرهو .. الضغط .. الفشل ..
الطلاق ؟؟ .. دموع عواطف !! سأمسحها (لندن ترعى صحة مطربنا
الشاب .. دكتور شيلا للكبد ، تاجر للمعدة ، هانت للرئتين ، فرجسون
للכלى ، وجوز للجهاز الهضمي) .

— هانت يا أنى بشارك .. شبابك لا تفصله سيطة الطرب منيق المهدية ..

أراهن بقرشي كلانا لا يملكه بأن حليم سيغسل دموع عواطف ، الزمن ..
هل فهمت !! .

— لم يعد بهم .. لايد من أن يباع مع الأرض .. كلاهما لم يعد يصلح :
إحقق تخاف مثل يا سيادة المدير .. لا قدوة لهم على افراز العرق — ست
مراوح تضي عن منديل وتقتل العرق تحت الجلد !! يومين أجازة .. مرهق
ولا حاجة بالعمل لى فلماذا لا يسمح ؟؟ السنة المالية على الأبواب ؟ ..
لندخل ؟ لندخل معها مشكلتى إلى قلب العمل ، لتضع مبالغ بسيطة
من حق بسطاء .. لا ذنب لى .. أنا المسيح ، ليحملوا صليبهم .. لماذا
سكنوا كل هذا العمر ليعلقوا المشائق .. لتسقط رأسى ولن أخسر غير
تفاهات العمر : اقرأ باسم ربك الذى خلق ... خمسة عشر مليما .. يا
بلاش .. (شهر زاد فى عنق الزجاجة) .. (من علمنى حرفا صرت له
عبدا) .. (أبو زيد الهلالي يقبل يد الزناني خليفة) (.. شاطر الشطر
رؤوف علوان يبيع الأمواس فى مؤتمر صحفى) . (الربيع أقصر فصول
السنة) .. الفصل : مائة طالب .. السنبلة : مائة حبة .. والحبة صنعت
بها الكلمة قبة — (إعدام ترزى لأنه سهى عن صنع جيوب
للبنطلون) . مس الحقيقة بطرف الحقيقة مع التعمد لإفساد الجيل
الصاعد (مظلوم والله العظيم . ليعدم سقراط وكل حكماء الآخرة) لن
ينجح رشاد أبدا ولا عبد المنعم ، يجبان الشيكولاتة أكثر من الدرس ، كل
طلبة المدارس هكنا كلابون ، الكتاب بهال والقلم بخمسة قروش ، لن
يروا النعمة أبدا .. رضا الأب : من رضا الرب والغضب من نفس
الغضب ..

— لم يعد بهم .. ليمت الآباء .. ليبهوا .. ليهنوا .. ليسرقوا .. وليفلسحوا
مكانا تحت الشمس للدع رجاله بكرة ..

— كلام ينقصه العقل — (خليلك معانا يا كمال يابنى تستند ضعفى تراعى
إخواتك ، الأرض محتاجة لك ، الخبز فى بطننا ودراعتك) يا سلام ..
دنيا .. ثلاث أفدنة مش شوية .. أوى سيد قريتا (الفدان يدخل عشرين
جنبه فى السنة ..)

— عقليات قديمة يا سعادة المدير (اترك الوظيفة) قالها ناقص العقل ، سبقه

الزمن بلورة ... لفة كاملة ، أنت عقلية قديمة يا سيادة المدير واعلرنى ..
ولكن بفهم آخر ..

— ثمانون جنبا في الشهر .. غيوك ايراده ألف ومش كفاية .. سبعة آلاف فقط هي الفرق بين دخل أم كلثوم وعبد الحليم .. على أيامك كل شيء يرخص التراب .. اليوم يباع الأدمى بالتراب ، التطور يا مولاي .. عجلة الزمن طحنت ست الحسن والشاطر حسن وعقلة الصباغ ، حكاية اليوم مشوار للقمر .. مشوار إيجيلرى للحصول على الرزيف الأبيض .. ناس كثير حتموت في السكة .. نصر الطابور يمكن .. والى يوصل يا سعده .. العمل شرف .. نيشان على صدر صاحبه .. البيوت على خد النجم .. المشاكل تفصل بضوء القمر .. مفيش حراس ع الجنة : اغفنى يا سعادة المدير من عم عبده الساعى .

— يا عم عبده افهمنى أنا داخل للمدير بأجازة .. مرهق وتعبان وفى حاجة ليومين راحة .. أزور البلد .. عطشان لشربة ماء من قلة تركها أمى فوق السطح .. لفحها الهواء الحر .. باتت في حضن النجم .. بداخل حر شديد يا عم .. خريق .. العرق كالسيل يغمرنى وليس معى منديل .

— ست مرواح كفيلة بقتله تحت الجلد ؟ أنا لم أزق يا سعادة المدير ... كل ما فى الأمر أنى مجهد وتعبان وعائز يومين أجازة .. يومين راحة .. عم عبده منعنى من الدخول .. لست مسغولا عن صحب الموظفين بالخارج .. لقد فسدت عقولهم .. جاءوا ليروا ماحدث بينى وبين عم عبده .. مناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) .. أشياء لا دخل لها بالعمل .. أشياء بيتنا .

— يومين أجازة لا أكثر .. عرق أغرق الحجرة !! وأتلف السجادة !! ست مرواح كفيلة بقتله تحت الجلد ، الفصل شتاء ؟؟ لم أكن أعرف وشرف منصبك ، ثلاثة أشبار من العرق فوق السجادة ؟؟ ليس منى ، أخيرا فهمت : سرق عم عبده الثقلة من فوق السطح ، ربما سقطت منه فأنكسرت ..

— تمام يا سيدى القاضى .. قلله شغل قنا . لقد أخذ السبل كل شىء ، البيوت والأولاد ، ومدخر العمر من حكم الصالحين ، لكنه خلف طينة سخية ، يرى يا سيدى المستشار ، لست مسعولا عما حدث .. لا ذنب لى ، لقد أفصح عما يصدر جهينة .. قلت له : سيدى المدير .. الماء يأتي من تحت .. والمسئول هو دلع الأسطوات ، هذا ليس سيلا جدينا يا سيدى .. والحقه يأتي من تحت . دلع أسطوات لا أكثر .. الرحمة لقد عودتهم على هذا ، فى بعض المصالح الأخرى يضربون بالشلوت .. ما بعد الدلع ؟ الجحيم وتطلعات الزواحف لدنيا السماء (الأسطوات ممتعون عن العمل) (العمال يطالبون بأجر عن أيام الجمع) فساد عقول ومناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) تلف الحنفيات والامتاع عن تصليحها هو المسئول الأول — هكذا أرى ، والمسئول الثانى فى صدرى ، لن أبوح حضرات الأطباء الأفاضل ، التشريح : لن يجدى شيئا ، لن تقرأوا — ما حفرت الأيام بصدرى — المسئول الثانى لن يحاكم أبدا .. القانون إن كان لى فعل غيرى .. وإن كان مع غيرى فعل . لم يعد بهم — كل ما أبغىه يومين راحة . لبيتلج الجحيم كل شىء ولكنى متعب مجهد يا سيدى ... براءة .. شكرا ، لماذا ؟ براءة حتى الثانية بعد الظهر .

— يا سادة .. يحاضرات .. المدير خرج . الساعة الثانية . الورقة بيضاء . لم يكتب الطلب بعد . بعض الوزراء ورقة بيضاء كالثلج — شوف يا حسنين أفندى .. تعال يا ابو الجهد أفندى — يا أرشيف يا قلم : أنا بكرو مسافر البلد .. مش حعمل حاجة انما حسافر .. ح أسافر من غير ما أطلب أجازة . الورقة البيضاء بتقول كده .. الحق يؤخذ ولا يعطى .. اقرأوها .. صحيح نضيفه — لكن فيها كلام كتير .. لابد أن تقرأوها فى داخلكم أولا .. الى عايز حاجة يأخذها .. أيام جمع — أيام أحد .. أنا عايز يومين راحة .. حاضلهم ...

٣٥ البتاجى

٥٢ عبد الخالق ثروت

من سبع سنوات بالتحديد ، جاء عباس دندراوى ليأخذ مكانه كموظف بالقائمة الكتابية بوزارة الإسكان والمواقع بالدور الرابع من المبنى ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت ، فى بداية الشهر الأول لم يعرف له رأس من قدم : كان يجرى مع حاجة العمل « سبيليا » لا ضابط ولا رابط .. يوما فى المستخدمين .. وأسبوعا فى الأرشيف .. وآخر فى الاتصالات ، وما أن بلغ عم « نهد » صراف الخزينة من المعاش حتى سلموه الخزينة ، وقد يكون لكلام السيد مبارك والسيد سعد مراد دخل .. ودخل كبير فى إعفائه من الخزنة ومستولية الخزنة فيما بعد وقيامه بعمله الحالى كميثاقى لحضور الموظفين وانصرافهم وملون خطابات الصادر والوارد ..

الأنهم — فقط — علمت عباس دندراوى أن عمله الحالى لا يقل مسئولية عن عمله السابق كصراف للخزنة .. وعلمته أيضا أن السيدين مبارك وسعد مراد لم يكونا حريصين على مصلحته يوم قالا : « عباس بن حلال وطيب ومستجد خدمة .. اللى بمسك الخزنة يا مفقود يا مولود .. ماترموش النار من حجركم على

حجر غورك ، قطعاً لم يكن الحرس دافعهما — ففى اليوم التالى لاستلام مبارك
الحزنة . وقف فكرى أفندى لحظة بعد أن وقع إمضاء حضوره — قدم معنى ساليه
وأغر اليسرى وفتح فمه وأغلقه وارتحف جسده جميعه مقلقلا النظارة فوق عينيه ..
أسندها بكلتا يديه ومضى مهرولا نحو مكتبه بإدارة المستخدمين دون أن ينطق
بحرف ، وفى موعد الانصراف وقع فكرى أفندى وتجهل قليلا قبل أن يمضى .. كان
أكثر ثباتا منه فى الصباح .. كلماته فقط التى سقطت من بين أسنانه المتهمشة
فتبسمت :

— « هو عباس أفندى .. قصيدى .. معنى .. حياخذ مواصلة .. واللا
يعنى .. »

كانت حجة لفكرى ليكلم عباس . وعباس يعرف أنها دعوى لوليمة كلامية فى
بطن السيد فكرى .. والحقيقة أن عباس كان تواقا لصلة صداقة تربطه بواحد من
موظفى المصلحة . والحق أيضا أنه ما كان ليرضى بفكرى هذا الواحد .. ولكنه
لزم الحرس والحرس كاملا عندما رد على فكرى :

— ح اركب م العتبة .
مشيا جنبا إلى جنب وبدا فكرى يومها ضئيلا كتملة .. قصيرا كقرع لوز
بجوار عباس الفاره القامة .. المفرد الصدر ، ضحك فكرى بلا سبب وعاجل
عباس :

— « اسمح لى انته ريفى يا أستاذ عباس .. ريفى خالص .. »
لم ينتظرو ليز أو يسترد دهشته . هجم هجوم الفجأة وانطلق يصعب مدفعيته
بلا توقف :

— يا راجل يَلُوك الحزنة تسبىيا .. اللقمة فى بقمك ترميها للكلاب تتعارك
عليها .. وآخرها تقع فى بق مبارك .. يا راجل والله الريفى ما يعمل
صملتك .. مبلوك ده جزمة قتيعة .. سواء هو أو سعد مراد ..
وكمن لمح شبه احتجاج فأنلفع ليكتمه :

— حقول ايه ؟ .. انته تسكت .. انته تعرف ايه فى المصلحة ؟ .. ولا
حاجة طبعا .. الجاهل بالسكة يسأل أهل الحى .. والسؤال مش
حرام والمعركة مش ببلاش .. المهم .. الى حصل حصل وأقول لك
حاسب : الأولى براعة والثانية تحق حمله والثالثة ثابتة ..

كانا قد وصلنا محطة العتبة ، وكان أتوبيس « ٥٥ » قد غادرها وتبعه « ١٥٥ » وهما
الوجهان اللذان يوصلان عباس لبلاق الذكور ، حيث يسكن المنزل ٣٥ شارع
البلتاجى .. كان من الصعب عليه ان ينتظر مع هذا الفكرى ساعة كاملة حتى
يأتى أتوبيس آخر من « ٥٥ » أو « ١٥٥ » .. فما أن لمح « ٦٥ » يتحرك حتى عزم فى نفسه
على أن يركبه ويهبط ميدان الدق ويواصلها لبلاق مشيا أو يركب .. تحرك عباس
خطوتين وقطع الأتوبيس مشوارا بينما يد فكرى تشده .
— مش بقولك انته غشيم .

وضحك ..

بهذا الدخان والشاى على أسنانه المهشمة وراسب اليد والعمر على صدره
ضحك — كما صرير بوابة خربة ، تمنى عباس لو داسه بقدمه ويغيطه ويغيط
الشمس من فوقهما ويكل ما لم يحبه فى عمرو .

— امبارح كنا فى قهوة الأما بالسيدة نهب .. أنا وسعد ومبارك وهلال
أفندى بتاع الأوقاف .. الى فى صندوق مبارك كشفه سعد مراد .. قال
لمبارك : « بأه اسمع أنا مش عباس .. إضحك على غيرى أنا سعد
مراد .. فاهم .. حرص على نفسك .. والله مارحك يا مبارك .. الى
له مليم فوق المرتب ياخذ . أنا بقولك أمه .. اشترى طوايع بوسة ..
دولوتى المتغطى بان .. فوق مرتب كل موظف مليم اثنين أربعة ..
الصراف ما يلدش تعريفه ويحيب العجز عنده .. الى يحصل كلنا
بنساع .. فى الآخر المليم يبقى قرش .. جنيه .. ثلاثة .. مرتب ع
المرتب .. فهمت يا ..
وضحك ..

كالظن .. كالشك .. كلعبة الوسواس الخناس .. يرقد فى الداخل ويتقلب
ويتمطى .. فيصبح للكلام وجهان وللنية الحسنة طهقان وللوظيفة عمل بأجر لا
حساب فيه لمشوار رجوع عباس وانتظاره بمحطة العتبة — وبعدما — حشر ..
عرق .. رائحة أفواه تنتظر غسل الخبث بلقمة الغداء ، لا أجر للدور الأرضى
بشقة الحاج محمود درويش أجره على عباس ومن مرتبه .. خمسة جنيهات كاملات من
اثنى عشر جنيها وستائة مليم لا غير .. من المرتب الواحد ، فقد رفض عباس
البنفى خالص .. الغشيم ألف مرة مرتبا فوق المرتب ، مرتبا ثانيا تركه لمبارك يوم ترك
الحفزة .. وترك له ما علمته الأيام الآتيات .

- قال عباس للحاج درويش :
- لو حد من الشارع رفع رجله يدخل الشقة .. عايز حديد للشبابيك ،
- رد الحاج :
- اقفل الشباك ياسيدى ..
- الدنيا حر .
- الشتاء الباب .
- ما هو الصيف بوضه جاي ..
- لما ييجى الصيف أشتري لك مروحة على حسانى .
- مش ح أدفع للإيجار ..
- أطردك -
- القانون وبهايا .
- نشوف ..

وشاف عباس .. لم يدفع الإيجار ثلاثة شهور فجاء « حजर التحفظ وبعدہ أمر الطرد » .. وتدخل أبناء الحلال أخيرا ففض الخلاف وأخذ درويش الإيجار ومصلوف المحامى ورسوم المحكمة وأتعاب المحضر .

أخذ الحاج درويش صاحب البيت لإيجاره — بعد أن أخذ عباس طريقه « للسيد مبارك » صراف الخزائنة مارا بالسيد « فكرى » واسطة الخير بينهما .

تكلم فكرى فى البداية متلجلجا .. شرح الأزمة وأكد للسيد مبارك أنه لا أمل إلا عنده ، سكت مبارك ولكنه كان عمليا ، قال دون أن ينظر لفكرى :

— يلزمك كام ..؟

— ستة وعشرين جنيه ..

كانت أم أو المفكر قال مبارك : « احنا فى شهر تسعة يبقى باقى كام على شهر سبعة ، هيه .. تسع شهور .. لا عشرة ونبتدى السنة المالية الجديدة .. انتة وبهايا يا عباس افندى ؟ عشر شهور فى ثلاثة جنيه .. ستة وعشرين جنيه تأخدہم يا عباس افندى التهاودة تردہم بعد عشر شهور بواقع ثلاثة جنيه كل شهر — دول م السلفة يا عباس افندى يعنى الواحد لو انكشف يا رب استر .. استيننا ..

ورد عباس :

— استيننا .. استيننا .. استيننا ..

قالها لنفسه ألف مرة كالوَرْد بعد الصلاة . كأنها الحزينة أبداً — كأنها صلاة الدوام .. كأنه لا حل إلا أن يقتل نفسه أو يقتل الآخر أو يعالجه الموت فيموت وتموت « استيينا » معه .. ولكن عباس يريده حل دنيا .. يريده حلا سريعاً لأنه قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات ، عندما ترك الحزينة لمبارك غير عالم بأن الحزينة مرتب فوق المرتب لأنه غشيم وريفي خالص ، وأخيراً « استيينا » ، قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات عندما رضى بهذا الجحمر الأرضى بالمبنى « ٣٥ » شارع البلتاجى ملك الحاج محمود درويش الذى لا يثوره التلويح بالتوب الأحمر .

— والقانون وهابا .

— نشوف .

عباس قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات يوم جاء ليأخذ مكانه كثمانية كتابية بالمبنى « ٥٢ » شارع عبد الخالق ثروت بوزارة الإسكان والمرافق ، يوم مشى مع فكرى حتى محطة العتبة ، يوم ضحك فكرى كالظن كالشك كالوسواس الخناس .. وسكن داخله متمدداً على راحته ، يتمطى ويتناوب ويتقلب على البراح علماً بكل سر حالاً لكل إشكال .

— مالك ؟

— صاحب البيت .

— ماله ؟

— لإيجار يا عباس افندى .

— والتخفيض يا حاج درويش .

— ارتضينا به يا بنى دا القانون .

— يعنى عايز أربعة جنيه وعشرة صاغ .

— والمية يا عباس افندى .. نسيت .

— عليك يا حاج .

— فى الوسخ بس يا بنى .. فى العقد ماغيش حاجة من دى .

— مش ح ادفع .

— والقانون .

— وهابا .

— نشوف .

ونشوف عباس فكرى .. ويرد فكرى :

— تسكن جديد تدفع خلو ويليت تلاقى .. قولها يا عباس .. قول :
استيينا .

ويقولها عباس :
— استيينا .

ولكن عباس يريده حلا سريعا .. حل دنيا — سيقول لفكرى :
— انت تسكن داخل ولم تدفع خلوا ولا تدفع إيجارا وأنا أطردك والقانون
معى ، لن أحتاج لك فى موروى للخزنة حيث مبارك . مبارك عمل يعرف
أنه لا وسط ، قالها دون أن ينظر اليك : « عايز كام ؟ » . الإيجار
سيدفع شهريا للحاج درويش دون تأخير حتى لا يكون هناك مبارك
« واستيينا » .. والحج درويش صاحب بيت ومعه القانون ، ولكنه يؤجر
بمقتضى مبلغ معين مقدما رضى به الطرفان الشقة الأرضية بالمبنى ٣٥
لباس دندراوى الموظف بالإسكان والمرافق .

لها حق لباس دندراوى بعد سبع سنوات أن يقذف بالحل سريعا فى وجه
العالم .

— يا شارع البلتاجى بسكانك جميعا .. أنت حر فى أن تقذف بماء
الاستحمام فى الخامسة تماما من صباح كل جمعة وكل اثنين — ولكن يوم
الجمعة إجازتى الأسبوعية ومن حقى أن أنام لأى وقت أشاء .. والقانون
معى — ويوم الاثنين يوم عمل ، وعمل فى الثامنة تماما ولكن قبل أى
موظف كميقاتى لحضور الموظفين — ولكن ليس فى الخامسة صباحا يا
سكان شارع البلتاجى — أنا لا أدين أحدا منكم فالقانون معكم ويمأذونه
ثم زواجكم شرعيا — أهلكم شهوى يا سكان شارع البلتاجى على هذا
المدعى محمود درويش صاحب البيت ٣٥ .. يصحرو فى الخامسة مدعيا
أنه نداء الفجر من مسجد الحى .. ولكن ما ذنبى أنا فى أن يهبط درويش
السلام فينق بملأه الدرجات .. لا ذنب لى وليتأكل النمل .. أن يدفع
درويش بالفتاح فى القفل فى حركة سريعة فجائية عددا فرقة شبه مكتومة
وإن كانت قوتها عشر زجاجات كوكاكولا تفتح مرة واحدة وفى نفس
اللحظة .. ما ذنبى والأمر لا يكلف درويش سوى قطرات من الزيت على
القفل والفتاح .. ما ذنبى فى أن درويش أعمى البصر والبصيرة يخطو
العتبة ويرفع قدمه ويدوس يوميا على كلبه النائم أمام بيته فيهرى الكلب

ويصرخ هو : اخرس نقضت وضوئي يا نجس .. داهية تآخذك ...
ماذني في أن لا يخرس الكلب ولا ينوس درويش .. أنتم شهودي يا سكان
شارع البلتاجي فهذا « قلق » براحة السكان والقانون معي وسيركع أمامي
درويش ويصلي في محرابي ويقولها كما قلت له طوال سبع سنوات :
« استبيننا » .

— وأنت يا مبنى الإسكان والمرافق الكائن بالدور الرابع من المبنى ٥٢ عبد
الخالق ثروت .. أمن حقلك على عباس دندراوي ثامنة كتابية غير ساعات
تبداً من الثامنة صباحاً حتى الثانية ظهراً .

لكن عباس دندراوي يصحو في الخامسة ، اسمعوا لستم أذكاء .. ادفعوا له
الإنجاز المسكن وسيسكن في أهلاً حتى ألا وهو حي « الزمالك » مطلقاً شارع
البلتاجي .. كما أن العمل يا ٥٢ عبد الخالق ثروت ينتهي في الثانية والثالث وهذا
من صميم عمله كيميائي انصراف الموظفين .. غير أنه يقطع المسافة من مكان
العمل إلى محطة المترو حيث يركب « ٥ » أو « ١٥ » في عشر دقائق عندما لا
يكون هناك فكري .. يضاف إليها ساعة كاملة عندما يكون هناك فلوس
وفي حالة الانتظار أيضاً — عند العجز عن حشر النفس مع العرق والرائحة الأقواء
والخبيث الذي لم تغسله لقمة الغداء .. بهذا يأخذ عباس دندراوي حقه حيث لا
حاجة لمبارك مروراً بفكري وبالخفزة وبمرتبتها الذي فوق المرتب .

وكما يسهر النائم أو المفكر .. سار مسوره الكبرى صبيحة يوم الجمعة الموافق ٤
ديسمبر ووجهته قسم ثان جيزة .. وقلبه يرجف بهواجس السعد والنحس في يوم
الجمعة . دخل على الضابط التوبجي وقال له :
— أنا القاتل .

نظر الضابط لمسكري بشرطتين وقال له :

أكتب ، وقال :

— هناك أمانات .. ؟

ووضع على مكتب الضابط خمسة عشر قرشاً ونصف ، وكتب الشرطي من
واقع البطاقة الشخصية :

الاسم : عباس دندراوي .. الحالة الاجتماعية : أعزب .. السن : ٣١ سنة ..
العمل : موظف كتابي بالإسكان والمرافق ٥٢ عبد الخالق ثروت .. السكن : ٣٥
شارع البلتاجي ..

وكتب الشرطى من (س) الضابط و (ج) عباس :

- لم قتلته ؟
- كان مشاكسا .. كان طوال سبع سنوات يلوح بإيالة المصبيان ويقول « القانون معى » .. وعندما ينهم — يركع ويصلى ويتمتع بالورد « استيينا » .. ولأنى لا أطيق الكلمة قتلها فقطته .
- الشهود ؟
- سكان شارع البلتاجى وعبد الخالق ثروت .
- أسماء ؟
- الحاج محمود درويش .. السيد فكرى .. السيد مبارك .. وربما السيد سعد مراد .
- اسم القاتل ؟
- عباس دندراوى .

الثلاث ورقات

١ - الولد

- كانت تظن أن ملابسها ..
أغلق الترانزستور وتشاغل بقمصم اضافوه ، خالس الرجل ونظر إليها : ضغط
الإصبع فهب صوت المنيع :
- رياح همالية شرقية تصحبها موجة باردة تستمر .
لم معطفه في عجل وتابع السماع .
- اسبرو صديقك .. اسبرو رفيقك ، دس يده في جيب معطفه وتحسس ..
ومع كلمات المعلق انفرجت أسلوه .
- الرشع .. الزكام .. نزلات البرد .. احلر عدوك .. باستعمال اسب ..

لم تكن بالمرية نافذة مفتوحة — أغلقها حال ركوبه بالشيش والقرناز ، ما
بينهما — ما بين الشيش والقرناز — تسلس الخارج : رجال تروح .. رجال
تحىء .. يتلفون البصمات .. الأبد لاصق بأرضية العربة والكراسى . وأعمدة نور
قائمة كالرجال على طول الطريق : تلوح بالأذرع فينفر في العروق الدم ، الأحمر

يلهب الثور ، والريح يلهبه الدم النافر في عروق الرجال .

وما بين الشيش والقراز تمتد أذرعهم .. تطاردها ريح الشر فتفر العروق ويطفئ
الدم .. ويهوى المضرب فتنتفش أكوام القطن — ليصبح كل شيء واضحا ..
عيون للقطن .. وذرات للهواء ... وصمات بيضاء ميتة على الكراسى وأرضية
العربة — لبدو الكل واضحا — النهث للطبخ والعلف لثوان الرجال .

في محطة قنا توقف القطار وركب الرجل — قبله بما تحت اللحظة — ركبت
المرأة وركب معها آخر ، لم ينتظر القطار كثيرا — سلم عليها مرافقها وفتح
النافذة بمجل وسقط في الخارج .
— يمكن تكون معاه عيشة .. قولي لعبد النبي مشتاقين .. اوعى .

غاب صوته وأغلقت هي الشباك بالشيش والقراز ، وجلست « مصرية »
قبالة ، ما أذهل « رجاء عمر هاشم » وجود الآخر ، متى .. كيف ؟ .. ما لا
يلدري ، ما يعرفه أنه ركب قطار الشلال من محطة الأقصر ، ركب القطار واختار
مكانه ولم يكن بالعربة غيو ، في محطة قنا توقف القطار .. وركبت امرأة ، كان
معهما آخر وذهب .. ذهب تاركا شوقه لعيشة وعبد النبي — معهما رجاء عمر
هاشم لمصرية .. ذهب تاركا مصرية لرجاء ، لم يكن بالعربة سواء ، ما يلدرى ،
وما كان حقيقة ، ما كان بالحالم .. هذا الرجل السمين القصير لم يكن موجودا ،
ووجود هذا الرجل السمين القصير قلب كل شيء ، ورغم أنه لا شيء هناك — إلا
أن وجود هذا السمين القصير ليس بالمرح ، عيون مطفأة فيها شيء — أى
شيء — ربما تاجر غلال . ساعة جيب مدلاة على حائط صدره ، عباءة امبيال
أصل — هكذا يسمونها في ريف الصعيد — وبهذا يعرفون مرتاح الحال ، وكا
يقولون : جاك الشم .. كالغيمة . كالمصيبة ، كالغائمة كان الرجل ، لم ينطق
بكلمة .. بحرف والجائز والممكن .. إنه لم ينطق في حياته كلمة واحدة — كما لم
يناغ طفلا وإن داعب شربه — وتلك قد تكون مهمته الأبدية ، رجل غامض
كالسر ، خالس مؤلفه البوليسى وربما قتله — بضربة ساحقة من قدمه تطايرت
ضلعفتا الكتاب ثم تباعدتا في صرير مخيف .. وانفتح باب القلعة .. واندفعت ريح

تنته خبيثة عملاقة قذفت بالرجل إلى هنا : واحد من رجال شيكاغو أولاً ملاح مصرية وعبادة نفضها والتف بها متملدا بطول المقعد مستنداً إلى فخذه كالكتاب المصري القديم . قد يكون متخفياً ، كما قد لا تقوم لظنون « رجاء عمر هاشم » قائمة . عندما يسقط القناع يظهر الرجل ، قد لا تكون له بالمرأة صلة — عند هذه اللحظة يراها رجاء ويفرس عيونه في تقاطيع مصرية ويفتش عن شئ — أي شئ يمتص هذا الفراغ : صدى النحاس وصلده يولولان بالفراغ في الفراغ وتتلوى روحه ويمتلئ المنخر . ينحنى ويطبق على ما بين الكتف والعنق ويفرغ أنفاسه ويلقى بما في منخره .. وينشق ريح المرأة ، ريحا منددة مخلوطة بالمرق ، للأنى .. لكلهن ريح منددة مخلوطة بالمرق ، طعمه لزم لم يحل بعد .. طعم لم يذقه .. غير الذى ذاق في الكب ، بلا زعاق ملعن ولا مسلومة بائع ولا دورات عشر حول سور الأريكية — الجنس بلا أستاذ يفنده — من غير دفع ولا تقدم — سيتقدم — ينحنى ويفرس شفثيه ما بين الكتف والعنق .. ويتدفق الدم حاراً .. وتولول المرأة ... ويصحو الرجل ، يبب الشيطان : دراكيولا أيبا الملعون ، بمد ذراعه ويجمع حقل ثوم في حزمة — يسحق ما بين كففين كحجر الطاحون .. حقل ثوم ، ويدفسهما ما بين فتحتى المنخر .. ويتفض جسد رجاء وتفرقه الروح .. و .. سعل الرجل . فانتفض رجاء .. ردت إليه روحه . لم ينظر إلى الرجل السمين القصير وما كان يمرؤ — كفاه أن روحه لم تفارق جسده ، يكفيه أن يسترد أنفاسه . تمتى لو أدار الراديو . وأنطلق حلقاً في سموات الست « نومة » سابحا في البعيد .. بعيدا عن الوجود .. عن الأرض والناس وكل ما هو حى (طويل أو قصير) .. يبكى وينهت على صدر الحينان .. على ألا يفرد في عينيه — فيها — يرى تيتى .. ولتيتى يعيش . كفاه ستة شهور عاشها بعيدا عنها . اقتلع من القاهرة قلب الحياة لينزرع في الصعيد كملاحظ عمل .. ستة شهور كان فيها كائنات الشوكى .. جلد قصير ولا ثمر . ملاحظ عمل بمصلحة الآثار . بلغة المصلحة « سواق أنفار » . رجال بعدد الحصى .. يرفعون الهراوات ويضربون الأرض .. يحملون حفريات تراب من مكان لآخر .. فقط حفريات تراب وهذى مهمتهم .. يلقيها الرجل منهم وهو يلهث . بعد مشوار وآخر يقافله ويستلقى تحت ظل — ينشطر صدره إلى نصفين ويلهث .. ينهز رجاء فينوح كامرأة .. ويشكو حيث لا ميرر للشكوى .

— أصل تبعان يايه .. والله تبعان .. بلاش تخصم من البومية .. أبوس رجلك .. دول ثلاثة وأهمهم .. حبل في رقتى .

رجال حالهم هكذا لا يساقون ، ليسوا في حاجة لمن يسوقهم ، ليسوا شيئا يفرض على رجاء كعمل ، يؤتى به من القاهرة للصعيد ليسوق هؤلاء ، عمل رجاء ليس بعمل ، لا قيمة فيه ستة شهور ، باللقسوة يا للسفلة ، لم يفعل شرا في مخلوق .. حتى هؤلاء .. لم يفعل شرا ليقرشوا له ثمانى ساعات بينه وبين القاهرة .. ثمانى ساعات كاملة عليه أن يقضيها في قطار الشلال مع هذا الرجل السر وهذه المرأة ليصل إلى تيتى — كما قضى ستة شهور في لاعمل .. يصحو في السادسة صباحاً ..

يتناول إفطاره في استراحة المصلحة مع المهندس ومفتش الآثار ، بعدها — يتمم على الأنفار .. أيام ويركب المهندس والمفتش العربى وهبطان البر الغربى ، يقيان لما بعد الظهر ، حسب طول الفترة التى يغيانها أو قصرها .. يرجع هو ويأخذ حقه من النعم ، ومع الأنفار يترك « أحمد أبو مجاهد » هذا الأحمد أبو مجاهد كان يظنه غيباً ، ما أن يدبر له ظهوره حتى يجمع العمال حوله ويخفى بصوت قبيح وبالكرو يسمعون .

(بقاءه انتهى ما زلت ع القوم فارس . حوت بر تونس غرايب . خلاص رجعت لك انا ابو زيد) لم يتركه مرة مع الأنفار إلا وبدأ من هنا وانتهى هنا . كانوا يسمعون غضبا فهو الذى يملك وحده قسرم على العمل من بعده . ضربه مرة بالقلم فأحس رأسه فى خزي .. وطعم هذا الخزي كان يحسه رجاء عندما يذهب المفتش والمهندس بالعربة إلى الأقصر — يقضيان الليل فى « وتر بالاس » وبأتيان آخر الليل . المفتش الشيخ يستند على ذراع زوجته الشابة وزوجه الشابة تستند على ذراع المهندس الشاب . والليل ستائر وحرمة « الله اعلم بما تحجب الجدران » كانت زوجة المفتش بطة بنية .. تطير هنا وهناك وتطير العقل . حتى عقل رجاء طار وتبقى لو تسبح فى بركته . نسى تيتى وأهل نساء كتبه تبنى لو مثلا معا هو وهى فيلم « الوسادة الخالية » .. أو (خلى بعارى) — لكنها كانت شيئا آخر — حتى غير تيتى — غير تيتى بكثير . جهود الكوافير وحدها تستحق مرتب والد تيتى فى مصلحة البيد . كان وحده مع الأنفار . تيتى بالقاهرة وهى فى الجنينة على كرمى منامه — بنظرة وفستان بلا أكمام ومجلة فرنسية — على جبينها فراشات . وهو وحده مع رجال كأعواد الكهيت . يستلذون تحت ظل وبلهثون تنشط صدورهم إلى نصفين وبلهثون .. عندما ينهر رجاء واحدا منهم ييكى

كامرأة . ينوح ويشكو حيث لا مبرر للشكوى . رجال كهؤلاء لا يساقون .. رجال كهؤلاء لا نساء معهم . حتا فالتساء يعيند الرجال والعافية .. من هنا لن ينظر رجال لامرأة من حريم هؤلاء .. ومن الجائز أنه لو طلب منهم — من الجائز فهو قادر — لكن رجالا كهؤلاء لا نساء معهم . إما أن تكون معه امرأة وبنته وبين القاهرة ساعات يحركها قطار الشلال .. أن تكون معه امرأة وعربة بلا ركاب — إلا — هنا — ثالثهم — الغامض كالزوج — كالجھول الخالد .

سمح بعينه في العربة متجنباً نظرات الرجل — جاهدنا ألا يظن به نيات حسنة أو خبيثة في العنور على المرأة . فوقه : لمبات خاية تتر مع القطار .. ضوء أفرغ فيه الطبيب عفن الدم ، على الكرسي والأرضية : أصابع بيضاء ميتة بصمها الخارج متسللا من الشيش والقراز ، حاول فتح شفثيه فأغلقهما الجفاف .. أطبقهما فتعترنا في الجفاف ، الداخل قرضته أسراب الجراد ، لا أخضر ولا يابس ، الراديو : لا أمل .. (كانت تظن .. ملابسها كانت بيضاء تظن .. اومو .. تأيد .. ساعة تبتوس .. اسبرو يقتل الصلح) .. (هاء .. هاء .. هاء .. ويضحك الولد .. يستلقى على ظهره ، يلوك الأب كلماته .. يهرسها جيذا ويخرجها مخطوطة .. هع .. هع .. هع .. مالك يله ، يرد الولد : البدة الجديدة ياها البدة الشعبية ، يضحك الأب ويهرش بطنه .. رأسه : ألفين هيه ياله ؟) ويقوم المتفرجون جميعهم ليذهبوا لشركة بيع المصنوعات ، ويقفل صاحب المقهى التلفزيون — هو جر .. ملكه — كل حر فيما يملك ، رجاء حر في ان يقفل الراديو — ولكن الراديو يتكلم والمذيع لا يسكت والشاشة لا تنطفئ والتلفزيون يشع — والمسئول هذا الجالس قبائته — الرجل الغامض كالسر : غرس داخله بالمزراق وسأل كل شيء واختلط .. تركه تائه حائرا في داخله .. لداخله ، بعد لحظة سيجن : يصرخ .. يزقق بعلو الحس .. ليس معقولا ان يجالس شانون ويأكل مع (الهارب من الأيام) ويتناول شريحة لحم من عظم دجاجة خلفها (عويس أبو ضب) — ليس معقولا — ألا يلين هذا الرجل قسماته ، سيصرخ فيه رجاء .. يصرخ في الفراغ .. ينحن للرجل .. يقبل قدميه .. يركع تحتها (أرجوك .. من فضلك .. تكلم .. ابصق .. انطق .. كالمذيع تماما .. ليس مظه .. لم أقصد .. أعنى .. إياك إياه .. أنت هو .. هو أنت .)

٢ - (الشايب)

وقفوا بينه وبين ابنه (كالسد) الذى يسمونه (مركز قنا) واقتسموا جميعا على (المصحف) إنه ضرورى وضرورى جدا وجود (مركز) بين (البندر) و (العاصمة) — لكنهم لا يفهمون .. يعرفون فقط — لهذا وقفوا فى وجه (القطار) اللهاب إلى (العاصمة) حيث ابنه (محمود) .

- ابعت له جواب يا أخى .
- بلدياته وهاء فى السكن .
- يعنى لو كان هناك مشغولية .. بقليله واحد منهم بيعت جواب .
- نعم (عبد الصابر) و (الهادى التوالى) و (محمود الساكت) و (عبد الحكيم الرقاص) لا يفهمون .. فقط يعرفون .. كلامهم يقول ذلك .. والرجل كلمة ، هو لا ينكر أنهم يعرفون البيضة كما يعرفون الحجر ، كما يعرفون أيضا اللعب بالبيضة والحجر — لكنهم لا يفهمون أن الابن أيضا بيضة وحجر — كما هو لعبة أبيه ، الابن بيضة « كاك » لها الرحم .. قال الرحم « كاك » فمشت الحرارة كالدلم الذى هو ماء فى جوف الميدان .. اشتعلت النار وغلا الماء واستوت البيضة — لها الأب بين جوانحه وأعطاها دفء حياته ففقسنت الكتكوت .
- والحق لقد كان ابنه « محمود » فى صفه كتكوتا .. يمشى بقدمين ، وضرب بمخناحين ويصوصو فى « الآه » و « الهيه » ..
- ماليش دعوة عايز بنطلون .. مفيش فلوس لكن عايز بنطلون .
- بابا جانب بنطلون هيه .. هيه .. هيه .

كلهم يعرفون — القوية كلها تعرف أن « مجاهد أبو دراع » علم ابنه فى مدارس « البندر » — أعطى ابنه الأرض — مع بداية كل عام كان يعطى ابنه فدانا — لم يبيع ارضه ولكنه أعطاها لابنه — أعطاه العمر ليتعلم ، كانت السنة تمر على الأرض لتعطى المحصول — وكان « مجاهد أبو دراع » ينتظر المحصول ليعطى ابنه سنة جديدة ، وبمجهود « مجاهد أبو دراع » يعيش ابنه « محمود » الآن فى العاصمة ليأخذ « الشهادة الكبيرة » . بعد الشهادة الكبيرة فقط يواصل ابنه الحياة .. وقد توقف، ومؤكد ستتوقف حياة « مجاهد أبو دراع » —

ويبقى محمود ابنه ليهبث عن البيضة .. ويخرج الكتكوت : يقدمين بمجانين بلون
النجمة بلون الأرض بلون النيل بلون الغيمة — كما يفهم (محمود) سيكون « ابن
محمود » ... تماما كما يفهم « محمود » لكن « محمود » ابن « مجاهد أبو دراع »
مازال يسير في طريق الفهم — وللفهم دروب — وقد اختار « مجاهد » لابنه درب
« الشهادة الكبيرة » وأمام « محمود » عامان كاملان ليصل إلى نهاية الدرب
ويفتح الباب ويدخل الدار فيكاكي الأولاد .
— بابا جه .. بابا جاب .. باباعد .

عامان كاملان — لا أحد في القرية يعرف أنهما عامان كاملان — لا أحد
غير يفهم أنه سيعطى فدانين .. لكل عام فدان .. لا أحد يفهم أنه يجاهد
ليعطى ابنه عامين .. فدانين .. فالفدان عام والعام فدان . لو قال هذا لقالوا
« مجنون » لو عرفوا أنها نهايته وأنه يجاهد ليوت ويعيش ابنه ... لتفقس البيضة
ويكاكي الكتكوت .. لكسروا البيضة ورموه بالحجر وصرخوا بالطول والعرض :
مجنون ... مورستان .. خانكة .
— ابعث جواب له يا أخى .
— بلدياته وياه في السكن .
— لو كان فيه مشغولية كان واحد منهم بعث جواب .

لقد أعطوا مجاهد « الحجر في يده » لكنهم لا يفهمون — كسر كل منهم
بيضته — لكنهم لا يفهمون ، سيضربهم بالحجر الذي أعطوه ويصرخ بالطول
والعرض (.. مجانين .. مورستانات .. خانكة) .

— ولدى « محمود » ماء ودم .. خمسة وعشرون سنة .. ماء ودم .. كتكوت
في بطن البيضة في رحم الفرخة .. فقس بين ضلوعى منذ خمس وعشرين
سنة .. كان يقدمين بمجانين وأصبح مجهودى رجلا بعد عامين سيقول
الكلمة — الكلمة رجل . الآن فقط نبت له ما ينبت للرجال وما ينبت في
قدم السائر من نشع الأرض وشوك « الملوكة » .. في الجفاف طفولة
طفولة الرجل — صباحه الذى طلعت شمس منه لحظة — تتبعها
لحظات .. دقائق .. ساعات .. يوم .. سنة .. خطوة في الطريق إلى باب
النار ويكاكي الأولاد (بابا جاب بطيخة .. البطيخة طلعت حمرة .. بابا
ادانى شريحة .. الشريحة طلعت حلوة .. هيه هيه ..)

خمسة وعشرون عاما . قضى في البندر عشرة أعوام وفي العاصمة ثلاثة —
والباقي اثنان .. تلتاشر سنة بتلتاشر فدان . ولكي يقابل ابنه لايد من أن يسير
« مجاهد » تلتاشر سنة .. تلتاشر فدان — وتكون المقاتلة — بعد أن يفور الدم
والماء تحت النار فتتشقق القدم .. ومن الشق يبرز « اهلوك » صلب الأشواك .
من صلب « محمود » يبرز شعر الرجل وينغرز في صلب « مجاهد أبو دراع » ومن
ذقن ابنه من عرضها وطولها الذى هو خمس وعشرون سنة يبرز (الرجل) وتسرى
الحرارة في الأعواد وتلتهم النار المحصول — ويفور الماء ويفور الدم ، هنا فقط
سيطمعن « مجاهد » على ابنه محمود — عندما يتنفس ابنه (الحرارة والماء
والدم) — سيفهم أن ابنه (حى) لم يموت ، سيتأكد أنه لم يبع (تلتاشر
فدان) .

وليتهم يفهمون — ولكنهم يعرفون فقط — أبدا لن يفهموا أن السنة فدان وأن
الفدان سنة والبيضة كتكوت والولد كتكوت .

ويقسم « مجاهد أبو دراع » أن أهالى « بندر قنا .. مركز قنا .. محافظة قنا »
يعرفون فقط ولا يفهمون — لذلك فهم (مجانين .. مورستانات .. خناكة)
يعرفون البيضة والحجر ويلعبون أيضا بالبيضة والحجر .

٣ - (البيت)

— في بنى سوف تلاقيه منتظرك .

عبد النبى مستنظر .. فى الايد حبل وفى العب سكين ، اليوم .. يحى
والساعة تجرى ، والقمة تطل وتغيب ، والعجلات تدور وتنشال وتتحط ..
وتنشال بلاد وتتحط ، والقطر يا مصرية يشيلك من قنا ويرميكى فى بنى
سوف .. يرميكى للظن (لعبد النبى) ، أخوكى ، ابن أمك وأبوكمى
منتظرك : زى الوعد .. كلمة البلد جواه ، الى ما يساوى كلمته فى عب
عبد النبى .. وعين عبد النبى فى التراب وفى التراب حكايتك وعلى التراب
خطاوى الناس .

- والحرام حد قلبه .
- الستر يارب .
- والقطر شابل تراب قنا في عجله .. والتراب على كتفك وريحته جواكى .
- يمكن تكون معاه عيشة .
- « يمكن ويمكن .. يارب .. يا عبد .. قلبك يا عبد ع العبد هين .. وأنا
مصرية بنت أم مصرية عبدتك يا عيشة .. الستر يا عيشة .. أخ يا عيشة
لو طمس المسطور قلبك .. وعملتى ودن من طين وودن من عجين .. لو
فقلتى قلبك بمليون ضبة والى مفتاح » .
- قولى لعبد النبى مشتاقين .
- « وأنا مشتاقة لعبد النبى .. أخويا مشتاقة له .. ومشتاقة لميشة .. مشتاقة
لكم تنهشونى وترموا العيب من جواى .. ارتاح .. ترتاحوا .. مش ابنى .. دا
كلمة الناس فى عى .. كلمة بتجرى جوايا » (مالت الشفايف على الدوان
وهمست .. وشوش الزرع بعضه .. ونزل الليل .. البلد كلها طرحة سودة وكلمة
سودة .. البنات سيلوا رموشهم .. والرجال صبغوا عمائمهم » .
- والحرام حد كله
- الستر ع الولايا يارب .
- واحنا مالنا .. كل غراب ينقى على خراب عشه ..
- « .. ح احميك . اقل ودنى ولا اسمع .. فن عىنى انت .. ضنايا
حبيى .. أصونك فى بطنى وتكبر مع كلمتهم .. وتشق بطنى وتطلع ..
يقابلك الليل الأسود والكلمة السوداء (الانس نايم والجن صاحى — قدام
باب الدار عوى الكلب .. اتكوم ع الفرش . جنى .. عوى .. قلت :
لا .. لا .. لا .. قفل ودنه وخرس لسانى .. زام .. زام الكلب بو
الدار .. زام وهمد .. وهمدت أنا .. عىنى فى الأرض ، وعلى الأرض
دمعتين .. وعلى الخد دمتين .. شهر .. التالى .. التالى .. واسودت
الكلمة ... رميت اللقمة .. (حقة بسبوسة) .. غصبت عىنى ادبت
الريح .. عايذك يا ضنايا .. لو عشت تعيش .. لكن للحيطان ودان ..
والنجم « فتان » .. والكلمة يأخذها البق ويسلمها « لبق » والنجم سيار
يجرى مع القطر ويقول لعبد النبى :
- من قنا جاتك مصرية .. وفى بنى سوف انتظرها .. انتظرها يا عبد النبى
بالحبل والسكين ، وتعالى يا بنى سوف .. مشتاقة لأخويا .. مشتاقة .
- إهداء المؤلف

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً

- ماما .
- خرجت الأم ، أملم الخيمة ووقت :
- عين ماما .
- كررت عزة في ضيق ودلع وكأن لم تسمع :
- ما .. ما .
- وشيء ما أيضاً في صوتها حزين .
- (قالت الأم لنفسها)

هي مسافة قصيرة — تفصل بين الابنة والأم — مشتتا الأم وصارت فوق رأس ابنتها ، كانت الطفلة قد عرت ساقها بأن رفعتها إلى أعلى وقد نامت على بطنها ملتصقة بالرمل الدافئ مستتلة بكوعها على الرمل الدافئ ، وقد أراحت ذقتها على كفها . حبات رمل حملتها الريح وانتشرت فوق شعر الطفلة ، حبات الرمل بدت لامعة تحت الشمس وكذلك شعر الطفلة بدأ لامعاً .

- صفحتي حلوة .. هي رائحة ابنتي .. عروسة تصير .. تلبس الأبيض ..
- ناغم وخفيف .. عريس لعزّة سيكون (قالت الأم لنفسها) — وقالت :
- ويبت لها سيكون .

ونظرت الى ما وراء الأسلاك وقالت :
وكرمة لها ستكون .

— ماما : الآن قولى له أن يحضر .

— ماما : أريد يرتقلا .

— أريد يرتقلا وأريد بابا جاسم يا ماما

(كانت عزة تتلدى جاسم أخاها : بابا ، مات حمد والد الطفلة منذ ست سنوات .. كان عمر عزة وقت ذاك : شهر ونصف شهر ويوم ليلة ونهار ، مات حمد ، فى هذه الخيمة التى تسكنها الأم والأبنة .. كان جسده بارداً وجمعا ومتصلبا .. كان قد مات . كان داخل الخيمة ممدداً على الحصير .. ميتا) قالت الأم للرجال وهم يحفرون الرمل : كذب .. كذب .. لقد مات من الجوع .. لو وجد الطبيب لما مات (رجل افرنجى كان موجودا وعلى كشفه شارة غوث اللاجئين ، كان يبلو أنه حزين وبجمل (صرخت : لماذا لا يموت الأدمى من الجوع !! الأدمى يموت من الجوع) هناك فى يافا كان قويا .. قويا كان ، كان يثور وكانوا يسمونه هناك فى يافا : البحر .. وهناك أيضا كانوا يسمونه : الليل .. كان مضحك للنكتة .. ودائما كان يتسمم لما فى يافا .. وكان سعيدا ... الغرباء من كل بلد جلعوا .. ومازالوا هناك الغرباء .. وهو جاء إلى هنا ومات .. غريبا مات ، الأنف والحاجب والحول الخفيف كل ما بقى من حمد فى جاسم ابنها وابن حمد) .

زعت الطفلة وقذفت فى الهواء الساخن كفا مملوءة بالرمل الساخن :

— أين هو يا ماما .. لقد تأخر .. لقد غاب كثيرا يا ماما ؟ .

— قالت الأم :

— هناك .

— وأشارت بيدها وراء الأسلاك

— هناك .

(هذه المرة كانت تكرر لنفسها وتؤكد)

— قالت الطفلة :

— لماذا هو هناك ؟

— لأن الغرباء هناك .. لأنهم من هناك يجب أن يخرجوا ليحضر هو إلى هنا

— ويأخذنا إلى هناك .

— (قالت الأم) :

وثبت الطفلة واقفة ، عادت وركعت على ركبتيها .. القت برأسها إلى الخلف وأعادته بحركة جديدة وظلت تنظر إلى هناك .. إلى ما وراء الأسلاك ، ورددت في همس :

- من هناك يجب أن يعود ليأخذنا من هنا .
 - ماما .. يجب أن يعود من هناك ويأخذنا إلى هناك .
- قالت الأم :
- يجب أن يخرجوا من هناك ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك
- وقالت :
- أأخذنا هناك يجب أن يكون .. أن نكون نحن هم لا يكونون .

ارتدت الطفلة في حجر أمها التي جلست .. ضمتها إلى صدرها وظلت تضغط ، تلممت الطفلة ولذ للأم أن تثير عنادها فظلت تضغط ، كانت الطفلة تحاول التخلص دون جلوى .. وفازت به بعد أن أوهمتها الأم بأنها قد غلبت على أمرها ، ظلت الطفلة تضرب فخذ أمها بكلتا يديها :

- من هناك يخرجون .. هناك بابا جاسم .. من هناك إلى هنا يعود بابا جاسم .. ويأخذنا إلى هناك ..

وقالت :

- ماما .. أنا أحب بابا جاسم .. بابا جاسم سيأخذنا من هنا إلى هناك
- قالت الأم :

- بعد أن يخرجوا .. بابا جاسم يأتي ويأخذنا معه .. أنا وأنت .
- قالت الطفلة متسائلة :

- يرتقلا يحضر معه .. أنا أحب يرتقال يا ماما .. يرتقلا لأجل يجب أن يحضر .

أجابت الأم :

- هناك لنا ثلاث شجرات تنمر يرتقلا .
- تساءلت الطفلة :

- كبيرة هي الثلاث شجرات يا ماما ؟؟
- أجابت الأم :

- نعم كبيرة .. كبيرة .
- ورسمت بنواعها في الفضاء حجم الشجرات وقالت :
- هكذا كبيرة .

قالت الطفلة :

- ونحت شجرات البرتقال أنام يا ماما؟؟
- نعم تمامين تحت ثلاث شجرات من البرتقال كبيرة .
- وأكل برتقالا كثيرا !!
- وبرتقالا كثيرا يا غاليتى تأكلين .
- أنا أقدر أن أطلع شجرة برتقال كبيرة .
- لا .. شجر البرتقال لن تطلعي .
- لا .. ولكننى سأطلع شجرات البرتقال .. ثلاث شجرات كبيرة أطلع
- صغيرة أنت .. ولا يجب أن تطلعي شجرة البرتقال لأنها كبيرة تكون
- لن أكون صغيرة .
- نعم صغيرة لن تكونى .

من جديد لمت الأم ابنتها وغطتها بلواعيها ، قالت :

- كبيرة تصبين .. وكبيرة تذهين إلى السوق .. تحملين الخضار لبيتنا ..
- هناك لنا سوق .. لفلسطين أسواق كثيرة .. بلدتنا سوق كبيرة .. أنا
- صرت عجززا .. أنت تقومين بكل أعمال البيت .. تمامين على سرير
- بمفرودك .. لن تمامى معى .. ستكونين كبيرة .. لى سرير ولك سرير ..
- سيكون لسريرك ملاءة بيضاء وكذلك لسريرى ملاءة بيضاء ...
- قالت الطفلة معترضة :
- ملاءة خضراء يا ماما .
- وافقت الأم :
- بسوق بلدتنا ملاءات خضراء .
- قالت الطفلة فى فرح :
- وثياب خضراء يا ماما !!
- قالت الأم منساققة ومشجعة لفرحة ابنتها :
- فى بلدتنا سوق به ثياب خضراء .. وحمراء وصفراء .
- قالت الطفلة :
- خضراء وحمراء يا ماما !!

غنت الأم وهي تصفق الواحدة :

خضراء خضراء

وصفراء أيضا وحمراء

خضراء وحمراء

صفراء وخضراء

ورددت الطفلة مع أمها .. وغنتا معا :

صفراء وخضراء

ثياب صفراء

ثياب خضراء

خضراء وحمراء

قالت الأم :

— لعرسك أصنع كعكة كبيرة .

ردت الصغيرة :

— حمراء تكون .. الكعكة الكبيرة حمراء تكون .

قالت الأم :

— وعلى الكعكة أنثر حبات اللوز .

قالت الصغيرة :

— صفراء وحمراء .

— والفلسلق حبات حبات .

قالت الطفلة :

— صفراء وخضراء .. حمراء وصفراء .

قالت الأم :

— والبنسق .

قالت الصغيرة :

— أخضر سيكون .. أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

— قالت الأم تصصح وضعا خاطئا :

— أحمر يكون .. وأصفر سيكون

— ردت الطفلة في سرعة وهي تستبدك الخطأ :

— أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

قالت الأم :

- عذونات الجمل على الفطيرة ستتم .. حبات كبيرة .. وكثيرة ستكون .
 صغقت الصغيرة :
- خضرء وحمراء يا ماما .
 قالت الأم تسأل :
- أم طيبة أنا ؟
 قالت الطفلة :
- طيبة أنت يا ماما .
 قالت الأم :
- عجوز وطيبة أنا .
 أجابت الطفلة :
- عجوز انت وطيبة أنت يا ماما .
 قالت الأم :
- ولى بنت طيبة وصغيرة .. حلوة وصغيرة .
 قالت الصغيرة :
- طيبة أنا .. طيبة وصغيرة .
 قاطعتها الأم :
- أنت حلوة وطيبة .. صغيرة لن تكوفى .
 قالت الطفلة :
- كبيرة أكون .. كبيرة وحلوة .
 قالت الأم :
- ستفسلين كل الملابس .
 قالت الصغيرة :
- كل الملابس .
 قالت الأم :
- الخضرء والحمراء وكلنا الصغراء .
 قالت الصغيرة :
- الخضرء والحمراء .. وكلنا الصغراء .. والحمراء والصغراء .

كانت الطفلة قد نامت ، كانت تبسم في الحلم ، وفي الحلم كانت الشمس الحمراء تقذف الرمال الصفراء بالظلال الحمراء .. كانت الرمال حمراء وكذا التلال ، وكانت هناك مياه حمراء وثياب حمراء وطيور حمراء كثيرة لها أجنحة حمراء ترف في الفضاء الأحمر ثم تهبط لتلتقط بمناقيرها الحمراء أشياء حمراء .. كانت هناك أشياء كثيرة حمراء تهبط من أجلاها الطيور وترف وتطير بأجنحة حمراء في الفضاء الأحمر الأحمر ..

كان الليل قد جاء ودخل الخيمة ، وكانت الريح بالخارج تضرب بالخيمة بالرميل ، ورائحة ليل يافا المخمل بالعطر تفتحت عنه أزهار البرتقال وملأت به الجو .

ومن مكان ما بالخيمة — لا يمكن للأُم أن تراه : رغم الضوء الذي اقتحم به القمر الخيمة أيضا — كانت هناك أنفاس شخص ثالث ..

همست :

— حمد ..

وحدثت نفسها :

— هو حمد .. أتى كالعادة في الأوان ، وقت يغطي الزهر الأبيض أشجار البرتقال هناك في يافا ويفوح العطر هناك في يافا ويأتى الليل والريح من هناك من يافا يأتى حمد قريبا كما كان في يافا .. أنفاسه القوية أحس .. هي أنفاسه قوية كما كان .. ودائما في هذا الأوان معى ومع عزة داخل الخيمة يكونان .. حمد وجاسم ..

وزعقت :

— حمد ..

ولم تسمعه يرد (هناك يسمونه البحر وأحيانا بالليل كانوا يسمونه هناك .. وهنا مات .. في هذه الخيمة .. غريبا دفن .. من يافا يأتى ليلا ومعه رائحة أزهار البرتقال وأنفاسه قوية بطلتها)

زعقت :

— البحر .

قط أنفاسه كانت تسمع وأنفاس عزة ابنتهما ، كلمت نفسها :
— في هذا الأوان حيث العطر به زهر البرتقال قد تفتح وجاء به الليل والريح
من يافا إلى هنا حيث هذه الخيمة .. دائما في هذا الأوان يحىء حمد كما
تعود .. ويحيء جاسم من مصر كما تعود .. وهنا يكون ، جاسم ولدى :
منذ زمان تعلمت القراءة .. ومع كل عام يتفتح فيه زهر البرتقال كنت
تأتى إلى هنا من مصر ومنك كانت تصبل المكاتب !

جاسم ولدى : من هناك من مصر تعال وإلى يافا اذهب حيث بيتا والعلو
يكون تواجهه بالسلاح وتضرب وتضرب ومن مصر تأخذ سلاحا وتضرب وتضرب
وتضرب وهناك في يافا لا يصيرون ... ومن هناك تأتى وتأخذنا إلى يافا حيث بيتا
يكون والغريب لا يكون وثلاث شجرات من البرتقال لنا تكون .

قالت الأم : تفتح الزهر ورائحته أشم .. جاء الليل .. أيام كثيرة .. ولم يحىء
جاسم وهذا موعده !؟ نسوة الخيام رددن : لمذا جاسم ؟ إن أحدا لم يحضر ! زهر
البرتقال بالعطر قد تفتح والطيب يأتي به الليل من يافا نشمه .. والغائبون عنا —
عيوننا التي بها ننظر — بالسلاح هناك يضربون والغرباء يفرعهم السلاح وصراخا
نسمع .. بالغداة في بيوتنا سنتبع ، قالت الأم تكلم نفسها : سلما يعود . وبيتنا
هناك في يافا يدخل .. يجد الغرباء في بيت حمد الذى كان رجلا بألف (كان
البحر .. وكان الليل هنا في يافا .. شارب كثيف كان له .. وحواجب كثيفة
كانت له .. وعلى الصدر كان شعر غزير ، بإحدى عينيه كان حول خفيف ..
كان جفنه ينفلق عندما يغضب — ويظهر الحول واضحا .. وواضحا كانت تراه
وقت أن يغضب .. عندما يفلق جفنه يظهر حول خفيف .. كانت تراه وقت أن
يغضب) .

قالت الأم : وقت أن يغضب جاسم يشيع عدوه رصاصا وخوفا وموتا يشبعه .

وقالت تحدث جاسم : استمع لصوت دعائى يملكى .. اصغ لى يا
جاسم .. تأمل صراخى .. لإليك أصلى .. جاسم أوجه صلاتى غموك وانتظر .. يا
جاسم بالغداة تسمع صوتى .. بالغداة أبتج بيتى وشجراتى ولك يا ملكى .

وكانت تحدث عزة النائمة وهي تهمس :
من هناك إلى هنا يعود وإلى هناك يأخذنا أنا وأنت .. وإلى بيتنا في يافا حيث
يتجهج القلب نغنى — أنا وأنت : للغنم .. والبقير جميعا وبهامم البر أيضا .. وطيور
السماء .. ومك البحر المسالك في كل المياه ...

وخلعت غطاء رأسها وفكت ضمائرهما — قالت : لماذا تختفى في أزمنة
الضيق ؟ لماذا تقف بعيدا !! قم يارب .. يا الله ارفع يدك .. ارفع أحبائنا من
أبواب الموت يحترق الشرير بكيمياته .. يؤخذ بالمؤامرة التي فكر بها — لأن الشرير
يفتخر بشهوات نفسه .. والخاطف يجدف .. ليست أحكامك عالية فوقه !!
علوى موتا يشيع وتشريدا وقتلا .. قتلة هم يا إلهي .. في أرضنا في أرض زوجاتهم
لا يمحرون .. ذرية لا يحصلون .. بقدر ما حزننا والذي زرعتنا نحصد .. ذرية وزيتونا
ويرثقالا نحصد ومن كل طيب نحصد .. وأعراسا نحصد يا إلهي نحن .. نحن نسلك
بالكمال ونعمل بالحق ونتكلم بالصدق في قلوبنا ولا نشئ باللسان ولا نصنع شرا
بصاحبنا .. وفضبتنا لا نعطيها بالرها والرشوة لا نأخذها على البريء ..

- وقالت : قم يارب بغضبك — ارفع على مسخط مضايقي وانتبه لي :
تقدمه .. اصبره .. نج نفسي من الشرير — من ينزل في مسكنك .. من يسكن
في جبل قدسك .. واقض لي كحقي يتجهج قلبي وأغنى — وهمست : لفجر
كهله الفجر الذي أراه : يدخل بالضوء الفضي .. طاهرا ونقيا كحقي ..
كيافا .. الحق طاهر والفجر نقي كحقي كيافا .. وكذا القلب منا طاهر والحق
والعدل نحن .. ألسنا كذلك يا إلهي ؟ .. ألسنا كذلك حيث جلالك فوق
السموات أيها الرب سيدنا .. يلاهي ألم يكن البحر !! ألم يكن الليل !! وكان قويا
وكان شعر كثيف وكان .. كان يتسم .. كان سعيدا .. في يافا .. في

— ماما .

زعقت عزة .. كانت قد صحت وكانت فرحة .. سكنت الأم واحتفظت
طفلتها

قالت الطفلة : ساخنة أنت يا ماما .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنت لم تلمى .

قالت الأم : نعم .

قالت عوف : أنا أعرف لهذا .
قالت الأم : نعم أنت تعرفين .
قالت عوف : كنت تكلمينه أنا أعرف .
قالت الأم : نعم كنت أكلمه .
قالت الطفلة : كنت تطلين منه أن يحضر إلى هنا .. أنا أعرف
قالت الأم : لقد طلبت منه أن يحضر .
قالت الطفلة : ماما .. يرتعلا معه لأجل سيحضر .
قالت الأم سامة شارقة إلى الضوء يملأ صحراء الخارج :
هناك لنا ثلاث شجرات كبيرة تثمر ..

الدفن
والصندوق

لا تمض أبداً ، أيها الصديق من هذه الجهة للمدن حيث الشيوخ ينسجون
لك ذات يوم قش الأكاليل ، لا اعبد ولا القوة يتزعان إلا في ذروة القلب
البشرى .

« ضيقة هي المراكب — سان جون بيرس »

المهر

نحت النخلات الثلاث — كعفلت الجن ، كان يقرب الطريق، تفصله —
ترعة الدم ، خلفه زراعة حوض الطينة ، هناك في المنحنى حيث تدور التربة
ويدور معها الطريق طريق القادم من قرية « العشى » والصعاينة والهنية قبل
ومحري : كافة من الرجال والنساء والدواب إن كان سوق الثلاثاء ، قلة راجلة أو
راكبة عدا ذلك من أيام الأسبوع هي الصفوة على أى حال .. وهبا ملك الملوك
الجاه والصيت والجمال أيضاً .. رجال وشبان قصدهم الأقصر مركز القرى وينلر
البنادر وبلد السياح حيث المتعة خالصة نظيفة كالأقصر في الشتاء .

بمكمنه يكون قد جاوز حدود قريته — الكرنك القديم — بشكل ما .. وصار
داخل حدود الزينية قبلى : بخطوة أو بخطوتين وربما بعشر خطوات — إذ ليس هناك
حدود قاطعة في فهم القرويين القضاياض، كما أن ما بين القريتين من مشاكل كان
يهون أمام طبيعة الفلاحين الخالدة ، تسامح غالباً وتعند أحياناً ، ولكن رغبة كبار
القوم ممن لا يرضهم خراب البيوت العامرة حفظت سلام القبيلة الواحدة — أهل
القريتين تناسلا من عصر وقد جاء مع الفتح الإسلامي لمصر ، وبحقه المشروع
كمسلم تزوج من أربع — هن أسماء وفاطمة وهند والزهراء — احدهن كانت
نكلة ولكن الرجل الكبير كان عربيا يعرف يسوس الأنثى — ويقال إنها كانت

« هند » — يكفى أن تقول للرجل المشاغب « يا بن الأنثى » أو — يا بن
تقيلة — حتى تعود طبيعته الخالدة ، أما لماذا تقيلة وليست هند !! فهذا ما
يجعله الآن يكمن بين النخلات كعفريت الجن ، ينتظر شبيب الساهر بعرس
حجازى .

« كان منطقياً أن لا يكون هناك خط قاطع بين القريتين يحميه جند ، نطلق
عليهم حراس الحدود ، حتى فيما لو حدثت تلك الأمور المسماة بالكيفية والتي
يقول عنها الفلاح : أمور تهتز لها السموات ، ونحن لا نجري أمام الزمن ، فالفقيران
كسائر قرى مصر ، والقوم يعيشون عام ١٩٦٨ : علم الأحداث الجارية الذكر » .

ليلة نحسب من ليالى الشتاء الطويلة السوداء الباردة ، وقد طال به الانتظار ،
هو هنا منذ ولدت أمه ، والنخلات الثلاث منتصبات كعفاريت الجن ، يتخيل أن
اليذ داخله هو .

صوت المزار والطيلة وصباحات الفوازى والفقران الهاربة ونقيق الضفدع المتصل
وطلقات الرصاص المتقطع المفاجيء البعيد ، وذلك المم الغامض الحاد كسيف
السلطان ، أن يكون قادراً على الفصل والتمييز بين كل صوت وآخر ، أن يبذل
مهماً ذلك الجهد الخارق فى التصنت ، الظلمة شديدة التماسك ، والسماء تبدو
جوفاء ولها وجه مجلوم وقد خلت من قمر كما توارت نجومها المعتادة خلف السحب
الخفيفة اللامعة .

حمار بيضاء الحليب : قامته عالية ، ثم إن البارود تفسده الرطوبة : كان يجب
أن يلف ساق الهندية بجلباب من القماش ، تالك ، وينتهى كل شيء .. يموت
شبيب .. تالك .. لحظة .. يسقط الحمار الأبيض .. تالك ، ينتهى السؤال
والجواب والقبل والقال والقادم والفات والمتمة والفرح والأثم والعذاب والأثم والأب
والشعور والانتظار .

اليذ والظلمة والاضطراب المجهم — ربما يتحدد كل ذلك بالخوف .. ربما ،
صوت المزار والطيلة وصباحات الفوازى والفقران الهاربة — خائفة من ماذا ؟ —
ونقيق الضفدع المتصل وانفجار الرصاص المفاجيء المنقطع البعيد والتصنت
وساق الهندية البارد الصلب المظلم ، عرس حجازى ربما امتد حتى الصباح فهو
ابن الحاج عبد الكريم : غنى .. محبوب ومجاملو بالآلاف ..

شبيب يشرب . يشرب .. سكران .. تلك وينتهي كل شيء .. والحمار الأبيض
في الظلمة شديد الوضوح .. وبياض النهار قادم .. مع نبج الكلاب المبحوح
يأتى . مع صوت الديكة وانفجار الشمس .. وهو هنا .. منذ ولدته أمه .. فوقه
تنتصب عقاربت الجن .. حوله تماسك شديد قط وهزان خائفة .

صوتها كان مهاناً ، حافية ، بلباسها السوداء وجرح بعنقها أو على خدها
الأيمن وربما الأيسر وقد يكون فوق حاجب العين : الأيمن أو الأيسر ، فوق الجبهة
يرقد كوزغة .. كسحلية ، تحت ترهل الثديين يعلو تل البطن ، في الموقد كان
القدر يفل : بكك .. بكك ، ارتعشت الظلال وهربت ونامت تحت حوائط
الفسحة الوسطى — حال أضواء مصباح الجاز ، كانت هناك قطعة تموء من
مكان ما : كانت تنبأى قطعاً ذكراً ، نحن هذا ، ودوى الآذان من جامع عبد الله
وهى تقول فحت : يموت .. والليلة يموت .. هو الى قتله .. قاتل أبوك عدوك
ليم الدين .. شبيب اقتله . الليلة يا ولدى اقتله ، تؤمان هما الحزن والأفى .

الجواب معلق ، فارغ هناك مازال ، وهى تنتظره ، المعجوز تبسم ، يلم
تفاصيل وجهها البعيد — من مكانه ذاك تحت التخللات الضاربات بطولهن في
السماء العميقة والسوداء !! .. ذهنه أحر متوقد كجمرة .

الرطوبة والعتمة والخفاش والزاهب والوحش والنبي والروح يسكنون الكهف ،
الإنسان : سر الرب .. خنفسة ، أحيانا يشعر المخلوق أنه كهف مسكون ،
للأصوات رنين .. صدى .. صراخ ثكلى .. هناك في الجبانة ترقد القبور تحت
شمس الصيف .. تلال من التراب لها سطوة الوجه .. وتنتصب شجيرات القمر
حنة ترمى بالظلال الخفيفة وريح تسقط الزهر . الأرملة الأولى في المقدمة .. تبسمها
الشقيقتان ، ثلاث أرامل يلبسن الأسود وتمتحن الظل وتذ مدقوق في عظام الموتى ،
يجمعن القطط والكلاب الضالة ، تحت شجرة القمر حنة تمسك كبراهن بيد
الرحى ، وتبدأ المراثية ، وتمت كفى الرحى تولول اللحم والعظام المتكسرة .

في البيت يطفأ المصباح ، وتظل تصرخ في العتمة ، تكون عادية ، وفي
الصمت يدور الهمس : شبيب هناك ، وفي النهار عيونهم متوهجة كالشمس ..
كذليل فرس شبيب الذهبية ، وهو يدرك مقالة كل عين : اقل شبيب .. قتل
أباك .. نام مع أمك ثم تزوج غيرها .. كانت أمك حلوة من أجلها قتل شبيب

أباك .. ثم تزوج من شابة حلوة ، أملك أيضاً تقول — اقتله ، وفي العرس : حمر
ولحم وغوايز وصاجات غوايز ورصاص متقطع مفاجيء وطبل وزمر وشيب
سكران .. يضع الجنيه الذهب فوق الصرة تماماً .. تحت تكور البطن .. هناك ..
وفي العرس .

والنهار يأتى بالضوء وشمس حمراء تنفجر وتقف للأبد فوق سن الجبل تشعل
النار في الحجر . وحول البركة حشائش وماعز وماء ثقيل والباطن عفن ، ترمى
الحجر ، يصنع دائرة وتهب العفونة — فجأة ، تكبر الدائرة وتتسع وتخف العفونة
بالتدرج ، وترى السطح لامعاً تحت الشمس وتكسر عيونك تحت قسوة الوهج ..

لم يكن يسمع شيئاً ولم يكن يرى سوى سطح أسود فظ ، شد بندقيته على
كتفه ، داس على الزناد بقسوة وانطلقت أربع رصاصات ، خيل له أنه الآن
يسمع الصدى ، وبكى بقوة ، فقط — يجب أن لا يعود إلى هذا الصمت .. !!

حج مبرور وذنب مغفور

الرجل القصير وصل صُحى اليوم ، كان قداما من المركز البعيد وقد اعتلى دراجة ماركة « فيليبس » لها جرس ، أعلى حاجبه الأيسر كان الجرح القديم مازال يرقد قهيب الشبه بالبرص ومجمعه تقريبا ، كان يلبس نفس الجاكطة الواسعة وكانت من الكاكي الأصفر — كنا نفس البطلون الذى كان واسعا أيضا ومن نفس قماش الجاكطة وإن بدا لونه الأصفر أقل اصفراراً ، هنا بينا كان وجهه المستدير الجامد — ذو العينين المصويتين إلى بعيد — يفضح اتجاهه الشديد فها قد وصل القبة ككل مرة فى موعده المحدد رغم عوائق الطريق : منحدر وعمر .. جبانة النصارى .. منحنى مفاجئ .. قنطرة خشبية ضيقة قديمة أسفلها يجرى المصرف المائى .. أسراب البعوض المستفزة .. التراب المتحرك الناعم الخادع يفصل بين القبة والقرى الأخرى الكثيرة .. دورة كاملة حول القرى .. قرية .. قرية ثم الطريق الطويل المرصوف المريح الذى على جانبيه شجر الجوز وهنا الكبير العجوز الكثير الظل .

توقف أمام دار الحاج عبد الكريم محمد ، كان الرجل القصير يعرف ما يريد بالضبط ، ترحل ممسكاً الدراجة بيده اليسرى ، بينا قبض بيده اليمنى على الكنف الحديدية التى تتلئلى من الحلقة الحديدية المثبتة هناك وسط البوابة الخشبية ، خبط الثلاث خبطات التقليدية المتقطعة وأطلق من دراجته جرساً طويلاً .

» خرجت الحاجة أسماء زوجة الحاج عبد الكريم محمد ، طرحها البيضاء غطت على شعر رأسها الأبيض الطويل والتفت حول العنق الغليظ وسترت عرى اللحم الأبيض وخيأت تفاحة آدم . قال الرجل القصير : تلعراف من الحاج يا حاجة .. مبروك ، تناولت الحاجة التلعراف بيده اليمنى الملفوفة بالطرحة البيضاء فقد كانت تخاف على ابن آدم من الحية . وأطلقت أمينة زوجة محمود سليم زغرودة فالجيرة الطيبة حتى .. والحاج الغائب ذاك الذى أعطى زوجها محمود أربعة أفدنة من أجود أملاكه — يزرعها محمود ويقتسم المحصول بنهاية كل عام مع الحاجة وريثة الحاج الشرعية فى غيابها الطويل المتقطع ، كانت الحاجة أسماء قد أعطت للبشير نصف جنيته كامل . ونثرت أمينة مجموعة الأولاد الفضوليين وأفسحت الطريق أمام الرجل القصير، الذى امتطى دراجته وأطلق أجراساً فرحة وقصد الشرق البعيد كحمامة طارت صغيرة بحجم البيضة. ظلت تندرج هناك فى المنحدر ثم غاب الخط الأسود . قال الولد للأولاد من حوله : يدخل المركز مع غروب الشمس .. له بيت من طابقين يلتصق بمبنى السيّنا . وطلب الأولاد من الولد أن يحكى لهم فيلم « رابحة » . وقالت الحاجة لنفسها : الحاج عبد الكريم موعود بالجنة وسيظل خالداً فيها أبداً .. لقد زار قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مرات ومرات ، وقالت الحاجة متحسرة : الرسول الكريم يحب الحاج أكثر مما يحبها .. دعا الحاج مراراً لزيارة قبره الطاهر ومدبنته المنورة بوجهه المضيء كمثل ألف قمر مكتمل .. ودعاها مرّتين فقط .. يعود الحاج بعد ثلاثة أيام بالتحديد ويقف ويذبح الطرحة عن حلاله ، وأرسلت الحاجة من فورها رسولاً يأتيها بحنفى الخطاط الرسام المبيض النقاش .

ألقى حنفى من فوره ببرميل كبير وفرشة كبيرة وفرشة صغيرة وعصا طويلة من خشب الزان وقراطيس ملفوفة اختفت داخلها كل الألوان الصفراء كانت أو الحمراء ، وألقى حنفى أيضاً ببرميل صغير ، وأقام البرميل داخل صحن الدار حيث توجد الظلمة القادرة على ضخ الماء من جوف الأرض البعيد المثال . ملأ حنفى الجردل الصغير خمس مرات ليصب الماء بالبرميل الكبير ، ثم ألقى بكمية من الجير الحى داخل البرميل ظلت تقور وتبخر كالآدمى حين تصيبه الحمى التى تمحو جوفه باللهب والرمل الحامى والجمر المتقد . أقام حنفى السلم مستنداً إليها على حائط الواجهة ، وصعد حاملاً الجردل المملوء بماء الجير ، ونظر للرسوم القديمة ، وبسرعة وبالفريشة الكبيرة دهن الحائط وانتظر حتى تجف ، ظل يتأمل القطار ذا الثلاث عربات والماسورة القصيرة التى ملازمت تنفخ الدخان الأسود ، كانت كل

الرسوم واضحة ما تزال تحت طبقة الجير التي لم يجف ، ضحك حنفي لأن حرف « الزاء » كان بادىء العيب في « يا داخل هذا الدار صلي على النبي المختار » المكتوبة بخط كوفي جميل ، بهمة ملأ حنفي الجدول وصعد السلم والفرشاة الكبيرة غطى الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط للمرة الثالثة ، أطل حنفي من فوق وقال للحاجة : حاضر .. من عيني .. لأجل خاطر الحاج ، وتغنى حنفي للحاج سلامة العودة ، ونفذ ما أمرته به الحاجة فوراً واختفت الرسوم والحطوط القديمة نهائياً ، وصار الحائط شديد البياض يضوي وقد انعكس عليه شعاع شمس الأصيل مما أجبر حنفي أن يفلق جفنيه ويفتحهما بشكل مستمر ومحركة سريعة ، كتب حنفي فوق بوابة المدخل بخط كوفي جميل « يا داخل هذا الدار صلي على النبي المختار » ، أطل لعينه الفنانة الخيرة حرف الزاء جميلاً كبقية الحروف الجميلة . ورسم حنفي جهلاً ووضع فوقه هودجاً غطاه بثياب متعددة زاهية الألوان ، وتذكر ما يقال عن الجمل الصبور ذلك الذي لا ينسى للإساءة ويغدر حتى بصاحبه من يقدم له الطعام والماء ، بسرعة رسم حنفي خزاماً وكمم فم الجمل ، ورسم حبلًا تدل من الخزام ، وقال لنفسه : هذا الجمل هو عين الجمل الذي رسمته في العام الفائت ، ولكنه استمر يرسم الرجل الذي مد يده وأمسك بالحبل والذي يقود الجمل قصيراً متناهي الضلالة ، وظل حنفي حائرًا يفكر : « أيرسم الرجل بحجم الجمل ثلاث مرات أم يضع في يده بديل العصا سيفاً قاطعاً !! » .

الجد حسن

تلك عادة الجد حسن ، متى حلّ شهر الصوم الكريم ، وحتى تنفرط ثلاثون يوماً مجيدة ، يكون قد صلى العصر مع الجماعة بمسجد جده المرحوم عبد الله ، وعاد ، وقعد على المصطبة المشيدة من الأحجار الأثنية القديمة والتي تقع على يسار بوابة المدخل .

منذ مايربو على الثمانين عاماً بنيت تلك المصطبة وقعد عليها الجد حسن وذهب الرجال وعادوا بالأحجار المتساقطة من سور المعبد القديم ، هكنا شيدت الدار في أقل من أسبوع : صورة مصغرة من بيت العائلة الكبير وإن كانت بغير سور وديوان ومنظرة وجامع إلا أن بها اسطبلًا للخيول وطاحونة ومعضبة خاصيتين بأسرة الجد حسن كما هما هناك خاصيتين بعائلة الجد عبد الله وكنا نبحر حجر كل منهما ثوران شديتان، وتزوج الجد حسن بنشوى ابنة الحاج سيد وأنجب منها ثلاثة من البنين وأربعاً من البنات، وماتت وتزوج الجد حسن من حفصة ابنة يوسف عبد الكريم ولم تحمل بطنها غير البنات فتزوج من زنوبة أختها الصغرى وكانت أمّاً لأولاده عبد المجيد وعبد الباسط وعبد الماجد والبنيتين أمينة وقاطمة .

عن يمين الجذ حسن بوابة الدار مغلقة ، زعق : يا بنت ، صرّت البوابة
المصنوعة من خشب الجميز بصوت خافت ثقيل وتدحرج الحجر الكبير على
التراب وأصدر صوتاً مكتوماً . ولحدة من بنات أولاد الجذ حسن الصبية الستة
هى التى فعلت ذلك وهامى البوابة الآن نصف مفتوحة محجوزة بالحجر الكبير
والبنات اليوم من تكون ؟ — يسأل الجذ حسن ويزعق : يا بنت . أتت نوال ابنة
الأوسط عبد الحميد لاهثة رأسها الصغير مائل ورقبتها النحيلة منحنية تحت مقطف
صغير مملوء بثمار البلح ، أنزلت المقطف من على رأسها إلى كتفها وأسندته على
ركبتها وأنزلته على المصطبة ودحرجته ليلقى بجوار الجذ فى متناول يمينه، ومضت جارية
وعادت نوال بمقطف آخر به خبز ووضعته بجوار مقطف الثمر ، وظلت واقفة لا
تنبس ، لم يكلمها الجذ ، فقط ابتسم فهو يعلم أنها سعيدة بما فعلت وتذكر أنه لم
يسألها عن فتح الباب هذه المرة فسألها ، جرت نوال للدخل الدار وعادت
وقالت : أنصاف يا جدى ، وسأل الجذ جاداً ومتجهماً ، وأين بقية البنات ؟
ردت نوال : بالدخل يا جدى.. وسأل الجذ : والصبيان ؟ ، قالت نوال : كلهم
بالدار يا جدى .. كلهم بالدخل يا جدى .

يرى الجذ حسن الدور بامتداد الدرب على الجانبين .. ينحنى الدرب هناك بعد
بيت أحمد الراوى ، تبقى ساكنة تلك الجفة السوداء الكبيرة الملقاة عند المنحنى
حيث ينتهى الدرب : أشبه بجمل أسود كبير وقد يرك .

يمر شيوخ الرجال ، يترجلون إن كانوا راكبين ، قصصوه بالسلام ، رد سلام الله
عليهم وأضاف بابتهاج : رمضان كريم.. وجمع ردهم : كريم يا بن الكرام . وجوه
الرجال تتغير وسحاتهم تتبدل ودهم واحد لا يتغير : كريم يا بن الكرام ، يزيد
ابتهاج الجذ حسن فيلاعب الشبان الذين يأتون ، يقبلون يده فينتفض جسده
ويستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم ، ويعود للماعتهم منادياً كلا منهم باسم
أمه ، قال لصالح السنوسى : فاطر ولا صبايم يا بن حسنية ؟ رد صالح : الحمد لله
يا جدى ، وكان الجذ يعلم أنه صادق ، أما شحات الفكرى فقد سحب الجذ
حسن يده من بين يديه ومن تحت قمه مستغفراً وصرخ : انت فاطر وخاسر
دينك ، ورد شحات وشرف محمد صبايم صبايم يا جدى .. وصرخ الجذ مستكراً :

يا ابن الكلب لا تحلف بشرف النبي .. انت لا تعرف مقداره : احلف بشرف
وديدة بنت الساكت أمك .. غور .. الكفر على وشك ، والله يا جدى صايم
هذا العام : قال شحات وهو يتسم فهو يعرف أن الجدد حسن لن يكف عن
مناعبته وخمناً ما سيقوله الجدد بعد ذلك : ستقول لا تحلف بالله .. ولكن بالله
العظيم صايم ، يسأل الجدد بلهجة مرحة : آمال ليه وشك أسود ؟ قال شحات :
من الغط والشمس يا جدى .. لكن والله العظيم صايم ، بنصف اقتناع ويأس
قال الجدد حسن : طيب .. روح .. انت حلفت بالله .. ربنا بقدر يرميك بمصيبة
فيما لو كنت تكذب .. من بخلق الكون الكبير بما فيه من جان وإنس وكل ما
تشوفه العين من جبال وشجر قادر على ضربك فيما لو كذبت .. اسم الله لا
يذكر إلا بالصدق يا شحات .. قال الشحات : ونعم بالله يا جدى — مضى ،
وحين مر منصور ابن الصادق سأله الجدد إن كان صائماً فرد بالإيجاب وسأله إن
كان يصلى فقال : لا ، ونصحه الجدد حسن بالصلاة وشمته وقذف بكلماته
الغاضبة خلف منصور : يا ابن الحمارة .. يكون معلوماً لديك أن حسابه عسير
لا يحتمله بغل مثلك ولا عشرة من الثيران مثلك يمتلونه .

ومتى تمر النسوة فعليهم أن يحكمين الأزديّة حول أجسادهن الهالكة وأن يرتكن
وسيلمح الجدد حسن ارتباك الخطو وتعارف خطو الأقدام على التراب المتطاير . أما
ذلك الكلب الضال المجهول الصاحب ففي هذا الوقت من كل يوم يمر على الجدد
حسن ويرفع ساقه الخلفية ويسندها على حائط البيت المواجه ويسلم ثم يمضى
بعد أن يصرخ فيه الجدد : حسّ امش .. يا نحس .. يا ملعون ..

على الحصريّتين المغروشتين أمام المصطبة فوق التراب المرشوش مكان لضيوف
الله في الأرض ، السائل منهم والمحروم من مقطف الخبز يعطى الجدد حسن يمينه ،
ومن مقطف البلع يغرف بيده المرتعشة أكثر مما تسع الكف ، يقول الجدد حسن :
من خير هو من الله ومن أجل رضاه .. بهذا حفظ الجنود من رحلوا لدار الحق
المال وإلجاء الذي ورثت بفارزوا بنعم الدنيا وجنة الآخرة .. أنا بدورى يجب أن
أحس إرث الأبناء بالعطاء لوجه الله وعلى أبنائى أن يعلموا أن الفرع لا يذنو
بالطيب إلا بإذن الله وللمختلن القلائل من عبادته أولئك ، عامرى القلوب .

الوقت قد فات وقد دنا الغروب ، الجمل الأسود قام بجنته الكبيرة ومشى بطريقه
 بالقباه الجد حسن ، اختفت البيوت بالتلويح ، البيوت البعيدة أولاً ، ثم تلك
 القريبة بدأت تختفي ، وصار الجمل يواجهه الجد كبيراً وأسود ، أغمض الجد
 عينيه (الكون فسيح لا حدود له ، قائم الزرقة ، والصحراوات واسعة لا تحد ،
 والرمال صفراء متوهجة ، انفجر من جوفها قل وتل وتل ، وسلسلة التلال لونها
 قان بلون الشفق ، كل شيء الآن ييكارة الخلق الأولي ، وتلمح عين المؤمن النقطة
 السوداء ، تبين صغيرة تكبر كلما اقتربت للرأى) . وجف قلب الجد حسن
 ورجف جسده الفاني وحدث نفسه : كم هو قليل ذلك الإنسان في ملكوت الله ،
 وسأل نفسه من يكون الضيف ؟ ذلك الضارب في الأرض من يكون ؟ رسول الله
 الذي يملو في البعيد نقطة سوداء من يكون ؟ أهر الخضر عليه السلام معلم
 موسى ؟ أم هو الغري !! أياكون ذلك الجشع القيم ؟

أصوات الأولاد تأتي بضجيج واهن ، هم هناك عند دكان محمد بن مكيّة ،
 وهناك شجرة توت مات أحمد المحروق زارعها من عشر سنوات وهي لا زالت
 حية ، وهرج الأولاد يعني أن مدفع الإفطار قد انطلق من راديو الحاج محمد أكبر
 لإخوة الجد حسن حسب توقيت القاهرة ، حل الإفطار لمن يسكنون في دهمي
 السيلة والحسين ، ومتى يؤذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله يمل الإفطار
 لأهل الكرنك القديم والجديد على السواء ، يحضر رشاد ابن الجد كامل شقيق
 الجد حسن ، يأتي الولد طائراً كحمامة : المغرب أذن يا جدى ، وبعد الجد حسن
 يده فيمسكها الصغير بيده الصغيرة ويدخلان النار .

باحة الدار الواسعة فرشت بالحصر ، طبال الخشب قائمة على سيقانها الأربع
 وليس بينها فواصل كبيرة ، والصوائى النحاسية فوق الطبالى تحمل أطباق الخضار
 واللحم والكثافة وسائر حلوى رمضان ، الكلوب معلق فوق فتحة الباب من
 الداخل يسقط غزوطاً من الضوء على جماعة الجالسين ويرمى بالظلال كل جوانب
 المكان ويجعل وقت الغروب أقرب لوقت الظهيرة .

ها أنت يا جد حسن وسط الأبناء وزوجات الإبناء وأبناء الأبناء عزيزاً مبعلاً
فلتحمده الله عدد حبات مسبحتك اليسر المطعمة بالفضة ، الكل ينتظر يدك
التي ستمتد مشمعة عن كمالك وتتناول كوكبك وتقول بسم الله الرحمن الرحيم ،
وتشرب ماء البلح المنقوع ، ثم تمد يدك للطعام وتمتد بمالك الأيدي ، وتسمع لمضغ
الطعام وبلعه أصواتاً عديدة ، فجأة يسقط الظل على الأطباق ، ويغشى الظل كل
للناذ النفس الفارغة ، لن تفكر كثيراً يا جد حسن فأنت تحفظ عن ظهر قلب ما
ستقول وأنت تعرف أيضاً من يكون القادم .

(: تفضل يا سيدنا الخضر .. هلا بيتك وهذا خير الله .. أنا عبد الله الحمد
حسن .. يا مولاي الخضر تفضل واجلس) الوسواس تأق ويقشعر البدن يا جد
حسن : ربما كان ضيفك هو المغربي يا جد حسن ؟ ربما كان هو ذلك الماكرا أقي
وعليك أن تسلم) .

وقد فرغ الجد حسن من تناول الإفطار ، يذهب ليقتضى حاجته بالمرحاض
الواقع تحت فجوة السلم الموصل للطابق الثاني من الدار ، تكون بنت من بنات
أولاده قد سبقته وملاأت الإبريق النحاس الأبيض وتركته أمام باب المرحاض ليتناولوه
ويدخل ويخرج متخلصاً من البول والفاطمة وتلقاه واحدة من البنات ويدها إبريق
النحاس الأحمر وعلى الأرض طست من نحاس أبيض ، يتوضأ الجد حسن وعندما
يصل لغسل قدميه يتناول الإبريق ويصب الماء على القدمين ويصرف البنت بهممة
وتتولى أى بنت فرش سجادة من سجاجيد الصلاة الكثيرة بالبيت والكل مهدي
للجد حسن ممن زاروا الحجاز الشريفة ، جهة الشرق باتجاه بوابة المدخل المفتوحة
يصل الجد حسن طارداً كل وسواس طيب أو خبيث ، وحين يفرغ من صلاته
يقرأ الورد ويظل بعد ذلك جالساً على السجادة القטיפية اللينة ، حتى تأتى إحدى
البنات بكوب الشاي فيشره وهنا يترك نفسه لفكرة ثابتة منها ينطلق من خياله .

(كلاهما يأتي في ثوب خرق .. متكرراً في شخص متسول .. بيده عصا وعلى
كفيه خراج .. ولا يفرق الرائي بينهما لو اجتماعا ، الخضر جواب أفاق ولا تراه
سوى عين المؤمن .. حين يأتيك في شكل متسول وتصله تبديد نعمة الله التي

أنعمها عليك ، وإن أكرمته أكرمك الله وذلك الخضر معلم موسى على خبايا الأرض بنت الله البكر فتعيش في النعيم أبداً ، وكذلك المغربي الماكر يعرف صورة الخضر فيتشبه به ، ثم يغافلك ويخونك للدار، وهو الوحيد الذي يعرف مكان الكنز الذي ربما دفنه الأجداد أصحاب الحيل الكثيرة. يغافلك الأفاق ويقتل حارس الكنز الذي هو من جان ويختفي المغربي فلا تعرف له على أثر .. إذن يا جد حسن عليك أن تكون حذراً من ضيفك .. أكرمهم حقاً .. ولكن لترصد حركته رصداً جيداً .. سيأتي وتقول أهلاً وتقدم ما عندك ، سيقوم الضيف ويده قسبة كبيرة .. يطوف بها أركان الدار وأنت تلازمه كظله ، يرفع القسبة ويخفضها ويعد .. واحد .. خمسة .. سبعة .. ثم يضرب القسبة في الأرض فتتشق الأرض بإذن ربها ويطل الذهب وعقود المرجان والفيروز وكل خبايا الأرض ذات السر .. أمسك بتلابيب ضيفك وانظر في عينيه .. عينا الخضر تلمعان حقاً كجوهريتين فهو رسول .. أما عينا المغربي فهما مكرتان حالماً تشوفان المال .. إن كان الخضر يا جد حسن قل له : معذرة يا مولاي ، وقبل كفيه وامطرهما بدموع الندم ، وإن كان المغربي فسأومه .. إن قال النصف قل الربع ، وإن قال الربع قل الثمن .. وهكذا يا جد حسن فأنت رجل عرك الدنيا ويجب ألا يفوز أحد منك بغير القليل .

• • •

ها قد حان الوقت لصلاة العشاء. على الجد حسن أن يتوضأ من جديد : لمن الله المعلقة فما تحمل غير الخبيث . الجد قال : يا بنت — بصوت أمر خافت وقور ، وقال بنفس الإيقاع : الإبريق يابنت — رغم أنه كان يرى ابنة ابنه تصب الماء في الإبريق .

انفضت صلاة العشاء ومتمعة صلاة التراويح ، الشيخ كامل أمام مسجد الجد عبد الله جاوز الثمانين ولكنه شاب في قيامه وقعوده : ما أثقل في صلاته قط ، كحلم قصير فارقه يا جد حسن وها أنت تطلب النعاس وكل ليلة تطاردك رؤيا إلهية (ثلاث أرامل ثلاث شقيقات من بنات الجنء أرديتهن السوداء غطت منهن الرأس والقدم .. قاعدات هناك تحت أشجار التمر حنة وسط تلال المقابر .. الرحي الكبير تعمل ولا تتوقف قطه الكلاب الضالة تعوى والنقط الضالة تنمو

والدم يختلط باللحم، وشجر التمر حنة يسقط الزهر تحت ضربات الريح الخفيفة
وعيون الجنيات تلمع مثل الجمر المتقد) .

ماكينة الطحين تلق (تك .. تك) ولا تتوقف ، هب الجد حسن : الموت
يأتى متكرراً في ثوب النعم الطويل .. يخالس الفرد ويرميه بثقل لا يطلق .. لا العين
تري ولا الأذن تسمع ولا اللسان يلوق .. ولا شيء سوى ظلام شديد ، ظلام بلا
حدود .

العالية

كان الجدد حسن قد فرغ من تناول طعام الغداء — هو وضييفه العالى المقام ، وكان الغداء دسماً : لحم ضأن .. وفتة المرقى بالخبز والكُرْز .
الضييف شرد بفكروه عن المكان ، والجدد حسن توقف عن كلمات الترحيب ، وتلك لحظة الكل يعرفها .. وهى دائماً تعقب كل أكلة دسمة .. يحسن فيها السكوت .. وتصبح القهوة مرغوبة بإلحاح وكذا النوم .
شخط الجدد حسن يستحث جاد المولى الأعرج — القاعد غير بعيد منهما أمام كوم من الرماد مدفوس فيه كنكتان من النحاس الاحمر . تفل جاد المولى الأعرج كوة من دخان المضغ وزعق ..
— « يا ولد يا أقرع بالكع .. هات الصينية وفنجانين » .

من حجرة لا باب لها — ملحقة بأسطبل الخيول لكنها منفصلة عنه ، جاء الولد بسطاولى القصير القامة يجذب في جلبابه الطويل الذى يسف التراب ولقد أخطى قرعته بطاقيه على شكل قمع — حاملاً صينية من النحاس الابيض عليها فنجانان بكل فنجان نقش لثلاثة عناقيد من العنب الأسود الناضج .. من كل عنقود تتلبد ثلاث حبات .

قال الجند حسن لضييفه بعد أن شرب فنجان قهوته الثالث :

« قم ونم »

قال مجيء ضيف على المقام :

« يا رجل لم أشبع منك بعد .. دعنا معاً بعض الوقت » .

قال الجند حسن العالم بمقام ضيفه والمقدر لحياء الرجل والعارف بالأصول :

« لا تتم .. قم واسترح يا رجل .. الوقت بيننا .. وعلاقنا علاقة جد قديم يحمد قديم .. نتمنى من الله أن تلوم بين الأبناء »

لم الضيف مندبه الذي يتمخط فيه وحق التشوق ودسهما في جيب ققطانه الناصع البياض الذي يلعب بشدة عند الثنيات ، وقام يتناقل وكأنه لا يوجد. أن يقرم . زعن الجند حسن . وجاء الأعرج يطلع . وأدركت العطسة الضيف فعطس . وقال الجند حسن يخاطب الأعرج :

« دل الضيف .. خذه لمكانه حتى يستريح .. وأرسل رسولاً لمحمداني ليطلع النخلة العالية ويجني لنا تمرأ »

تبسم الضيف وقال :

« أنت يابن الأكابر لا تعرف النسيان أبداً .. من تمر تلك النخلة المسماة بالعالية أكل جلودنا وجلودك وكذلك وأبى عليهم رحمة الله .. ومنها بإذن الله نأكل اليوم أنا وأنت .. إنه العهد قائم بين الرجال » .

تبسم الجند حسن بسمه أوسع من بسمه ضيفه — ورد :

« نتمنى من الله أن تلوم النعمة وأن يدوم بيننا الفعل الطيب ويتصل الولد » .

أشار الأعرج لعصاه المعوجة وقال بلهجة التهديد :

« ما هذه يا ولد يا أقرع ؟ » .

أنكمش الأقرع وتهته :

« تلك عصا .. تلك عصاك » .

« وما هذه ؟ »

وأشار الأعرج لعلبة السكر .

تبسم الأقرع في بلاهة — وتهته :

« حق . حق سكر »

وقال الأعرج في لهجة الأمر :

« أسمع يا ولد يا أقرع .. أذهب كالريح .. وقل لمحمداني المجلوم يحضر توأ »

ليطلع النخلة العالية .. سأثقل على الأرض تلفة .. لو جفت تفلتي قبل أن
تكون هنا وأمامي أنت ومحمداني المجلوم .. سأجعل المعوجة تهبك نجم
الظهر .. أسحبه من يده يا ولد يا أقرع » .

.. كالجن أخفى الأقرع . وتيسم الأقرع :

« هكلنا كان النبي الملك سليمان » .

وغز عصاه المعوجة بحكم الرماد ..

قال الأقرع مكلماً نفسه :

« شمس الصيف كبير .. والتراب الحامي فوق الأرض يلسع القدم
الخافية .. والسماء بعيدة .. سأسحب المجلوم من يده .. أنا رسول
الأقرع .. أنا رسول الجند حسن .. والأقرع والمجزوم وأنا وكلنا نخدم الجند
حسن .. السكر في الفم ييجري بلعاب حلو .. والعصا على الظهر
موجعة » .

دفع الولد بسطواي الباب الخشبي الموارب بيديه يبغي فتحة ينفذ منها ، ولو لم
يكن هناك حجر كبير وراء الباب لما سمع العمياء تمجر :

« من .. من يدفع الباب ؟ » .

اجاب البسطاوى :

« أنا » .

جعرت العمياء :

« لا يقول أنا الا الشيطان »

قال البسطاوى مرتبكاً :

« أنا البسطاوى .. أنا البسطاوى .. أهد محمداني ليطلع النخلة

العالية » ..

جعرت العمياء :

- « محمدانى غير موجود » .
- سألها محمدانى الذى صبحا على جعيها وكان نائماً فوق خصية على التراب :
- « تكلمين من يا امرأة ؟ »
- واصلت العمياء جعيها :
- « يقول أنه البسطاوى »
- صرخ محمدانى :
- « البسطاوى خادم الجند حسن يا امرأة .. البسطاوى الأقرع » .
- قالت العمياء تبغى الخلاص :
- قال انه البسطاوى .. لم يقل أنه الأقرع .. لم يقل يا رجل »
- هب محمدانى وزحزح الحجر عن الباب ، وهربول خارجاً ، ونادى البسطاوى الذى كاد يحتضى هناك عند انعرجة الدرب :
- « يا بسطاوى .. يا بسطاوى .. كنت نائماً .. كنت نائماً .. كنت نائماً .. كنت نائماً يا ولدى .. انتظر يا ولدى » .

- قال المجهول للأقرع وهو يريت على كتفه :
- « ما كانت تعرفك وهى ضريبة »
- ودخل البيت وأخذ الحبل الطويل المتين الذى يحجم به وسط النخلة ووسطه .
- قالت الضريبة :
- « يا محمدانى لا تطلع العالية .. اليوم يوم الريح القديمة التى عرفها الجدود .. ستكون هذه المرة كالخيل لما تجمىح .. ستكون لها حوافر وأعراف من نار .. ستهم بيتين وتحرق بيتين وتأخذ رجلاً .. و .. »
- قاطعها محمدانى :
- « يا امرأة لا يقدر على طلوع العالية غيرة .. وأين الأكابر حسن لا يرسل رسوله لى كى اطلع العالية الا اذا زاره ضيف على المقام »
- جعرت العمياء :
- « أقول .. العالية هذه المرة لن تعرفك .. هذه المرة لن تعرفك العالية يا محمدانى » .

تقرص الاقرع تحت العالية الشائخة القامة ، بمص قالب سكر ويتسم في وجه
محمداني بيلاهة . بينا وقف محمداني ينظر من أسفل العالية المنتصبة كبنات
الجن :

« تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها العالية شديدة العلو ملساء الساق » .

شعر بنفضة عرق الخوف عند الرجال — الكامن تحت الصدغ . قال :

— لن أخاف العالية .. تلك المرأة هي التي زرعت في نفسي الخوف من
العالية .. لن تخيفني امرأة .. لقد خلقت المنجمة الخوف ليعرف القلب
الرجفة .. وها أنا أرى الريح أخف من يد العاشق تعبت بجهد العالية في
حنو .. ما رجعت العمياء بالغب مرة الا وصدقت لكن يكذب
المنجمون » .

وشد محمداني الحبل على جذعه وشده على جذع العالية ، وشاه وثله ،
وحدث نفسه :

— « لن تجعلني الضريبة التي أعرفها وتعزني » .

« أنها الريح الهوجاء فكت قيودها — قادمة من حبسها البعيد ، ياساق ..

يا ساق .. كوني كايين البشر »

— هكذا صرخت المعمرة التي خيرت ريح الأزمنة ، ومالت ، ولت جبهدها
المجلول تحمي تمرها الطيب :

« لن أواجه مواجهة الثور .. ولن أستسلم كبقرة .. مكر الثعالب يغلب
القوى الباطش » .

وصرخت :

« ويا جنوري .. أنت يا جنوري .. كوني في الأرض أوتاداً .. كوني

في الأرض أوتاداً .. وتثبتي للريح .. وتثبتي للريح » ..

إيقاعات بطيئة ومنتظمة أيضاً

كور الطفل جسمه القليل ونفذ من فتحة بحائط الفسحة الوسطى ، وصل للفضاء المسور المتصل بالنار من جانبه الشقي .

(من وقت : هبت ريح الشمال المجنونة ، حملت عيدان السمسم والقطن من فوق أسطح البيوت ، ولت الأوراق الجافة من فروع أشجار التوت والأثل واللبخ ، والآن — تحت الحوائط — رقدت الأوراق والعيدان الجافة .. وجمار ترائى اللون وممزيان سوداوان ، وهناك في الطرف البعيد كانت صومعة صغيرة هي بيت الدجاج) .

كان الطفل مطمئناً فليس ثمة من يرقبه ، قعد على أربع ، أدخل يده الصغيرة من الكوة الضيقة .

(داخل الصومعة كانت اليد الصغيرة العمياء تتخبط في العتمة ، وكان جسم ضئيل يراوغ اليد ، وكانت الصيحات متتالية مخنوقة ، ثم تتالى ضرب يائس من جناحين في جسم حي) .

فجأة انطلقت من الكوة دجاجة بيضاء ، انفلتت من يد الطفل بقفزة ، عبرت مسرعة أرض الفضاء المسور ، وجنحت للجانب الشرقى ، نطت لفوق ثلاث ضربات من جناحيها الأبيضين لجانبى جسمها القليل ، وقفزت من فتحة الحائط للفسحة الوسطى الواسعة .

(هناك حيث ترقد جرار الماء المملوءة على السطح الترابى ، ويقف زير على حامل خشبى له ثلاث أرجل : كان سطح الزير الخارجى أخضر .. يلون العشب التامى على حوالى الترع) .

كانت الدجاجة البيضاء قد فردت جناحيها الأبيضين ، كانت تنقل قدميها بسرعة وارتياء من الأرض للفضاء .. من الأرض للفضاء .. وتكشع خلفها التراب ، وفجأة اختفت .

(نموذج لطائرة بيضاء تجرى على أرض المطار الصغير ، وخلفها شريط أبيض من الدخان ، فجأة — طارت الطائرة لأرض مجهولة) .

فى الساحة الوسيعة كانت أقراص العجين على ألواح الخشب تنتظر الشمس المحتجة خلف ضباب اليوم الشتوى ، وكانت الأم تنظر لابنتها ولأقراص العجين .

(منذ لحظة كان التراب نائماً على سطح الفسحة الوسطى بفعل الماء الذى رشته صغرى البنات ، والآن : ترقد خمس حفنات من التراب على أقراص العجين : حفنها كف طفل من كمية التراب الراقدة على سطح الفسحة الوسطى) .

أمسكت الأم بالولد الصغير ، والت الضرب بيطن يدها على عجزته ، كانت غاضبة .

(مازالت القطعة — التي قومت ظهرها ونطت فوق صندوق خشبى بلا غطاء

حين جرت الدجاجة البيضاء . مقوسة الظهر .. ناثرة .. متحفرة لعنو قادم ..
عينها تيقان ولونها شديد السواد شديد اللمعان ، مازالت القطعة تقف على حافة
الصندوق) .

كان الطفل مستمراً في البكاء ، كور وجهه ونفخ أنفه فتلنى خيط من
الخطاط ، قالت الأم : وسخ ، رد الطفل مكشراً وهو يبكي لازال : سأذبحها ،
قالت الأم بلهجة يقينية لم تخف الطفل : سأذبحك أنت ، قبض الولد على كم
قميصه بيده وله بين راحته الصغيرة ومسح الخطاط عن أنفه .

(على الحبل المعقود والمدقوق بمسمارين على الحائط الشرق والحائط الغربى تدلى
قميص خلعته الطفل في الصباح ، على الكمين وضحت آثار الخطاط الجاف بلون
الطين) .

نظرت الأم لعيونه السوداء اللامعة (البئر سوداء وجوفاء وعميقة ومملوءة بالأسرار
والرعب) والولد يتحرك تاركاً الساحة وقد عاد للبكاء من جديد — قال : يارب
أسترخ منك ، قالت الأم : لا تذهب هناك (نطت القطعة من فوق الصندوق على
أرض الفسحة الوسطى ، فأرقها الوهم وتجلت من إحساسها بالخطر ، ومن
فتحة في الصندوق الخشبي أدخلت رأسها : كان ينتظرها القطن الأسودان
الصغيران وحفيدتها القطعة الرمادية ، نامت بحسبها الطرى وتقلبت على جنبها
الأيمن .. هزت أثداءها وقدمتها لصغارها كي يمتصوها) .

أمام الدار كان يرقد كلب أسود ، النقط الطفل حجراً كبيراً وهو مازال يبكي
وضرب الكلب ، هب الكلب ونبح ، كف الطفل عن البكاء ، نظر للفضاء
الفسيح أمام الدار (فروع شجرة التين القريبة بدت كضبابة معلقة بالجزع :
هكذا بدت مع ضوء النهار القليل ، والدجاجة البيضاء تحت الجذع بدت صغيرة
جلاً : تروح وتجيء في حيرة وهي تبحث لازالت عن مكان تعبد فيه الأمان
وتبيض ، ويحصل هو على البيضة ، يسلفها ويأكلها بمفرده ، وقد يذهب للطاحون
ويقايض على البيضة بثلاث قطع من القصب .

قامت صغرى البنات برش الساحة بالماء ليوقد التراب من جديد ، كانت تلبس ثوباً من الكستور به زهور كبيرة حمراء وصفراء ، وأشعلت البنت الكبرى لمبة الجاز وعلقتها في كوة الجدار الشرقى .

اشتدت كثافة الظلام حيث توارت النجوم خلف الضباب الأسود شديد التماسك ، وعم سكون شرس (احتفظت الضفادع بحمقها في التمدد فظلت تنق نقيقاً متصلاً ، وكذا الكلاب كانت تنبح نباحاً متقطعاً ، أما القطط الأنثى فظلت تنادى ذكورها بحق التماسك) .

اليوت والدروب والنخيل والشجر تماسك في شكل كتلة سوداء متفحمة .

بالغرفة البحيمة ظل ذراع الأم على صدر الصغير وكفها على موضع قلبه تماماً ، وبجوارهما رقدت البنتان ، والصلبور ترتفع وتنخفض في حركة منتظمة غير متعاقبة ، ضوء الفانوس يغمز مع تيار الهواء الرطب الذى ينفذ من كوة وحيدة مسلوذة بحائط الغرفة ، على السرير المقابل كح المسن رب النار ويصق ويتاول من تحته قرية من جلد الأرناب مملوءة بالماء الناقى وشرب جرعتين ثم لم على جسمه حزام صوفى من وبر الخراف ونام وظل يشخر .

كان الموقد قد خبت ناره ، وكان الدخان كثيفاً هناك على السقف المدعم بمجملوع النخيل ، والهواء الذى ينفذ من كوة الحائط اشتدت رطوبته ، والكوة كانت مسلوذة بغلاف نتيجة حائط ، على النتيجة كتابة وصور لأشخاص في زى عسكرى ، وتهتة مقدمة من مهدى النتيجة صاحب مصانع الحلوى للأمة المصرية بجهة الجيش المبركة .

(كان الجو يميل إلى برودة الصباح باطراد ، فوق معذنة الجامع الكبير ظل شخص يرقب الشبورة التى صنعت نصف قوس وغطت البيوت والتقت مع استواء الأفق المغطى بالغيوم ، كان ينفخ جوفه ويفتح فمه ليخرج البخار الأبيض في حلقات وقد تهباً لأذان الفجر) .

الوشم

كان جابر يعشق بنت عمه فاطمة ، ولم يكن يملك جملاً يقدمه مهرأ لعمه
عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

كانت فاطمة جميلة ، خالية القلب ، لا غحفة ولا سمينة ، لا طويلة ولا
قصيرة ، علاوة على أنها تدهن شعرها الطويل بزيت القرنفل الطيب الرائحة .

وكان جابر قد سمع أن فاطمة قالت عنه :

« اليتيم صلب عوده كالتخلة بخبز الذرة ولين الماعز » .
فرد جابر بزهو وقال :

« تلك يشارة خمر والمثل يقول بين القلب والقلب رسول »

كانت البنت فاطمة صاحبة تقانين في تزويق نفسها ، فالكحل في عيون حريم
وبنات المشوية أسود والكحل في عيني فاطمة أخضر . والبنت فاطمة تلعب
بشعرها لعب الحولة المهرة ، فمرة ترميه ضفيريّتين طويلتين سوداوين خلف ظهرها ،

ومرة تتركه يتلصق فُصّة سوداء فوق الجبهة تشبك فيها خرزة زرقاء ، وأحياناً تطلقه بحراً هائجاً أسود ، وأحياناً تَضْفَرُو ضفائر كثيرة لتتشبه بالملامكة .

يا لها من ماهرة ، بالخيوط والآلة تفصل أثوابها المرسومة لترقد فوق كل ثدى وزدة كبيرة أو يمشش طائر مفرد ، والثوب لا يضيق ولا يتسع .

لما رأى جابر البنت فاطمة تسمى للماء عند البئر مع البنات ، قال :

« سأعلنونها في رفع الجوة » .

ومنعه الخنجل فالكل يعرف أنه يحب فاطمة — ولكنه لا يملك جمالاً يقدمه مهرأً لعمه عبد الرسول ليتزوج من فاطمة . اكتفى جابر بالنظر للبنت فاطمة وهي تخطو : كانت حافية القدمين ولكن بهنق حمامة .

فقد جابر صيو ، هو الذى مات والده وهو صغير ، فتزوجت أمه برجل من عشيرة أخرى فأكثرتها عشيرة والده ، ليعرف جابر العمل المهلك القليل القيمة مع أعمامه في العشيرة منذ طفولته — إن كان ثمة طفولة في حياته .

فقد جابر صيو ، وقرر أن لا يعمل مع أى فرد من أفراد العشيرة ما دام لن يحصل على جمل يقدمه مهرأً لفاطمة .

وقد حاول أحد العقلاء إقناعه بالتخلل عن قراره فالصبر جميل وذات يوم سيحصل على جمل يقدمه مهرأً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة . فسأله جابر وبلغ ريقه المر :

— « بعد عام .. أم سبعة أعوام .. أم حتى ينقضى العمر »

أجاب العقل :

— « لا تتسجل فالمجلة من الشيطان والشيطان عدو لابن آدم .. ربما بعد خمسة أعوام أو سبعة ، وفاطمة ماتزال صغيرة .. وأنت ماتزال شاباً . قهراً » .

فسأله جابر :

— « هل تمدنى بأن لا تتزوج فاطمة حتى أحصل على جمل » .

وفكر جابر في الخفراء الذين يسكنون اللصوص وقال إنهم عميان، لو عرفوا فاطمة لصار لهم بصر وصارت لهم قلوب غير مظلمة ولما ساقوه للدور العتبة لضرب هناك بالأقلام وكعوب البنادق ، أما العملة فهو عجوز محب للمال ولحم الطير والحيوان والبشر — كيف لا ترى عيونه جمال فاطمة فيتزوجها ، قال جابر : لو كنت بمكان العملة لتزوجت من فاطمة بنت عبد الرسول وأنا المالك لمائة جمل بمفردى، ولقلت للولد جابر السارق اذهب يا ولد ولا تفعلها مرة ثانية بدلاً من أن أوثقه بالحبال وأجعل الخفراء يسوقونه لمبنى المركز حيث ينظف جابر المسكين مرابط الخيول ويرمى في أحواض الماء النتنة ولا ينطق بحرف أمام القاضي الذى يهايه العملة نفسه ، ثم يقضى جابر المسكين السنوات بالسجن المظلم الرطب الذى يحرسه عسكر غلاظ شدد قلوبهم أيضاً غليظة ومن حجر أسود كأحذيتهم السوداء الغليظة ، ويظل جابر المسكين يعد الأيام والليالي قانعاً بشئ بسيط؛ لا الزواج من فاطمة. ولكن مجرد رؤيتها بالعين .. خارجه من بيت زوجها لتجلب الماء ليشرب الزوج ماء حلالاً زلالاً جلبته فاطمة .

وأفاق جابر من هلوساته على ما يملأ زنبيلين من الحقائق : التدى تل لا ينفذ في تربته سهم .. والورد متقوش على التدين... والبيت من طابق واحد وحجرتين .. والسجن رطب ومعتم والعسكر والخفراء والعملة مسلحون .. وحركة الدجاج بالليل تمهل الجسم مشتاقاً للاتصاف بجسم .. والسرير يكون من الحديد ولا يكون من الخشب ولا قرضته القرضة .. وشيخ العشيقة على حق فمن أين يحصل جابر على خبز اللذة ولبن الماغز إن لم يعمل .. والعم عبد الرسول في حاجة إلى جمل يجلب به السياخ المسروق من المعيد .. والبيت فاطمة أجهل بنت في دنيا الناس .. والمثل يقول العين بصيرة واليد قصيرة .. وما من ثمة أمل في الحصول على سلك الضمير .. كما أن العودة لبيوت العشيقة مستحيلة ، فالذئاب الجائعة ترصد هناك عند المسالك .. وحتى تطل عيون النهار سيهتدى جابر إلى حل .. أما النوم — هنا — حيث يطول لسان الماء ويقصر فمستحيل مستحيل مستحيل .. وحتى يطل النهار المبصر بألف عين (سيجعل مضارب الفجر غايته ، ويسلم زنده للفتحية العجوز القاعدة أمام الجيمة — تحت البختين — لتتش يدين مدينتين على الجلد بالإبرة قلباً بداخله جمل واقف له وجه إنسى) .

فكر الناصح لوقت ، ولم فى خياله البنت فاطمة لابسـة الخللخال ،
وأجاب :

— « الحق لا أعلـك .. البنت حلوة .. جلدها بلون حبة القمح وناعم نعومة
قماش القطيفة .. ولأنباء العشيرة عيون تشوف وتعشق .. والعشيرة تملك
مائة جمل ومائة ناقة .. الحق لا أعلـك » .

وهكلما فقد جابر عقله وقرر أن لا يعمل . وضحك شيخ العشيرة وسعل
وبصق وقال :

— « سنرى من أين يحصل جابر على القوت .. الجسد يا رجل يحتاج للطعام
بمثل احتياج النخيل للجذر الطويل الذى يمتص الماء من بطن الأرض » .

غابت فمس الصيف الكبيـة خلف تلال الغرب ، وملازال الأفق الغربى يحترق ،
وكان لأشجار الأثل ذات الزهر الأصفر النامية على حافى التربة ظلال سوداء
تتأرجح فوق صفحة الماء العكر . وفجأة أسقط الليل خيمته السوداء الثقيلة ،
وثبت أوتادها فى الأرض وظهر فى السماء هلال صغير ونجوم قليلة متباعدة خافتة
الضوء ، ومن مكان بعيد مجهول سمع صوت طائر أشبه بصرخة أم فقدت وليدها
الوحيد .

أحس جابر بأن ثمة شيئاً مس جسده فأصابته رعلة وشعر ببرودة ليل
الشتاء — رغم أن الليلة ليلة من ليالى الصيف ، فهول خارجاً من الماء ، واعتل
المرتفع الجاف بينا الماء يتقاطر من سرواله بصوت ، وليس جلابيه القصير القديم
المصبوغ بالنيلة الزرقاء الواسع الأكمام ، وخلع سرواله وظل يعصره حتى خلصه من
الماء فنشوه على فرع شجرة سنط قريبة مائلة ليحـف ، ومضى يكلم نفسه :
— « كيف غاب عنك يولود يا جابر أن الماء مسكون بالجن وأرواح الفرق
والقتل » .

وقد مر وقت ، ألمم جابر نفسه المشتتة وفارقه الخوف ، فخلع قميصه
وطواه وثبته بحجر كبير ونزل الماء منتقلاً من جرف إلى جرف باحاً وسط
الأحجار والعشب النامى عن مملك الضيق البطيء الحركة بسبب تلك
الشوكة اللعينة المرشوقة فى رقبته .

ظل جابر يتنقل من جرف إلى جرف بحثاً عن سمك الضبع حتى مر وقت طويل ، فقال لنفسه لو أمسكت بسمكة واحدة سأخرج من الماء وأكتفى بها طعاماً ليومي هذا ، وفكر في أنه لابد أن يشوبها قبل أن يأكلها .. فهل سيطلب ناراً من عشيرته التي ضنت عليه بمحمل وهو الذي خدمها منذ صباه ليقدمه مهراً لفاطمة . وقال جابر لنفسه :

— « لو حصلت على السمكة سأضرب حجرتي وأشعل منهنما النار في الحطب اليابس وهو كثير والحمد لله » .

ولما نظر جابر للسماء وجدها أصفى زرقة وقد كثر عدد النجوم بها ، فقرر أن يخرج من الماء ويحلم بعض الوقت بفاطمة ثم يعود من جديد ليبحث عن سمك الضبع .

كان جابر عابداً كما ولدته أمه ، مستنداً ظهوه على شجرة السنط المائلة ، وبعين العاشق رأى فاطمة تأتي وترفع الحجر وتأخذ قميصه وتشم رائحة عرقه الأخضر تحت الإبطون وضمت تفسل القميص يلبسها وما هو يسمع زنين الأساور الزجاجية الملونة .

وليل الصيف لما يوغل يشتد برده — وهكذا أحس جابر برعشة جعلته يفيق من حلمه القصير الجميل ، ولأنه كان جائعاً فقد قرر أن يهبط إلى الماء مرة أخرى بحثاً عن سمك الضبع ، مقسماً لله ساكن السموات ومقسم الأرزاق أنه سيكتفى بسمكة واحدة .. سمكة واحدة .. الله يكره عبده الذي لا يعمل يا جابر .. والله يكره أيضاً المنشق عن أهله وعشيرته .. إن كانت فاطمة جميلة فلله أجل من أى شيء وكل شيء .. وهكذا استحق جابر العقاب فخرج من الماء وليس قميصه وسرواله الذي جف وجلس مستنداً ظهوه على جذع شجرة السنط المائلة .

بإمكان جابر أن يسرق حملاً من عشيرة أخرى وذلك لا يحدث إلا في سوق البندر المسور الذي يحميه عسكر الحكومة ، ولو وفق سيجلب السبخ الطيب من المعبد القديم الذي يحرسه خفراء الحكومة ، ولو وفق فسيبيع السبخ الطيب لعشيرته يصلون به عود النبات الأخضر ، ومع الأيام سيشتري حملاً ويقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

الفخاخ منصوبة للمحيين

- مدخل -

هجع الكل - إلا الضفدع والطاحونة والكلاب وقشمر .

- قاصد الجبل -

ما عاد بمقدور قشمر أن ينكر البرودة التي حلت ببلده ، وبات عاجزاً عن إيقاف الرعدة السارية بأطرافه : « إنها صحوة القديم يا قشمر تلك التي تسوقك سوفاً إليه وإلى الجبل .

الكلاب لم تنبح وتوقظ النيام ، فكلاب الوادى جميعها تعرفه ، وإن كانت الكلاب بالليل لا تتميز بصيوتها بين شخص وآخر ، إلا أنها تملك الأنوف التي بها تشم رائحة قشمر .

- الرحلة -

قمر السماء العالى رمى بالضوء الفضى فوق الرمال ، وخلق الظل الرمادى
لقشمر : هذا الظل العجيب يسير إذا ما سار قشمر .. ويقف متى وقف
قشمر .

ها هو قشمر الخائف يكلم ظله العجيب :
« أنا صديق قديم للزغى ساكن الجبل ، إن أردت الحق كنت تابعه ، ههه ،
تلك علاقة قديمة كانت فى الصغر وتدرجت مع الأيام وتلك كانت أيام ، حتى
جاء يوم أدار فيه الزغى ظهره لى وللواى وعم وجهه شطر الجبل وكان قد قتل
الحاج عطية » .

« فى ذات اليوم ظننت أنى قد ملكت حبيبى : ملامت النفس .. ومادام قلبى
يذق دقاته المعتادة — فلماذا أخاف الزغى ؟ هل جرئت فى يوم من الأيام قوة
بدنك يا قشمر . وخضت مع الزغى معركة ؟ بالله .. وكأنتى كنت أملك تلك
القدرة على التفكير !! » .

« يوم طلبت هى الطلاق من الزغى الغائب — قلت : « هذا الأمر لا يعنيك
يا قشمر » ، والليلة زفت على مطلوع بن الحاج عطية ، وها أنا يارفاق الطريق أحمل
الخيزر لسيد الجبل (ليكفر عن سنوات الوهم والإنكار والمقاومة ، وها هو يا ظلة
على الطريق يبغى الخلاص بالتلاشى فى الآخر) .

سمع قشمر صيحة الجبل ففارقه ظله وهرب :

« ما أقسى لخطوات الخوف حين يواجهها الإنسان بمفرده » .

- صيحة الجبل -

يصيح الكشاف من مكانه أسفل الجبل ويشهر سلاحه ويتلف آخر صيحة
الكشاف فيقبض على سلاحه ويصيح ، ويدد الجبل وتزد رمال الصحراء صيحة
الرجال المتباينة ، وتعالى اللقاب فى البعيد .

يتك الحارس زميله أمام باب المغارة ، ويمر عنى الظهر من سرداب كثير
التعارج محفور ببطن الصخر ، ويهبط ست درجات حجرية ، ويقف أمام القاعد
عار ، فهو من جلد الجاموس يتخلقه رجاله الأشداء ، بينا القاعد يفرك راحتيه
ويعبرها فوق ألسنة النار التى تتصاعد من بوتقة نحاس كبيرة — يقول الحارس :

« رجل قصير شديد البنيان غايته الجبل » .

- المعبر -

ضحك الرضى وصاح مهلاً ، وصاح الجبل وصاحت الصخرة ، وصاح
الرجال :

« إنه قشمر .. دعوه يمر » .

تتحى الكشاف وأنسح طريقاً ورد سلاحه إلى غمده ، والرضى بأعل الجبل
يصيح مرحباً فاتحاً ذراعيه لقشمر الذى يهرج مع الطريق الوعة صاعداً الجبل —
كأنه الطلوس وقد ولى عنه نصف الخوف .

- أولاد آدم -

يرمى الرضى الحطاب للنار لتأكل فتأجج وتضوء وجوه الرجال وتزع الظلمة
فتقع بأركان المكان القصية . ويقترب قشمر من النار فهو فى حاجة للدفء
الكثير .. ويشرب الكل شايهم الساخن من أكواب الفخار بصوت .

تكلم الرضى وردد العبدى كلامه :

« تم الطلاق .. والبلوحة كان العرس .. المرأة تفعل ما تريد .. مطلوب ابن
الحاج عطية تزوج من أم ابنى .. وابنى ترى فى بيت الحلاج عطية .. صار كبيراً
بعد العمر الذى مر .. صار الثور سمياً .. أطعموه ليكثر لحمه ودهنه .. متى
سيذهب ؟ » ..

رد قشمر : « صار رجلاً .. لقد كبر ! » .

صرخ الرضى : « لماذا لم يحضر إلى هنا ؟ لماذا لم تحيىء به أنت إلى هنا ؟ »
رد قشمر : إنه .. إنه محب .. و .. عاشق » .
سأل الرضى : « من تكون المليحة ؟ » .
قال قشمر : « فتاة .. تسكن كروم النخيل الواقعة بأمالك الحاج عطية ..
أنت مع الفجر الرجل » .

- العدة -

ها هو بمنزلة ابن السيل ، حافى القدمين ، يطلع في مشيته ، منحني الظهر ،
يستند على فرع يابس من الحطب ، بلحية طويلة لم يهلها مشط ، وعمامة
خضراء كبيرة فوق الرأس ، ومن رقبته تتدلى مسبحة كاملة : عدد حباتها تسع
وتسعون حبة .

- عالى -

داهمه الليل ، وسمع نبح الكلاب الجائعة الرقدة أمام الدور ، وتلك التى تسمى بين
الدروب الضيقة ، فقرر أن يبيت ليلته على أبواب الوادى حتى تطل عيون النهار .

- على أبواب الوادى -

إنها شجرة التوت القائمة منذ الأزل المسماة بشجرة الله — تحيا زهر به ماء ،
وهذا ضريح الولي المجهول الاسم . وتلك هى المصل : مستطيل من الأرض فرش
بالحصير وحيط بسور قصير ارتفاعه قالب طوب قائم .

بداخل الضريح مصطبة مفروشة بحصيرة قديمة ، وفوق المصطبة كومة من
الأغذية القديمة ، ومن الكرة المخفورة بطن الحائط — تطل عين سوداء ولبة جاز
فتيلها قصير تنفر الدخان الأسود وتطوح بالضوء الأصفر القليل والظلال الرمادية
الكثيرة .

- الحلم -

الحاج عطية يتكلم من فوق سرجه ، والسמكة من البلور الأزرق النقى

(منتفخة البطن ، يجنبها الأيمن زعنفة كأنها جناح طائر ويجنبها الأيسر زعنفة كأنها جناح طائر ، وبأسفل البطن ثقب) ، الحلاج عطية يهد السمكة لنفسه والزغبى يهد السمكة لنفسه . والحمار الأبيض العالى الظهر رمى بالحاج عطية ورمى بسرجه وركض فى حقل الرسم الأخضر ، والسمكة بيد الزغبى ، وضوء النار الأحمر صيغ الكون ، ولا شئ أعلى من ألسنة الدخان غير قامة الجبل المضيفة .

— النداء —

الصوت طلع من حلق مشروخ من اليد ، ومن صدر تكومت فوقه طبقات وطبقات من دخان المعسل المحترق .
— قال : « هو يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة الفجر » .

— اللقاء —

قالت : « لو عرفوا أنك أنت .. وأنتك هنا .. لأتوا وقطعوا رأسك » .
رد بثقة : « لو عرفوا ، علونينى حتى أعرفه » .
قالت : « اذهب وخذ من يتهم قبل أن يقتلوه » .
قال : « بلغنى أنه عاشق .. أبعد أن أراه وأراها » .
وسألها : « لماذا طلبت الطلاق ؟ »
قالت : « أردت أن أكون محصنة » .
قال : « بالزواج من مطلوب ابن الحلاج عطية ؟ »
قالت : « لو أحببني سيترك لى ابني .. وها أنت ترائى لابسمة ثوبى الأسود » .
قال : « كان بإمكانك أن تحمليه وهو صغير وتأتين به إلى الجبل » .
قالت : « الطريق إلى الجبل وعر وطول على امرأة .. وكانوا سيلحقون لى .. وأنت تتكلم عن الماضي » .
قال : « المرأة لو أرادت فعلت » .
وقال لنفسه : « وأنا تركتها حيلة غير قادرة على الجهد » .

أمسكت بصفيرة من شعرها ، ودمى هو يده تحت ثوبه وأخرج مسكينة قدمها لها ، ملدت يدها وتناولت المسكينة وجرت صفيرتها وقدمتها له .

قالت : « عد إلى الجبل .. ستجده في بيتهم أو تحت كروم النخيل .. »
يشبهك .. لست في حاجة إلى معونتي .

وقالت تلويح : « أتيت بالسكينة لتقتلني » .
قال خجلاً وهو يكذب : « أتيت بالسكينة لأدافع عن نفسي » .

- البهجة والمفرجون -

أطل مطلوع وخلفه خلق كثير سدوا فتحة الباب .

قال مطلوع : « كنت على يقين من أنك ستحضر بعد زواجي منها » .

وتقدم مطلوع ، وأمسك بالقأس المسندة على الحائط ورفعها يديه لفوق ولوح
بها في الهواء وصرخ في وجهيهما . فتراجع الزغبي .

- صانع المفاجعة يلم الخويوط -

صرخ مطلوع :

« ها أنت خائف .. كان عليك أن تتقدم إليّ حاملاً أكفانك على كتفك
بعد قتلك لأبي .. وكنت سأعتق رقتك .. بدلا من أن تحتفي بالجحور .. كان
عليك أن تنق في عرف الرجال » .

وصرخ مطلوع في جهة المفرجين :

« ها هو خائف .. ها هو ساكن الجحر .. وما أنا مطلوع ابن الحاج عطية
أعتق رقبة الزغبي قاتل أبي » .

وعاد يصرخ في الزغبي :

« لن تعود للجبل فالذئاب تقتل الخائف .. ولا أنت خارج من بيتك للوادي
فالرجال هنا طبعهم مطردة الفئران والقرف منها ، هنا جحرك .. وتلك هي

زوجتك التى لن تطيقك .. تعلم كيف تستخدم سكيتتك حين تجوع وتطلب اللحم .. أما ابنك فهو راحل خلف الفتاة العجوبة .

- يستحق الجنون لأنه الشخصية الأخيرة -

كسر طوق الرجال ، وجرى حاملاً فأسه يلوح بها ، وهو يضحك ضحكة المنتقم المجنونة فتزدها الحوايط ويوددها الخلاء ، حتى بلغ شجرة الله المثمرة (كانت بالضحى ترمى بظلها الكثير على ضريح الولي المجهول وعلى النهر وعلى المصلى ، وقد تجردت الساق الضخمة من لحاها) ورفع فأسه .. وصرنحت الشجرة .

الشهر السادس من العام الثالث

البداية :

مع رجال التراحيل رجل مصطفى .. وهو بعد صبي .. مر عام والعام الثاني يطوى آخر أيامه ، وما من خير عن الغائب الفالى .

عقل الأم :

عقل حزينه مع ابنها الغائب : هناك فى البلاد البعيدة .. وأذنبا اليمنى التى تسمع — هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : بخيت البشارى الراقد يتقلب فوق المصطبة التى تطلوq جذع شجرة الدوم « صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس وتضعها بمكان به ظل ، يرقد على ظهره يرقب الشمس الجارية فى السماء ، يصرخ فى وقت : أبهى الشمس ، ويصرخ فى وقت آخر : أبهى الظل — هكنا طوال النهار ، هكنا يمر النهار ، هى وابنتها الشابة تحملان القفة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الشمس — لكنه زوجها فى الحلال وولد مصطفى وفهجمة

اليدان تلعبان — هنا — بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ،
والعقل — هناك — مع الغالى فى بلاد الناس البعيدة .

بحيث البشارى فى حديث يقظة :

« المصباح شح زيته ، واللبل الطويل الأسود قدام ، آه من الوجع والسن ، نومي قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينة الخرقاء تتطير من رقة النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قلم تلوس كسوة خبز مرمية ، حزينة مخوفة ، هى امرأة ، الرجل منا كابد ، عقلها مع الولد والولد بعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم ، لو نمت وطال النوم — بغير أحلام وكوايس — سأذهب إلى الله الرحيم — أنا المسلم — وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندي دخان لدخنت ومر هذا الوقت البطيء الذى لا أحتمله » .

من حكم الليل معلم القرى :

« نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض :
لو طالت البشر أو الحيوان أو الزرع أو حتى الجن — لتحول فى التو إلى رماد » .

« مصطفى الأصغر — لكنه سيد فهمة التى تكبو بمامين ونصف عام ،
يضرها ونحبها ، الأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهمة ومخوفة من العيب ، مصطفى رجل وفهمة بنت ، للبننت ثوب أبيض طويل الذيل ، على البننت أن تمسك بذيل ثوبها وتمشنى فى الطريق محاذرة — وهل بالطرق غير الوحل والتراب والقش ؟! »

الصبية مضطربة والليل رفيق الأفكار :

هى بنت الأم والأب ، وهو الشقيق البعيد ، وهى تحبه وهو باليقين يبادها الحب ، فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت وقد عرفت طعم اللذة يصحبها الألم — كانت تعتمد الفعل المعوج ليضرها فتصنع البكاء وتشتمه :
هكلنا تشتعل ناره ونحوى فيضرب بعنف .

كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل فى غفلة من أحمد المحروق الحارس
النائم .. يسرق البلح ويبيعه لمنصور الصادق صاحب النكان الساهر ويشترى
الدخان ويدخن ، حتى هذا الوقت لم يعرف الأب ولا الأم أن ابنتهما كبر ويدخن ،
فهيمة لم تبج بسو — لأنها تحبه وتقدر أنه يهاب والديه . للبول رائحة على التراب
تشمها لما تتذكره ، فى السر كانت فهيمة تشم رائحة وسخ مصطفى وعرقه
بجلباسه قبل أن تفسلها ، ورغم البعد فهو ابن الأم والأب وهو الرجل الذى تخشاه
وتحبه .

الشهر الثالث من العام الثالث :

هممت الفجيرة لترقص الحلقات المتدلية من الأنف والأذنين ، سحبت من
معطفها صرة من القماش فبلن رمل وحجر . ملئت حزمة يدها ببيضتين . قالت
الفجيرة: « ثلاث ييضات » وابتمت الفجيرة ولمعت سنتها الفضية وقد رمت
حزمة بنظرة فاحصة وتتمت: « مليحة الصبية .. كالبلر فى اكباله .. مفرودة
الشرع كالركب فى الماء » . نحت حزمة السنة الفضية والحلقان وهى ترقص قالت:
« لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها .. سارقة الدجاج والأطفال ..
لكنها تعرف كيف تكلم الحجر .. ثلاث ييضات ثلاث ييضات » .

ما قاله الحجر وما قالت الفجيرة :

قطار من حديد أسود خلفه الدخان والأهل والزرع والتراب والبيوت ، وبأخرة
حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء والرمل الأصفر على الجانين ، وبالبلاد
ملوك ، والشمس تجرى فى الماء والشمس تجرى فى السماء ، على الماء قمر ، وفى
السماء قمر.. وفى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .. اشكرى الله ياخاله .

خمير :

من النهر عادت فهيمة ، باب يهتم الخشبي الموارب ضربت ضلفته الواحدة
بقدمها اليمنى وزعقت: « آماه .. آماه » . تملك حزمة غضب سمعت خبط
الضلفة الخشبية بالحائط الطينى وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت
فأنكسرت وسال الماء — قالت حزمة: « الرعاء » . صرخ البشارى: « ما الذى

جرى .. هل قامت القيامة ؟! » صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد الحكم لأهله » . قال بخيت البشارى : « البنت تزعم كما لو كانت تنادى فى السوق » ، وسأل مستسراً « عبد الحكم .. من يكون عبد الحكم ؟! » . ردت حزنه : « ابن صديقه على » . قال بخيت وهو فى عجب من أمر الحرم : « ماننا ومال عبد الحكم ابن صديقه على ؟! » . ردت حزنه « رفيق مصطفى فى الرحلة .. عبد الحكم رفيق مصطفى فى غربته » . قال بخيت « عبد الحكم ابن طه محمد .. تتكلمان عن عبد الحكم ابن طه من صديقه على » ، وسأل بخيت البشارى « ومصطفى ؟ » . نظرت حزنه للجرة المكسورة وانقبض قلبها « هذا النذير » ، وردت على بخيت — وهى مهم بلبس بودة الخروج « سأعرف منهم .. من أهل عبد الحكم سأعرف » .

بشارة خير :

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله . هبطت السكينة على قلب حزنه المتنازع فأكثرت من الكلام مع «صديقه على» وشربت كويين من الشاى وأكلت تمرًا طيبًا ومر الوقت سريعاً — وقالت « لصديقه على » وهى مهم بمفارقة : « عرفت أنهم هناك يعملون .. يشقون الترع ويقومون بخلوط السكك الحديدية لتجرى القطارات .. لكن متى يصلنا منهم المال ؟ » .

الحمد لله والشكر لله :

هاكو دخان معسل دفعت فيه حزنه لصاحب الدكان خمس يرضات وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى صاحب الدعوة المقبولة والقريب من الله ، وطلبت حزنه من يوسف أن يطلب من الشيخ الدعاء لمصطفى فى بلاد الناس .

نقاش

قال بخيت : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر فى هاكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة ، فكرت حزنه : بخيت كان يهد الدخان لنفسه ، وقالت : « يوسف سليم رجل طيب .. اختاره الشيخ دون أهل البلد لأنه رجل طيب » . قال بخيت لنفسه : حزنه مناكله .. هى الآن تهلى أنا غابتها فى التو

واللحظة نهش لحمى .. لما كنت أملك عافيتى كنت أغلق فيها .. لما يأتى الليل
سأبكي تحت الغطاء أنا رجل البيت .. لو صحا واحد من أهل الدار سأمكر
وأقول « أبكى من العلة » . قالت فهيمة « الشيخ كله بركة » وفكرت فهيمة :
وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفأ الثوب وقعد عليه وعبر النهر من
الشرق إلى الغرب وعاد للشرق وليس ثوبه الذى لم يتل .

بجيت يواجه نفسه :

فى مواجهة الليل الطويل الأسود والمصباح الذى شح زيته والعلة التى تنهش فى
جسده الضاوى — تراجع بجيت البشارى وحدث نفسه وقد خاف الضرر المخبوء
فى الغيب :

يوسف سليم رجل أمين .. كان يعمل بالجزارة ويكسب .. كانت الدكانة
حجرة من حجرات البيت تطل على الشارع .. لما اختار الشيخ الحجرة لتكون
خلوته التى يعيد فيها الواحد الأحد كف يوسف عن الجزارة وصار نقيب الشيخ
فى جمع النذور .. الشيخ موسى أيضاً رجل مبارك .. يفلق حجرته بالنهار ويجوس
هناك بمكة المكرمة مع صحبه من الأولياء والصالحين ولا يعود الا بالليل ليفتح
حجرته ويستقبل أحبابه ومهديه ، لولا المرض لزار بجيت الشيخ وجلس مع أحباب
الشيخ وشرب المعسل وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول وشارك فى
الأذكار وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

أخيراً وصل جواب من مصطفى :

بعد ثلاث أعوام ونصف عام وصلت رسالة من مصطفى على عنوان الشيخ
الفاضل ، أفاد فيها والده بجيت البشارى بالخلاف الذى قام بينه وبين الرئيس عبد
الظاهر ، وطلب من والده صرف النظر عن موضوع الخلاف وعدم مناقشته فيه
فمصطفى رجل يحرف متسلحة نفسه ، قال مصطفى لوالده : لا تدع الأثكار
السوداء تتناهبك من ناحيتى .. سأسعى فى أرض الله الواسعة .. سأعمل
سأحصل على المال الذى يسد حاجتى ويكفى لكى أرسل لكم ما يكفىكم شر
الزمان الصعب .. أطال الله عمرك يا أبى ومنحك الصحة والعافية .. سلامى لأمى
حنينة وأختى العزيزة فهيمة التى أمتنى لها حياة مستورة فى بيت ابن الحلال الذى يأتى
وهدى الباب وتفتح الباب أنت وهم الفرح فى حياتك .

النهاية :

صمت الشيخ الفاضل ثم قرأ: «مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب» ، ثم طوى الرسالة ونلونها لحنية التي قبلتها ودستها في صدرها . قالت حزينة لنفسها : سافر من أجل المال فلماذا لا يعود، والبركة في دجاجاتي منها تحصل على البيض الذي تبيعه وتحصل على حاجتنا .. عشنا الفقر ولم نعرف الغنى فلماذا يحملني أنا أمه ألم بعده . وقالت فهيمة لنفسها : لما أتزوج سأترك هذا البيت .. ليت زوجي يكون في جسمه وشكله . وحدثت بخت البشاري نفسه : سأمت قبل أن يكون وأراه .

الموت فى ثلاث لوحات

- اللوحة الأولى -

ها هو بنحت البشرى ممدد على سريره الذى صنعه بيديه من جهد النخيل ،
المرض المكروه أقعده من عامين . رفعت حنينة عنه الغطاء ورأت الوجه وقد شرب
الألوان الثلاثة : الأسود والأصفر والأزرق — فخمنت أنه الموت . قالت حنينة
لبنتها فهيمة : أركضى يا بنت ولا تعودى . بغير الشيخ الفاضل ، وقالت حنينة
لنفسها وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : هاهو يقاوم بعزيمة الرجال .

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانة الحرير الأبيض من خلفه وهم بالجلوس .
أقسمت حنينة بمحمد أشرف الخلق أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف
بالقعود على المصطبة العالية . جرت فهيمة وعادت بمحصر فرشته على المصطبة —
التي تطوق جذع شجرة النوم القائمة بفناء الدار ، وقعد الشيخ الفاضل .

خططات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة النوم وتجعلها تمحك وتصدر
أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء . ضوء شمس ما قبل الغروب
الأصفر اللين يغمر أرض وحوايط الفناء الضيق . الشيخ الفاضل أشلر بالقائلة

التي تعود على المريض من الشمع الأصفر . حنينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت ، فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، قالت لنفسها سأجاريها في كل فعل تفعله : أنا لم أخبر بعد هذا الذي خبرته هي .

أدار الشيخ الفاضل وجهه بنحيت للقبلة الشريفة وباعد ما بين الشفتين وصب الماء الطهور ومال على أذنه مجاهراً : لا إله إلا الله .. سيدنا ونبينا محمد رسول الله ، وعاد وقعد على الحصر فوق المصطبة .

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة . نحن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حنينة المجربة : نعم هو ملاك الموت . وظننت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفونها — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحتمي عينيها من التراب المهتاج من ضرب الجناحين الكبيهن ، وسمعت مثل أمها والشيخ الفاضل صوت الشهقة العالية وصوت الياب الذي أنفلق فما قلرت على كتمان الصرخة العالية .

النسوة المعنيات يشاركن حنينة في الصراخ ويلطمن الحنينة وتعلم أن الواحدة منهن تنادى موتاهما الغوالي ، أما هي فيعقلها هناك مع الرجال .. مع الميت يرفعون الشعر عن الإبطون والعانة .. ويخلعون الجسد بالماء .. ويدعونه بعشب العفن المر .. ثم يجمعون من جنوبيهم ثمن الأكفان البيضاء ويحملونه على خشبة ويصلون عليه وينزلونه في الحفرة ثم يملون التراب عليه — وعليها هي أن تدبر في أجر الفقهاء الذين سيحضرون تلاوة القرآن على روجه طلباً للغفران والرحمة .

— اللوحة الثانية —

صحت بالليل الأخير على صوتها تنضرع : أمه .. أمه ، هبت فروعاً قالت فهيمة : اليد .. اليد يا أمه .. نعم جسد الميت كله يرتعش والرأس ساخن

كانه قرن موقدة ، لت كل الأعطية وكومتها فوق الجسد ، وبخلل والماء مللت خوقة وظلت ترطب الرأس ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الأتزان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق ، قالت لنفسها : هى الحمى المعينة .

جاء المأمون الملكم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصله بالموسى ، وامتنع بالهجوم الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القلر القاتم اللون ، وقال : هناك أيضا دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتل لأخرجت عجابين آخرين وضمنت بذلك سلامتها . وقال المأمون الملكم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب

جاء المأمون الملكم ورأى فهيمة ما زالت على حالها لا تفوق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد نارا وحى مسمرا وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون الملكم : بذلك أكون قد قتلتم الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء .

ظل الأمل يرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق مسجد عبد الله لآذان العصر ، وأذن يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وهى فهيمة تبسم ، وصرخت حزينة فى وجه القدام : لا .. لا .. أنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .

- اللوحة الثالثة -

بين الدروب الزاوية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب وشجر القمر حنة تحت هبات الريح الخفيفة لا يكف عن إظهارها بالزهر الأصفر اليابس ، كانت تسلك طريقها وسط المقابر عملاقة متطوية من هول ما يمكن أن يصيبها فيما لو داست على عظام ميت ، وسمعت حزينة وقع خطوات تتبعها ، وجاهدت حزينة جهاد الأتشى الضعيفة لتطرد الخيالات والخاوف السوداء ولكن عقلها عصاها فاستسلمت للقوة القاهرة التى تسوقها ونظرت خلفها ورأت فهيمة : نعم هى

فهيمة بلحمها ودمها . فهيمة التي ماتت .. وما أن لمحتها حتى اختفت !!
(أأتكون القادرة بنت الجن أخت الشقيقتين هي التي فعلت هذا ؟! .. نعم
الشقيقات الثلاث القادرات بنات الجن .. من يجتمع القحط والكلاب الضالة
ويمسكن بالرحى الكيرة التي تدور ولا تتوقف ويطحن اللحم والعظام فتموء
القحط وتعوى الكلاب ويختلط الدم باللحم وتلمع العيون الست بمثل الجمر
المقعد .

• • •

البيت موحش وحزينة بمفردها ، مات البشارى وماتت فهيمة وحزينة محمولة
وعاجزة عن أن تنادى جارة ، وماكينة الطحين تدق في صمت الليل بصوت
واضح رتيب لا ينقطع : تك .. تك ، والجنبيات الثلاث هنا .. عيونهن تلمع في
الظلام كجمرات متقدة — ولكنها ستحتفى بهذا الذى يقف فوق رأسها ،
. واتبسمت حزينة للرجل الكبير الجرم الأسود العارى المكشوف العورة .

الجثة

محسون فداناً عالية هي ثلث مساحة أرض حوض المدامود الشرق . لا يبلغها النيل إلا في نوبة مده فيغمرها بماء الفيضان النحاسي ، وينحسر عنها متى يحل موسم التحريق ويجري الماء قلزاً — هناك في خلجان وترع ومصارف القرية .

محسون فداناً تغنم كل موسم فيضان جديد طبقة من الطمي الطيب ، يجعلها تلوح كتل معلق ، تحته ينسبط السهل المزروع بالقمح والشعير ، وفوقه تمتد السماء الزرقاء حيث تجري شمس الصيف الامتوائية منفجرة من جوف تلال الشرق بلون الفضة كل صباح جديد وتسقط جريحة تشخب دماً وقت كل غروب — هناك فوق القمم المدية لتلال الغرب حيث ينطبق الأفق وتنتهي حدود العالم .

ها هي الخمسون فداناً مغطاة كالعادة بشجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة موقد صارت صفراء تنتظر منجل الحاصد المقوفة ذات الأسنان الحادة القاطعة .

وسط شجيرات العدس الصفراء الكثيفة المتشابكة ترقد الجثة ، لرجل في الحادية والخمسين من عمره ، الرأس مفصول عن الجسد ، بضربة واحدة قوية

مباغثة أتت من الخلف ، واستخدمت البلطة كأداة وكانت ذات يد خشبية قصيرة وسلاح من الصلب الأسود المسنون جيداً ، هذا بينما بات سلاح البلطة ليلة في العراء تحت قمر مكتمل — داخل إناء فخارى مملوء بالسهم القاتل ، ومرسوم على سطح الإناء الخارجى جمجمة بدم ذبيحة بشرية .

المقتول : واحد من أجساد قليلة ممتعة على الرصاص ، من القلة المحكوم لصالحها بالخلود ، يتلبد من أذنه اليسرى قرط من الذهب النقى انتزع عنوة وترك ذلك الحيط من الدم الذى جمد وتفتح .

القاتل المؤمن بالخرافة : رمى بالجنة وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة الصفراء القاسية دوماً .

شجيرات العدس : كانت حينئذ هذه المرة فالقوتل واحد من الخالدين ، لمت الجنة ، سترتها ، غطتها ، ضممتها جيداً .

الأرض تحت الجنة كانت جافة وسوداء ومتشققة وعطشى ، وشمس الصيف استوائية حادة عامودية تلامس رأس التل وكافرة في هذا الوقت من النهار .

طيور القبر الضئيلة الحجم القليلة اللحم اختبأت وسط شجيرات العدس حين حومت الحداة ذات البصر الحاد القوى فوق المكان . وحين أتت ثلاث حدعات وحومت فوق نفس المكان طارت قبرة خائفة ودفنت نفسها في العشب القصير الأخضر الكثير النابت بالسهل — بعيداً عن الجنة .

الدف والصندوق

سمكة مينة كانت طافية فوق سطح الماء — فجأة — انقض طائر نهري .
حملها بين مخالبه وطار . وعاد ماء النهر يتأوج بلحمة الذهب وحرارته .

على الضفة الأخرى — تحت قدمي الجبل الغري الكبير — باتت البيوت :
أكوام من تراب — من صنع صبية صغار ، تشكلت البيوت في خيال مريم :
خراف ضامرة يجرى واسع من الرمال الصفراء اللامعة ، وبدت لها الشمس : صبية
عمياء مسوقة بتلاء الطلسم المخبوء بصدر الجبل العريض .

(الكون عاكف عن الكلام — منذ أمس — والأشياء أيضاً تحدثت مع مريم
على هواها وقد عادت من النهار ، انفجر ثديان كانا مخبوءين طوال أربعة عشر
عاماً هي عمر مريم اليوم) .

تركت مريم الحجرة تطفو فجرفها سطح الماء المتحرك ، لمت ذيل ثوبها — كي لا
يتل — وأنامته بين فخذيها وضغطت عليه ، خاضت في الماء بتعثر حتى لحقت

بالجرة . أمسكتها وأمالت عنقها ، جرى الماء في العنق إلى الجوف وهو يقول :
بك .. بك ، تابعت مريم صوت الماء وشعرت براحة تحيء وتصحب راحة كأن
يهبها بسخاء دفة الماء الذي يغمر ساقها : بالقطع لو وصلت مريم لعمق أكبر
تحصل على راحة أكبر — لكنها تخاف البنات وتخشى الفرق ، تخاف أن تطيع
رغبات النفس ، ربما كان كل شيء — الآن — يلعلز من الجنيات ساكنات
القاع .

ودت مريم لو تنتظر حتى يحضر الصبيان . ويقفوا فوق رأس النهر ، ثم تحضر
البنات وترشهن بالماء ، ولكنها بسرعة طردت ما فكرت فيه وقالت : « لو الهوى
هوايا والأمر أمرى كنت أقلب الدنيا وأجعل عاليها سافلها ، لكن يا حسرة فلة
منى تسخط أُمى ونجر على لوم صالح (بعد مقتل الأمين الطلواب ، هجرت تقيدة
حسين أهل الكرنك القديم ، طلقت العمران وبنيت البيت الوحيد الخراب بحوض
الخمسين ، سكنته وحدها مع صالح ، كان صالح صغيراً وقتذاك وكانت مريم في
الغيب : من الرحم للدار الحية النفوس الثلاثة ، في الخارج كان يحيط بهم عالم
واسع وقية يسكنها آلاف البشر) .

حين لاح حوض الخمسين دهم مريم انقباض مفاجيء (خمسون فلاناً هي
ملك لهم ، مغطاة بشجيرات العدس — هي زراعتهم ، تحوط البيت الوحيد —
يتهم ، والكل نائم تحت الظلال الصفراء العليلة للشمس الغاربة) .

البيت الكبير الواسع مثير للضجر وموحش أيضاً .. وهو الآن : ينقض على
النفس كما تنقض حوائط القبور على الموقى . تبيت مريم وقد جنحت في غيط
العدس ، عادت للخط الجاف الذي يجاورها وضربت فيه ، كان يمتد تحت قدميه
موصلاً لمدخل الدار — وحين قفز إلى وعيها أن أمها لم تغادر الدار قط منذ مقتل
الأمين والدعها — أدركت باليقين أنها وصالح وحدهما صنعنا بخطوهما هذا الطريق
وسط شجيرات العدس ، تبسمت مريم بالرضى لاكتشافها الجديد .

كانت الأم جالسة أمام نار الكاثون ، نفذت لأنفها عشب الخبيزة رائحة
خاصة تميزها تقيده ويفوح بها العشب حال نضوجه ، أمسكت بالقلتر من

أذنية ، لسحبا الأذنان المتبعتان ، لمت طرف ثوبها ولفته حول كفها اليمنى وأمسكت بالقدر من أذن واحدة وأزلته ، جفلت حين لسع وهج الجمر جلدها المكشوف ، أرخت بصرها ورأت ظلال الذهب الرمادية تتطوّر على فخلها العاريين ، أمسكت بقرعين لينين من الحطب وألقت النار ، اقتربت من النار أكثر وظلت تزحف ، وهى تتراجع بعيدة عن النار شعرت بخوف يهزها : ستصبح عجوزاً. أغضمت عينها : اللون الأسود ثقيل ، رائحة الخيزرة قوية ، طرحها السوداء شديدة القتامة ، فخلان شاحبان هرب منها الدم ، مريم صبية .. وحلوة ، مريم من الأمس أنثى ، أنثى بحق ، وتأمّلت فى ملاحم مريم — مريم تشبهها ، وشعرت بالخجل لأنها حين أشارت لصدر مريم المبتل .. لم تلمح مولد فرخى بملم .. كانا قبل كلمتها يرقدان مطمئنين على صدر مريم ، وهى أفروعتهما ، وتقبيلة كانت صغيرة وتعرف بأى جناحين يضربان ، لقد صنعت تقيلة بفعلتها الحماقة الجفوة التى تجعلها وابنتها لا تتواجهان منذ الأمس .

لم تتقدم تقيلة لتعين مريم فى إفراخ الجرة ، قالت مريم لنفسها : الخير فعلت ، ثبتت ساقها اليمنى وإراحت ثقل الجرة على ظهر فخلها ، ثم رفعتها بهنت وأفرغت ماعها فى الزهر بعجل .

مسحت زجاجة الفانوس الداخلية دون غسلها ، لم تسمح زجاج الفانوس من الداخل ولم تلمعه من الخارج ، أقنعت نفسها بأنه نظيف ، أضافت كمية من الجازز للعبة الفسحة الوسطى — دون شد الفتيل كى لا تفسل يديها ، هشت الدجاج ليبيت فى « الكن » ، ضاقت بشدة من دلح الديك . « صلو العهان » ، ووضعت للحمار كمية من التبن الأبيض ، وخلطت كمية من التبن الأبيض بدماس القول ووضعت أمام البقرة ووضعت كمية مماثلة للجاموسة ، ثم عادت ووقفت أمام بوابة الدار ، أسندت جذعها على حائط المدخل ، كان الأفق متوهجاً ، ثم انطلقاً فجأة : زرقة داكنة حومت فوق البيوت المتفحمة ، وسواد كثيف صنع من البيوت والخيول والأشجار كتلة واحدة شديدة التماسك . أغلقت البوابة وأسقطت اللسان الحديدى من الداخل ، وتركزت طاقة البوابة مفتوحة ، رغم الظلام الذى تعديه الليلة ليتساوى المبصر والأعمى ، وجلست قرب البوابة بانتظار صالح ، وعندما جاء الكلب وقعد بجوارها طرده — وقالت : لا ينقصنى إلا أنت !!

جاء سعيد — بعد آذان العشاء بساعتين ، كانت الأم تنتظره ، خاب ظن مريم حيث توقعت أن يسبق من هنا صالح سعيداً من زمن ، رفعت مريم لسان الأمان الحديدى وفحت البوابة ، دخل سعيد وسأل مريم عن حالها .. ردت باقتضاب : خير ، وقالت إن أمها بالحجرة البحرية ، وزعقت منبه : سعيد ابن خالتى يا أمهه سبق سعيد مريم ، قالت محذرة : الكلب حر . أبطأ سعيد خطواته ومضت مريم لكوة بجدار الفسحة وأتت بلمبة الجاز . فكر سعيد فى شراسة — شبيب — كلب خالته تفيد حسين ، توقف حتى عادت مريم وتقدمته ، فكر فى أن يقول لمريم إنها كبرت وصلحت عروسة .. ويوم يحمل مهرها ستخلع خالته الأسود .. سيكون الفرح سبع ليال .. بنات الحاج « ركائى » . سيوقعن على طيلة عبد العزيز .. ثم عاد وفكر فى شراسة — شبيب الكلب ، كان ظله وظل مريم يتطوحيان أمام عينيه تحت ضوء اللمبة الأصفر القليل — تساول : الجاز قليل ؟ .. ردت مريم : لا .. الفتيل قصير !! — وهزت اللمبة لتؤكد أنها عامرة بالجاز ، ونلوحتها له ليتأكد هو أيضاً .. أمسك سعيد باللمبة ، شد باثنتين من أصابعه الفتيل المشتعل ورفع لأعلى ومسح الوسخ بجلبابه « اللعور » . كادت مريم تزحف — وقد أفرعها أن يلها ظلام مباغت بسعيد : حاسب اللمبة تنطفئ ، طلول رأس الفتيل خنصر الأصبع ، وصار لشخص سعيد ظل واضح يروج على أرضية الفسحة الترابية .. كما كان لما ولرأس الفتيل المشتعل ظلال واضحان ، اكتفت مريم بالقول لنفسها . بطريقة بكائية ، يقولون زفوا الوسخ سعيد لمريم .. بنت الأمين تصير لسعيد زوجة .. يقصدون العيب يصيح سيلدى وله الكلمة .. هو الراجل !!

زام الكلب الراقد أمام باب الحجرة البحرية ، رفع قائمته وشد جسمه متحفظاً ، صرخت قفيلة حسين فى الكلب من داخل الحجرة : اغرس يا شبيب .. سعيد سيملك يانجيس .. تشمم الكلب ذيل ثوب سعيد الطويل الناعم فى التراب — من خلف — وتنه شبيب بصوت رضيع .. دخل سعيد من الباب النصف موارب ، دفعه قليلاً دون أن يفتحه . وعاد الكلب لمكانه القديم وألقى من جديد ، دفن رأسه بين ساقيه المملودتين إلى أمام ، وكف عن أى صوت .

• قال سعيد ، انيك يا خالة ، ومد يده . سأنته تقيدة قبل أن تمد يدها ليده
المملودة : سبع يا سعيد ؟ رد سعيد بعجلة : سبع ياخالة ، وراها تبتسم ،
ورأى قطع اللحم السوداء الراقدة تحت جفونها ترجف — وسمعتها تقول : اقعد .

قعد سعيد بجوار خالته على السجادة العجمى — المفروشة على أرضية الحجرة
المضغوطة بقوالب الطوب المحروقة : القوالب جافة وصلبة وغير مريحة .. وخالته
تسأل إذا كان قد قابل صالحاً في طريقه . قال : سلكت يا خالة طريقاً لا أنظر
فيه مخلوقاً ولا ينظرني فيه مخلوق — وسمع خالته تقول — سبع بعلم الله .

كانت الخالة صامته . وكان سعيد يتوقع أن تتكلم الخالة .. تقول كلما أو ..
كيت — قال سعيد مكلماً نفسه : الأمر كبير ويجب أن تتكلم الخالة . لكن
الخالة كانت صامته .. وانشغل سعيد يرسم على السجادة ينام تحت فخله
اليسرى : طبع من نسيج بلون الرمل لحظة الغروب — لوعلى هادىء نقر قرناه
واستقاماً بفروعهما الجرداء .. كشجرتين معاندتين .. ريف الخريف جردتهما من
الأوراق وخابت في إرغامهما على الاختفاء .

دخلت مريم تحمل صينية الشاى ، دق الباب الخارجى ، وضعت مريم الصينية
بجوار أمها وجرت لتفتح الباب .

قال سعيد لخالته : صالح .. صالح أكيد .. مين غير صالح !! — وابتمسم .
تأملت الخالة وقالت لنفسها — حين يبتسم سعيد يبدو أبله وخام ولم يدخل دنيا
قالت له : وشبك محروق . رد سعيد بسرعة : الشمس .. خمس الصيف يا خالة .
ابتسمت الخالة ابتسامة مصنوعة وماكرو . قال : أنا أخاف .. أخاف من
ابه !! — ابتسم وهو يواجه نظراتها الصعبة وشعر بالارتباك . حدثت تقيده
نفسها : سعيد غير مليح .. ما يليق بحرم القمر . هل أكون ظلمة لبنت الأمين ؟
لكن سعيد — رضى نفسه فى الموقف الصعب من أجل خالته .. أنا أرفه لبنت
الأمين .. سعيد راجل (وقد عادت مريم من النهر .. قامت تقيده لتعينها فى رفع
الجرة الملائى .. لامتها لأنها بللت صدرها بالماء ، أشارت بيدها لصبر ثوبها المبتل
اللاصق بالجلد . راغت مريم كعادتها وابتمسمت .. تحت إلحاح بصر تقيده
الغاضب على صبر مريم .. أنزلت مريم عينيها على صدرها .. فجأة .. غامت
فرجة الطفلة .. نكست مريم رأسها ورمت بعينيها على الثوب .

دخل صالح وخلفه الكلب « شيب » يمز ذيله ، ضربه صالح بقصبة ساقه اليمنى بعنف عوى الكلب وجرى للخارج .. عبر الفسحة الخارجية .. ثم عاد وألقى بمرقده القديم وهو ينهه .

مد صالح يده لسعيد الذى قام ماداً كلتا يديه : مرحب صالح .. مرحب . ودخلت مريم خلف صالح .. طلب صالح من مريم أن تتركه مع سعيد — قال : بيننا كلمة خاصة — ونظر للكويين على صينية الشاي وطلب منها كوباً ثالثاً .

.. خرجت مريم وقالت الأم : الليلة يا صالح . صمت صالح .. أمسك ببراد الشاي وصب في واحد من الكويين وقدمه لسعيد . وجاءت مريم بالكوب الثالث وأعطته لصالح ووقفت . صمت الكل . طلب صالح من مريم أن تغلق باب الحجرة أثناء خروجها . خرجت مريم متباطئة ونظرت لصالح وأبدت له أنها متذمرة ، أخذت باب الحجرة خلفها ، وتركته مفتوحاً قليلاً . قام صالح وأحكم غلق الباب . وتحت حائط الفسحة الوسطى جلست مريم قريبة من الباب بعيدة عن الكلب مسافة ذراع رجل .

.. * *

بصوت مخنوق وحاد قالت الأم : الليلة يا صالح . صب صالح الشاي في الكوب الثانى وقدمه لأمه . أزاحت يدها . سقط الكوب وأغرق السائل الأسود السجادة وطرقاً من ثوب سعيد . صرخت الأم : باليقين الليلة . ظل صالح صامتاً ، أخذ يحدق في لب الفانوس المعلق بسقف الحجرة ، أجهده البياض القدر ، أراح بصره فوق على ثوب أمه الأسود ، أحس بكرو لشيء ما ، لمعت عيناه والتفتا بعيني سعيد . مد سعيد ساقه اليمنى وأراح عنها الجلباب .. ثم شد . سرؤاله الداخلى الطويل : باتت لفة قماش صفراء قدره .. كانت راقدة تحت سمانه الساق وقد شددت بخيوط القنب ، انهلك سعيد يخلص الخيوط مستعيناً بأسنانه حتى يفك اللفة ، أمسكها ورفعها في وجه الخالة وصالح .. هزها موضحاً : ثقلها .. فعل ذلك مرتين .. ثم خفضها بأناة ومضى يفكها : وضمت الطبنجة في الضوء .. سوداء .. بطول ذراع البالغ .. يركت ماسورتها في الوسط . تناول صالح الطبنجة من سعيد وضربها بكفه ووثق من صلابتها .. قرب فتحة الماسورة لعينه نصف المفتوحة : ظلمة أيضاً وغدر أيضاً (كان الظلام وكان شيب صديقاً

لأى .. وكان أنى يركب حمار شبيب الأبيض والرصاصية المجهولة كان مقصود بها شبيب .. حين سقط الحمار سقط أنى .. والثأر هو رأس شبيب أرميه فى حجر أمى (١١) أرقد صالح الطينجة بحجر ثوبه وسأل — سعيداً — وهو يصب الشاى فى كوبه : والذخيرة ؟ . مد سعيد يده لجيب صدازه الداخلى .. أخرجها قاضية على ست رصاصات صفراء تلمع .. رماها بحجر صالح .. رن الرصاص وهو يتضارب رنات مكتومة .

هبت الأم صارخة : الليلة يا صالح يموت .. قاتل أبوك الليلة يموت (كفان أطبقا على العنق .. رأت وجه شيبيا .. ثم تبذل وأصبح الوجه لصالح .. كان المكان شيبيا بمغارة .. ضيقا ومعتا ورطباً .. وكان سعيد يطلردما وهى خائفة .. كانت ملابسها قد تمزقت .. كان الأمين جسداً ممدوداً هربت منه أرواح .. حرم ذهاب كثير .. وكان له ذبول .. جاء الرجال بشجيرات العدس الصفراء الجافة وستروه .. وهى كانت عالية .. وكانت لينة من الدم تغطى وجهه .. ظهرو كان للشمس تحرقه يظلم وتصب على حوض الخمسين شواطئ الذهب) .

ظل صالح صامتاً . رأت الأم صمته لفزاً محوراً .. رمقته وهو يصب الشاى . قابلها بهصو فاهتز براد الشاى بيده .. أعاد البراد للصينية وأطرق بهصو (غائب هو ويجير على الحضور .. وهناك خدعة ما .. شبيب لم يقتل الأمين وشبيب يعرف القاتل .. والمقتول كان الأمين لأنه ركب حمار شبيب) . حولت تقييده بصورها عن صالح وظلت تكتس المكان ، لم تكن تقصد — شىء ما يذاته — ارتدت أمام ساق سعيد العارية : سمانة الساق سمراء ومتنفضة وهناك جراح راقدة كزؤغة ملساء .. حوله العشب .. شعرات كثيفة وسوداء ، بكت تقييده فى صمت (طلبت من ثوبها أن ينشق .. ومن ثديها أن يبخا اللين فى وجه صالح .. والحيتان الصفراوان تنهشان ولا ترجمان) . كادت تقييده تصرخ فى صالح « كان ذلك بمدى عمرك » ، لكنها ناحت ، كانت تنتفض وقد ظفر المرق : الليلة .. الليلة (لتظل تصرخ) القديم الغابر المتفحيم المكمم على الصدر .. هكلاً .. لتجري الكلمات بطرقت الكرنك القديم .. مجنونة .. تلطم الحوايط .. تميز جدران العالم الأربعة .. تلك جدران الحجرة التى تحوطهم (يموت شبيب الليلة .. وابن عبد الزحيم يشوف الظلمة .. لتصرف روح أبوك يا صالح الراحة وتلوق نوم الميتين .. الأمين أبوك .. أبوك يا صالح — وهوت بجماع كفها على وجهها .. وأسلمت نفسها للنحيب الطويل .

ضغط صالح على كروب الشاي بقوة كفه : هنا شيء شديد القسوة .. غليظ .. عفن كمشب الخبيثة ، ليضرب بكوه ويحقد ، طوح ذراعه بقوة وقلف الجدار المقابل بكروب الشاي .. تهشم الكروب وتناثر الزجاج . ودخل الكلب — شيب — الحجرة وهو يعوى .. ثم انفلت جالهاً للخارج الساحة وظل يعوى فى الفضاء العريض بصوت عال .. عاد ودخل الحجرة وهو يعوى . وقلف صالح برصاصتين داخل الطينجة .

* * *

ضغط باصبعه وقفز الكلب يعلو النصف قصبة وأطلق عواء فاجعاً .. وسقط تحت قدمى الأم .

هبت تفيدة واقفة .. الكلب أطبق فكيه على لسانه وعيوننه المفتوحة بدت مريعة . واهتز جسد تفيدة .. إنها تشعر بالخوف ولأول مرة من الكلب شيب .

حين دخلت مريم كانت الطينجة ترقد بين فخلى صالح . وتفيدة كانت تشد طرحتها السوداء على وجهها . وللم سعيد جلبابه وغطى ساقه العارية : كان وجهه باهتاً . والكلب راقد مبقور البطن وقد اختلطت أعماقه المتفجرة بدمه . أدارت مريم ظهرها وخرجت باكية .

قال صالح لنفسه : إنه كان يكو هذا الكلب .. وكان يكو أيضاً تلك النار .. وربما الجاموسة وأمه والحمل وزراعتهم والدنيا بمجملتها .. وأنه لابد أن يقتل .. وفكر فى مريم فيما لو قتل .. وقال : كيف يكون حال مريم ؟

انتصت مريم مكاناً بعيداً ، صدر السقيفة كان مفتوحاً ، نظرت للسماء المعلقة فوق السقف : زرقة داكنة وليس سواداً داكناً (لحظة يسهل فيها الخداع) ، نجيم قليلة باهتة الضوء (ليس لها ذبول لامعة .. ليس لها ذبول قط) ، ثقل جثم على الصدر (همّ وعمر ما نحيو إلا يتم الأب) ، شهقت مريم .. طلبت لروحها الراحة وطلبت من عينها راحة الدموع (الدموع محال .. الجوف حشو بالثلج وأرقلوه على نار .. والهواء الساخن حاصر المكان ، قامت مريم .. دارت فى المكان دورتين .. ساقاها ارتعشتا وناختا تحت ثقل الجسم)

المراكب الصغوية تتطوح في البحور الهائجة وتلعب الأمواج العالية بالمركب الصغوية) ، قالت مريم هاذية : أهد الراحة ، وضربت صدرها بكلتا يديها وأبقتهما تضغطان : أطلب هواء مريحاً وأطرد هواء متعباً ، أمسكت بالثوب شقته إلى نصفين .. وانفجر ثديان (أربعة عشر عاماً .. يمانتان فزعتان تأهبتا للانطلاق — لكنهما محشوتتان من الداخل برمل وجصى ساخن) .

(ضربت يعود التوت الجفاف فرع شجرة الجواقة . شمس الظهيرة لاهية . الثمر يريق . والأوراق الخضراء تلمع أطرافها . عليه ألف رحمة .. هو الذي غرسها أمام بوابة الدار . قامت الأم ونشرت قميصها اللاتخلي البمبي مع الضربات الأولى سقطت الثمار الناضجة ثمرة واضحة الصبغة واضحة الاستدارة وعذيلة . قال صالح — كان يحيد الحادثة على مريم وقد ادعت أنها نسيتها : كان عمرك أصغر من اليوم بخمسين سنة .. كنت عذيلة يا مريم . أمسك الفرع بيده . قالت مريم : لأنك طويل وأكبر مني . ناخ الفرع تحت يد صالح الجاذبة . قالت مريم لنفسها : الرجل ذراعه قوية . قبض صالح على الثمرة الصفراء .. قضمها بشمة وهي راقلة بين كفه .. بصق وضحك .. قرب الثمرة من فم مريم . قضمت من نفس المكان الذي قضم منه صالح .. بصقت قالت : مرة .. طعمها مر . ترك صالح الفرع . استقام الفرع لأعلى وظلت الثمرة تطل على مريم بعناد . رددت مريم بصوت واهن : صالح .. يا صالح . تمتت لو جاء على صوتها فهي في ضيق (لو سمع لجاء) . عادت الدموع إلى عينيها في دفق غزير (كانت مستحيلة وساخنة هذه المرة) .

بالخبرة البحرية وجلدت نفسها . انتفض صالح قائماً . سعيد رمى بصره على الأرض . على ساعد صالح وساعد أمها وصلت للسرير (جسمها انتفض ورفض أمها . هي لا تكو أمها .. لكنها ترفضها الآن .. أمها تسوق صالح للموت . أبوها مات . الأمين قتله شبيب عبد الرحيم .. صالح يقتل شبيب .. الموت يلذقه شبيب ، اليوم بيد صالح) .

ألبسوها ثوباً آخر .. وهي راقلة على السرير وفوقها الغطاء له وبر .. وحولها ظلام وهواء حار (يخرج من جوفها وينثر به أنفها) .. صالح خرج .

صالح يضرب والطبنجة تلمع نبح الكلب شيب وسقط .. والجاموسة
سقطت وكلتا الحمام والبقرة .. والحمام سقط من الأبراج .. النار تلتهم كل
حتى .. وصالح يضرب بالرصاص .. كل حتى يسقط والأرواح تطير .. والظلام
يفرق الأرواح في السواد الشديد .. وكانت مريم غير قادرة على الصراخ أو حتى على
الحركة ونوم ثقيل قادم لا تهد أن تسلم نفسها له .

أعطته بلدا .. تأرجح كثرة صلبة .. كان أسود يمثل ثمار الزيتون الزائدة
تحت الشمس .. سمعت صوت دف وندب معولة وصوت قفص يتكسر ..
جرت على الأرض الحامية .. الحصى لامع وخشن ويؤلم قدمها .. هي خائفة من
ذلك الذي يتبعها في فضاء شديد الزرقة .. طائر عجم مقطوع الرأس يشبه شديد
البياض يصبغه الدم .. استقام النهر لعينها .. وأنكسر بصرها أمام سطحه المتوهج
الاحمرار .. طفت صابونة على السطح .. تولاها فرح اطفال .. وقذف النهر فوق
سطحه بالياق التخييل وعلق كثير أحاط بها وغطى فخلجها العائتين .. كانت
عارية .. السواد زال من ثديها عندما غطتها رغبة الصابون .. البقع السوداء
كانت ثابتة بين فخلجها وتحت إبطها .. الألياف خشنة والدم حار وتدفقه لا
يجعلها تشعر بأذى ألم .. شعور جديد وحار .. وراحة مخبوءة .. عاد الوهج
الأحمر يضيء الكون من جديد .. برهان مفاجيء عكسه سطح الماء وتراجعت له
جفونها .. أطبقت على نظرها المنكسر .. أمسكها من الخلف .. بكلتا ذراعيه
القويتين .. لامس صدره ظهرها .. كان يغطيه الشوك .. وهي معه — كانا
يتدحرجان .. كانت القوة عميقة ومعتمدة وغائرة الجوف .. كان الأفق بسماته
الزرقاء وقمره البارد ونجومه اللامعة منطبقا على أحراش الأرض ورملها الحار .. لم تعد
خائفة — حيث هما يتدحرجان .. ظلت تضحك في جلجلة وجهه الآن — بأن
وانضح .. إنها تعرفه .. قالت له وهي تضحك .. إنها كانت خائفة .. لأنها لم
تكن تعرف أنه هو .

أنا وهى
وزهور العالم

الشجرة

حدثت نفسى بصوت خافت يحبه ضميرى :
« والسماء ذات الصدع .. لقد خالف أمراً .. مما لاشك فيه أنه خالف
أمراً — لهذا أمسكت به الشرطة ، هو صديق وأنا أحبه — لكنى ما خالفت أمراً
قط .. قط .. قط . قط والله أمراً ما خالفت — فقلماذا لا يأخذ هو نفسه بما
أخذ أنا به نفسى ؟ لماذا يارب السموات !! ، ثم إنه لا يجب أن يراى حتى لا
يُدعى أنه رآنى .. وما من أحد من الملة — وهم قلة — يعرف علاقتى به حتى
يأخذنى بلوم .. ما من أحد .. ما من أحد يجرؤ ، كما أن اليوم يوم راحتى .. ولى
صديقة تنتظرنى — هناك بالحديقة تحت الشجرة : يالها من شجرة .. ساقها
أملس صعب على الإنسان أن يعتليه .. صعب صعب .. جذورها الواضحة فوق
الأرض تسمى طالبة لماء العين البعيدة .. لحاها أبيض ناصع البياض .. أوراقها
الخضراء تلمع كأنها أجنحة الطير ترف تحت الشمس .

* * *

ها هى ، ها أنا ، ها هو العالم ، وهامى الشجرة. يا للسنوات :

قالت : كنت هناك .. كنت بالشارع .. يوم كنت هناك .. يوم أمسكوا بك .. لم أجرو .. يا للسنوات .

قلت : كنت هناك .. كنت بالشارع يوم كان هناك .. يوم أمسكوا به .. لم أجرو .. وكنت أظن أنك هنا وكنت أنت هناك .. يا للسنوات .

قالت : يا لك من ولد طيب .. يا لنا من أطفال مساكين .

قلت : يا لك من فتاة طيبة .. يا لنا من أطفال مساكين .

(قلبي وقلبيما مازالا يحفويين على ساقى الشجرة بأسمينا)

قالت : أذكر يوم أعطينا ما يعطيه ثدى الأم : كان لبناً ناصع البياض .

قلت : أذكر .. كان دمعاً ولم يكن لبناً ناصع البياض .

صرخت وضربت الأرض بقدميها الصغورتين : كان لبناً ناصع البياض .. لا تجرح هل ذقت طعمه ؟

وخلعت نعلها ومدت يدها : صغيرة مبلولة ترتطمش . وكنا نطوف حول الشجرة .

قالت : ولكن هل يعرف الشجر الأمومة مثلنا نحن البشر ؟

قلت : للبن طعم .. والدموع مالحة .

قالت : ولكنك لم تجرب .

وقالت : لا أنا ولا أنت .. لمجرو .

وقالت : يا لها من شجرة .

فصرخت : نعم .. يا لها من شجرة .

اليوم الأحد

(١)

كان يمر الطريق مسرعاً ، وكانت العربة أيضاً تقطع الطريق مسرعة .

(٢)

خلق كثير صنعوا حلقة حول الجثة والعربة « الفيات السوداء » . صاحب العربة السوداء الذى هبط كان قصيراً يظن ، لا يكف عن مسح جبهته وعنقه بمندبل أبيض كوره فى كفه .

(٣)

نادى رجل مسن يحمل يده منشفة — الجميع يستر عورة الميت . بالتح صنف طويل ضامر يلبس جاكته قديمة فقرة طويلة الأكمام — انحنى وفرش كمية من ورق الصحف فوق الميت ، وعالونه فى هذا شاب له شعر غطى عنقه وكتفيه ،

بيناً رفيقة الشاب الشابة أدارت ظهرها كي لا ترى . « قصيرة القامة قصيرة الثوب قصيرة الشعر كأنها غلام » رغم ذلك فهي حلوة — بهذا القول حدث الولد زميله . تعلمت هي وكشرت وتقدمت خطوتين وسمعتة يقول لزميله « ستموت هي .. وأنا وأنت « فجأة » وهي تعرف .. والحياة فرصتنا فلماذا ؟ » . دس صاحب « الفيات السوداء » يده في جيبه ويبد مرتعشة قدم عشوة قروش معدنية لبائع الصحف الذي رفضها قائلاً : « الثواب عند الله » . جاء ذباب كيمبر وعف فوق المكان . وأنت عربة هبط منها ثلاثة رجال جادون بملبس كامل حسن برفقتهم عسكري — وفي التو انضم اليهم عسكري المرور . رجل من الثلاثة كان يتكلم أما الثاني فكان يكتب في دفتر صغير ، والثالث كان يشير الى أماكن محددة ليسم العسكري بالطباشير على الأرض دوائر صغيرة ودوائر كبيرة وعلامات (X) .

(٤)

وقد مر وقت ، استرد صاحب العربة السوداء توازنه فخفضت حدة حركاته وهو يتحدث مع الرجال الثلاثة . ولما أتت عربة الإسعاف انفرط العقد وهبط الرجال وحملوا الجثة على عربة .

صفوت الحلقة ، وانفض الجمع كله لما غادرت العريتان المكان : عربة المحققين والفيات السوداء . وغادر عسكري المرور المكان لينظم حركة المرور المبطلة : تلك التي تحمل المرات تزعم وتناديه .

(٥)

« الضاوي » العامل بدكانة أحذية « النجمة الزرقاء » أتى بجردل من البلاستيك — وهو يتابع بعينه عسكري المرور الذي لم يبلغ مكانه الخشبي بعد وورش مكان الجثة بالماء وكسه بمكنسة . وطار كثير من الذهاب . وسارت العزلات بطيئة فمسرعة : رتلاً طويلاً بكل لون .

أنشودة الطراد والمطر

كان المطر مازال يسقط ، وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة
تماماً .. وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الكثيرة تعد بالمنهد .

كان الشارع خالياً فالمطر لم ينقطع منذ الصباح ، وكنت قد ابتسمت
فتسللت قطرات من ماء المطر كانت على وجهي إلى شفتي : أحسست بمجسمي
كله متشبعاً بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد — في الظلمة — كتجموع هائلة بين الأرض
والسماة المنطريتين ، وكنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة وكنت
أتابعها وكانت تعود بدق المطر على الأسفلت الأسود اللامع وصوت الماء الهارب
للبللوعات .

كنت قد بلغت سدة الشارع ، كان هناك أمام البوابة المغلقة ثلاثة
أشخاص ، وبدا لي الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر كما لو كان معلقاً متديلاً
من السماة ، وبدت لي المسافة بين السماة والأرض قريبة جداً — وهكذا كانت
دائماً في الليالي المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميله أمام بوابة محطة السكة الحديد المغلقة — وانسل من بين الأعملة الحديدية المنتصبة كالرجال السود — بامتداد الخط الحديدى ، وكانت هناك صرخة تخذره — وكنت قد تبعته ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجلبجت ضحكات الرجلين أمام البوابة .

كان القطار قد مر وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل، وكانت ضحكات الرجلين قد تحولت إلى مرق، وكنت قد باعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة، ولكنه كان قد عاجلنى بنظرته وتأكد — أخيراً — من أننى أنا ومن أنه هو الذى سيتمكن منى .

جهت فى الأرض الخلوقة الواسعة ، كانت الأرض مجلدورة بمئات الحفر التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل .

وها — أنا — ذا : قد بلغت المنحدر حيث يتهى الزمان والمكان ، لم يكن أى من الرجال خلفى . مسحت الطين العالق بخصائى ، وبقيت تلك الارتعاشة بأطرافى وبالدخول ، كان المطر قد كف ، وكان الحجر الذى جلست فوقه شديد البياض وقد غسله ماء المطر ، وكان ظلى هناك — بعيداً — يمسح فى برك الوحل الصغيرة .

البكاء والثالث

حل المساء . كانت قاعدة على شلثة قديمة ، عن يمينها باب الحجرة الوحيدة الضيقة نصف مفتوح ، يواجهها باب الشقة الخارجى المخلق بالمفتاح من الداخل قامت مستندة على جهد ذراعها وساقها : دقت بالأرض مسملين وبالهواء مسملين وعلقت جسدها القليل اللحم .

عبت مستطيل الصالة القصير إلى ركن المطبخ الضيق . فكرت فى القبة وقالت إنها تشبه ذلك الطائر الترابى اللون الضميل الحجم القليل اللحم المختبىء وسط شجيرات العدى القصيرة الكثيفة ، قلبت الأواني القليلة والعلب الفارغة المكومة وعلفت وسط الكراكيب على عودين من الكبيت مبلولين من الرطوبة ، أشعلت لمبة الجاز وأعدتها إلى مكانها : معلقة بمسمر مدقوق بمخاط الصالة - فحل محل عتمة الغروب الرمادية ضوء أصفر شديد الشحوب ظل يتقاصر ، أغلقت النافذة الواحدة الوحيدة ذات الضلفة الواحدة فاستقر الضوء والظل فى خطوط تقاطعت فى حدة .

عادت وجلست على الشلثة القديمة ، وبجوارها قعدت ابنتها الوحيدة بنت العلم الرابع عشر . ظلنا صامتتين . وكانت تلبس ثوباً أسود جديداً وطرحة سوداء

جديدة تذكرت زوجها المتوفى من عامين — فجأةً ظلت تزيه وتعدد محاسنه في سرها ثم جهرت بصوت خفيض ، وبالتلويح ارتفع صوتها وصار له صدى خفيف مسموع يصطلم بالحوائط في خبط هين .

« قالت : كان كنا ، وكان كيت ، وكان وكان ، أشياء تعرفها هي وحدها دون سائر البشر ، وأشياء عرفها هو عنها دون أى مخلوق في العالم ، كانت نكدة وكان يحبها أكثر مما كانت تحبه . لهذا مات ، قالت : « أنا أعيش الحياة وأتعذب » .

انفجرت في بكاء حاد متصل ..

فجأةً ، نشجت الابنة ، أخذت نفسها قوياً من الهواء وكتمته وأطلقته قصيراً مقطوعاً موجوعاً ، ثم مضت في بكاء حاد متصل .

تلاوة ماسونية

جواب

مر وقت طويل وأحمد بانتظار الأتوبيس (١٤) ، وها قد جاء الأتوبيس (١٤) ، وكان اليأس قد تمكن من روح أحمد الصابرة ، جاهد أحمد جهاد المؤمن وتمكن من كرمي وقعد أحمد ، ومازال أحمد قاعداً .

مطوق أحمد باللحم الحى والدم الساخن والعرق الذكر والعرق الأنثى والروائح الطيبة والروائح الخبيثة .

ها هو يفكر فى الله مالك السموات السبع وملاك الموت الذى يلم تحت جناحيه كل حى ، وهاهو وحيداً فى مواجهة البدن المائل والدود النهم المحب للحم أين آدم .

رد

ما كان يجب أن يفكر بمحض اختياره — وهو قاعد — فى الصندوق المقفل بإحكام ، ما كان يجب أن يستسلم لتلك الرؤيا — وهو قاب قوسين أو أدنى من غايته ، عليه — الآن — أن يخلص روحه بالكشف ، ليهبط ، عليه أن يتقبل العقاب .

جواب

عن يسار أحمد : شجر موري ، والنيل يجري بقوارب تحمل العاشق والعاشقة .. وقوارب قادمة من جنوب مصر محملة بأنية وقوارير من فخار .

وهو — بشارع الكورنيش مع عربات « عامة وأجرة وملاكى » مسرعة تزحف وتتأذى وتكشع الدخان والهواء والورق اليابس الساقط من الشجر .

أدخل أحمد يده يجيب بنظائره ، وأخرجها قابضة على تلكرة الأتوبيس وكور تلكرة وضغط عليها بإصبعين ، وطوحها للريح الخفيفة التي صنعتها العربات الزاعقة المسرعة .

رد

ها هو مرة أخرى تحت طائلة العقاب ، لا يملك — مهما حاول — دفع أو إيقاف ذلك الذى دامه : هذا الشعور الواقعى أنه مهان .

فاتتازيا .. العنف القبيح

متى ضرب الباب الزجاجي بقدمه دخل البار ، وراح الباب الزجاجي وجاء ، وأمطرت السماء في الخارج ، ينظر للمروحة العاطلة : لا تدور .

يطلب نصف زجاجة براندى « متوسطة السعر والجودة » وزجاجة صودا « حالما يفتحها الجرسون تفور — وإلا فهي فاسدة » وطلب طبقاً به شرائح ليمون حلو ، صب كأساً وشربها دفعة واحدة ..

يشرب كأسه الثانية دفعة واحدة أيضاً ، ينظر للمروحة العاطلة لا تدور — ويكون قد شرب كأسه الرابعة . كأسه الرابعة .. كأسه الرابعة ..

على البار ، يجلس الجميل ، لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين لا يكف عن الحديث بصوت عال مع المعجوز الإيطالي المتصالي. رفيقان لا يفترقان . المعجوز الإيطالي يدفع الحساب دائماً ويسخو في البقشيش . الجميل صورة مماثلة للممثل الأمريكي الذى يؤدى دور « اللركى » في أفلام شركة « بارمونت » الأمريكية : ينطلقون ضيق ، إسراف في الحركة وانفعالات حادة وانضباط مفاجيء ، يوناني الأب ، الأم من أسرة مسيحية أنت من لبنان واستوطنت بمصر منذ أعوام بعيدة ،

من العنق تتدل سلسلة ذهبية ، تنتهى بصليب ذهبي يتأرجح على الصدر العاري
(الأملس ، كعب الخذاء يشبه الكوب ، القميص المفتوح . أحمر أحمر أحمر ..
ويأقته طويلة حادة الأطراف) .

ينظر للمروحة العاطلة : تدور : ويتذكر أشياء في حياته ، ويشعر برغبة في
البكاء ، ولكنه يقاوم ، ويشرب كأساً والمروحة ما زالت تدور ، يشير للجرسون
ويدفع الحسب ، وتعاوده الرغبة في البكاء ، يشرب كأسه الأخيرة ويغمغم :
السفلة ، ويصق ويدفع للخارج : يتوقف المطر ، والمروحة العاطلة تدور لا
تزال .

تحت ضوء اللمبات الأصفر يلمع أسفلت الشارع الأسود المغسول ، لأعمدة
النور ظلال ساقطة ، يشعر بثقل الظل .

يمشي خلف ثلاث فتيات بلبس « الميني جيب » ، واحدة منهن قصيرة وممراة
ونحيلة اسمها « إيناس » طالبة بكلية الفنون الجميلة ، بالسنة الثانية قسم
الديكور ، لا تحب اللوبيا ولا الفاصوليا ، تحب « مامتها » جداً جداً وتصارحها
بكل شيء ، لا تحب القول الأخضر أيضاً ، تحب الأطفال حتى سن العاشرة تحلم
بالسفر لأثانيا الغربية — تحب أصدقاءها جداً جداً — لها أصدقاء هناك ، تكو
القعود على كرسي لمدة ثلاث دقائق بأية سبباً حتى ولو كان الفيلم « زوربا
اليوناني » .

النسور المدربة يا الله هناك عند المنحنى .. النسور المدربة جيداً يا الله .. كل
نسر يا الله قبض بمخالبه القوية على فتاة .. لا يلتهمها بعد .. يطرح فتاته أرضاً
ويوسع فتاته ضرباً .. قابضاً على لمة شعرها .. شعرها القصير يا الله .. ويخرجها
على الأرض (الم جمع كبير وتحركت عربة الأخلاق : كسرت الحلقة وتفرق الجمع
وأقى الهدوء المعتاد المألوف) .

قال لنفسه : هناك ، في القسم ، تكتب كل فيسة إقراراً واحداً يعلم العودة .
لبس « الميني جيب » وينتهي كل شيء .. كل شيء يا الله .. كل شيء .

انتظم في الإيقاع الجماعي : جهلوه كالمعتاد ، الأضواء على الأسفلت تلمع ..
الأسفلت الأسود ، أعمدة النور واقفة كالرجال .. واقفة تسقط الظلال على أرض
الشارع المبلول الأسود الأسفلتي اللامع .

وجد نفسه وحيداً وعودته الرضة في البكاء ، وانتظر شارة العبور ، وفي الميدان
وقف أمام فاتنة عمل يبيع الملابس النسائية ، فوق قطعة ملابس داخلية كان
تمساح صغير من البلاستيك يزحف ببطء .. ولح الرجل القصير الأبحر يقف
خلفه ، وشعر برعدة شديدة لما أشار القصير الأبحر — بصحيفة الصباح التي
يمسكها بيده — إلى شارع جانبي خافت الإضاءة .

هبط الدرجات الست وبلغ مدخل القبو ، شعر بالرطوبة وشم رائحة
الرطوبة ، وانهمز بصو أمام تماسك اللون الأسود ، وظل ينتظر ، وسمع وقع الخطوات
وعاش التوقع : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ، ستة ونأى القصير
الأبحر ويضربه بنصف وحقد وكوه راهن ، ربما يضربه القصير الأبحر — هذه المرة —
حتى الموت .

شموس

(أ)

سيارة الرجال الثلاثة — وقفت ، بجواره ، فجأة — يحملهم السوداء ذات
اللمعة الخفيفة . الثلاثة — كالفرسان ، وقد طوفوا أعناقهم برهانات سوداء تتلبد
بجل على قمصانهم البيضاء يباقتهم الطويلة الحادة . وعلى صدورهم كانت الترفلة
البنفسجية مرسومة .

(ب)

كان مع المارة وأعمدة النور وأسفلت الشارع والعربات وسائر الأشياء — لما
مزقت ضلوع صدره حربة النار ذات الشعب : التي يمسك بها الخوف صاحب
الدرع والخوذة .

(ج)

ولّى البرد المهلك عن بدنه وفارقه العشة الزرقاء — بفضل رب الموت وبأمر
رب الموت المطلع على أعمار كافة البشر : الذي صرف السيارة لغاية أخرى ، وبلل

إصبغه بلمابه الأصفر المر ومرره على الجرح الميت — فإذا بالجرح الذى كان مميتاً
يصير إلى جرح غير مميت وإن بقي الوخز الموجه .

(د)

هو المحب للسير مع الحذر الواجب — وقف ، أمام محل بيع اللب والفول
السودانى والحمص فى قراطيس ، واشترى — هو الذى يحب الفول السودانى —
قراطيس حمص تغطيه طبقة بيضاء من السكر .

(هـ)

سار بالشارع مع الناس ، يمص السكر ويشعر بحلاوته ، ويجرش الحمص
بأسنان رجل مكتملة . وما هو بالخمر ، وما هو بالراغب فى الخمرة ، لكنها
السنوات تطوح به تطوح به — وهما هو يهبط السلم عالياً يبدن يرتعش .

١ - جاء المدينة بلباس ذات ألوان ، وكان شاباً ، وكان يملك مالا (بعث
الأرض التى ورثها عن أمى بعد أن مات ، بعث الأرض بعد نزوح مميت مع أبى
الكهل المقعد الذى ما لبث أن مات ، قد دخلت عراقاً مع خالى وعمى وقهرى
الذى تطارد من يخاصم أهله كما تطارد ثعالب الحقول وذئاب البر) .

٢ - مات ، ومات ، ورأيتهما فى كيسان أبيضين ، ورأيت الحفرة مظلمة ،
النهار أيضاً مفرع أقضيه حتى يحل الغروب المرعب بحرقى — وقد قنعت بها
مسكناً بعد أن أنفقت الكثير من مالى القليل على الخمرة والدخان والأكل
الرخيص (ممد على سريره الخشبي ، نصف يقظان ، يرى السياج — الذى
صنعتة أشجار السيسبان — من نافذة لها قضبان من حديد أسود وشبكة من
السلك القديمة — ممزقة) .

٣ - يعرف كل محاورات المدينة ، يسعى — برغبة دائمة فى الكلام
والمشاركة — إلى تلك الخمارات التى يتردد عليها نصف المشهور ونصف الموهوب

من ممثلي السينما والتلفزيون والأذاعة والمسرح ، وموهوب نصف مشهور فرض عليه
أو قدر له ألا يبلغ الطريق حتى متناه ، شعراء وكتاب قصة ورجال صحافة —
أصحاب ميول سياسية تجلب السخط على أهلها .

٤ - تنقطع عني المياه وأنا أستحم — ربما بسبب هؤلاء . وربما لأنني ، وإن
كنت أجمع ، أه ، لا أذكر ، هل ارتكبت ذنباً ؟ لم تغفر لي لمبات الطوارع ، لم
يطاردني بشر ينظرون إلى ساعاتهم فور دخولي أى مكان ؟ (يضرهونه بالكثف من
غير سبب ، ويتخطاه الأتوبيس السريع ولا يقف إلا وهو مزدحم ، يعامله
الكل — الباعة والمارة والصحاب — تلك المعاملة التي لا تليق بكلب ، تطارده
الوساوس ، ولا يقف له التاكسي ، حواله دوماً عربات : عربات إسعاف وعربات
شرطة وعربات جيش وعربات صحافة وعربات القطاع الخاص والعام) .

٥ - أى ، الى متى ؟، الى متى يسرقني الجرسون ويدس لي صاحب المطعم
الحصى بالطعام ؟، لم لا يرن جرس التلفون لما أطلبها ؟ وإن رن لا أسمع ردها !! ولو
رد أسمع من أين لها تقول إنها ليست هي !!

٦ - على كرسيين من خمرزان وقش ، قعدنا على كازينو مطل على النيل به
شجر ورود — بعد أن فشلنا في الحصول على مسكن لنا .

قالت : أشعر بيدني قهوة بعيدة هناك ، الليل بنجوم قليلة متباعدة تعارك ظلمة
تعجب تلأل الشرق الزرقاء ، وهناك وعد بمطر ، أما الرعد فلا أسمعه ولا أحسه .

٧ - قالت : أمر البيت لا يهمني الآن ، لا شيء يهمني الآن ، لا أود أن
أكون معك ، ولا أود أن أكون مع أحد ، ولا أود أن أكون وحيدة وأود أن يتوقف
كلية شعوري بيدني الذي أكرهه .

٨ - وقفت غاضبة ، وأخفته عني بتوبها الواسع ، قالت : أردت بيدني ،
وتظن أنك تمكنت ، تدس نفسك الخوافة وتنتظر امرأة أنا ، وأنا قهوة ووطن ،
وأنت سيد بيدني ، يالك من فالخ .

٩ - تقول إننى أدبر لها — أنا الذى أقرأ الكتب ، وهى ألا تدبر لى ؟ ، لقد صنعناه معاً ، وهى بمقدورها أن تهبنى الطفل أو تمنع عنى الطفل ، ومقدورها أن تحنقه ، لكن — هل تكون المحبوبة قاتلة ؟ هى المحبوبة ولا أريد أن تكون قاتلة .

(٩)

الزجاج عكر ، وأنا وجه مملوء بالتجاعيد ، جفونه وارمة والبرص يرقط فوق حاجبه الأيسر ، ينتظر الموت الذى ينتظوه ، والألغام التى مرت من العصى أن تعود : هذا ما يحزننى .

إلى الشاطئ الآخر

ناديته ، وهببت واقفا ، كنت فرحاً به . كنت طائراً لا أظن إلا أنه أسود ،
وها هو في أحضان بيضة داغة ، كم هو رائع صديقي هنا .

قال « تعال .. قم يارجل .. ذات يوم سترفع من مقهاك هذا الكيب إلى
الحفرة على خشبة » .

ناولته سيجارة رفضها ، وسعل ، وسب البرد والدخان وكلنا ليالى الصيف
التي تجمل الآدمى منا بنام عارياً وتجمل — ليالى الصيف تلك — الفرد منا لا ينام
ونافلة حجرته مغلقة وسألنى عنها .

قلت « هى تعرف أنتى هنا .. دائماً .. بهنا المقهى .. ومع ذلك تمر
لأرأها — لكن دون أن تلتفت إلى » .

وشققت صدرى ، ومن البيوت المهللة المحترقة انتزعت قلبى وهو ينتفض —
المسكين — فى كفى صغوا ، وأسلمته له . ورأها منقوشة بالآبر ، وقال
« حلوة .. عرفت كيف تنتقى ثوبها وكيف تذب شعرها ليبدو وجهها الحسن
هكذا ضاحكاً : عارية القدمين ينعلها ذاك ، القدمان أرنبان صغيران من ثوبها

الأبيض القصير النظيف رأيت الساقين كوين من الحمرة باللين ، تمسك منديلاً
منقوشاً صغيراً في كفها تمصرو وتغضب الكف الصغيرة المرتعشة — يالوعتى —
بالدم ، يالله كم هى قلقة ، ما أروع حزنها ذلك كأنه كوبان من القهوة باللين :
تبقى به العينان — من خلف نظرتها الطيبة — كأنهما كوبان من القهوة باللين .

وكان يتكلم هو وكنت صامتاً ، وكنت أراها مستعجلة تضرب الشارع بنعلها
فيفر الأرنبان ، وتقطع الطريق القصير إلى مارة ما بين العربات — حزينة
ضاحكة ، ومن فتحة الصدر رأيتها : فى عشمها .. يمامتين فزعتين يزغب
ومنقلبين ، وأغلقت عيني — أنا الذى أفزعتهما ، وصمت رفيف الأجنحة العارية
من الريش .

وقال هو: «الدواء الداء» . وشعرت بشهيتى تفتتح للخمر . واستضافنى هو،
كوفى نشعت على شطحة الحمرة الباكية قطرات من اللؤلؤ النقى ، كوفى قبضت
بكفى عليه وصممت صوت حبات اللؤلؤ تتكسر وشعرت بالعرشة المشتتة ،
حركت كوفى وصممت صوت الحمرة وهى ترتج صوت النسغ فى عروق وصوت
قوالب الثلج الصغيرة وهى ترتطم بالزجاج .

كأسمى السابعة ، ذابت قوالب الثلج الصغيرة فى كأسمى السابعة ، وصديقى
سحى اليد والقلب ، وهى أمامى فوقى ورائى هنا هناك : فى نيل رائق .. ما أقرب
شطيه .. ما أبعد شطيه ، يا ذراعياً اضربا بمجذافين .. أنتما : الفأس وساق
الشجرة ، أيتها السماء فوقى يا عيونها التى تطل بالنجوم .. ارقدى يا أيتها العيون
لأرقد فأنا جد مخمور وصديقى تركنى وحدى .. وأنا جد حزين .. أنا هالك
سيدنى .. الطريق بعيدة والسير أتعب أقدامى .. يا لطرات تلك المدينة ذات
القباب ... يالى من تعس .. يالى من فاشل بأكفان ينجىء .. هذا يوم بخصمين
ألف سنة والأمس كان كذلك .. وغداً .. سيدنى .. ببأعرج وحدى أنا
العاشق — عاجزاً عن الفعل .. مؤمن كطيعى بالكلمات :

« ميم صاد راء .. السنوات .. الماء النلر .. اللين .. الخمر .. الزرع ..
القوارب .. ميم صاد راء .. الرمح الرمح .. القلاع .. المآذن .. السهم .. الأهرامات
اليوت .. ميم صاد راء .. الطفل القوس .. الخشاش .. الدم .. الحرب :
العيون .. سنباء الرايات .. الحب الحب الحب » .

الدرس

ثم أضاف باللاتينية : لأن خلقى يا بنى سيكون أسداً هصوراً لا يفتش إلا عن
فريسته .

- الأب يزار -

ماذا يعنى هذا ، إنه فخ دون رهب ، لنستمر فى اللعب بملء .

- جوليان -

- الأحمر والأسود ، ستاندال -

رفع الملاج الحديدى الثقيل ليفتح الباب الخشبي الثقيل من الداخل انفرجت
أصابع اليد فى قسوة — كما ترى ، عروق اليد نافرة وقد حالت الى اللون الأزرق
بعد الوفاة .

انقلب على الباب يوجهه — وقد أيقن كلياً عجزه ، كان يبغى فتح الباب
ليفلت من مطاردة ، شعر بماسورة البندقية تلامس ظهرو ، وسبق هذا شعور هائل
بالرعب — خلقه المطاردة : بخطواته الواسعة وقدميه الثقيلتين تحملاً للبدن العظيم
وتهرسان أحجار الجير البيضاء الرخوة التى تغطي السطح ، انظر لحجم القدم .

انها لإنسان بدائى ولا شك ، من جانبى أفضل أن أسميه بالإنسان الأول أو إنسان العهد القديم . ولن نترك للبندقية كسلاح قريب العهد أن تضللنا وتطمس شخصية المطارد — لا القاتل — بالتحديد هذا ما أعنيه بالطبع ليس بإمكانك أو بإمكان غيرك أن يرمى الفاعل بأية صفة لا تتناسب مع الفعل ، إن نزعية الفعل هى التى تتحد لى الصفة التى أطلقها على الفاعل .

كان الأمر هكذا إذن ..

ارتبى بوجهه — ولكن بقسوة وعنق وبقوة اندفاع — أجمع أنها مقصودة ثم حدث الجرح الميت الذى نراه بالجبهة هنا من مفرق الشعر حتى قصبة الأنف ، ومنه — من فتحة الجرح — يمكن لكفك أن تنفذ وتخرج لولا الدم الذى انفجر بغزارة ثم جمد وتيسس : إنه ذلك اللون الأسود المتفحج وقد مر على الوفاة ما يتجاوز العشر ساعات

الاستطراد المنطقى وحده هو الذى سيقودنا إلى النتائج المنطقية المقتنة : اصطدام الجبهة العنيف بالباب الثقيل أحدث الشق المؤلم ، وحدثت الوفاة ، ثم أتت الرصاصة متأخرة — ربما أقل من عشر الثانية بعد الوفاة .

كان صاحبنا وقد شك فى قدرته على النجاة — هذه المرة لم أقل القرار — قبض على الملاج الحديدي الثقيل ودفعه قليلاً : بهاتين اليدين المتصلبتين ، تلك الأصابع المنفرجة والعروق النافرة ، وضرب جبهته بالباب الثقيل الموصد بكل ما أوتى من قوة الراغب فى الحياة الهارب من الموت ، وهرب شديد من المطارد — هكذا تمت الوفاة .

الأمر كله فى ظنى — بل فى يقينى — لم يكن أكثر من لعبة ، لعبة سمجة ولا شك ، ولكن لن ندع الأمور تضللنا نحن الرجال — بعد تاريخ طويل أنجزنا فيه تفوقاً مذهلاً فى الكشف عن أشد الجرائم غموضاً : بنعمة العقل وصلابة المنطق وخبرة التدريب وقوة السلاح وحقائق العلم .

نعم .. دعنى أكرر — كيف نسمح لأنفسنا ونحت أبدينا العديد من الوسائل المتقدمة إلى أقصى حد فى مواجهة العنف اليومى المتكرر ، كيف نسمح

لنفوسنا بأن نخدع، أنت لا ترى مقدار ما يصيبنا — ولا أكون مغالياً حين أقول
يلاحقنا — من سخرة مرة لن نختملها ، وقد تدفعنا نحن الذين لم نهن ولم نعرف
اليأس بعد ، نحن المنوط بنا تنبيه الآخرين إلى الفجأة وحماتهم منها — إلى
الانتحار .. هل نسقط أخيراً ضحايا خدعة تجوز على العامة فتصيب روحهم
ببليلة تؤدي إلى مقتل حتمي .

الأمر الخفية في أن الرجل المتوفى أراد أن ينفلت من ظلمة المكان ومن مطاردة
البدائي الواسع الخطوة الكبير القدم : انظر إلى الأحجار الجيرية المفتتة — هاك
طبع القدم : من هنا إلى هنا ..

كان المتوفى يجري. وجرى البدائي خلفه مدفوعاً بلذة الطفل ورغبته في المحاكاة .

وأنت معي في أن « من أين للبدائي عقل الرجل الناضج مثل ومثلك !! ثم وأن
البدائي لاشك قد شاهد الرجل المتوفى في المكان قبل ذلك مرة بل مرات عديدة :
رأه يغتسل وينام ويشعر ويأكل ويقضى حاجة ويحمل بندقية ، وأنهك أن البندقية
أصلاً ملك للمتوفى — بهذا تشير كل الدلائل : من أين للرجل الأول رجل العهد
القديم أن يحصل على بندقية ؟ بل كيف له وهو صاحب العقل البدائي أن يدرك
ماهية البندقية كأداة قاتل !!

لم يكن الأمر أكثر من عبث طفولي بحث من جانب الرجل الأول : محاكاة
للرجل المتوفى في عملية الجري. تلتها اللذة الطليقة التي تخلقها روح المطاردة —
وهذا لا يتوفر لعقل البدائي فحسب وإنما لأي حيوان أو حشرة غسيصة كشعور
غيري .

كان يعابه ، ألصق فوهة البندقية بالظهر ، وبالمصادفة أو بدافع المحاكاة
اصطلم الإصبع بالزند ، وتطلق الرصاصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن
يكون رجل زماننا قد قضى على نفسه متحرراً : باليأس من رفع الملاج وفتح الباب
والخوف من رجل العهد القديم ، والخوف غير المبرر ، وانطلقت رصاصة ثانية
وثالثة ورابعة وخامسة حتى الرصاصة الألف : أحدثت هذه القنوب بالظهر ،
فأحرقت الثوب وتركت ابن زماننا عرياناً وجعلت ظهو كمصفاة بها ألف ثقب .

لو كان البدائي يملك قدرات الوعى — التى هى منحة التجريب والتاريخ — إذن لما أطلق الرصاصة الأولى وقد مات الرجل قبلها بعشر الثانية من اصطدام الرأس بالباب .. فما بالك بألف .. ما حاجة الميت لألف رصاصة ليوت .. هل هى رغبة الرجل البدائي فى التأكد من موت الرجل : الذى تراه أمامك بفضل جسده العارض ضئيلاً متناهى الضآلة ، هل كان رجل العهد القديم يخاف المواجهة الصريحة المباشرة وهو العظيم الجرم الفائق القوة — حتى فيما لو جردناه من سلاحه وهو بندقية ليست حديثة الطراز ولا يوجد بمخزنتها سوى ألف رصاصة ؟ أنت وأهم حين تظن ذلك يشكك فى قدرات رجل العهد القديم الطبيعية ، وها أنا أضع تلك الفرضية أمامك .

« هل كان الأمر سيتغير وترى جثة رجل العهد القديم بدلاً من جثة رجل زماننا فيما لو نزعنا البندقية كأداة قتل من يد الأول وأسلمناها ليد الآخر ؟ » .

أقول لك: لا .. سيظل التفوق الطبيعى للفرء القديم على الفرء الجديد ...

ها هى وجوه الخدعة تتكشف أمامنا .. وها أنا أراها كشمس الظهيرة هناك عند خط الاستواء ، وشيء واحد كان بإمكانه أن ينقذ رجلنا المنتحز : للواجهة .

لو واجهه ابن زماننا البدائي لرأى البدائي — بدلاً من ظهوره — تقلصات فى الوجه وجموحاً فى العينين وفماً فاغراً ، أشياء تنطق بالخوف الصريح ، هنا كان البدائي لاشك سيتراجع بهلى التجربة والغيرة الالهية — التى لن نسمح لأحد بأن يشككنا فيها ، ولما حدث شيء — أى شيء للحمامة المذهورة : تلك التى تعرف حكايتها .

أنا وهى .. وزهور العالم

كنا بالحديقة — أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أبة علاقة .

وكان بالحديقة شجر مورق ، وحشائش مخضراء ، وطير بأجنحة ، وعين ماء — أراها مرة بالقوة ومرة زمردة .

لأنه الريح : وتلك شمسه اللينة تنفذ من بين أفرع الشجر بشعاع كأنه الفضة النقية — وقد رمت فوق الحشائش بالضوء واللون والظل والشكل .

كان للشجر رائحة ، ولالأرض رائحة ، وللحشائش رائحة ، ولشعرها رائحة ، ولفى رائحة .

هو الريح ، وتلك طيور الريح عند حين الماء تطلب الماء وتغتسل وتتغذى من ريشها الماء وتتمرغ بالحشائش وتقط وترقب فى الجو بأجنحة وتصوصو وتحصى بأفرع الشجر .

— أحب الموت وكلما أجلى على حافته أحب الحياة .

— أود لو أمتلك زهرة سوداء .

— ثمّة زهور سوداء بالعالم .. ثمّة زهور سوداء .

• • •

بالحديقة كنا — أنا وهى ، وكنت ظامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

كان بالحديقة شجر سقط ورقه وحشائش يابسة وكل الطيور ، وكانت الشمس طالعة ، وعين الماء قل فيها الماء وغطاها الورق اليابس والكلس ، إنه الخريف .

— أحب الحياة ، وكلما أجدنى فيها أعرف أنها الموت ..

— أود لو أمتلك زهرة بيضاء ..

— ثمّة زهور بيضاء بالعالم .. ثمّة زهور بيضاء .

الرقصة المُبَاة

أهـ

إلى ادوار الحرايط وعبد الفتاح الجميل وغالب هلسا
وإلى منسجة محمد ابراهيم : أم إيتى « أسماء وهالة » :

عُقدى مُفصل — بين كل لؤلؤتين خمرزة .

أغنية العاشق إيليا

(الى صاحب القلب الأبيض والعقل الأبيض)

كان العاشق إيليا يسير بلا هدف — على غير عادته في مثل هذا الوقت المبكر
من بعد غروب شمس هذا اليوم الحار . وكان العاشق إيليا حزناً لأن سامية —
الفتاة التي يحبها العاشق إيليا — لا تسير بجانبه الآن .

كان العاشق إيليا مازال يسير بلا هدف في الشارع الذي تقع على جانبيه
أغلب دور السينما بالمدينة وقد استقرت يده اليمنى المضمومة بحبيب بنطلونه الأزرق
واستقرت يده اليسرى المضمومة بحبيب بنطلونه الأزرق — بينا الراديو الصغير بحبيب
قميصه المقلّم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء يرسل أغنية مهداة لفرقة الاسماعيلية
الذى فاز أخيراً ببطولة الأندية الأفريقية . وكان إيليا يفكر في سامية ويشعر بأنه
أكثر أبناء الله ألماً على الأرض ، وما كان إيليا ليحرم نفسه لو لم يشعر بهذا الشعور
ولرمى نفسه بخيانة سامية محبوبته التي لا تسير بجانبه الآن .

الكثرة من الناس — التي تسير مع إيليا في نفس الشارع — تجعل الشارع مزدحماً . بعض الناس خرج تَوّاً من دار سينما انتهت حفلتها في السادسة وبعض الناس كان سيدخل دار سينما ابتداء حفلتها من السادسة ، وهناك الواقفون أمام واجهات المحلات المضيئة والمصنوعة من الزجاج يتأملون الأشياء تحت الضوء من أحذية حريمى ورجالى وأولاد وشنط أيضاً وزجاجات عطر وساعات ونحوهم ولإعات وراديوهات وتليفزيونات متعددة الأحجام والمراكات وثلاجات بشتى المقاسات وملابس خارجية وداخلية للجنسين ولكل الأعمار ولكل الأذواق ، بعض الناس كان يقف ليتفرج، وبعض الناس كان يدخل ويشترى ، وكان للمحلات أسماء « ميكى وديفولى وستار والهى هوم والسفر شوز » .

كان كل ما يستطيع أن يصنعه العاشق إيليا — حيث أنه يسير بمفرده ولا تسير معه سامية محبوبته المفضلة الموجودة الآن مع أسترها بالصعيد ، أن ينقل عينيه ويقرأ أسماء المحلات ويتأمل صنوف الملصقات والاعلانات على الحوائط وأعمدة النور ، وأن يسأل نفسه « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأب المقدس « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأم المقدسة « ماذا أفعل ؟ » .

توقف أمام صورة فدائى يحمل بنقلية ، وصورة رجل فرنسى يلبس معطفاً ويسمى بالفامض ويعرض فيلمه لربيع أسبوع بدار سينما ريميس ، ولربيع أسبوع أيضاً بسينما ميامى . كانت الفتاة الملقبة بسندريلا الشابة العربية تلبس « مايوها » ترك ظهرها عارياً وهى نائمة تحت شمسية على البلاج وأمامها البحر له زبد ، وكان طفل نظيف يشرب حليب « أسترا » من زجاجة بها « برائة » وهو يتسم ، وكانت الفتاة ممزقة الثوب وحولها صمحاء وخيمة مزقتها الرياح وسلك شائك .

حاول إيليا البكاء وكان راضباً فيه ولكنه فشل ، وكانت ألياف برتقالة قد اختبأت بين أسنانه تسبب له ضيقاً ، ظل يبحث عنها بلسانه حتى عمر عليها

أخيراً ، قلغها مع البصقة فى الهواء وما هو يحس براحة من تخلص من هم صغير . وعادته ذكرى حبيبته سامية فاغتم ، وورق خاطر نفلته فى الحال « استدعى صورة مدير بيرد العتبة رئيس والد سامية فى العمل والذى أمر بنقل والد سامية إلى مكتب بيرد صغير بمدينة صغيرة بالصعيد » ، بصق إيليا مرة ثانية ، « كان الرجل سمينا حليق الذقن والشارب له بطن منتفخة تحت جاكته سوداء وله رأس مستدير وعنق غليظ وعرة خاصة ووجه صامت مصنوع من الشمع ، وكان إيليا يرفع يده ويشير بالسبابة وهو يشرح الأمر ، كان مرتبكا فى البداية ثم استقام لسانه وخرج الكلام من فمه سهلا وقد أيقن من عدالة قضيته ، وكان الوجه مصنوع من الشمع صامتا فثار إيليا وشتم وبصق للمرة الثالثة .

• • •

تلك هى المرة الأولى التى شعر فيها العاشق إيليا — وهو تحت الضوء وفى الزحام — أنه وحيد ، وفوق واجهات الحوانيت كانت الإعلانات الملونة تتلغى وتضئ لتدهش أبناء الريف والمدن الصغيرة ، لو كانت سامية مع إيليا لبحثا عن الوجوه المندمجة ولنظر أحدهما للآخر وابتسما فتلک واحدة فقط من أعاجيبا الكثيرة التى تجلب السرور لقلبيهما العاشقين ، ولكن سامية الآن مع أسرتهما بالصعيد البعيد حيث ينام الرجل الصعيدى وينلقته وزوجته وأولاده والحمل والبقرة والكلب والحمار فى حجرة واحدة ، وحيث تسلك الذئب والثعالب تلك الدروب الضيقة على المارة ، وحيث يتعنر عليك أبها الغريب أن تميز الآدمى من الوحش والناس والأشياء وإيليا تحت الضوء الآن وإيليا وحيد ، وإيليا حزين .

• • •

عن يمين إيليا العاشق — هناك على الطوار الأسير — كانت فوانيس الشارع مضئية ، أما فوانيس الطوار الأيمن — حيث يسير العاشق إيليا — فمطفأة ، لأن ذلك يتفق وظروف الحرب التى تعيشها المدينة الكبيرة وخلفها المدن الصغيرة ثم القرى القريبة والثانية ضد عدو خسيس لا يتورع عن قتل الأهالى غير العسكريين — بل يقتلهم بالفعل ، لكن الشارع رغم ذلك كان يعيش حياته بالطريقة التى اعتادها بنفس الطريقة التى ما زال يألفها منذ آلاف السنين . وكان الراديو القابع بحجب قميص إيليا المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء سريع

التقلب — فهذا هو الرجل الذى يغنى قد توقف وما هو رجل يتكلم :

« قالت وكالات الأنباء الغربية المعادية لنا والتي تساند العدو وتشجعه على العدوان المستمر على مواقفنا العسكرية والاقتصادية والمدنية — فى شبه اعتراف كما قالت الصحف العربية والأذاعات العربية — إن الطريقة العادية التى تسير بها الحياة فى الشارع المصرى تعتبر أقوى أنواع التحدى والصمود أمام غارات إسرائيل التى لن تحصل بالقطع على النصر السهل .. نعم لم تحدث الغارات الإسرائيلية التأثير النفسى المطلوب وفشل مخطط إسرائيل فى إسقاط نظام الحكم المصرى » .

ها هم الناس عن يمين إيليا وعن شمال إيليا وأمام إيليا وخلف إيليا — رغم العدو — يشككون الطواير ويتوقفون أمام باعة الثلجات ويطفئون الحر داخل صلوهم بزجاجات الكوكاكولا والبيبسى كولا والسيكو بيون والسيكو برتقال والسيكو فراولة وغير ذلك من صنوف الثلجات — ما عدا البيرة فهى تشرب من محلات لها واجهات من زجاج نظيف تضاء من الداخل وأصحاب تلك المحلات حصلوا من الحكومة على تراخيص خاصة بمقتضاها يقدمون لرواد محلاتهم المشروبات الروحية ويعرضون لعقاب قانونى هو الغرامة المالية أولا ثم إغلاق المحل فيما لو تكرر وسمح أحدهم لصغار السن بتناول أى مشروب روحى .

هذه الأمور كانت تقلق بال العاشق إيليا فيما قبل، فحجمه وطوله و ملامحه الصغيرة لا تتناسب مع سنه التى تقول إنه بلغ مبلغ الرجال منذ شهر ونصف شهر ، نعم كان إيليا يتخلص من المأزق تلو المأزق بأن يبرز بطاقته الشخصية فى الوقت الملائم ليفضح عن سنه وهويته كموظف له راتب أول كل شهر جدير باحترام الآخرين ، ولو لم يكن إيليا كبير عائلته ووحيدها وعائلها لكان الآن جنديا يحيا حياة الجنود الحشنة ..

وتعرف سامية ذلك من خطاباتهن التى مستقطع ، وتبكي سامية وتردد « الحب أقوى من الموت — الحب أقوى من الموت » .. ثم يأتي النسيان وذلك ما لابد أن يكون فى يوم من الأيام ..

وهكذا أيضا كانت تصورات إيليا تحبوه على أن يعود حزينا من جديد .

لم يكن العاشق إيليا يعتقد أنه سيفكر في أى من تلك الأمور الآن كأن يكون إيليا طفلاً أو أن يكون إيليا رجلاً ، كان إيليا يدرك نفسه القلقة ويبحث فيها الاطمئنان ببطاقته الشخصية ، ولكن بماذا يدرك إيليا نفسه أمام الأم ، هل هو طفل أو هو رجل ؟ ، وإن كان بالأمس قد شاهد — بشغف من يهيم الأمر — الرقيب السينائي وقد ظهر أخيراً على شاشة التلفزيون وكان شاباً بلبس بذلة سوداء وكرافة تسقط . يجيل على صدره .

(قال الرقيب : الحكمة التى تحملنا نكتب على بعض الأفلام للكبار فقط هو أننا نريد حماية صغار السن من أفلام الرعب والجريمة والجنس ، وقال مراقبه وكان عالماً من علماء النفس وكان يكلم مقدمة البرنامج ذات الأسنان الجميلة البيضاء والابتسامة الحلوة : الصغير صغير القلب والعقل لا يحتمل ما يحتمله الكبار ، وقال الأستاذ الثالث الذى كان موجوداً وقدمته المقدمة للرقيب وابتسم الرقيب وقال إنه يعرفه ، وابتسمت المقدمة ولعت أسنانها البيضاء وتوجهت بكلامها للمشاهدين وقدمت الأستاذ الثالث ، قال انه درس علم الاجتماع بأكبر الجامعات الأمريكية وقالت إنه عائد بالأمس فقط من بعثة استمرت ستة أعوام ، وقاطعها عالم الاجتماع مصححاً « خمسة أعوام فقط » ، وابتسمت المقدمة وضحك الكل بصوت مرتفع ، وتكلم عالم الاجتماع مع من حوله ثم توجه إلى المساعدين في لقطة كبيرة : الصغار كالقردة يحبون التقليد ومن السهل أن ينحرفوا نحو الجريمة ولا بد من حمايتهم وحماية المجتمع ، وهذا ما يفعله القانون وهذا ما يجعل المشرعين يسنون القوانين ولذا يجب معاقبة من يخالف القانون بعقوبة كافية ، ووافق الجميع وانتهى البرنامج » .

كان ذلك أول أمس وليس أمس كما اعتقد إيليا وكان إيليا في بيت عمته بعد أن فرغ من توديع سامية العزيزة التى هى بالصعيد الآن مع والدها موظف البريد الذى نقل لأنه ساخن الطبع ولم يكن على وفاق مع رئيسه مدير مكتب بريد العتبة ، وهذا ما يجعل العاشق إيليا وحيداً وحزناً تحت الضوء وفي الزحام ، وهذا ما يجعل إيليا يسير في الشارع بلا هدف .

كانت أغلبية من الشباب صغار السن تقف أمام دور السينما التي من الدرجة الثانية والتي تتجاوز عن شرط السن بنصف قرش يعطيه الولد الصغير السن للرجل الواقف أمام باب السينما فيدخل فيلماً للكبار فقط ، قال العاشق إيليا مكلماً نفسه وهو يتسم : كل القاطنين على أبواب « السينات » هكذا .. حتى « سينات الدرجة الأولى هكذا تتغاضي عن الصغار الداخلين مع أسرهم » أفلاماً للكبار فقط .. وبالتحديد تلك الأسر ذات المقام تلك التي تجلس على مقاعد « أ » الممتازة ، وقال العاشق إيليا لنفسه وهو مقطب : لو كانت البنت سامية معي الآن لدخلنا فيلماً للكبار فقط .. ولاحتفلنا أنا وهي بانتصار جيلنا على الرقيب ولدخلنا علناً له واجهات زجاجية وشربت أنا البيرة وشربت سامية الليمون أو الليمون الكريم وربما بيرة لو أحببت ، وقال إيليا : نعم سأصرف الجنية الذي في جيبتي وكذلك العشرة قروش الورقية وأصير مفلساً وأكون سعيداً .. ولكن سامية لا توجد معي الآن وهي هناك بالصعيد مع أب ساخن الطبع ورجال ملثمين يتعاملون البنادق .. سامية بمفردها تواجه الوحش ، وتهد إيليا : ميسكينة أنت يا حبيبتي سامية ، وعاد إيليا العاشق حزناً ووحيداً من جديد .

كان الشبان يلبسون قمصاناً إما بنصف كم وإما بكم كامل وإما بأحجام « مشمرة » ، وكان من المألوف أن يسود الشباب إحساس عام بذلك الحر المألوف في مثل هذا الشهر من السنة ، أعفوا أنفسهم جميعاً من غلق الزرار العلوي لقمصانهم ، ظهرت صدورهم العارية الطليقة يعلوها أحياناً شعر وأحياناً زغب وغالباً ما كانت الصدور ملساء ، وكان الضوء الكثير يسقط على الصدور ويجعل جلدنا يلعب ، ورأى إيليا الصدر الأسود كالرخام والصدر الأحمر الداكن كركوة القهوة والصدر الأحمر فقط والأحمر الفاقع والأشقر والشديد الصفرة والأصفر فقط ، ومن بعض الصدور تتدل السلاسل وتنتهي بمصحف أو صليب من الفضة أو البرونز أو النحاس أو الذهب الحقيقي أو الذهب المخادع ، ومن بعض المحلات كانت الأغاني العاطفية تصل لأذن العاشق إيليا من جرافونات أو ركودرات أو من الراديو وتذكره بسامية الغالية ، وبين الحين والحين كان الراديو الترانزستور القابع بحجب إيليا يقطع إرساله العادي ويتلو بياناً عسكرياً ، وكان العاشق إيليا يرى أن ذلك يتناسب مع ميلو دراما الحياة ويتمشى مع جلال موقفه الحزين ، لذا سمع العاشق إيليا أقرب تعليق عسكري بصورة تجعل كل من يراه على

اهبة الاستعداد بأن يشهد : أن العاشق إيليا مهم بالسياسة لأقصى حد .

ولكن هل حقاً أكل الوحش سامية ١ .. سأل العاشق إيليا نفسه بلهفه جعلت قلبه يدق بسرعة أكثر من المعتاد ، وقال إيليا إنه لا يصدق تلك الخرافة ولكنه بهذه الوسيلة يخوف نفسه ويحصل على الألم اللذيذ ، إيليا يفضل سامية على بقية بنات العالم لأنها الوحيدة دون بنات العالم التي تحب إيليا بشعره الأبيض الأجدع الأسود الكثيف الحشن .. سامية تحب إيليا دون سائر المخلوقات التي تسعى فوق كوكب الأرض .. وإيليا لا يريد من العالم سوى سامية .. ومن اليوم سيمش إيليا على ذكرى سامية مخلصاً لها إلى الأبد — كما تعاملها .

« جرح كل منهما إصبعه ، بالدم رسم إيليا قلبه يخترقه سهم وكتب اسمه واسم سامية على الورقة . وأعطى الورقة لسامية ، وكذلك فعلت سامية جرحت إصبعها ورسمت على الورقة قلباً يخترقه سهم وبدمها كتبت اسم إيليا واسمها وأهدت الورقة لإيليا » .

سيحتفظ إيليا بالورقة إلى الأبد فسامية جعلت إيليا يحس بأنه سعيد في اللحظات السعيدة التي قضاها معها فوق حشائش الحدائق العامة أو متجاورين بدار سينا مظلمة أو على كورنيش النيل ، كان إيليا يتحرك بخفة ورشاقة كالروح ، وكان يحس بالسعادة أحياناً وهو واقف وأحياناً وهو جالس وأحياناً وهو يسير وأحياناً وهو يشاهد مباراة كرة القدم ، سامية حلوة متوسطة الطول سمراء بخديها حمرة خفيفة وغملازان ، سامية ليست قصيرة وليست سمينة وشعرها الأسود الناعم اللامع يصلح صفيرتين طويلتين ، إلا أن وجهها يصبح صغيراً وتنضج الظلال الزرقاء تحت جفونها العلوية والسفلية وتبرق من عينيها السوداوين لمعة حزينة ، وحين تجمع سامية شعرها وتصنع منه كحكة يرى إيليا الكمكة ويرى أن ذلك لا يناسبها ، ومتى رمت سامية شعرها غصلتين من أمل وأخلته سائلاً من الخلف وعقصته يرى إيليا ذلك الفرس ويعود وجه سامية كما كان ، يتمنى إيليا لو يصدق دق قلبه السريع فذلك عادة تسبق اللقاء وتصبح سامية في مواجهته كما يحبها أن تكون « بمضاء وإطوى كآخذية الصبيان وبلون جورب على ساقها وجيب فوق الركبة أو ميني جيب أو ميكروجيب أو بنطلون ، يمسكها من يدها ويظهران

فوق الرؤوس كما تفعل الملاحكة في الصور والرسوم ، ويشريان البيوة بالجنيه والعشرة قروش الورقية » .

سامية ثالث فتاة يحبها العاشق إيليا ، الأولى كان اسمها هدى وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بالمدرسة الإعدادية ، والثانية كان اسمها آمال وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وأخيراً سامية التي كانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وسامية لازالت بالمدرسة حتى الآن لأنها تحب التعليم ووالدها قادر على مصائب التعليم ، أما هدى فتعمل الآن بمصنع نسيج مع هدى أخت العاشق إيليا ، وقال العاشق إيليا مكملاً نفسه : لابد وأن البنت هدى أختي تحب شاباً من الحى أو زميلاً لها بالمصنع وربما كان طالباً مازال ، ولكن هدى مأكرة وقادرة على إخفاء أمورها الخاصة ، ولأم العاشق إيليا أخته وقال إنها لا تثق فيه هو الذى يعرف معنى الحب ، وقال إنه كان مخطئاً حين بانح لها بعلاقاته بحبيباته الثلاث ، وقال إنه غير مخطئ وقال إنه مخطئ وقال أخيراً إنه غير مخطئ ، قال : هدى تخاف من أمها التي عملت خياطة بعد وفاة زوجها والد هدى وإيليا حتى خف بصرها ، كل ذلك فعلته أمه من أجل هدى وأجل إيليا . ورفضت أزواجاً كثيرين كى لا يكون مصيرهما الشارع والبهدة من زوج الأم لذلك فهم قاسية أحياناً على هدى لأن هدى بنت ولكنها تحب هدى وإيليا . وإيليا يختلف مع أمه أحياناً ويوافقها أحياناً ويحبها دائماً ، ويحب سامية أكثر من هدى حبيبته الأولى وآمال حبيبته الثانية ، وقبض إيليا على الصليب البرونزى المعلق على صدره الذى أهديته له سامية وقال لنفسه : لو طلب منى أحدهم أن أقايضه بهذا الصليب على صليب من الفضة الخالصة لرفضت وحتى ولو كان صليبه من الذهب عيار ٢٤ لرفضت .. نعم هذا الصليب رمز كبير لحبنا الكبير أنا وسامية ، وحين تنبه إيليا أنه نطق اسم سامية — البعيدة عنه الآن — عاوده الحزن والشعور بالوحدة من جديد .

كان العاشق إيليا قد بلغ نهاية الشارع الذى على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة وقال لنفسه : من العدل أن ينقل والد سامية من عمله بالمركز الرئيسى بالعبدة إلى مكتب فرعى بأقصى الصعيد لأنه ساخن الطبع وليس على ود مع

رئيسه ولكن سامية مظلومة .. سامية المسكينة ما ذنبها 11 ، ومشى إيليا في شارع جانبي قليل الأهمية وإن كان على ناصيته بنك أهل حوله كشافات تضوء بقوة كضوء الشمس ، كان إيليا يسير ويفكر وكان الضوء يخفت بالتدريج ، وقال إيليا منذ سافرت سامية وأنا لم أنظر لفتاة غير سامية .. آه لو تعلمين أيها الشيطانة سامية مقدار حبي لك مقدار إخلاصي لك ، عند منتصف الشارع عرج إيليا وسلك دربا قليل الشأن أيضا وشعر إيليا بإحساسه الظل وحاول أن يتذكر اسم الدرب وفشل ، وقال إيليا : أنا متأكد الآن من أنني صاحب ضمير .. لم أنظر لفتاة بعد سفر سامية .. وبعد ما أنهيت علاقتي بهدى لم أكن ارتاح للون عينها الزرقاوين .. أما البنت آمال فحين وابتها الفرصة وتعرفت على ولد وسيم بوجه أشقر كالخواجه يعمل كومبارسا بالسينما قطعت علاقتها بي وقالت إنها ستصبح ممثلة في السينما في يوم من الأيام و تملك عربة حمراء وفلا على النيل وتسوق العربة وترى الماء الأزرق كل صباح من نافذة يتعلق بها ورد حقيقي ، وصرخ إيليا مغلصا لآمال كأخ : هذا الولد كذاب .. وقالت آمال مؤكدة ومتبرمة : ليس هناك من ولد ولكنها بنفسها دخلت سينما كوزمو وشاهدت الفتاة التي كانت تسكن في حارة في بداية حياتها وهي تسوق العربة الحمراء وقد صارت ممثلة مشهورة تملك فيلا على النيل لها نافذة يتعلق بها ورد حقيقي ، وصرخ فيها إيليا مغلصا كأخ وقال هذا شغل سينما ، وقال لنفسه : لقد ضاعت آمال ، وكان قد بلغ نهاية الدرب المسدود فمال ومشى في الشارع الموصل للأتوبيس وكان عمال المجارى هناك يصلحون المجارى وقد علقوا فانوساً دهنوا زجاجة باللون الأحمر ، لإحت زجاجة الفانوس لعنى إيليا بقعاً حمراء شاحبة وبدا له أن هذا أمر طبيعي من فانوس صغير يتغذى فتيله المشتعل بهت البترول الوسخ ، كان الفانوس مثبتاً على حامل خشبي يخلق الشارع من منتصفه ، على الحامل كان هناك كتابة باللون الأحمر تحذر من الخطر ، ولم يكن عبور المشاة ممنوعاً فلم يعترض واحد من الواقفين طريق إيليا حتى العسكري الذى كان موجوداً يشرب الشاي من كوز من الصفيح لم ينظر لإيليا ليسأله عن بطلته ووجهته وما إلى ذلك في مثل هذا الوقت المتأخر ، كان العسكري مشغولاً بالحدث مع عمال المجارى ، وميز إيليا من لهجة عمال المجارى أنهم خليط من صعيدية وأولاد ريف بحري وأولاد نفس المدينة التى يعيش فيها إيليا وكانت سامية تعيش معه فيها وكانا سعيدين مع سائر صنوف البشر من صعيدية وعمال مجارى ورجال شرطة ومسلمين وأقباط وأغنياء وفقراء وأولاد عرب وأجانب .. مدينة كبير بها التاكسي والعربة الملاكي والعربة الكارو والترامواي والترولى والأتوبيس والبسكليت ، وقال إيليا وهو يسير إن القاهرة رمز لمصر كلها ، وفكر إيليا العاشق

في البغل والحمار والحصان ولا يدري لذلك سبباً سوى أنه مرتبك وعاشق ، وعاد مرة ثانية وفكر في البغل والحمار والحصان من حيث يرمز لكل منهم للغباء ، كان إيليا مندهشاً ومتعجباً كيف لا تسقط تلك الحيوانات الغبية التعيسة التي لا تقرأ في الحفر والمجاري العديدة التي يجري إصلاحها من جانب عمال المجارى ، وإيليا رأى بغلاً وحميراً وخيولاً واقعة على الأرض وكان ذلك إما لأن الأرض زلقة موحلة مثلاً وإما لأن الحمولة التي تجرها الحيوانات الغبية التعيسة والتي لا تقرأ ثقيلة .

عاد إيليا العاشق يفكر في حبيبته سامية من جديد وحين تصور نفسه وقد سقط في حفرة يجري إصلاحها من جانب عمال المجارى تخيل سامية وهي تضطجك من منظره ، وقال إيليا إن الخنجل من الموقف ربما يدفعه إلى الجرى ولا يعود يرى وجه سامية إلا بعد مدة طويلة وربما لا يراها بالمرّة ويبحث عن فتاة أخرى بمعاونة أخته هدى ، لهذا السبب طرد العاشق إيليا هذا الخاطر الخبيث وقال إنه من ذلك النوع من الناس الذى يخاف الشك ويخاف اليقين ، وشتم رائحة فم سامية في الهواء المحيط ، وقال إيليا إنه يكره رائحة الجوع وإن لكل فم رائحة ويخفف رائحة الفم حين يأكل الإنسان ، وقال إنه يحب رائحة فم سامية وسامية من أجله لا تأكل البيض ومن أجل سامية يضع هو اللبان قبل اللقاء وقال يوم يكون لى مرتب طبيب سأ تزوج من سامية وسيقبل والدها ذلك وكذلك أم سامية وأمي ستقبل أيضاً لأن هدى ستكون قد تزوجت وأمي قادرة على إعالة نفسها من عملها كخياطة وأمي لا يهتمها غير سعادتى وسعادة هدى ، وجرى إيليا نحو الأتوبيس القادم والذي كان مزدحماً لأن الكل الآن في وقت من اللاتزم للإنسان منهم أن يقضيه في بيته — حتى ولو كان عاشقاً مثل إيليا ..

الحكاية المثل

- ١ -

يحكى أن فطناً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة
الأموات : فهناك يفتات من خبز الصدقات، وهناك مسكنه — طال عمره أم
قصر .

ولما وجد الفقير الأقرع كل المقابر المسقوفة مشغولة بالأحياء طرد الكلب
الضال الأجرى ، واحتل مكانه : حفرة بعيدة ضيقة لئلا عظام ميت .
— الميت قليل الشأن لا رهب —

قالها ، وكشع التراب الملوث بعلة الكلب خارج الحفرة، وكذا عظام الميت
النكرة — بينا الكلب الضال ينبح ولا يقدم على الفعل .

شرق الفقير بعقله الفطن وغرب :

الناس مراتب ، والحيوان مراتب ، والقبور مراتب ، والأحياء في بطن القبور
مراتب — فهل تبقى المراتب بعد الممات يانكرة ؟ خبرنى يامن عرفت مرتبتك بين
الموتى ؟

إنسان وحيوان ، رجل وكلب ، أقرع وأجرى ، ضال أعجمى وضال بعقلي ،
فما قيمة العقل يا أجرى ؟ ، وأنت هل عندك الجواب يا أقرع ؟

ما الذى أضناهما وعذبهما وسهدهما وأقامهما وأقعدهما فى الدنيا ؟
كيال الدنيا يكيل بمكيالين ؟ لماذا ؟ لا سَلِمَ ولا دام عيشه .

وصرَّ الفقير الأقرع القطن ما اهتدى إليه ودسه فى ركن قصى من واعيته ،
حتى لا يتهم — هو العارف بزمانه العسكى — بالكفر أو الشغب ، وتوسد
ذراعيه ورقد داخل حفرة القبر — وكان الكلب الأجرب الضال قد سبقه ورقد فوق
كعب التراب والعظم خارج الحفرة .
رأى الأقرع يبول ويشرب بوله ، ورأى الأقرع يتخلص من حاجته ويأكلها ،
فهب الأقرع من نومه هلوهاً بيدن بارد والأيام قلب الصيف .

قال : الخير فى العتمة .. والله ستار .. وعصيان العبد عقوبته السجن أو
الإعدام ، وانهمك فى الفعل — وما أن تخلص من ذلك الذى اهتدى إليه ومخاه من
واعيته حتى أحس بالأمن والأمان وراحة السلام وريح السلام الرخاء وطعم السلام
الحلو .

ومأً يديه — يرفق وحب — وحمل الكلب الأجرب بين ذراعيه وأنزله إلى الحفرة
واحضنه ، وناما بواعية يبضاء لا تعرف الحقد ولا الفروق ولا تطالب بميزات ، وما
فتحا العيون إلا مع إشرافة همس النهار .

— ٢ —

اليوم رحمة ..

ويوم الرحمة يوم للجميع — الموتى والأحياء ، فالموتى يرجعون بصدقة من حى
قادر لحى محتاج (بسم الله الرحمن الرحيم) بيطن القبور : أبناء وأزواج
وأمهات وآباء وجلود وجندات لا يشكون من جوع أو عطش ، والأطفال
(والحمد لله رب العالمين) لا يصرخون على لعبة أو ثدى ، والأحياء (قل أعوذ
برب الناس) فوق القبور مشتبكون بالصوت : حسنة قليلة تمنع بلوى كبيرة .. يا
غالى ليتنى أنا .. ييب ييب .. يا زينة الشيباب .. ييب .. أعمى وكسيح .. (ألم
نشرح لك صدرك) .. أنا لا أطلب مكربة من أم عجمرة .. لله يا محسنين .. ييب
يبب .. فتتى للهوان يارجلى .. ييب .. (ألف لام ميم ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

والأحياء : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .
نسوة : باقيات ومولولات ونالحات ولاطلمات مخلود .
ورجال : في الحزن أجلد وفي مقام الرغبة أصرح .
وامرأة : في كل أحوالها — منحصر وثدين ورموش وكفل وفرج .
وبائع مزامر : غريب ، جاء من مكان بعيد ، يبلو وجيب ومزمار وقم وقلب ،
زتر للأشواق والتلامس والتماحك وللمواعيد ولقاء العيون وللصد بالوجه والقبول
بالقفا (فيوم الرحمة يوم الذكور والإناث) .
وصغار : منقسمون — جماعة فرحة تنفخ في المزامر ، وجماعة فرحة تتطلع إلى
النافخين في المزامر ، وجماعة سعيلة تحجل ، وجماعة سعيلة تصفق ، وقلة سعيلة
تنفض التراب عن الحذاء الجديد وتبتعد عن مواطن الزحام كي لا يطلوث الثوب
الجديد، وقراء قرآن ومتسولة أصحاب عاهات وحراس مقابر — في يوم مشهود :
لأن أيام العام طويلة ومملودة وأيام الرحمة قليلة معدودة .

وفقر فطن لم يقبع بحفرة — بانتظار أهل ميت نكرة لا خبر فيهم ولا خبر
عندهم — بل جال بالمقابر وعرض عاهته حتى غاب الشفق وحلت العتمة فعداد
إلى حفرته وقد نال من حسنات المحسنين : ما يملأ كفيه مرتين ثمراً وستة قروش
وكمكتين بالسمن والسمسسم والسكر واللبن وأربع كمكات بسكر ولبن .. وعشوق
كمكات بالكرمك ولا سمن فيها ولا سكر ولا لبن .

— ٣ —

مكث بالحفرة يومين وبعض يوم — حتى فرغ زاده فقصد جاره ساكن أقرب
قبر ، وبعد السلام تم التعارف ودار الكلام وفهم الفقير الفطن : أن القبور
كاليوت تدخل من أبوابها وأن الرأس الكبير اسمه الباشا لأنه يسكن قبر الباشا وهو
الناطق بالكلمة الأولى وصاحب الكلمة الثالثة وهو اليد القابضة واليد المبسوطة ،
وارتاح فؤاده لما علم أن الجميع يرحبون بوجوده بينهم — فتشجع وطلب من جاره
طعاماً لكن الجار اعتذر بلقة لا تخرج . قال : « أنا صاحب مرض أقوم بعمل
هين وجهدى محدود والأجر هنا بقدر العمل .. اذهب إلى الباشا واطلب العمل
تجده .. كل شيء عندنا يا أقرع مقدر محسوب ولا حاسد ولا محسود .. والعمل
قسمة بيننا .. والنظام مطلب مطلوب وهو والحمد لله موجود، فلا تحف ولا تحزن

. وتوكل على الله وخذ بعضك وتوجه إلى الباشا تجد خلاصك وتعرف رَجُلَكَ من رأسك .

— ٤ —

في قبر كأنه القصر — بل هو القصر : به المكيف والتلغية والتليفزيون والراديو .. أرضه مفروشة وسقفه مدهون — يقعد الباشا على كرسيه وسط صحبه وخدمه عزيز الأهل والنفس بوجه مبتسم وبدن عفى يلفه الحبر المنقوش ، قال الباشا : أهلا بك يا أقرع رد الأقرع : أهلا بك يا باشا . قال الباشا : المبصر قرأ كتابك .. فحن نخط ولا نخاف .. انظر يا أقرع ، وأدار الباشا قرص دولابه فأثار وجه الدولاب وتحركت فوقه الصور . ورأى الأقرع : الأقرع وهو يبول .. وهو ينتف ما تحت لإبطيه ويكوره ويرمى به الكلب الأجرب ممزحاً .. وها هو الأقرع يجاهد ليخرج الريح السامة من فتحة . أوقف الباشا تتابع الصور — وقال : خير الكلام القصر .. لم تكن عينا للنهاب — فلا تكن .. عد إلى حفرتك وكن الوحش يحرس صيده .. الصيف هين والشتاء ستقلبه بلبس الوبر .. وإن جاء المطر فسقف جارك الذى يحرسك وتحرسه — يحميك .. كن العين والأذن ولا تكن اللسان. ولا تسأل وتجلد على السهر بالأفيون، وطعامك سيأتيك فى المواعيت .. وكل رغائبك مجابة .. العمل يا أقرع العمل .. انصرف يا خازن ..

— ٥ —

نعم . هو خازن قاعد على حفرة ظاهرها التراب والعظم، وباطنها الحشيش والأفيون والكوكايين والمرويين وإبرة الماكس وبرشامة المهلوس .

— ٦ —

الخازن الأقرع — الذى طرد الكلب الأجرب وتنكر لصحبته — يلدن عفى وعقل فطن عفى ، وهو فى وحدته وسهره وصمته ويفضل مصه للأفيون

(قهر برتر) مُلَمَّ بما يخفيه الحكام في جزارهم :

• الحشاش العسكرى يقبض على الأمور بيد من حديد تضرب بالحديد وتكوى بالحديد ويشنق بالظن ، ورجال المقابر تحت إمرة الباشا ورجاله .

• والنهاب الذى عاش تحت ظل الحشاش فى إمان — وقد اجتمع له المال وكثر الأعوان وانتشروا كالجراد الحاصد — يجهر بالعصيان وقد يتمكن من تراب الأرض ويقعد على تلها فى القهيب .

• والقواد يحيا تحت ظل الحشاش ويعلم له الولاء فى كل آن ، إلا أنه خبيث الطبع لاعب على الحبلين .

وزن الأقرع الفطن بميزان الصائغ قوة المتعاريك، وبان له أن كفة النهاب راجحة ، وفى هذا زوال مكانة الرأس الكبير أو قطع الرأس الكبير وحبس الأتباع إلا من أعلن الولاء فى حينه. وتلاعبت بالأقرع الفطن عواصف الفكر :

إن أعلنت الولاء للنهاب — بعد فلاحه — نفدت بالروح والجسد ، ولو انتكست فعلة النهاب هانت روحى وتعذب جسدى ، وفى التمهّل روية مرذولة من كافة الأطراف ، هل حسلك الزمان يا أقرع أم أن الجبن طعام الخاملين والقانعين والمهانين إلى يوم الدين ؟ ، وفى المغامرة حسارة للقمة مضمونة وبدن برأس أقرع أو كسب لما تحت بدن الأقرع من ثروة ، وقد تفوز بقلب الباشا يا أقرع ذلك الذى يراهن على العسكرى الحشاش — لما تفتدى قومك سكان المقابر .. ومن ثم تفوز بقصره وما حوى من نفيس وتجلس حريمه على حجرك .. والأيام دولة والمال دولة بين الناس ، ومن عز يزّ.. قاهر يا أقرع .. قاهر .



الباشا الذى يدس رأسه الأقرع — منذ زمان — تحت عمامة كبيرة من حرير الهند بعد ما يدهنها بمرهم فرنساولية لطيفة الرائحة ذات أثر طيب على قروحه — خلع عمامته وطواها ودهسها فى صندوق مطعم بالصدف والعاج ، واحتفظ بها كتذكّار لجهاده الشاق ، وتقدم من لابس الحلة حاسر الرأس — ليلبس قلنسوة الحكيم ، بعد ذلك عاد واستوى على سرير الحكم محروساً بالجنّد ، واستمع إلى لابس الحلة وهو يتلو مراسم التتويج وتعاليم التاج من كتاب :

« يا أقرع بن حابس يا أقرع
إنك إن تصرع أخوك تصرع »

- ما اليانكى ؟
- بعض الجهال تمكن منهم الظن الفاسد « اليانكى نظير الموت : كلاهما يسلبك ظلك » وهذا — والله حق ناقص : فاليانكى بظلم كبير (وما الموت هكذا) واليانكى يحجب بظلمه الكبير كل ما عداه من ظلال — إلا أن الظلال تبقى ظلالاً في ظل واحد كبير (وما هكذا يفعل الموت) ،
- اليانكى منا وفينا وهنا .

- لماذا كان رجال اليانكى أقهفاء ؟
- الممتازون قلة .. أصحاب مال — والمال عافية ، والمتمنخون أهل بصيرة وهم أوفر عدداً من المختارين ، إلا أن المختار هو الذى يقرأ فصيلة الدم المنتخب، ويصله بدم من نوع دمه حتى يصح بطن المنتخب (فالعقل السليم فى البطن السليم)
- فروق أخرى بين المختار والمتمنخ ؟
- المختار مختار والمتمنخ متمنخ — والفروق بينة لكل ذى عينين !! وفى الريادة إفادة — لا الهراوة بجمية التترو ولا التلاجة قُلة .
- وما بين اليانكى ومعلونه ؟
- الكل واحد ، والواحد كل ، وفى البعد عن الصواب صواب، وفى القرب من الصواب صواب ، والإقدام خير من الخوف ، ومن اغتتم فقد جنى عديد الفوائد ، وإليك تلك الحكاية (المثل) :

« يحكى أن قطعاً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة الأموات : فهناك مسكنه وهناك يقفات من خبز الصدقات ، وهناك قد يعتدى للذى أضناه وعذبه وسهده وأقمده من أمر تلك الدنيا التى تكيل بمكاليين .. » .

السيد أحمد السيد

- ١ -

البيت حجرتان ، قديم ، بحى شعبى قديم ، وهو ميراث من أب مات وأم ماتت للأختين . الأخت الكبرى تسكن فى حجرة ، والحجرة الأخرى مؤجرة للسيد أحمد السيد .

والبارحة أتت الأخت الصغرى ، وهى عجوز ، لتزور أختها الكبرى ، ولسبب ما لا يعلمه إلا علام الغيوب نشب بين الأختين خلاف .

قالت الأخت الصغرى : « أنت تسكنين فى حجرة وهذا حقك : وحقى هو إيجار الحجرة الأخرى التى يسكنها السيد أحمد السيد » . ردت الأخت الكبرى — وهى كاذبة — إن : « السيد أحمد السيد لم يدفع إيجار الشهر الذى فات .. كلنا إيجار هذا الشهر » . هنا صرخت الأخت الصغرى قائلة بأنها ستطرد السيد أحمد السيد . فنهبتها الأخت الكبرى إلى أن ذلك غير جائز : « انتظرى حتى يمر شهر ثالث » . (ومن ثم فعلى الشقيقة الصغرى أن ترسل إنذارا على يد محضر ، ثم يكون حجز ، وبعد ذلك ستصدر المحكمة أمر الطرد) .

كان السيد أحمد السيد يستمع لكلام الأختين وهو يرتجف : إنه الشتاء وهي السماء تمطر في الخارج بغير توقف وهو خوف مبهم لازمه من الصبا الباكر ، ثم حدث سيحدث له فجأة ، سبقه تدبير محكم ، لن يقدر على دفعه مهما حاول — وتحس السيد أحمد السيد جرحا بالغا فوق حاجبه الأيسر .

« كانت ليلة ممطرة كذلك الليلة ، والعتمة سابت من بصره النور ، يهدى من غريزته التي حفظت مواطن الخفر ومسالك الدروب الضيقة الملتوية ، يقدمين أثقل خطوهما الوحل الذي يفوح برائحة تقلقل معدته وتضغط على قلبه وتهدد بالتوقف ، وفجأة ، صدمه جسم حى ، وسمع صراخ امرأة ، وفجأة : ارتد النور إلى عينيه أصفر كأنها السيوف الصديقة قد تقاطعت ، لوى ضوء الفوانيس يطل من كوى بالحوائط ومن فتحات البيوت ، ولم يبرح مكانه ، كانوا رجالا وشبابا ونسوة يسدون عليه كل منفذ ، ولم يقام ، وكان عاجزا عن الدفاع بلسانه الذى شل فجأة ، ولما أفاق كان جسده يفرور كالقدر فوق النار .. وقد عصبوا وجهه بخزقة قديمة ودسوا في فتحة الجرح البين المصحون ، ولما حاول فزع شفتيه ظنه رب الدار الشيخ يهدد الدفاع عن نفسه — فقال : « لقد قالت لنا يا ولدى .. قالت إنك لم تكن تقصدها بفاحشة » ، وسمع السيد أحمد السيد مصمصة شفاه النسوة المشفقات ، وكان راغبا في النوم ، وفجأة وجد نفسه يبكي بدون توقف) .

رغبته في الخروج قوية — لكنه المطر والوحل والعتمة ، وهو راغب في السير بدون توقف في شوارع خالية من الوحل والعتمة والحراس .. ويكون هناك بار خال حتى من البارمان .. ويظل يشرب ويشرب فجسده عطش للخمر ، لكنه عاد — على غير رغبة منه — يقرأ على ضوء فانوس في كتاب يونانيرت في مصر ، وكما كانت دهشته بالغة حين وقع بصرو على كلمات لصيدلى إيطالى :

« الكل خائف ، لا يلور حديث إلا عن المتاعب والفقر المنتشر والسرقات والقتل ، فليس هناك أمن — لا على الحياة ولا على الأملاك ، إنهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثور ، والحراس في جولتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون

وينفذون أحكامهم فوراً دون استئناف ، وهم يسرون بصحبة الجلاجهين ، وما إن
يصلر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين .

أهى محض صدفه ، أم هو بيد محكمة ، أم أن الأيام تتشابه ، أم أنه ليس أكثر
من صيدلى إيطالى يحسن الكلام كالفرنسى بونايرت الذى ادعى « أن أراضى
الممالك المصادرة ملك للأمة » ، « ومع ذلك وزعت لإشباع ذلك الإله الشره —
ونعنى به مالية الجيش — وهكذا ظل الفلاح فلاحاً » .

هنا توقف السيد أحمد السيد عن القراءة وقد سمع وقع خطوات ، ثبت عينيه
فى الشخص الذى دخل الحجرة — ولم يكن له به سابق معرفة ، وأغمض عينيه
وصرخ :

« القول الأخير يا سيدى تعقيب لمؤلف كتاب بونايرت فى مصر وليس لى على
أية حال .. أما بونايرت يا سيدى فقد قال عن مصر لحكومة الإدارة : « هذه
الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رسالتنا .. إنها أمة
هادئة بأسلة معترة بنفسها » .

— ٣ —

هم السيد أحمد السيد للدفاع عن نفسه أمام تهديد الأخت الصغرى التى
قالت إنها ستتهش لحمه ، لكنه لم الصمت لأن الأخت الكبرى غمرت له
بمنها ، وهما هو يتعرج سالماً مع اللروب متأبطاً كتاب بونايرت فى مصر ، قاصداً
مقامى قلب القاهرة فله هناك صحاب ، وبالنهار يقل توقع السيد أحمد السيد
للحوادث .

— ٤ —

« ها مقهى .. وهما صاحب » .
كان الصحاب متجهما ، سأله السيد أحمد السيد « خيراً » ، رد الصحاب
« أمر عائلى » . مضى السيد أحمد السيد ينقر بأصابعه على الطاولة ، قال

الصاحب « هنا ما يقلقنى .. كف أرجوك » . دس السيد أحمد السيد يده فى جيب سرواله ومضى يبحث فى كم من القروش المعدنية ، وثبت بصره على لطلخة بسقف المقهى أشبه بسمكة الكابوريا . قام الصاحب ورد السلام مسرعا . وطلب السيد أحمد السيد من الجرسون الواقف المحملق فيه قهوة على الرخمة ، وكلم نفسه :

« سأنته بظلف فأجابنى بفتور .. لقد ضايقته ، ومضى مسرعا وكأنه يخشى أن ألحق به .. كأنه سليم وكأننى أجرب .. لقد ضايقتنى ، وأنا لم أكن بحاجة لفنجان القهوة . لكن كنت أريد إبعاد الجرسون » .



غاب الجرسون والصاحب المهمم بالسياسة كان صامتاً ، كرر السيد أحمد السيد الطلب على الجرسون ، فزقق الجرسون « قهوة عالرخمة » ، قال السيد أحمد السيد يستغفره صاحبه على الكلام معه : « ضجة فارغة .. ما هذا .. نحتاج نيكسون وهزيمة ماكجفرن وأصوات اليهود .. أى رئيس أمريكى ما هو إلا يمثل يقوم بدور فى لعبة على مسرح السياسة الدولية .

ما هو الا خدام لرأس المال الأمريكى يا صاحى .. متى نفهم يا صاحى أن أمريكا لن تقف معنا نحن العرب ضد اسرائيل حتى فيما لو تولى رئاسة حكومتها ملاك بأجنحة بيضاء .. تلك طبيعة نظام يا صاحى .. إنه رأس المال يا صاحى .. إنها أمريكا التى تباعد بينى وبينك يا صاحى » .

مهمم الصاحب وأخرج عليه سجائره وأشعل منها واحدة لنفسه ووضع العلبه فى جيبه وغاب يده ثم أخرجها وقدم للسيد أحمد السيد سيجارة . وجاء الجرسون بالقهوة ، ورشف السيد أحمد السيد وقال بصوت هامس لصاحبه : « فى مدينة كتلك يموت الإنسان بالأفعال الصغيرة .. لقد طلبت منه قهوة على الرخمة .. ومع ذلك فما أنا اشرب قهوة سكر زيادة » . قال الصاحب « لا تنتم » . حدث السيد أحمد السيد نفسه « ما كان يجب أن آخذ منه السيجارة .. ربما بلدا منى هذا سلوكا جارحا .. لكنه ما كان لهم .. كما انى فشلت فى أن أجعله يبادلنى

الحوار رغم اني قلت كلاما يوافق هواه « على أنه حال أنا مؤمن بما قلب وهذا يكفيني كمراء » ، وقال لصاحبه « سأقوم » ، وكذب ليخفى اضطرابه « معى موعد » . قال الصاحب : « أحيانا أجلس هنا .. أنت تعرف » . قال السيد أحمد السيد : « سأدفع عن القهوة » رد الصاحب « لا تهم » .

— ٦ —

« .. هاك مقهى .. وهما صاحب »

قال الصاحب المرح « ليس معى مال » . رد السيد أحمد السيد « لا أريد مالا » . سأل الصاحب الماكر « ولا حتى أجرة الاتوبيس » . قال السيد أحمد السيد « معى مال معى » ، وصفيق وطلب لنفسه قهوة على الرخصة ، وسأل صاحبه إن كان يعنى شرب شىء . ضحك الصاحب وقال للجرسون: « قهوة على الرخصة لاثنين على حساب البيك » وأشار للسيد أحمد السيد . ودخل المقهى بائع يانصيب أخرج واشترى الصاحب ورقة ، وأنت متسولة تحمل طفلة مشوهة الوجه واليدين والساقين . قال السيد أحمد السيد « أعرفها .. مهاجرة .. وهذا الذى بالطفلة من فعل نابالم العدو الخارق » . قال الصاحب مبتسما فى خبث « إنها تصلح زوجة وأنت تصلح أبها صالحا لطفلة مسكينة .. وطائرات اسرائيل رمت مدن القنال بكل أنواع القنابل ما عدا قنابل النابالم وسأل الصاحب بنجث « لماذا غاب الجرسون ؟ .. هه .. ازعق عليه .. ازعق فأنا ضيفك » . نادى السيد أحمد السيد الجرسون وكرر الطلب وأخرج من جيبه ثلاث سجائر أعطى للجرسون واحدة وللصاحب واحدة وأشعل لنفسه واحدة . سأل الصاحب « ما حال قلبك ؟ » . وجاء الجرسون حاملا فنجانين من القهوة وكوبين كبيرين من الماء . ورشف السيد أحمد السيد رشقة وقال « تلك قهوة مضبوطة .. لو أضاف الشيطان نصف ملعقة سكر بدلًا من ملعقة لشربت أنا قهوة على الرخصة » . وكرر الصاحب سؤاله « قلبك كيف حاله » أعنى ما أخبر تلك التي لا أحد يعرفها سواك » . وكان السيد أحمد السيد كان ممثلا يقف على مسرح يعرض ميلودراما هكذا رآه الصاحب ، وسمعه يصرخ « من الحزن ان يركز المرء كل مشاعره فى شخص واحد وفى قلب واحد » . قال الصاحب « لمن هذا القول .. انه ليس قولك على أية حال » ، أشار السيد لكتاب بونايرت فى مصر وقال: « قول لبونايرت فى رسالة لأخيه جوزيف » . ضحك الصاحب وقال: « يوسف .. يوسف يا

سيد أحمد . قال السيد أحمد « لا تسخر منى يا صاحبي ففى كتاب بونايرت فى مصر أقوال صالحة لمثل هذا الزمان .. أقوال تعنى الكثير .. فقط لو تسمع وتتفكر .. أرجوك .. لا تحسبنى عيباً » . ومضى السيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأه :

(يقول المؤلف : « لو ظلت قلوبهم العتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر للحواقب ولكن قلوبهم كانت عصرية ») « ويقول الجنرال كفاللى « أنا أزعم أن القوانين التى تقدر الملكية تقدر الاغتصاب والسرقه ») (ويقول بونايرت « إن البحر الذى لم تعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن افريقيا وآسيا ، وعدونا كبير ، وعدنا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا ، ونحن لا نعالى نقصا فى الذخيرة ») (وقال كليبر عن بونايرت « إنه عاجز عن تنظيم أى شىء أو إدارته ، ومع ذلك فما دام يهد أن يفعل كل شىء ، فهو ينظم ويدير ، ومن هنا الفوضى والإشراف فى كل شىء ، ومن هنا حاجتنا لكل شىء ، ومن هنا الفقر الذى نعانىه ») .

فجأة دخل المقهى عدد مهول من الناس ، فذهب صاحب واقفا كمن لدغته عقرب — قال للسيد « عما قليل سيلعب التلفزيون مباراة اليوم فى كرة القدم . سأشاهد المباراة فى البيت » ، وضحك السيد أحمد وقال : « خذنى معك فتلك فرصتى لأركب اتوبيسا غير مزدحم » . قال صاحب بلهجة عاطفية : « لو تركت لك قرأت لى الكتاب بكامله .. ستفقد بصرك فى قراءة الكتب .. صلتنى .. ولكن لماذا لا تكتب ؟ .. هه !! » . أجاب السيد أحمد وهو يلهث خلف صاحبه السريع الخطو « لست موهوبا يا صاحبي .. لست موهوباً » .

— ٧ —

طال بهما الوقوف والأتوبيس لم يصل : وكان الفتى طويل الشعر والسوالف ، وكانت الفتاة قصيرة الشعر تلبس جونلة قصيرة زرقاء وبلوزة بيضاء مشلوبة عند العنق برباط أحمر ، قال الولد للبنت « لو ركبنا المترو .. ألم أقل لك .. كان يجب أن نركب المترو » ، ردت البنت على الولد « ونمشى محطتين .. لقد تأخرت وماما تعرف موعد خروجى من المدرسة » . قال الولد للبنت : « نركب ونتمشى المحطتين

مما « قالت البنت بلال وهي تمبث بسلسلة يتنلى منها مصحف » سيصل الأتوبس بعد قليل » ، قال الولد الذى اساء فهم البنت « علف » .. ودق الأرض يكفيه ومضى ، ورفعت البنت حقيبتها وأخفت لديها عن نظر الرجل الغاضب الذى كان يتابع حديثها مع الولد والذى كان يلبس بالطلو مرفوع الياقة وعلى جبينه علامة من أثر السجود. ولما لم يغير الرجل موقفه من البنت علاوة على أنه يصق — أسرع البنت تجرى لتلتحق بصاحبها .

لما جاء الأتوبس تضارب الناس بالناكب ، وتعلم على السيد أحمد الركوب ، ونظر بمنة وسرة وأيقن أنه فقد صاحبه وأن صاحب بلغ غايته ، فولى وجهه صوب مقهى قريب وكان حسن الحظ فيها هو صاحب يدلل .

— ٨ —

كان الراديو يلعب مباراة الكرة ، وكان صاحب مستمعا بأذنيه قارئا بعينه التفاصيل التى تسبق المباراة فى صحيفة « المساء » لمحققها الرياضى ، وكانت بقية الصحيفة ملقاة على كرسى مجاور ، استأذن السيد صاحبه فى الاطلاع على الجريدة ، رد صاحب: « خذها .. خذها لك » ، وقد صارت الصحيفة ملكا للسيد أحمد وجد إعلانا فقطعه بحرص ، لمح صاحب فخطف منه القصاصة وقد ظنها ذات قيمة عينية — لكن خاب قصده فدارى خجله بقراءة الاعلان بصوت مسموع « حفلة ساهرة كبرى لجماعة سيدات مصر بفندق النيل هيلتون بقاعة ألف ليلة وليلة غداً لصالح اقامة دار ضيافة والمشاء يعقبه برنامج ساهر تحييه نخبة من الفنانين والفنانات » ، ضحك صاحب بعصبية ، وقال السيد « قد تحضر » — وقال معتبرا لصاحبه ، وكان فى قرارة نفسه تيمسا لأنه عاجز عن التصريح باسمها « نعم إنها ملهم تامييه : الحشاء الرياضية الجسم .. واحدة من نجوم التيفولى بالقاهرة .. أثار سخطها أن يصلر يونايتر الأمر بأن أرثاء ثياب النساء رمز على الجبن .. لم تطلق التهجم على بنات جنسها .. فأعلنت أنها على استعداد لمبارزة يونايتر .. وأنها ستبه والمسدس فى يدها .. أن الخوف — حتى الخوف منه — لا يملأ قلوب جميع النساء » .

عند محطة الأنيس حكى السيد لصاحب قابله حكاية الولد مع البنت مع الرجل الغاضب المتدين ، وقال إن أهذاب البنت كانت طويلة ، سأله صاحب عن معنى ذلك فأجاب بأن مؤلف كتاب القاهرة وهو إنجليزى يقول — ولا تأخذ يا صاحبي من قول الرجل المعنى البسيط « إن أهذاب المصريين الطويلة هي سلاح ضد التراب لا مجرد زينة » .

قالت العجوز للسيد أحمد السيد إن أختها عادت لبيتها في الحى المجاور « لأزدها الله » ، قالت إن أختها مريضة بالقلب وستموت حتا في بحر هذا العام « لكنها بمفردها » وإن الله كان عادلاً حين جعل أختها الصغرى لا تنجب من يرثها .

وقال نابليون بسانت هيلانة لرفيقه جورجيو :
« إن المرء في هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل الوعود الكثيرة ، ولا ينفى بوعده منها » .

وقال ج كهستوفر هيرولد — مؤلف كتاب بوناپرت في مصر — للسيد أحمد السيد :

« ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعق ما فيها من ذكاء وبصر — إن قمبيز وأخروسييس والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص وسليم الأول — كلهم دخلوا مصر من صحراء غرة » .

وسأل الرجل — الذى دخل الحجرة فجأة — السيد أحمد السيد : « قل لى .. من هو أخروسييس هذا ؟ » . أجاب السيد أحمد السيد — وقد دفن وجهه تحت النطاء — بصوت أقرب الى الصياح :

« لا أعرف .. لا أعرف »

وسمى روفان تقريره قائلاً :

« وحين استأذنت للانصراف ، لم يقدم لى الشربات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأبَدُ إغفال هذه الجاملات رأى ... » .

الفجرى

رزق لا يتحلى من أصل غجرى

بنت الناس القاصدة بيوت العرب البعيدة أحست بتعب ، فمالت على نخيل
الفجر القرية ، وقعدت تحت ظل نخلة وولدها فى حجرها ، وحطت يدها على
قلبها ومالت .

من فتحة الخيمة أطلت العجيرة المعجوز على الميتة وظلتها نائمة ، ففتشت
بعينها الواحدة عن عقد الرقية أو أسلور باليدين ، ولما خاب ظنها فتشت بأصابع
أمهر الحواة عن مال بالجيوب — فخاب ظنها أيضا ، هنا ارتابت (البدن يابس
ويارد) فقبضت على المعصم . هبنا أدركت العجيرة المعجوز أن الميتة ميتة .
حملت الوليد وكلمته — هو الذى لا يعرف الكلام :

« أنت رزق ساقه الله إلى .. بعد ما أغير ملاحك بإبرة الوشم سأطرق أبواب
أصحاب البيوت — وأقول بأكية : مات أبوه وهو فى بطن أمه .. والبارحة ماتت
أمه .. وحيدى تركت لى اليتيم قطعة لحم بيطن وفم .. يا أولاد الحلال تصدقوا على
اليتيم بكسرة أو تمرة يرحم الله موتلكم » .

رزق كائن أرضى صاعد

في حضن الجدة وعلى كتف الجدة وَيَجْزِي الجدة — عاش رزق عامه الأول وعامه الثاني وعامه الثالث متسولا بلسان الجدة ، ولما بلغ عامه الرابع خرج إلى الطرقات يتسول بلسانه هو — ممسكا بيد الجدة العمياء حقا وصدقا ، وعاش رزق متسولا حتى بلغ سن السابعة .

كيف بدل رزق جلد اليتيم بمجلد الفجرى

بعقل عمو سبع سنوات فكر رزق — بعد موت الجدة :

« بطنى تشتكى الجوع والخيز بالأفراڤ .. واللحم في الطير والحيوان .. والتمر على فروع الشجر ، وأنا متسول — لأن لكل شيء على الأرض صاحبا يحرسه ، وما فوق الأرض من خيرات يجمل الأرض تصرخ من ثقل ما فوقها وتنادىنى : الخوف علة الجوعان يا رزق .

هكلما برع رزق في نط الحواطد واقتناص طيور النسوة الغافلات وشق جيوب الغير بمحد الموصى .. وبالخطاف والقصبية قطع الحبل العالى واستولى على ثياب المروسين العالزين .. وبالليل طرق الباب وقال لأهل الدار: « أنا يتيم بلا دار » فأقده على فراش فنفخ بطنه ولعب لعبة الحيوان ولما ناموا حمل الفراش وطار بمجنح الطير .

وها هو الفجرى بيطن لا تشتكى الجوع وحلق لا يعرف العطش وبدن حر لا يغله قيد : يأكل اللحم الحرام مشوبا ومقلبا في الدهن، ويشرب البيرة الحرام من زجاجة أو في سطل، ويدخن الحشيش المكروه في السيجارة أو الجوزة، ويمص الأفيون وقد يغليه مع القهوة، ويعاشر من بنات الفجر من تروق في عينيه ويسرق قرشها الذى أخففته بين ثديها عن أعين أهلها الفجر .

حكاية الفجرى مع ست الدار

في العام الذى شح فيه الزيت والكبروسين والسكر وتغزت العملة من فضة إلى نيكل — تزوج الفجرى رزق من الفجيرة ست الدار ، وبقي — ككل الفجر المتزوجين — في الحيمة لا يبرحها إلا إلى خيمة مجاورة . هذا بيتا ست الدار تلف

وتلور تحت خمس الصيف وتحت سماء الشتاء المطيرة تقرأ الطالب أحيانا وتسلول
وقتا وتسرق إن وانتهى الفرصة وتنام مع هذا وذاك في المرء — نفى بحاجة رجلها
الفجرى إلى الأكل والخمر والمخدر .

وى يوم قالت ست النار لرزق : زهقت ..
رد رزق : نفتق .

قالت ست النار : لا .. تزوج من ثانية تطعمك .. وسأبقى أنا بجوارك خادمة
مراجلك وزوجة تنجب البنت والولد .
قال رزق : واحدة لا تفى بحاجة اثنين .
قالت : تزوج من اثنتين أو ثلاث .

سألها رزق : ولو جاء ولد أو أتت بنت ؟ .
قالت ست النار : تزوج ما تشاء ومن تشاء من بنات الفجرى يا رزق .

هنا ما جعل رزق يتزوج من هنة وسعنة ومنصورة ، وفي العام الذى تربع
فيه الطلع على عرش البلاد تزوج من انشراح و قمر (لقد تجاوز المليون الحد
وتغطى شريعة الله — ولكن لا لىم عليه فهو فجرى) . أما ست النار — أول
الزوجات وأكبر الزوجات — فهى سيدة الخيمة : الأمرة .. الناهية .. الموقعة
أقسى العقوبات على المقصرات ، ومن رضيت عنها ست النار من حريم الفجرى
نام معها الزوج الفجرى ليلة .

أفسحوا يا عجر .. الحظ في طريقه إلى خيمة رزق

(الشمس غربت ، واليوم يوم السوق في القرى ، عما قليل يجمع همل الكل
ويهتق الحمار ويهز الكلب ذيله وتأكل القطعة . والزوجات جلبن الماء من البئر في
الصباح — والحوض مملوء ، وهمس هذا النهار كانت حامية ، والأرض تبخ —
الآن — نلأ) .

قامت ست النار ورشت تراب الأرض بالماء ، وفرشت سجادة من قماش
قديم أمام الخيمة — تمدد فوقها الفجرى لما تنفست الأرض الهواء الطرى . وقمر
أصغر الزوجات سبقت الأخريات ، ولعبت بأصابعها في ثديها ورمت في حجر
الفجرى جنين من ورق ملون جديد ، وضربت الكلب بساقها وناحت من ألم في

المعقوب وقالت : كيسه مملوء يورق مثل هذا سيسهر معنا الليلة وسيتربنا لما يطلع
الفجر فهو متزوج .. يفمه سمكة ميتة .. قلت له اغسل فمك بالمصابون ..
لولاك الخائب لبانة سروح العفن من الفم وتبقى رائحة اللبان الحلوة .

زجاجة ويسكى للفجرى

رحب الفجرى بالغريب ، وأمسك بالزجاجة التى جاء بها الضيف — وقلها
بين يديه ، وسأل : حلوى ؟ . قال الغريب : لا .. حمرة من أحسن صنف .
فرح الفجرى وهلل : اللمة يا انشراح .. ارفعها لفوق حتى أرى ، وأخرج
الزجاجة من العلبة ورفعها لفوق ، ورأى الفجرى على نور الفتيل المشتعل : رجلا
منتعلا يمشى فوق أرض خضراء .. على رأسه قبعة ويده عصا قصيرة سوداء ..
بجلة صلبها قصير وذيلها المشقوق طويل ، فقال للغريب : بعد ما نفرغ من
الشرب سأخذ أنا الزجاجة والعلبة . قال الغريب : خذها .. عندى مثلها . وغمز
الفجرى لقمع : رضى الفراش ، قال للغريب : ستام عندنا .. أنت ضيفى ،
ودخل الخيمة خلط قمر وقرص أذنيها : قد أعجز أنا عن كشف سر الباشا ..
حاولى مع الباشا ولك منى رطل من بسبوسة الأشم . لكن الغريب لما سكر —
رمى نساء الفجرى بكلام فاحش .. وحكى حكاية فاضحة وقرص فخذ ست
النار .. وقاء على حجر هنتة .. وجرى لسانه جهان الخيل ففضح سره دون جهد
من أحد .

الفجرى يفكر دون توقف

(صاحب حرفة ارتحل إلى بلد عربى مجاور وعاد بعد عامين من البلد الغنى
بكل هذا المال) ضرب الفجرى الكف بالكف — وزعق فى السماء : واه .. لا بد
من السفر .

شرب أقة من الخمر — فى اليوم الأول — وفكر : كيف يا رزق ؟
فى اليوم الثانى — شرب الخنجر وسأل نفسه : كيف أسافر وأنا لا أحسن
حرفة ؟

وفى اليوم الثالث أكل الأفيون سيد الكيوف — وفكر : لكل سؤال جوابه ..
الحكومة هى التى تقول للمسافر سافر .. والخنجر عين الحكومة التى ترى وأذن

الحكومة التي تسمع هذا الحكومة التي تهجر المصطفى إلى الخافر .. والخبر لا يعجز
عن حيلة تجعل الحكومة تقول للفجرى : سافر يا رزق .. مع السلامة .

صدقة الفجرى مع الخبر عبد العاطى والصول عبد البارى

(قال الخبر الخمر للخمور للفجرى الخمر : بعد يومين سأرد على ما تبغى
وزيادة) .

(بلغ الخبر دخان الخمر وكبح وقال : يقول الصول عبد البارى — قل لرزق
يدخل دكانه مصور يرسم ملاح وجهه حتى تعرفه الحكومة . سأل الفجرى : قد
أضار لو عرفت الحكومة وجهى ؟ . قال الخبر : لا تخف) .

(سأل الخبر الفجرى بلسان مر من طعم الأفيون : وأين شهادة ميلادك يا
رزق ؟ وأين شهادة خروجك من الخدمة فى جيش الحكومة ؟ . رد الفجرى فى
خوف : لا شهادات عندى . قال الخبر : لا تخف .. سأحضر مساء غد مع
الصول عبد البارى .. الصول عبد البارى ابن مزاج جلال عقد .. هات نصف
جنيه يارزق) .

(قال الصول عبد البارى لرزق ورمش بعينه لانشراح : قم الآن واذهب إلى
طبيب .. خذ معك الخبر عبد العاطى .. ادفع للطبيب وسيحدد لك الطبيب
السن التى تعفيك من الخدمة فى جيش الحكومة .. واترك الباقي لله ولى ..
سأجعلك يا رزق من حملة الشهادات) .

وها هو الفجرى — بعد مرور نصف عام — يحمل جواز سفر بصورة عليها
أختام وتواريخ وأرقام وتوقعات من ناس يلبسون الحلال ويجلسون خلف طاولات
على كراسى هناك بنوايين الحكومة ، بالمال وبفضل معرفته بعبد البارى وعبد
العاطى — شهد الكل للفجرى : أنت مواطن .. أنت يا رزق بناء عمرو فوق
الأربعين .. لا تشك الفقر يا رزق .. سافر فيلاد العرب واسعة .. إخطل الرمل
بالأسمت وضع الطوبة على الطوبة حتى يملك سطح العمارة أنف السماء .

ما جرى من رزق وما جرى لرزق في بلاد العرب

عارك الكلب الذي يحرس القصر وخرج من المعركة بيد أقصر من يده ورأى سلاح الشرطة الفتاك . وحطم زجاج العرائات الواقعة تنتظر أصحابها . وفك أحزمة الحجاج الناعمين في حماية الحرمين — وفاز بالمهم . ونام مع شيوخ مخنثين وعجائز شمطالوات . وعاد بعد غيبة طالت إلى خيام الغجر بجيوب منفوخة وثياب جديدة وراديو يغنى بكل اللغات ، يشعل السيجارة من قفاحة ولا يشرب إلا الخمر الملقوفة في علب ، ولما زار المدينة رأى العمارات ورأى الأرض الفضاء فذفع لصاحب الأرض الفضاء المال واشتراها ، ومكث في الخيام أسبوعا ويومين وليلة مع زوجاته — وقد انجبن جميعا في غيابه — ثم قفل عائدا إلى بلاد العرب في غزوة جديدة .

الحاج رزق يكفر عن معاصيه

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد الباري : طلق انشراح ومنصورة واشترى الحاج رزق الأسمت والحديد وأحجار الرخام من السوق السوداء ودفع للبناء والفعل المأل وأمرهم ببناء المسجد والحجرة الواسعة أسفل العمارة (عمل بنصيحة صديقه عبد الباري : بناء المسجد يارزق سيجعل الحكومة تعفيك من الضريبة المقرضة على العقار) .

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد الباري : طلق انشراح ومنصورة تصبح يا رزق نظيفا أمام الله والقانون والناس (انشراح تزوجها عبد الباري لتعيش مع لطيفة أم أولاده في حي السبتية ببولاق المحروسة ببركة سيدى أبى العلاء . ومنصورة تزوجها عبد العاطى بعد ما طلق أم سمح ومحروس) وذلك كله فعله الحاج رزق يوحى من ضمير .

(١) العنزة ذبحها واحتفظ بجلدها وباع انتبا وأكل لحمها مع جماعة الغجر في يوم مشهود .

(٢) باع الحمائل والخميتين وطرد الكلب والقطة .

(٣) أمر زوجاته بمفارقة الخيام مع أولادهن والعيش بالحجرات التى تشغل سطح العمارة .. وأمرهن بعدم الاختلاط بالسكان .. وأمرهن بالتلون مع الحياة الجديدة المحترمة .. والزوجة التى يبهدها منهن ستبطل لتبيت معه على سرير طرى القرش في الحجرة الواسعة الملاصقة للمسجد .

آخر صورة للفجرى مع السيد عبد الصمد

قال رزق للسيد عبد الصمد : إشرب قهوتك ياسيد عبد الصمد قبل ما تبرد .. يوم سكنت عندي يا سيد عبد الصمد كان الماء يصل إلى الدور الخامس .. فى هذه الأيام لا يصل الماء إلى الدور الخامس .. حين تهدد الحكومة أن يصل الماء إلى الدور الخامس سيصل الماء إلى الدور الخامس .. أنا يا سيد عبد الصمد براء من كل ذنب .. لما بنيت العمارة اشتريت مواسير ماء قطرها شبرين .. غيى من أصحاب العمارات اشتري مواسير ماء قطرها أقل من شبر .. وفى العام الماضى — أنت تعلم أى بيت خزانين للماء أعلى العمارة .. غيرك يسرف فى الماء .. أنا لا أقول أنت مسرف يا سيد عبد الصمد .. كذا لا لوم على .. اللوم على سكان العمارة المسرفين .. اذهب وكلهم يا سيد عبد الصمد فأنا زعقت والله من كثرة الكلام .

قال السيد عبد الصمد : لو بات الماء فى الخزائين يا حاج لوجدت أنا الماء بالنهار .. ولكن أهل بيتك هم المسرفون .. إنهم لا ينامون الليل وديتهم والله يا حاج لا يجعلنى أنام .

انتفض الفجرى : اسمع يا سيد عبد الصمد .. هل أحرق أولادى ؟ ، (ورفع إصبعه فى وجه السيد عبد الصمد) بالقطع لا .. أنت دفعت لى أجر عامين مقبلين فى مسكن من حجرتين .. ها هو مالك خذه (ووضع المال على الطاولة أمامه) وأنت لو عشت فى مكان أنا صاحبه عشرين سنة كم ستدفع لى ؟ (وأخرج رزمتين من المال ورماهما فوق الطاولة ، وأخرج القلداحة من جيبه وأشعلها) نعم لن أحرق أولادى يا سيد عبد الصمد (ودلى الكحول من زجاجة الكحول فى الأوراق المالية وأشعل فيها النار) افتح عينيك يا سيد عبد الصمد .. وانظر إلى المال وهو يحترق .. والآن — هل من كلام باق فى صلدك يا سيد عبد الصمد ؟

كلام للبحر

سمها أبوها « فاطمة » على اسم أمه الميتة ومات ، الا أن أهل حارة السبع
نخلات ينادونها « بطلة » . وأهل الحارات في مصر محرون — القملة عندهم بيبة .
والاسم هنا محال أوجه يا بحر — فانتظر (بعد موت الوالد « عجلا ن » عملت
الأم عمل الأرمال قليلات الحيلة : تجلس على حجر وتبيع لأولاد وبنات الحارة أزهار
عباد الشمس ملفوفة في قراطيس من ورق مصور ، وتقعّد على الأرض وترص فوق
الحجر شرائح البطيخ والشمام — لما يكون الثّوان أوان البطيخ والشمام) .

لم تكن « بطلة » وقتها طفلة خائفة تمسك بجلباب أمها ولا تقلته إلا إذا سمعت
صوت صفارة الجدد بائع البالونات . والجدد بائع البالونات الملونة هذا يا بحر —
جدد ماجن ، وأنا أنهلك به علما . (يربط الجدد بالونات المنفوخة بخيوط متينة في
عود طويل من الخشب ويتركها ترقص في الهواء بكل لون فوق الرقاب الممدودة ،
ويحتسى من عيون الكبار بالكران ويفتح حجوه ويقول للبنت « أقعدى » ، ويضع
بالونة غير منفوخة في فم البنت ويقول للبنت « انفخي » ، ويعرك يديه صدر
البنت (ويقبض) مع حركة البسط والمد أثناء نفخ البنت للبالونة ، ويحدث الجدد
الحديث نفسه الخفيفة « كل طفلة امرأة لا تبوح .. وكل امرأة طفلة بصدر منفوخ
قد تبوح ولا تبوح — لكن القرب من هذا الصنف غير مضمون وغير مأمون وأنا
أطلب السلامة .. وكفيك يا طباخ الصدود أنك طبخت وتطبخ لأصحاب
القدور) .

أما الآخر يا بحر ذلك الذى طيخ له بائع البالونات صدر « فاطمة » فكان صاحب دكان على مدخل حارة السبع نخلات ، صاحب دكان من ذلك النوع من أصحاب الدكاكين .

(كل السلع المروضة على رفوف دكانه وفى السقوف حصل عليها ولم يدفع ثمنها بعد — أخذها من تاجر بالموسكى يقال له تاجر الألف صنف صاحب الملايين ، وصاحب الملايين هذا يعامل أصحاب الدكاكين يعرف يسمونه عرف السوق ، يقول تاجر الألف صنف صاحب الملايين لأصحاب الدكاكين : خلوا ما يلزمكم من بضاعتى ، واتركوا لى على تلك الكميات بصمات أصابعكم حتى يضرب القانون — وهو حليفى — بيده الطويلة وهى من حديد رقة المنحرف منكم والأعوج وابن الهرمة الذى يشكو كذبا من الإفلاس ، يبعوا بالمجل أو بالأجل .. وارفعوا سعر السلعة واخسروا فى الميزان — لا دخل لى بأحدكم ما دام لا يندلس على ، يبعوا واكسبوا — كل شيخ بطريقته — وردوا لى ثمن ما أخذتم لأحصل أنا أيضا على مكسبى وهو والله ملاليم .. هكنا حتى يدور الدولاب ويرمى فى حجركم وحجرى ، وتلك سوقكم يا أولاد العريان — والمال دولة بين الأغنياء منكم) .

لكن ما لنا نحن وحكاية تاجر الألف صنف مع تجار الحارات — نحن نحكى عن تاجر بالذات له دكان على مدخل حارة السبع نخلات . هذا التاجر يا بحر أغرى « بطة » بقرص نعان لتقريب منه وغافلها ومرر راحته على صدر بطة ففجئت « بطة » من وجع الخضر الطالعين ، خلاصة الأمر جرت « بطة » ، وخاف المعجوز من فضيحة بجلاجل فيما لو تكلمت « بطة » ، ولأم نفسه وقال « الأخذ والرد يتعب قلبى أنا المعجوز .. لماذا النظر من بعيد ؟ .. بين البائع والمشتري نعم ولا .. والزمان زمان البيع والشراء .. والقوم فقراء .. سأكلم أم « بطة » وعلى الله التوفيق .

وقام من فوره وقفل الدكان وقصد أم « بطة » حرم المرحوم « عجلان » ومعه قمع السكر الملقوف وزجاجتين من شربات الورد . وعلى ضرب الطبل دق المعجوز باب بستان « بطة » فردت بطة « ادخل يا حلالى » ، لكن المعجوز ما هش وما نش ولا رفع العصا ولا نط الحائط ، مد كفه المبسوط بحب القبول السودانى — وقال لبطة « وحق هذى النعمة دفعت المال لأرى طيرك يا يعضاء عن قرب » ، ومد الكف وقال لطير بطة « القبط يا طير » .

(وها هما يا بحر.. كل حمامة يضاء بجناحين تروم الطلوان في الكون الفسيح ، لكن الحريصة عرفت كيف تعامل طيوها وتحببه في الحبس : تلبس الثوب الضيق بشق من العنق حتى الفلقة ثم تغلق الشق بمحيطين ، اما المتعة فمكائنها الحمام — مع النفس ومع مرآة صافية وصابونة معطرة ذات رغوة وفيرة أو ثمرة موز طرية تشبه العضو ويطلقون عليها أدياً إصبع الإنسان .. آه يا بحر — لعن الله الكلام في مثل هذا المقام ... وما أعربك أيها الإنسان لما تحببك الظروف على الهنك والرنك في الخفاء .. وأف منها تلك الحياة التي دامت عامين و نصف عام : كأنها الكوايس في المنام) .

قالت « بطة » لأمها « على غير عادته أغلق الدكان ودخل الدار العصر والمؤذن يقول « الله أكبر » ، ورقد على السرير وناداني فقلت نعم وقلت خير ، قال أحس بوجع ، قلت أين ؟ قال « هنا » — وأشار الى القلب والجنين ، قلت « سلامتك » .. بعد ما تشرب المغلى ستعود اليك عافيتك ويبتعد الشر » ، وكنت أمام النار لما سمعت الطرق على الباب ، فقممت وفتحت فما رأيت عيني الضيف الذي هو لا إنس ولا جان ، وأنا راجعة سمعت صوت النزاع بين الإثنين ، ولما وصلت إلى الفراش كان للملاك قد مضى ومعه الروح ، وتركتني مع الجسد الميت ، وها أنا يا أم أملك البيت والدكان بلا رجل بكح حتى يخاف الطامع فلا ينط الحيطان .. وأنا شابة ويدي يغطها الذهب من هنا الى هنا ، وها أنا يا أم أدرك بعد ماشق الفأس الرأس أن كل بضاعة المرحوم ملك غيره ، والآن ، هل أغلق الدكان ؟ وأكل من بيع الذهب قطعة قطعة حتى ينفذ فأبيع البيت وأعيش بقية عمري على الخبز والملك كزحلة أم كرملة وفتفوتة أم وزه وهمجة ؟ أم أفتح الدكان وأعيش عيشة زوجي لما كان معنا في الحياة ؟

أأجر الدكان يا أم — لغريب — وأحيا حياة ناس الحارة صباحي الفول بالزيت وليلي الفول والطعمية ؟ « قالت أم بطة « ما كان كان والفالحة من دبرت أمر عيشها وحال دنياها — لا تلك التي تضع يدها على خدها وتبكي تقلب الأيام » .

قالت « بطة » « نطقت الصدق يا أمي .. ما ولى مر وفات .. كيف أدبر يا أم لأكون الأرملة المرغوبة من الرجال ؟ »

قالت أم بطة لبطة « جمالك يستر عيوبك والمرغوبة من الكل لو اهتمت للكل فقدت سعرها في سوق الرجال » قالت بطة « تملين أنت يا أم بالذكان وأحبس أنا نفسي في البيت فأحتفظ بحسن السمعة ويظهر زوجات التجار الوقورات — لما أغلق بابي في وجه غيوك ، ومن اليوم وحتى ينقضي عام سأرفض الخطاب ولو كانوا المئات وأقول « الميت عزيز » ، بلذا يرتفع قدرى ويرتفع سعري .. ويتكلم الناس عني أنا الوفية . فتموت حاسدتي من الكمد ، وتنصحنى العجوز للمأجورة من صاحب المال « لا تدغى شبابتك يا بنية ، فالموت حق على الحى .. والحياة حق للحى » — فأرد « بعد اكتمال الحول يا خالة » ويحضر صاحب المقام والمال بعد انصرام الحول ومعه الشيخ والشهود ويدق بابي فأفتح بابي على مصراعيه .

ذاك ما قدرته « بطة » ، لكن الأقدار في بلاد العرب عرية مولدة تحت الضحك من المفارقات الماسخة . لما طرق الطارق باب « بطة » فتحت « بطة » ووجدت أمامها الثور على هيئة إنسان وبنجاب انسان : هذا فتوة الحارة الملقب بالليل يا بطة .. والليل .. يا بحر .. يأكل لقمته بفرض الإتاوات على الضعاف وكسر عظام الأهواء .

قالت بطة لنفسها « الثور نطاح تغضبه كلمة لا الحمراء .. الأسلم أن أحاوله وأدأوره حتى يأتي الفرج » وقالت بطة للليل « يعلم الله أنك خير رجل يا طبل .. وكل أنثى تتمنالك .. غب يومين وتعال ثم غب شهرين وتعال — هكذا حتى تعود العين على ربهلك ويشتمل فؤادى إذا ما غبت » .

وجاء الفرج المنتظر — وكان حلو الصورة ، له ثلاث زوجات فانتات — لكن الوارث يجب امتلاك كل تحفة جميلة يعجز عن امتلاكها الغير ، سمع عن « بطة » ورفضها للرجال ، فراهن أصحابه وكانوا على مائدة القمار فقال: « هى لى ولو خسرت ربع مليون جنيه » .

قالت بطة لحل الصورة الواقف على الباب « الفتوة يقف في طريقك » . فرد عليها وقال « أنا أيضا فتوة بمال ، والجنينة يذبح كما تذبح السكين » .

أخفت بسهام الرموش سواد وبياض العينين وقالت « أنا لك .. زحزح العقبة

وتعال .. وقلم الصداق ألفين .. والمؤخر ضعفين والعصمة يدي .
(أواه يا بحر من المال — أنظر : ها هو يصرع الواحد القوى) .
أرسل الوارث في طلب الفتوة وقال له لما جاء: يا طبل لي مطلب وسيكلمك
رسولي على انفراد .. واللقاء بينك وبين الرسول هناك في مكان بعيد .. ما رأيك
في الخرابة الواقعة خلف بيت الصراماتي في وقت بين المغرب والمشاء ؟ »^٤

قال الطبل الأجوف — وهو لا يدري ما يحاك له: « موافق .. أفديك بنور
العين .. كم سأخذ نظير خدماتي ؟ »

قال حلو الصورة « ورتين .. كل ورقة خضراء بمأذنة » .
سال لعاب الفتوة وذهب إلى الخرابة بعد المغرب ، وقبل آذان العشاء جاء
رسول حلو الصورة راكبا عربة فيها ضابط بنجمة على الكتفين وعسكر بسلاح
وخبير بباطن الأرض، تبش الأرض التي يقف فوقها الطبل وأخرج لفة قماش بها
حشيش وأفيون ، لما وزنها فاقت الأكتين . وبعدها ذهبت الحكومة بالفتوة إلى
قاضي المخدرات الذي حكم عليه بالسجن مع العمل الشاق لمدة عشر سنوات ،
ذهب الوارث حلو الصورة إلى بيت « بطة » وأركبها العربة التي تجرها الخيل وتحت
الرايات والنور وعلى زرين الصاجات بأصابع الراقصات — ألبسها الخاتم الثمين
والسوارين ورفع كأسه وخاطب أحبابه الأكابر: « ليالى العرس بعدد أصابع اليدين ،
والخمرة فرنسولوى وإنجليزى وألماني يا إخوان » .

(عشر سنوات يا بحر — عاشها فاطمة كأنها عشر ساعات وأنجبت منه
البتين والولد الجميل ، وعشر سنوات عاشها حلو الصورة مع فاطمة — نصفها
الأول حلم جميل ونصفها الأخير كابوس ثقيل ، فكل يوم يمر يجعل بخروج الفتوة
من السجن — والطبل على ظهر الأرض يد ثقيلة وغل ورغبة أكيدة في الحرق
والتحطيم) .

دفع الوارث للمخبين والعساكر المال الكثير رشوة للسجانيين ليهدموا بنيان
الطبل القوى حيث يتحول إلى أنقاض .. وليلعبوا ألعابهم الماكرة حتى يتعود الطبل
على المذلة والطاعة واحترام كلمة السيد فالنينا يا بحر عبد وسيد السيد مطاع .

« هل أفلحوا ؟ » ، سؤال سألته الوارث لنفسه وللمخبين والعساكر مئات المرات

وكان الجواب : « عيب يا ابن الذوات .. نحن الحكومة .. والحكومة لا تختال ..
الفترة الآن بالسجن أجب من قطة وأضعف من غملة .. وأحقر من صرصار ..
فالسجن يا ابن الأكابر تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وكان لحلو الصورة العيون والآذان التى يدفع لها المال المعلوم لتنتقل له كلام
العامة — آباء وأخوة وأمهات وزوجات كافة المساجين بكافة سجون مصر .

(وكلام العامة من أهل مصر يا بحر كطعامهم — القول بالكمون ..
والسمك المملح بالليمون ، وخبياهم جامع ، يقول الواحد للآخر « اسمع يا ... »
ويغمز — فيفهم الآخر أنه لا يكلمه ولكنه يكلم العين والأذن المأجورة ، ثم يكمل
الواحد كلامه « غيبو بالسجن يكسر الحجر .. أما هو فيبلى الحجر .. والثأر كما
يقولون القدر تظف وتغور .. حاول الهروب مرتين وفشل .. لو عشنا سنرى الجزائر
يذبح الحرفان ، ويبيع الرطل للقادر منا بقرشين وللشقيان بمليمين) .

ضاعت الحقيقة لما اختلط كلام الناس بكلام العيون العسكر بكلام الخبيرين
بكلام السجائين، وتاه عقل الوارث فكثر شروده وقل طعمه وزاد طلبه للخمرة، فهزل
بدنه وهت التور فى عينيه وتقطع نومه وارتمى عضوه وغاصت نضرة وجهه ، وتحيل
الحبل ثعبانا ، وظل الحائط إنسانا وخبط الصحون بأيدي الطباخين فرقة سلاح ،
وخبر حاله الأطباء ، فرفعوا راية الإستسلام وقالوا « عجز طينا » ، وقبل حلول
الموعد الذى يخشاه حلو الصورة خشية الموت بأسبوعين — نام حلو الصورة على
فراشه ومات بيده لا بيد طبل .

والآن ، دعنا — يا بحر — من طقوس الحزن التى تفرضها الأعراف العربية على
أرملة ابن الأسرة الغنية — كأن : (تلبس بمجروحة القلب الثوب الأسود حزنا على
زوجها الميت ، وتدفع المال لصحف الصباح فتكتب نعيه على صفحاتها مصحوبا
بصورته وتجعل الشيخ الذى يراه الناس على شاشة التليفزيون يرتل على روحه سورتين
من القرآن الكريم ليلة مأتمه ، وتحضر فرقة موسيقا ملجأ الأيتام لتتقدم نعشه ، ثم
تقبل العزاء فى الميت من رجل عسكرى صاحب منصب كبير) .

دعنا من كل ذلك يا بحر ، وتعال نشهد المشهد الأخير — بين الأرملة الجليلة
وسبع اليرمية فترة زمانه :

(أحاط الخدم المسلحون بسيلتهم الجليلة وقالوا « نزميه بطلقات البنادق والمسدسات » .

ردت السيدة الجليلة : « لا .. احرسونى .. وارشدوه إلى أقصر طريق .. ودلوه على قصرى أنا أعرف منكم بما أهد » . تفرق الخدم على السمع والطاعة . وبقيت السيدة الجليلة بحجرة النوم الموصلة تنتظرو ، تنهشها نيران رغبة قديمة لم يحمدها «زجل له قوة الثور ، وقالت لم لا أكون السمكة فى الماء .. والصياد الذى بلا شبكة يصيد باليدى ؟ » ، وكان ان دهنت الجسد بزيوت الكافور والشعر بزيوت القرنفل والإلاطين بالعنبر والثنيات بعطر يقال له الفارسمى الحار ، ثم لفت فواكهها بملاعة حمراء من خمر هندى ، وسمعت خطوة القدام ففتحت الباب وأدارت ظهرها للقدام — وقسمت بيد عادلة شعرها إلى نصفين ورمت النصف على الظهر والنصف على الصدر وكلمت الواقف « كنت صاحب حق .. والسجن للرجال . هل أتيت تطلب حقتك يا طبل ؟ »

قال الطبل « أتيت لأبوس القدم وأعلن الندم » .
قالت « أنت خبيث يا طبل تلعب معى لعبة القط مع الفأرة .. وأنا ما تنكرت لحقتك » .

قال الطبل « لا تذكرينى بما فات .. فما فات فات .. أنا طامع فى التوبة ولا يدوم على حال غير وجه رب السموات » . ولما نظرت إليه خاب الأمل — فصرخت صرخة اللبوة فى الغاب « يمت أولادى وغربت بيتى وحرقت كبلى يا كلب .. لا تجعلنى أراك وإبحث عن طعامك مع الكلاب .. ففى الفضلات المرمية بالطرقات ما يكفينك ويكفيها » . وما ان فارق الطبل الذليل المكان حتى سارعت السيدة الجليلة ودخلت الحمام — ومعها الكلب المدرب على الفعل وكافة الحركات — ونادت أمها بالتليفون من الحمام ، فردت عليها مدام عجلا — وكيلة شركة كان ياما كان الفرنسوية « تعالى القصر الليلة وستشاور فى الأمر » . ذلك كل ما جرى يا بحر .. ولو كان هناك المهيد لودت .

حاشية :

من يومها وأهل حارة السبع غلالات يميزون السيدة الجليلة عن صبياتها بقولهم « بطة ملبن وشطة » . وإليك يا بحر تفسير المعنى الخفى لقولهم « بطة ملبن وشطة » .

« البطة من البط ، والبط طير معروف نظيف يعيش الماء ويعيش في البيوت ..
لحمه أبيض كثير طيب الطعم ، والملمن حلوى يبيض طرية — يحبها الكبير لأنه
بلا أسنان ، ويأكلها الصغير فرعى السوس في أسنانه ، أما الشطة فيهار حار
يسهل الدموع من العينين ، ويحرق اللسان ويلهب الحلق والشفيتين ويملأ الفم
باللعاب فيسهل من الشدقين أبيض الرغبة حتى تغفل الإنسان كلها . »

حاشية ثانية :

ما من نخلة واحدة بحارة السبع نخلات — ومع ذلك يصير الكل أنها حارة السبع
نخلات ، ربما (في الوزن البعيد) كانت هناك سبع نخلات بالحارة .. أما الآن
(ونحن في عام ١٩٧٨) فلا ، لماذا (وحتى متى ؟) تغفل الحكومات المتعاقبة
التي تتبادل الأماكن (وهي رشيدة) عن أهمية الاسم للمكان ؟

حاشية ثالثة :

من أين حلوا الصورة ذلك المال الذي لا ينفد — وهو لا يعمل ؟
أبوه — عليه رحمة الله — كان بلا نعلين ، سريع القدمين يخطف ويجري ، وفي
يوم تعفر ووقع فأسكت به الشرطة ، وبالسجن تاجر الرجل في المخدرات وكسب
المال الكثير — رغم ذلك لم يحب الرجل حياة السجن ، عاون الرجل — في ظل
الحريات — تجار السوق السوداء وشاركهم . ولعب معهم لعبة إخفاء السلعة في
مكان بعيد .. وطرح سلعة بديلة أقل جودة في المكان القريب ، وفي تنقلاته
خطف السلعة بين القرى والمدن — لحق به عهد الانفتاح السعيد — فضارب
الرجل بما جمع من مال وراح : وتلك خبطته الكبيرة التي جعلت منه الاسم
اللامع في دنيا السوق والمجتمعات .. فسموه عاشق الخيل — لأنه حقا كان يعيش
تربية الخيل .. ونادوه بملك البيض .. ولقبوه بالثعلب الأعظم — لأنه كان يطعم
الثعالب الدجاج — حتى تسمن الثعالب فيلجمها ويسلخ جلدها ويبيع لنسوة
الكابر فروها .. ويرمى لحمها في التلجحات بانتظار حضور الجزائر الغشاش وباعة
الكباب ، وبعد موت الأب توزعت الثروة على الأولاد والبنات — فياخ حلوا الصورة
ما يخصه لأخوته ، وحفظ كل ماله في البنوك الأجنبية ، وجهر في مجالسه التي
تضم الرجاء — هو الذي لا يفرق بين حرف الألف وحرف الخاء « لماذا
أتمب ؟ مالى في البنوك سهام تصيب — المال في البنوك يجرى في البلدان ويربح —
وأنا بينكم قاعد سعيد .. »

وحفظ المال في البنوك الأجنبية — يا أخوان — يجمل بالكم في أمان ويحببكم
الخوف من التفكير في أمور مثل تلك التي تكلمنا عنها الراديوهات .. وما حدث
من الغوغاء في الشهر المشؤم قد يكون مقدمة من المقدمات .. والبنوك بدعة
إنسان له عقل شيطان » .

حاشية أخيرة :

مال السفه في البنوك المتحدة — رغم تعدد الجنسيات — سهام تصيب
المجموع المهلهل ، والجماعة المتحدة الواعية ببياناتها — يا بحر — لها الغلبة ولها
الأرض بطبيعتها ... هل تفهمنى يا بحر ؟

الرقصة المباحة

مهداه للشيخ سيد ، ومحروس التريزى
ومحب طالب الطب بالسيدة عائشه

ارقص ياغريب : رقصتك ويا الفجر مباحة
رقصتك وسط الفجر مباحة
م الحياة وسط الفجر مباحة ياامه
للشتاء : هزه ياامه
للربيع : هزه ياامه
للخريف : هزه ياامه
والصيف لنا ياغريب وعيش « الدميرة »
والشرف لنا ياغريب وعيش الدميرة
عيش الدميرة ياغريب والشمس الكبيرة
وانته ياغريب رقصتك ويا الفجر مباحة

« أغنية من جنوب مصر »

كان اسماعيل أب على يعضغ عود نمناع أخضر ، ويشعر بألم حاد في أستانه
وضروسه وفكه ومفاصله ، وحين أتى الحاج عبد الكريم محمد عبد الله صاحب
البيستان نسي اسماعيل الألم وهربول مستقبلا الحاج . وتبسم .. وقيل يد الحاج ..
وقدر الوقت بـ : قبل الظهر بقليل : كان ظل الحاج مائلاً تحت قدميه باتجاه
الغرب ، تذكر اسماعيل أب على أنه فلاح أرض البيستان وحارس ثماره — قال
يخاطب الحاج ميتسماً : « باكر أسقى أشجار الليمون فهي في حاجة للماء ..
سأرعى تحتها بالسباغ » وقال فيما يشبه اللوم للحاج : « الشجر محتاج سماد يا
حاج .. في الصباح الباكر يأتيني السماد .. باكر الأحد يأتي الولد حجازي من
طرفكم ومعه السماد .. أنا غداً سأسقى الشجر .. »

تحت ظل تكعيبة العنب وقف الحاج عبد الكريم وبحوار اسماعيل ، كان الهواء
رطباً وطرياً وطازجاً يدخل الصدر فينمشه ، قال اسماعيل : « النبات ليس
كالإنسان .. الإنسان كافر وجاحد » . تناول الحاج بندقيته من على كتفه بسرعة
وثبتها وشد الزناد وأطلق رصاصتين . ومن وسط الحشائش وورق العنب الجفاف
المكروم أخرج اسماعيل الثعبان الكبير الميت ، بالمنجل شق اسماعيل بطن الثعبان
الصفراء ورماه في الشمس وغطاه بالتراب الساخن ، طوق أسود غليظ كان يلتف

برقية الثعيان ، قال اسماعيل يفرح أطفال — وتذكر أن عمرو قارب على السبعين :
«لولا قتلته يا حجاج لنبت له جناحان .. هذا أخطر أنواع الثعابين .. أنا أعرف . »

أخرج الحجاج حافظته الكنية المنتفضة والمرسوم عليها ثلاث أهرامات وثلاث
نخلات وجمل قاعد وجمل واقف يركبه رجل يده عصا ، قال اسماعيل مذكرا الحجاج
بالثعيان الميت المدفون تحت التراب الساخن : « سأسلخ جلده باكرا .. ومن
جوفه سأملأ سطلين من الشحم .. وأدهن عقب الساقية .. سيلف العامود
خفيفاً كما لو كان طائرا بجناحين حتى لو ساقطت الساقية معزة جريءا . » ، ضج
الحجاج بضحكة نزت بالدهن المكوم على صدره المريض الغليظ المشعر ، ونال
اسماعيل الجنية الجديد والمرسوم عليه أبو الهول الأخضر ، وأدخل الحجاج حافظته
الجلدية ذات اللون الليموني بحبيب صديقه الصوفى الأسود اللامع ورمى بسلام الله
على اسماعيل وتوكل ، ونادى اسماعيل ربه في السماء بصوت يسمعه الحجاج عبد
الكريم : « بحق نبيك محمد اجعل الياض أخضر إذا داسته قلم الحجاج محمد ..
آمين يا رب . » ، ونادى بصوت أعلى : « باكرا أرسل حجازي بالسباخ .. لا
تس .. يا حجاج بحق النبي »

اسماعيل أب على جلس تحت حائط الساقية ، انتهى لثوره من قتل حبل غليظ
من ألياف التخييل البنية اللون المكومة تحت قدميه المملودتين أمامه ، النسيم رطب
محمل برائحة الليمون والبرتقال ، الشمس حمراء بلا حرارة معلقة فوق سن الجبل
الغربي ، برغوة ملعونة قرصت اسماعيل فخلع جلبابه الأزرق المصبوغ بسرعة
البرق ، شم اسماعيل رائحة عرقه ، رأى نفسه عارياً كما ولدته أمه « ولعانه » وبحث
عن البرغوة التي قرصته للمرة الثانية ، اقتنع اسماعيل بأن البرغوة قرصته تحت
الجلد فلبس جلبابه ومد ذراعه وقاس الحبل وحك وسطه وقال : « ثمانية عشر
ذراعاً .. أقل ذراعين ويصبح الحبل بعمق بر الساقية » . شبك الحبل بمختصر
قدمه اليمنى ومد ساقه ومضى يقتل بهمة .

« الحمد لله » ، قال اسماعيل — ورمى الحبل بعيداً . وتملكت اسماعيل حالة من
الصفاء والانتهاج جعلته يجرع بأن الدم يجري صافياً في عروقه كما يجري الماء الراق في

القنوت ، وإذا كان الماء الصافي يلمع كالفضة النقية دافعا تحت شمس الظهيرة —
فكذلك أيضا داخل اسماعيل — والصحيح : يتوهج الآن بمثل الشفق الأحمر
الذى يلون الأفق الغربى . خمسة فجاجيل من القهوة السادة شرها اسماعيل وامتنص
فصا من الأفيون دفع ربع جنيه لـ « فكري الكور » ثمنا له .

الجنيه الذى أعطاه الحاج عبد الكريم لاسماعيل كان جديداً ولامعاً وكانت أطرافه
الأربعة مستقيمة حادة ، بطرف واحد من أطراف الجنيه الجديد اللامع كان بمقدور
اسماعيل أن يذبح طائراً جارحاً لو أراد : هنا كما يقول المثل الجارى بين الناس ،
رغبة كانت ملحة فى الاحتفاظ بالجنيه الجديد اللامع الحاد الأطراف ، والحاج عبد
الكريم لن يدخل البستان إلا مع قطف الثمار وأبو الهول كان يتربع وسط الجنيه
بلونه الأخضر الزاهى .

للحظة أحس اسماعيل بمراة الأفيون فى حلقه ورمى نفسه بالنعاسة وقال :
« هيه » ، وسمع « هيه » ترد لأذنيه مرة أخرى وسمع صوتاً هناك تحت تحكيبة
العنب ، وأتت رعشة مفاجئة هزت جسد اسماعيل القليل اللحم ، وضح
لاسماعيل أن أنشئ الثعبان القرية أتت لتتقم لذكرها المقتول ، شد اسماعيل الفأس
القرية وتقدم وزابله الرعشة وتلكه إحساس وحشى غامر .

الغلامان جريا ، مد اسماعيل يده وتناول سروال القماش الملقى فوق الحشايش
الندية وجرى يلاحقهما وجعر : « يا كفرة .. يا أنجاس يا أولاد الشياطين . »
الولد الكبير قفز السياج الطينى الذى يطاول قامته ثلاث مرات — واختفى :
وحاول الأصغر مع السور المرتفع مرة بعد المرة وفشل : أخذته قامته القصيرة
وجسمه البدين ، واسماعيل أضمر بأنه لو أمسك بالولد فسيرفعه لأعلى وبكل قوة
سيرميه على الأرض « هكنا ألف مرة : الخنث ابن الـ .. » . جسم اسماعيل كان
ينتفض من الغضب والأرض ربما كانت تتقلقل تحت قدميه : هذا ، فللسماء سبع
طبقات وللأرض سبع طبقات تهمز لهذا الفعل .

أفلت الولد ، كانت المسافة بينه وبين اسماعيل قصيرة — لكن الولد كف عن
محاولة طلوع السور ولجأ إلى الأشجار الكثيرة والمساحة الواسعة .

« أحدهما قلت أما الآخر فهو فأر في المصيدة : خمسة وعشرون فداناً
استقامت فوقها أشجار اليرتقال والليمون والجوافة وطوقت بسور قوى مرتفع . »

— هكذا وضع الأمر لاسماعيل فعلاؤه المهدوء وصرخ : « سأمسكك يا ابن
الكلب . » . بدت رؤوس الأشجار — وكان يوسف الأعور قد نادى المصلين
من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب من وقت قريب — سوداء كالفحم المحروق
جيداً والمنطفئ بالماء — كوجه « بريئة » زوجة اسماعيل أب على .. كنا بنفس
لبدة الشعر الأسود الأجعد الخشن .
— « أمسك به وأفعل »

سريعا مر الخاطر بلهن اسماعيل ، رأسه شعر بها ساخنة تحت نار
الغضب الشديدة ، سأل اسماعيل نفسه : « لو طلبت العون من عافيتي
ونور عيني هل أفضل ؟ .. منذ سبعين سنة وأنا أعمل . »
صرخ اسماعيل بنشوة :

— « يا ولد .. لك الأمان منى . »
قرر اسماعيل فتح باب الجنيبة الخشبي الكبير المطل على شارع عبد الله
ليستعين بشخص من المارة أو من المصلين ، قبض على ذراع الملاج
الخنديدي ورفع وتعمد أن يضربه بالباب الخشبي ليصدر صوتاً مرتفعاً ،
وصرخ من جديد وأحس بقلبه يلقى بين ضلوعه بشدة وبسرعة وبنشوة .
— « أمامك فرصة العمر .. اظهر ولك منى الأمان »

سمع رائحة هسهسة الطيور — المعتادة قبل الغروب — فوق الشجر ،
وشم لزهر الليمون ولليرتقال رائحة أكثر . نهائذا اختلطت برائحة عرقه
القرى ، وشعر بمسام جسمه تفتتح كلها فجأة — وتضخ العرق الذى
يبلل جلابيه ويجعله نديا .
— « سأفتح الباب يا ابن القمحبة . »

هبط المصلون الثلاث درجات الحجية المدخل لجامع عبد الله بسرعة
وتحلقوا حول اسماعيل ، بأقصى غضب استطاعه وأعلى صوت استطاعه
زعمى :
— « أولاد الكلب .. الاتيين .. الأنجاس .. ابن الجنيبة هرب .. الثانى

بالداخل .. رجل وامرأة .. الأسافل .. الأتقى بالداخل . امسكوه ابن الضلال ابن الزانية .

فوق سقف الساقية دفن الولد وجهه بكعب من خوص النخول الجاف
وستوه بذراعيه الملمومتين .

صرخ منصور الصادق :

ها هو .

امتدت رقاب الرجال بعيون النور ، بحلقوا ، كشف حسان النوال
ملاح الولد قبل أى من الرجال وزعق :

عيله .. عيله ابن شحات الجبالي .

كالسيف يمحى فى اللحم الحى شق شحات الجبالي لحم الرجال ، وشق صدره إلى نصفين وصرخ بالألم العظيم ، وبكى الطفل أعلى السقيفة ، وأسفل السقيفة صرخ شحات :

عيله .. يابن الكافرة .. من منكما ؟ أنت أم هو ؟ .. من الذكر ؟

أنا ..

سريعة خفيفة حزينة فرحة طرية خائفة دقت الكلمة طيلة كل أذن ،
وتمثل شحات لحم زوجته الطرى وجسم ابنه الأبيض الجراج باللحم وعيون
عيله الصفراء كأمه .

كذاب .. كذاب يابن العاهرة .. سأكلك لحفك مع من ؟ .. مع من ؟

مصطفى ..

.. ابن من ؟ .. بالبلد ألف مصطفى يابن الكلبة .

ابن فكرى .

ابن فكرى الكور !

« مصطفى ابن فكرى الكور » : كررها شحات عدة مرات ، كان
كتادبة تحيط على دف لا تتوقف .

أشار شحات لبر الساقية العميق المعتم .

« أرمى روثك .. مصطفى الذكر يا كلب » .

ولمعت عيون شحات وقدحت الشرر ، ومهمهم الرجال ، واشتد نجيب
الولد ، زعق شحات :

- من يحمل عنى العار ؟
قال يوسف الأعرور :
الضنا غالى يا شحات .
- صرخ شحات ورد صوته من تجويف البئر :
والشرف غالى .
- قال الصادق محمد : « أطفال .. أطفال صغار يا شحات » .

صرخ شحات : « أنا وأنت كنا صغار . هل كنا ؟ .. بلاء الصغر يموت الأسيب .. إنها دودة ملعونة تنهش فى اللحم ويحسم وقطع أشار شحات لبئر »
الساقية ، رآه الرجال ذئباً جائعاً داهمهم منفلتاً من ظلام المكبان : لا شيء يصده الآن .. سينهش فى اللحم الحى ، لأذوا جميعاً بالصمت وسمعوا : صوت اصطدام الجسم الحى بالماء : أقرب ما يكون لصوت اصطدام حجر كبير بالماء .

- أتى الحاج عبد الكريم فور سماعه الخبر ، جثا شحات فوق جثة ابنه يبكى ، بكى كما لم تبك امرأة يوماً فى القهبة على ميت عزيز ، وقال الحاج عبد الكريم :
— كفى يا شحات .. كفى .
- قال شحات : « أنا فقير يا حاج .. فقير لا أملك غير شرفى » .
- قال الحاج : « لا غنى غير الله يا شحات » .
- قال يوسف الأعرور : « كلنا فقراء يا شحات ولا نملك غير شرفنا » .
- هل كنت تحترمنى يا حاج ؟ هل كان يحترمنى أحد ؟ من كان يحمل عنى العار ؟ أنا الآن أملك شرفى .
- قال الحاج مواسياً : « أعاتك الله يا شحات » .

ضم جمع الرجال فكرى الكور ، الحق كان وجه الرجل أمام الملاء أشد صفة من وجوه الموتى ، بحث الرجل عن ابنه الشارد بين الشقوق وتحت الأحجار وما عثر له على أثر ، ومابقى لفكرى غير الوهن والخزى ورقبته التى قدمها لشحات الذى ساحت دموعه .

— ما الذى يرضيك ؟ أنا فقير مظلوك ولا أملك غير شرفى .. أنت جارى يا شحات .

قال شحات : « عافاك الله يا فكرى .. الحاج يحكم بينى وبينك » .
فرد الحاج : « إبنك يا فكرى يترك البلد .. يرحل لا يعود .. لا يدخل البلد نهائيا » .

قال الشحات : « رضيت بحكم الرجال يا فكرى ؟ »
أقبلت الهواجس دفعة واحدة « يعيش مصطفى غريباً .. يموت غريباً ..
تماما كالغجر الرجل : عديمى الشرف سارق الدجاج » ، أزاح فكرى الهواجس .. فهو عاقل والفرد لا يشارك بلداً ، قال بحزن :
— أمر الرجال ينفذ يا شحات .. قبلت يا حاج . غادر شحات المكان ، قال للرجال بأسى :

— ادفنوا الجثة .. صلوا على روح الميت يا رجال .

نصف الليل ولّى ، والنوم أيضا ولّى ، واسماعيل اب على طرد أكثر من مرة رغبته فى بريرة زوجته الراقدة تتقلب بجواره على الحصيرة ، وعلى الأجران وداخل الحقل فوق المصاطب وبالجحور وتحت الأغصان : رجال ورجال .. ورجال ونساء .. ونساء ونساء .. وبنات وبنات .. وقطط وقطط .. وكلاب وكلاب .. وضفادع .. وجرذان وجرذان ، وقالت الأفكار السود لاسماعيل اب على : انجث عن مصطفى .. اقطع البلد شبر شبرا .. اقتله .. واشرب دمه .. انتقم للجاز وحقه فى الشرف .. مصطفى يستحق الموت عشر مرات خنقا .

لم يكن اسماعيل راغبا فى النوم وفى بريرة زوجته يوما من الأيام كرهته الآن .
قال اسماعيل مطمئنا نفسه مناديا النوم : سيجيا عمره بعيدا وغريبا وبلا شرف .. وكذلك سيموت ميتة الغجر الرجل ..

ومد يده ولامس ظهر بريرة اليااس وشدها إليه .

رؤيا

أتاك الميت الحى عاجبا - بغير ظل وقد لفته الخالدة برأيتها ، وحلته بأساور
من لفة وأقراط من ذهب - وقد تدلى من جيبه عقد من الجوهر يضوى .

وكنت قد فرغت لنوك من ثروة يومية معتادة مع زميل لك غادرك وقيمت
أنت بانتظار زميل لك آخر تقتله . وتعاونان معا على قتل الوقت ، ولم تكن تتوقع
أن يأتى الحى إلى هذا المقهى الكبير ، لقد باغتك وطوخ بكأسك ، وخاطبك
أنت الخمور : « اليوم سحر وغدا أمر .. إنها ما تزال تطلب الضحايا .. قم » ومد
لك هذا من نور ، وطالعت بعينيك الأرضيتين الالتسامة تغل من عينييه السماويتين
وثمته خاشعا متصدا حتى بلغتاه - وقد سحى الليل ، ورأيتها : زنتونة
مباركة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء . « إنه الوادئ المقدس .. وتلك هى
الشجرة » ركعت على ركبتيك وكلمك « أن يذبل ورقها ويحيف فرعها - فهو الماء
عنها قد شح أو هى الجبلور اصطلمت بصخرة : هذا ما علمتا إياه الأيام » ،
وقال « ألا يأتى الماء من العالى - فقد منع ساكن العلا لمالك زرعك قوت
أولادك » وقال : « جادله .. وأعلم إنه قاتل » ناديت : يا ساكن العلا .. لقد .

منعت عني الماء وهو خالق كل شيء حتى .. الماء لزعى يا ساكن العلا ..

- يا بن آدم .. ستهلك شجرة الجذ القائمة منذ الأزل . وسهلك الزرع وكذا
النسل .

« اغلق عينا وافتح عينا حتى يرى الذئب فيك .. آه .. افتح العينين ليرى
البندقيتين .. آه .. اطلقهما .. هو خصمك : إن لم تقتله قتلك .

« إرفع فأسك المصرية ، ويديك القادريين هاتين : إضرب . واجرح الأرض كما لو
كنت تقتل حية : مزق جسد الصخرة .. وارفع حاجز الموت عن الشجرة التي
تمنحك الظل والثمرة » .

الفلسطيني

(١)

خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب .

(٢)

حشت فيها بخرقه قماش .. وأطبقت عليها بأسنانها ، وصرخت
صرخة الألم والخلاص : وكان دافقا .. وكان دافقا ، وغابت عن الوعي .

(٣)

لما حملت الطائفة : الطائفة بمناحين . صرخت الحصاة البيضاء :
« المدوة » . فتلوت الحباء بلون الرمل . وزفر الجبل ووضع كفه الغليظة على
صدره حتى لا ينشق إلى نصفين : « آه .. لو لم أكن للأرض وفي الأرض
وتلنا » . وكشع كشاف بعيد الضوء مرة للشمال ومرة لليمين ، فلمعت الرمال
كالترتر . وانغرس الرضيع في حضن أمه ولم يفارق فمه التلوى .

(٤)

كان على مبعدة منها يحبو في ظل عينيها الحارستين ، وحامت الطائرة ذات
وجه الكركليس بعينه الواحدة المخوفة ، فعاد إليها صارخا ، لته ، وأعطته ثديها ،
ومسحت دمه بكمها ، حتى لا يختلط دمع العين بلين الثدي .

(٥)

بفرح كانت ترقبه وهو يحبو ، وحامت الطائرة التي تحمل في جوفها قبلة
ناسفة وقنبلة حارقة ، فعاد إليها باكيا ، لته ، ونضت ثديها الذي دهنته بصبر
ثمرة الحنظل اللوة ، مص مصبة ، وبصق ، وتأهب للبكاء فدنذنت تناغيه :
« حميدة ولدت ولدت .. صمته غيد الصمد .. حامت فوقه طيارة ... »

(٦)

لما حامت الطائرة الكافرة بكل حي . وكانت هي تغزل بالمغزل من فرو
الشاة خيوطا من الصوف ، توقفت ، ونظرت إليه :
رفع قائمته في الهواء ، وتصلب على قدميه ، وخطا خطوتين ووقع ،
تقدمت إليه ، وقبلته ، وتفلت على الأرض - على الشيطان - حيث وقع .

(٧)

ظلت ترقبه وهو يتابع الطائرة بعينين سوداوين ، ورأت في عينيه : هرا وليلا
وخزرة زرقاء .

(٨)

تمت ليل الله الأسود وقمر الله الأخضر : مضت تخلص الخيوط وقد
تناهكت - بينا رشق الولد ريشة حمالة بجانب ثمرة بلح صفراء ، ورشق ريشة
بخلفية القرة ، ورشق ريشة بجانب القرة الأمين : لقد فرغ من صنع لعبة .. لقد

فرغ من صنع طائرة ، من نغمة صفراء رشق فيها ثلاث ريشات من جناح حمامة
سوداء برقيتها طوق أبيض .

(٩)

الطائرة رأت اللعبة . وكانت اللعبة على شكل طائرة . الطائرة التي يجري
خلفها خيط الدخان الأبيض تكو اللعب .. كل اللعب .

(١٠)

قالت السماء للمتعال الجالس على العرش :
« سدى .. لقد رأيت بمعنى الزقاء الكبيرة المخادعة تلك .. كل
مايجرى .. إنها مشيتك .. ولكنه فلسطيني .. وأنا أيضا فلسطينية » :

غدا أيضا الأحد

- (أ) أعرف أنها تمر على المقهى كل يوم أحد .. متى تعرف هي ؟
- (ب) لم تمر . الحصان العجوز الأبيض كان يجر العربة المحملة بأكياس النقيق . أنا الأرق والحصان العجوز والحوىذى العجوز والشرطى الساهر والموسى المخمورة .
- (ج) هذا موعدها الثالث : اغفر لها يا قلبى وقد عرفت .
- (د) أيتها الكارثة : أحبك .
- (هـ) الآن : لا أحبك .
- (و) أنت لا تستحقين ، نعم ، ورميت زهرة القرنفل — وقد عهبتا من ورقها — فى كوب الحمرة ، وشربت ، وشربت ..
- (ز) يا أيها العالم — أنت شاهدى : أنا لا هو .. أنا الذى أحبها ..
- (ح) رغم السنوات : اليوم الأحد .

الغول

وقف المطرود من أهله ، يتقل على الأهل القساة ، ويرمى بنظرة أخيرة على البيوت القصية . ولم كانت فرحة كبيرة بوفاء الحيوان لما وجد قطته الحيلى تتبعه .

سارء وسارت خلفه وطال سيرهما إلى أن أوعلا فى القفر فاستبد بهما العطش والجوع - وكانت القطة الحيلى قد ولدت عددا من القطط الصغار العميان . وسدت جوعها بلحم واحد من أولادها الصغار ، وروت عطشها بدمه ، قلد المطرود من أهله فعلة الحيوان - إلا أنه لم يستطع اللحم النىء ، فضرب حججه وأشعل النار فى حطب له وشوى قطة وأكلها ، وما أن أحس بقسوة العطش حتى شرب دم ضحية جديدة .

وهكذا مر اليوم حتى وجد المطرود نفسه فى يوم هو وقطته يتمازكان ، إلى أن دان له النصر فأكل لحمها . وواجه صاحبه ابن ذلك الزمان وحده الجوع والعطش والوحدة والخوف من الوحش ، فقرض أظافره ، وقضم نصف أصابعه ، وأوقد النار العاليه ليهب الوحش ويهدى الضال والضارب فى القفر ، فقد يعود يوما إلى دنيا الناس .

وما أن واجه المطرود الإنسان الضال حتى غلب عليه الخوف من العودة إلى الجماعة ، فصرع ابن جنسه وشرب دمه واتهم لحمه نيبا ومشويا .

ومع الوقت تمكنت منه العادة ، وأصبح هذا طبعه ، وتمرور الزمن ذاع صيته لما هاجم جماعة الأحياء ، وتفئّن الناس فى وصفه ورسمه ، وأصبحت الأم تروى ابنها إن عصاها بالغول ، وتحذر زوجها المسافر والد ابنها من الغول .

هي وهو

- لم يكن الظلام قليلا ، رأيت اليد المرفوعة ولمعة السكين ، كنت قد بوغثت وها أنا هنا .

رفعت يدها عن جبهته ، وقامت .. طارت حمامتان ، والنار ماتزال مشتعلة .
ظهرها له ، نعبت بعلب الأدوية فوق طاولة قريبة ، ربما لتخفي دموعها ؛ كانت
الضربة نافلة .. وكان الجرح غالوا .
رفعت يدها في وجهه - قالت : « يدى هذه ليست يدك .. وهناك لن
تكون أبدا يده .. حاول ... هل تحاول ؟ » .
وقالت لنفسها :

سأحميه بماء ساخن .. وأرش جلده بماء الورد .. وأدهن جسده بهيت
الكافور .. وأرمى على جبهته خصلة من شعره أشبك فيها خرزة زرقاء وعجينة من
مسك ، وأصنع من شعر رأسه ضفيريّين سوداوين خشتين .. حين ذاك سيكون
قادرا ..

الجوع

جاءوا الحد وخاف من قسوة التشريع فثقب الحائط بالهمة واليدين وبمراغ
من حديد ، هكنا فر الآدمى ذات يوم بعيد - من جميع الأهل ونعيم الحضر إلى
جميع البيد : حيث الوحش وحيث لا ماء ولا بشر . والآدمى لا يواجه الوحش
إلا بالنار التى تولد من ضرب حجر بحجر . فر آدمى ذات يوم بعيد من جميع
التشريع .

البكاء

قطع رجل - ذات يوم - بقضيب من حديد ذيل حية ، فهربت الحية من
بيته - واحتمت بيت أرملة عجوز .
قالت الأرملة العجوز - وكانت حكيمة - لنفسها :
« حيائي في دجاجاتي .. فأنا أفايض صاحب الدكان - يأخذ البيض ويعطيني
كيس الشاي وقرطاس السكر وعلبة الكهيت .. كلما الزبال يأخذ زبل دجاجي
ويعطيني الإبرة وشلة الخيط وحفنة الملح وحبات الفلفل .. والحية رفيقة قبر ، وهي
في الدنيا رسول موت يخافه سم بنات قاتل .. الحية تحب البيضة مطبوخة
بالبصل .. سأطبخ للحية كل يوم بيضة بالبصل .

هذا ما فعلته العجوز من أجل الحية . وعلى هذا الحال مرت الأيام وفي يوم
باضت الحية بيضها الإقط أخفته كما تفعل كل حية أم .. ثم جاء يوم وطلعت
دينان تتلوى تحت أرجل الدجاج الآمن . وماهى إلا أيام - وإذا بالدينان حيات
تسمى في أركان البيت الآمن . ويوم وجدت الأرملة العجوز دجاجة قتيلة - قعدت
على تراب الأرض والدجاجة القتيلة في حجرها وظلت تبكي ضعفها وخيبة حكمها
وهوان أرملة عجوز أجبرها الزمان على مواجهة صغار حية مقطوعة الذيل .

أما الحية التي قطع رجل ذات يوم ذيلها بقضيب من جديد - فقد لمت
صغارها وشتمهم الواحد بعد الواحد وكانت قد شمت الدجاجة المقتولة ، ولما تمكنت
من فاعل القفلة أطبقت على عنقه بأسنانها ومنعت عنه الهواء ، ولم تتركه إلا جثة
بغير روح ، ثم فارقت الحية الريفية المكان يتبعها صغارها إلى عراء رحب لأمان
فيه . بينما الأرملة العجوز - في جحرها الضيق - مع دجاجاتها وقتيلين تكي ولا
تعرف متى تتوقف عن البكاء .

هكذا تم الفراق .

الضحك

العليلة عليلة من سنين .. خاب طب الأئمة .. كما خابت وصفتك
باعجوز يا مجرمة .. فهل تفلح ساحرة مقنعة وفرد لعاقي ؟

زعقت (والناس حولها دائرة محكمة) : هاتوا العليلة ، ومن جرايها اخرجت العلين
والحجر وأكياس اللون وعيدان الحطب المعطر والسفودين ورشت اللون على تراب
الأرض . ودمت آية الحق ورموز الباطل ، وضربت الحجر بالحجر فتطاير الشرر
الأحمر واشتعلت النار حمراء في الحطب (هكذا خلقت الساحرة العارفة من
الذهب الصغير الرافص - الحدود التي تفصل بين لابسة وعريان) ودقت الطبل
فرقص القرد وظل يرقص ، وكلما زادت في الدق زاد القرد في الرقص ، إلا أنها
توقفت بفتة عن الدق على طلبها - وصريحت. في القرد الذي لم يتوقف عن
الرقص : قلدا منك بيتك .. بلذ خوفك - ولارجع لأملك . وما إن تغطي القرد
حاجز الذهب وعيون الجمر المبهلقة وهم بالقليل بعدما طلع (وكان قد عرى
الجسد) - حتى هاجت الحلقة .

الخرف

تزوج صاحب حانوت - لا ينجب - من جميلة ، وحرص عليها كما يحرص على بضاعته . فالجميلة صبورة في إطار : تزار ولا تزور ، كهنة في نعيم البيت - مع طير مغرد في أقفاص ، وجمك زينة ملون يسبح في آنية من زجاج ، حواء مطوقة الجيد بمقود مفصلة من كرم الحجر ، بخلائيل من فضة وأساور من ذهب ، تلبس الثياب القالية موشاة بالقصب والمناديل مولونه ومقطرة ومطرزة بترتر وخرز .

والأيام - كما شاء خالق الأيام - قسمة بين ليل ونهار ، ونهار ابن زماننا صاحب الحانوت أبيض : أبيض بالنور السملوى .. وأبيض بالريح لما تتراحم الخليفة على السلعة الشميخة ، أما الليل فوسواس غوان .

كلما جاء ليل : أغرق رب البيت صاحب المال وحارس الجمال البيت بالنور الفاضح وأطلق الكلب النابح .. وعرى الخليفة ولأعها وأرضها بالفاكهة والخلاوى ولحس ومصر ، وبعدما ينال البعل مراده ينام ويشخر - حتى يذهب هذا الليل ويطلع نهار أبيض جديد ، ينزع أبيض جديد .

على هذا المنوال - كرت الأيام ، وذات ليل - وعلى نباح الكلب الأمين - هب

صاحب الحانوت من النوم هلوعا : فيها هي خيالات تتحرك في النور تبغى المال او تبغى الجمال - وهو حريص على المال والجمال .
رمى الخيالات بكل ماوصلت إليه يده من أشياء ، وسقط خيال فُحمله زميله وفرا من النور إلى العتمة ولم ينم هو تلك الليلة . ولما طلع النهار رأى الدم على السجاجيد ، وأيقن بقطنته أن الدم الذى سال من الخيال قد يفقد الخيال حياته . هنا زاد خوفه من انتقام خياليين لصاحبهما الميت ، فأشترى بندقيّة تزهق روحين وكف عن البيع واغلق حانوته ، واذا ماجاء الليل - فهو سهران قابض على بندقيته يحمى المال والجمال ، وبين الحين والحين يطلق رصاصتين في الهواء ..

الموت

يروى أن الملاك العيوس عزرائيل أراد أن يعاين روحين لعبد وعبيدة يعملان في غيظ السيد ، فتكر على هيئة شيخ ضرير بلحية ، تحت إبطه لوح ويده ريشة ودواة .

استبد العجب بالمعدين الغافلين : ما حاجة شيخ ضرير إلى اللوح والريشة والدواة .. ولم لا يلبس بعضا كسائر العميان ؟

وقالت العبيدة لزوجها العبد : لو أمرتني سأته ؟ .. إلا أن الملاك الذي سمع حديثهما قال : العبد لا يسأل يابنية .
فسأله العبد : وهل أنت سيد ؟
قال الملاك : أنا سيد لا أسأل .. وأنا عبد لا أسأل .
ركع العبدان وقالا : يالك من حكيم .. علمنا أيها السيد الحكيم حكمة تنفعنا .
قال الملاك : ستموت زوجتك من فمك .. وتموت يا عبد من فعل زوجتك .
قال العبدان : فسر لنا قولك الملقز يا حكيم .
قال الحكيم : عطشان .. وشربة من بحر السيد تسقينى .
قال العبدان : سنسقى السيد الحكيم من بحر السيد العذبة .

أنزلت الزوجة الدلو في البئر ، وهي تسحبه رأّت سمكة كبيرة بعيون مضيفة ، فتركت الدلو وهبطت سلام البئر ، ولم تكن على قدر من الحكمة حتى تترك أن الملاك عزرائيل قادر على أن يكون سمكة كبيرة بعيون مضيفة ، يراوغ ويغض كل من يسكه .

فلما عضتها السمكة صرخت : الحقنى يا زوجي .. سارع الزوج العبد لنجدة زوجته العبدة ، وهبط البئر .. وهنا تمكن الملاك عزرائيل من الإثنين ، فشهن شهقة كبيرة ولم الهواء النافع ، وزفر زفرة كبيرة وبخ الهواء الضار..لموت العبد والعبدة اختناقاً في بئر السيد .

أشكال

ها أنا راكع أغسل يدموع المذهب المقهور قلميكَ .

يارى ، يامن خلقتنى من طين . أنا أصبح بأمرِكَ البغل الذى يجير العربة
المحملة بكل صنوف الثمر الحلو الملون قواح الرائحة .. بغل من هذا النوع يارى :
بغل لا يقول لا ولا يقول نعم . بغل يسير ويجرن وقتاً وبعد الجلد يواصل المسير .
بغل يشتهى كل صنوف الثمر الملون الحلو .. فقط يشتهيه ثم لا شيء آخر .

أقول لى بغل يشتهى ويستعيز عن متعة الأكل بمتعة الاشتها . فليس من
الضرورى أن يأكل بغل ، فالدجاجة لا تأكل بيضها .
إن الاشتها حرية مأمونة حتى وإن كانت منقوصة . أما مبتغى - الطعام فقد
يقع يوماً فى قبضة المسكرى ، وينفن فى السجن المعتم الرطب ، لا هو بالحى
ولا هو بالميت ، ولا صديق له إلا الحشرة والرائحة النتنة .

كُنْ المِصْرِي الصَّالِح : كُنْ السَّيِّد

تزوج - هو الفَارُّ من أهله - زوجة جميلة فَأَرَّةٌ من أهلها ، ووعدهما بمسكن :

هكذا ليس ثوب الوحش ملك الحيوان ، وقصد العراء . ولما وجد الماء يشق المجرى في بطن الصخر بنى بيته وسوره بالشجر الذي التفَّ على الشجر .

جاء الضال وطلب منه الطعام فأطعمه ولم يطلب منه الثمن . وبعد رحيل ، الضال بأيام عاد الضال ومعه أهله ليُشْكروه وليُشْكروه ، فأطعمهم وأصروا على دفع الثمن . وهكذا شيد حانوت « كل واشكر » الذي صار واحة للمسافرين .

قسم أوقات اليوم مع زوجته يتناوبان العمل ، ولما فاضل بين ربح المرأة وربح الرجل ، وسفاهة السكران ونصاحة الواعي .. قرَّ قراره على أن تقوم زوجته بالبيع أغلب أوقات اليوم ، وشدَّد عليها :
« إرسي ذلك المشتري بنظرة تمسك وتفلت ، ولا ترقلى على ظهرك فتخسر الجلد والسقط ، وتبقى المهانة بعد العودة إلى أيام عشناها - أنا الفَارُّ وأنت الفَارَّة - وخيرنا مرَّها » .

ونمت إلحاح الراغبين في النوم شيّد الفندق من طابقين فوقهما طابق مفصل لا يبلغ الماشي نهايته . هكذا خلق الدنيا كاملة : أكل ، وشرب ، ورقص ، وجنس ، ونوم ، وأطفال - هم أحفاده وهو جدّهم الشرعى . وماهم يلعبون في الكرة تحت الشمس ، ويتنظرون ابتسامته العصبية .

دجاجة تبيض ، ويبيض يفقس ، ودجاج يطلع - هكذا المال يلد المال . فإن لم تحكم به الغير حكمك الغير ، وهم الكثرة وأنت القلة ، أنت الفرد وهم الجماعة . وهكذا الجماعة إن اشتبهت قليلها أخضعت كثيرها ، ليكونوا لك اليد التي تبني وترزع وتقلع وتصفق ويكونوا القم الماتف بالحمد .

سألنا : ما حاجتك للاسم ؟ وما حاجتى للاسم ؟
قالت : تنادىنى حورية - وأنا في الماء حورية - وأنا ديك بهاء ، فيلوم بيننا التعارف .. لا تفضل ولا تدق الطبل واعتدى بشمسك ..

هل فهمت .. أم أكرر قولي يا بهاء ؟

* هذه القصة كانت مخطوطة ضمن مخطوطات وأوراق يحيى الطاهر عبد الله . وكان يحيى الطاهر - قبل وفاته - قد أشار إلى هذه القصة خلال حوار مع صديقه حسين حمودة عن « مشروعاته » القصصية التي لم يكمل بعضها ولم يكتب بعضها كتابة نهائية .

ويقول الأستاذ ادوار الخراط إن يحيى الطاهر كان قد أشار إلى هذه القصة باعتبارها قصة مكتملة

إلى سنوحى

- (١) على البيت سقطت القنبلة : بالونه الأزرق .. بالونه الأزرق .
على القلب سقطت القنبلة : يارثة الفضة .. يارثة الفضة .
- (٢) نلوت أنا للشارع ، ونلوت هي للأوجاع . علاقتنا بلا غايات بعيدة ،
لا الحمرة ولا أن تصالحنى تلك التى أحبا — سقيم البيت الذى دمرته
القنبلة .
- (٣) صوتها قادم من صحراء أعرفها ولا أبوح حتى لا أسقط فى أيدي
الشرطة . صوتها قادم بالأزرق والفضة .
- (٤) فى النجم رأيت تقضى مهرة سوداء ، نعم : فى الحلم كنت المهرة
السوداء .

في الحلم يعشق الموتى

سمعت الصوت « الجبل ياسلابة .. الجبل »
ورأيت :

طائرة العلو تطير ، وتكرهني ، دمرت بيتي بقنبلة ، ودمت قلبي بقنبلة ،
ودمت قلب محبوبتي بقنبلة - وكنت قد سمعت الصوت .

لم يعد قلبي في بدني ، فحملني ذلك على قطع الصحراء . لم يلمني
أحد ، ولم يصبق في وجهي أحد ، ولم أسمع أية إهانة ، ولم يرد إسمي على فم أي
مخبر .

بيدي (صنعها) ، زرقاء من ورق ، لكنها تطير ، طائري ، أنا ، الملاح
الماهر صانع الصندوق والقارب ، الروح الحية الهائمة بنير ظل ، عدوي
أدمية بقنبلة ، والعاشق والعاشقة أرمهما بوردتين .

« لا تفلت الخيط » ، أنت من صلبى ، « لا تفلت الخيط » .

الرسول

رسول الموت - وهو مخادع قادر - خلع أثواب الحرير وعقود وأقراط
وغلاخيل الزينة : وتكر في هيئة سمكة حية تسبح في ماء حلو .

رسول الموت - وهو مخادع قادر - خلع أثوابه الحريري والمقد والقرط .

رسول الموت المحب للزينة - وهو مخادع قادر - خلع أثواب الحرير والعقد والقرطين
والخلخال - وتكر في هيئة سمكة كبيرة حية تسبح في ماء بهر حلوة الماء ونادى
رب الدار عليه بلغة السمك « تعال » الرسول قابض الأرواح - وهو مخادع قادر
- خلع ثياب الحرير .

أبريل ١٩٨١

* تعتبر هذه القصة آخر ما كتب بهي الطاهر في حياته حيث توفي في ٩ من أبريل ١٩٨١ .

دکایات
الامیرکتی ینام

من الزرقة الداكنة حكاية

الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمة فمنحنى نعمة الخيال ..
والصلاة على النبى الذى أجار غزاة البر لما استجارت به من شر صاحبها
اللهم ..
والثناء والثناء عليك أميرى ..

(أقول)

إن الكونت الإيطالى شاذ الطبع ، دخل مدينة الشتاء بالصيف ، فما أن
حدقت فيه شمس صيف المدينة — هو الغريب — بعين كيبوة ورمته بألف رمش
من نور وألف رمش من نار — حتى سارع بخلع كل ثيابه وأبقى على البنطلون
القصر ولولا الملامة لخلعه ، ودس رأسه الأصلع تحت قبعة زرقاء ، وأشار يده
الممسكة بالقبليون — فهرول نحوه الجندى الأسكتلندى بمخوذته ذات الريش الأزرق
وثيابه الزرقاء الزاهية وسيفه المتدل من جنبه ومد يديه بزجاجتين من الويسكى ،
شرب الكونت المحب للشراب زجاجة وهو واقف وزجاجة وهو قاعد على درج
المطار ، وفك راحتيه فتحركت باتجاهه عربة زرقاء مقفلة نوافذها تغطيها الستائر
الزرقاء وهبط منها رجل ضخم حمل الكونت وأقعدته على الكرسي الخلفى ، واعتلى
الجندى الأسكتلندى حصانه وتقدم العربة شاهراً سيفه .

(أقول)

من شرفة الفندق المطل على النيل أطل الكونت الثمل ورأى النيل رجالاً بشباب الموج الناكثة الزرقة وقد تناثرت حوالهم النجوم الزرقاء — فهاجت روحه واشتاقت للفعل : رسم على الورق البيوت السبعة، وأحاطها بسور من حديد مذهب ينفذ في اللحم وجعل بوابة السور في حماية كلاب تنهش اللحم ، كل بيت من البيوت السبعة بمحديقة وحوض ماء به سمك ملون ونافورة ، وداخل السور كان اسطبل خيل ، البيت الأول من طابق واحد والثاني من طابقين — وهكذا تدرج (١ = ١ ، ٢ = ٢ ، ٣ = ٣ ، ٤ = ٤) ، ودهن البيوت بلون أزرق بقمم (من ١ الى ٧ أو من ٧ الى ١) ، ورفع الكونت منظاره واختار من الرجال ستة (البناء ماهر ، والحديد قوى ، والحدوى شاب ، وفالح الأرض فحل ، وصانع الآثاث يبدن مدرتين رائعتين ، والنقاش مرح) .

(أقول)

أخيراً تكلم الكونت بالإيطالية ، وهو راقد على بطنه فوق مرتبة من المطاط محشوة بهواء رطب من تحت شمسية يتدل منها ورق الزينة الأزرق : برافو .. لقد وثقت في وقد وهبتكم البيوت ... وها أنتم أمامي سادة بحل سوداء وأحذية تلمع تتمخطون في مناديل .. كل شيء هنا داخل السور صار لكم .. واليوم للخمر والمتعة الصافية .. ومن غد سأعلمكم لعبة الورق فخلال شهر سنستقبل هنا أضيافنا وهم من عليا القوم .. سيكون كل منكم قد أحسن الإسماء بالشوكة والسكين وعرف كيف ينزع اللحم من العظم .. سأبشر في نفوسكم المتباعدة روح الجماعة التي ترفض أن تُفَلَب — تلك التي تخطط للنصر الذي سيجعل منكم الأغنياء السادة بحق لهذا العالم الذي لا يحترم إلا السيد الغني .. لقد اكتسبت أنا تلك الروح بعد جهاد شاق وحياة دون كادت تحترق في زمرة الموقر عهناً جاثماً .

ورفع الكونت كوبه — فرفع الأسافل أكوابهم وقرعوها كأنهم السادة منذ زمان بعيد .

(أقول)

مر الشهر وتلاه شهر وشهر ، وماهم القوم يستقبلون أضيافهم من ثروة العالم — الطامعين في كسب مستحيل — يرفع القبعات ، يوطنون مع بعضهم بالطلليانية ويكلمون أبناء جلدتهم بمخلطة من كلام العرب وكلام الطليان ، يلعبون الورق بخفة الحياة ويمسنون الغمز واللمز الذى نهايته الظفر بمال خصوصهم ، ويشربون من جيد الخمر: البئر والنهر والبحر فلا تدور لهم أدمغة ، ويأكلون من اللحم المشوى والمقلى والمسلق: التلال والجبال والسهول والوديان — فلا يصيبهم مغص أو وجع .

(أقول)

بعد الثناء عليك أوبرى والصلاة على النبي — لله الحمد على هذه الخاتمة الحسنة :

فها هي ذى العربة قادمة من البعيد يستائر زرقاء مسدلة — وقد دامت بمجلاتها فوق بشر وشجر وحيوان وطير داجن وهدمت بيوت الخيل ووقفت أمام البوابة وهبط منها الرجال الأفهاء الصالحون لكل شيء . رفع الكونت قبعة الزرقاء بيد ، وأشار بيد ممسكة بالغليون للكلاب فكفت عن النباح ، وبأسى قال الكونت للرجال : كيف جاء الموعد هكذا سريعاً ، ولم يسمع جواباً ، فركب العربة . وركب بعده الرجال . وركضت الخيل . وتساعد الفهار ففطى كل شيء ..

حكاية صيف

بعد رحيل الكونت (ذلك الذى حكيت لك حكايته أميرى) ثار الغبار
الكثير فى أعقاب العربة فحجبها عن أعين البشر .

هنا — أقول أنا : إن ثمة صيفاً أقبل ، لا ككل صيف؛ فهنا الحر فى الجوف لا
يلطفه ماء ، ورطوبة الجو تخفق الأنفاس ، والشمس الكبيرة القريبة من الأرض لا
غاية لها إلا أن يشب الحريق بعائلنا فى الترو واللحظة .

(والله واحد يا أميرى والشمس بوجهين) .

قالت الأم : أبوك رحمة الله عليه كان طيباً ، يمشى فى حاله ، ويطلب من
الحوائط أن تداريه ، والكونت يا ولدى اشترى الأرض من جنك بماله .

ردّ البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر — وتلك شيمة الرجال ، لكن
بأى حق يرث القوين الأرض ، لا هو كونت ، ولا هو ابن كونت ، ولا من سلالة
كونت ، كذا لا أنا ولا أنت نعرف طليانى حتى نحكم إن كان كلامه طليانى أم
غير طليانى ؟ كما أن اسمه القوين !! طظ ، سأمنعه بعصاى هذه من زراعة
الأرض .

صرخت الأم ، فتجتمع الجيران ، ودار جدال ، لكن البكرى شق الجمع ويده
عصاه — والأرض مقصده — ومن خلفه سارت أمه تلطم ومعها جمع من النسوة
المولولات .

صرخ البكرى في القرين : انزل من فوق البغلة وكلمنى .
قال القرين لنفسه : هذا كلام قبيح .. وسرولى ابتل ، وهذه الرائحة الكريهة
التي أشمها بنتُ خوفى (وهمز القرين بغلته فركضت) .

(وآه ياأميرى الليل أيضاً برأسين ، والله فى ملكه لا شيك له) ..

قال القرين للحداد : اصنع لى حجرة جدرانها من الصاج المتين ، بسقف من
الصاج المتين ، ولها باب من الصاج المتين يفتح من الداخل بلسان متين ، واجعل
للباب عيناً مسحورة — أرى منها الطارق ولا يراى ، ولك منى يا أبا الحداد عشرة
جنهات ورقية،وعشرة جنهات ورقية،وعشرة جنهات ورقية .

وقال القرين للقتلة الثلاثة — ورسم لهم البيت والشجرة والمنحنى والتل
والترعة : أريد حياً ، مربوطاً بالحبال ، سأبصق على وجهه الكلب ابن الكلب —
أنا القرين ، وسأدفع لكم عشرة جنيها ورقية،وعشرة جنهات ورقية وعشرة جنهات
ورقية،وفوقها عشرة جنهات ورقية .

وقال القرين لنفسه — بعد أن قارقه القتلة : قلت لهم إنه كلب وابن كلب
ونسيت أن أقول لهم إنه ثعلب وابن ثعلب ، قد يضللهم ويخطئ فى التركة أو يلبد
فى حجر وينتظر الحين المناسب ليثب على هنا ، ربما فى ثياب خادى الذى يحمل
لى قلة الماء وصينية الطعام ...

حكاية عبد الحليم أفندى وما جرى له مع المرأة الخرقاء

أنا لم أشهد تلك الأيام لكنى حضرت ليلة أحيائها ثلاثة ، ثلاثة من أفضل الرواة — يا أميرى ، خطفهم الموت الظالم فى علم واحد ، عليهم رحمة الله ، لقد كانت خسارتنا فيهم كبيرة ...

• أكتع يندق على عود ، فيبكي وترز ويضحك وتر ..

• وأغرس يرسم الدنيا بالصرخة والإشارة : دنيا يبحر وشجر وطير وناس ...

• أما الأهم فكان ضارب دُفّ لا نظير له ..

بعدها أكلوا الأكلة الدسمة وشربوا وشمّوا ، صرخ الأغرس ، فلق الأكتع على عوده وضرب الأهم على دُفّه — ذلك الضرب السريع المسمى بالقادوس ، وقالوا : فى ليلة — كأنها الليلة ، ورب الكون شاهد على صدق ما نحكى نزل الإنجليز من القوارب ، ونصبوا الحنّام — هناك فى فضاء الأرض الرملية .. وظلّوا على حالم قرابة الشهر بينا النهر يفصل بينهم وبين بيوت ناس الشرق حتى جاء ذلك اليوم :

تفل ولد من أولاد ناس الشرق تقلة ، وراهن الولد أنلاده — قال : ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق إلى الغرب وعدت قبل أن تجف ثقلتي ؟

رد الأولاد : نسميك البطل .. ونحكى حكايتك لكل الناس قال الولد : لا .. قولوا عبد الحليم أفندى راح وعيد الحليم أفندى جاء .. لقبوني بالأفندى .. ونادوني يا أفندى ..

ضحك الأولاد وقالوا : أمرك يا أفندى .. تمام يا أفندينا .

خلع الولد خرقة ، ورمى في الماء بدنه ، وعارك الموجة حتى بلغ بر الغرب يبطن منقوخة — فكلّم نفسه : هنا فوق الرمل الناعم أقف وأبول وأفرغ القرية .

وسمع الانجليزى يناديه بلسان أعوج : لا تخف أنا كبير مطبخ الانجليز ، وناداه الانجليزى بلسان حلو ملوى : سبحان من صور بدنك ورسم وجهك ، وناداه الانجليزى بلسان أحمر : اسمح لى بلمس بدنك وتقبيل خديك .

خلاصة القول — يا أخوان ، أن الكلام الحلو الملون فرض الطربق إلى خيال الانجليز بالورد والحناء .

واسمعوا يا سامعين : قال الانجليزى لعبد الحليم : أدخل الحمام واستحم — وناوله صابونة معطرة . دخل الولد الحمام وحك جلده ، وطرد القملة والبرغوث ، ومخرج الولد من الحمام بينظلون أزرق وچاكت أبيض وبشيشب في القدم ، وقعد على كرمى .

وجاء ممرئين الانجليز وقص شعر رأس عبد الحليم ودهنه بدهان طيب الرائحة .

وكما ضحك الأولاد من عبد الحليم لما قال لهم : نادوني يا أفندى ، ضحكت الأقدار من الأولاد ، وها هو عبد الحليم أمام عيون الكبار والصغار أفندى بحق ، يلوح بيديه بينما رسول الانجليز يلوح بمنديل أبيض ، أما القارب فكان بموتور يهز : فو .. فو .

ذهب عبد الحليم أفندى للمنادى ، فنادى المنادى الأعشى في الدروب . ومن القارب كلم الإنجليزي رسول الإنجليز الناس بلسان أعرج وطلب منهم بناء سور من الحجر ، وأعطاهم رials الفضة ، واشترى من أم الأولاد البيضة والدجاجة ، كما باعت له البيت الأرنب والحمامة .

صلوا على طه النسي :

في نهلين أقام الرجال السور وشيدوا البيت اللطيف الذي سكنه كبير الإنجليز ، ونوا المطبخ والورشة والمخزن ، وأصلحوا الطرق ورصفوها — تتهبط فوقها طائرات بمراوح وطائرات بأجنحة .

وفي شهرين — وبفضل كبير مطبخ الإنجليز — تعلم عبد الحليم كيف يطبخ طيخ الإنجليز وكيف يصنع الفطيرة الحلوة والفطيرة المالحة ، وعرف رطانة الإنجليز فصار يوطن كالإنجليز .

وقال المعلم لتلميذه : إذا جاء الصيف البس له الحلة الفاتحة من قماش الشاركسكين .. وامسك بيدك منشة — ففى الصيف يكثر الذهب يا عبد الحليم .

وقال الخواجا لابن البلاد :

وفي الشتاء البس الحلة من قماش غامق .. والصوف الإنجليزي كما تعلم خير صوف يا حليم ..

ونمت نور الكهرباء تلاصق الجسد بالجسد ، وقال المحب : لو صاحبت كبار القوم سيحترمك صغار القوم ويقفون لك ويطلبون منك المون ... ساعدهم يانور العين، واحمل شكواهم لكبار القوم القادرين على حل المشاكل وإخراج الناس من الحبوس .. هكذا يكبر اسمك ويظهر صيتك .. وتصبح كما أردت أنا لك أن تصبح يا حليم .

وكا تدور السواقى دارت الأيام ، وسافر الإنجليزي معلم عبد الحليم مع بقية أهله الإنجليزي الى بلاد الإنجليز .. وجاء ضابط من بر مصر وسكنوا المطار وحكموه .

وفي اليوم الذي هطلت دموع الحزن من عيني عبد الحليم وهو يودع معلمه الانجليزي ، هطلت دموع الفرح من عيني عبد الحليم وهو يسمع الأثر من المصري كبير ضباط المطار : أنت من اليوم كبير مطبخ المطار .

وهكذا — يا أخوان — صار عبد الحليم كبير مطبخ مطار مصر ، يجلس على كرسي ، بينا الكل خلية نخل تعمل : يغسلون الأطباق وينشفونها بالمناشف .. ويملعون الحلل والشوكات والسكاكين بلبق الفيم .. وينزعون القشرة عن التمرة .. ويهزكون الأخضر ويصحنون اليايس ثم يطبخون وجبة الطعام ليأكل ضباط مصر .

على صوت المؤذن والدبك تصحو أم عبد الحليم من نوم حلو ، وتحمل إبريق الماء الأحمر بيد والطمست الأبيض بيد ، وتقول بصوت خفيض : يا عبد الحليم . يصحو عبد الحليم وينظر لساعته ويغسل وجهه دون أن يفارق سريه ، وبعدما يشرب فنجان قهوة بلبن وسكر — يدخن سيجارة من صنف انجليزي رسم على طرفها القط الأسود قاعداً على كرسي وفوق رأسه برنيطة ، وقد دخن عبد الحليم سيجارته يفارق سريه ، ويحلق ذقه أمام مرآة بلجيكية وليس حلة نظيفة مكوية ، ويشرب فنجان قهوة بسكر ، وينظر لساعته ويخرج ليمتج العيون برؤية بنات الصبيح حاملات الجرار ، ويركب القارب من بر الشرق إلى بر الغرب ، وهناك في المطبخ يجلس على كرسي وينظر إلى ساعته ، ويسألهم : هل سلقتم البيض ؟ ويسمع ردهم : سلقناه ، فيسأل : والزبدة والجبن والمربات ؟ ، ويأتيه ردهم : بالأطباق ، ويسألهم : وهل شطرتم الأرزعة ؟ فيجيبوا : شطرناها .. وينظر عبد الحليم أفندي . لساعته ويقول : الآن قدموا وجبة الفطور لضباط مصر وهاتوا لي ريفيلوري .

وهكذا يا سادة — كما يفطر ضباط مصر يفطر عبد الحليم أفندي : خبز مشطور مدون بزبدة وبيضه مسلوقه وبيضه مقليه .. وصحن مرى وقطعة جبن رومية ، ثم يشرب فنجان قهوة من غير سكر ، ويدخن سيجارة وينظر لساعته ويأمرهم : بعد ما تمسلوا الأطباق وكافة المواعين هاتوا من صنف الخضضر كلها ومن صنف اللحم كلها .. ومن صنف الفاكهة كيت وكيت .

وهكذا يا سادة يختار عبد الحليم أفندي نوع الطعام الذي سيأكله ضباط مصر في وجبة الغداء ، وينظر إلى ساعته ويقوم من كرسيه ويتبعه تابع ، وهناك في

البيت اللطيف — يقف وخلفه التابع أمام سيدة المكان زوجة كبير ضباط المطار
التي تقول :

أريد من صنف الخضار كذا ومن اللحم كذا ومن الفاكهة كيت وكيت ،
فيقول عبد الحليم أفندى لتابعه : اذهب إلى المطبخ الكبير .. وهات سلة بها من
صنف الخضار كذا ومن صنف اللحم كذا ومن صنف الفاكهة كيت وكيت ،
وقبل أن يعود التابع — يدخل عبد الحليم أفندى المطبخ الصغير ويفسل القلور
والصحن والشوكات والسكاكين والملاعق وينشفها بالمناشف ، ولما يعود التابع
يأمره عبد الحليم أفندى بفسل الخضار ونزع القشر عن الثمر ومسح قعر الحلال
بالسمن وبياض البيض ، وبعد ذلك يطبخ عبد الحليم أفندى ما ستأكله زوجة
كبير ضباط المطار مع ابنتها حسام الدين وزوجها كبير ضباط مصر ، ويعود إلى
المطبخ الكبير ليأكل من طعام لم يطبخه لنفسه .

زوجة كبير ضباط المطار هذه يا حضرات : كانت كثرة صفات مقيمة
حفلات لها من صاحبات العشرات وكلامها بسك وغيره . بفضلها عرف الأكابر
ونسوة الأكابر وأبناء الأكابر عبد الحليم الذى يتكلم كلام الانجليز ويطبخ طبخ
الانجليز ويصنع أحلى حلوى ، وبفضلها طار صيت عبد الحليم فبلغ المدن وعرفه
المأمور والحكمदार ومفتش الصحة ، كما عرفته زوجة المأمور والحكمदार وزوجة
مفتش الصحة ، وكذلك عرفه أبناء المأمور والحكمदार أما غييال مفتش الصحة
فلم يكن عنده أولاد حتى يعرفوا عبد الحليم أفندى .

لا غرابة ولا حسد يا أعوان ولكنها الحقيقة نحكيها كما جرت بغير زيادة وبغير
نقصان :

قام الشيخ المسن ولم يقعد إلا بعد أن قعد عبد الحليم . وقيلت أم الخطاف يد
عبد الحليم لأنه أخرج ابنتها من ظلام السجن ، وجاء الخطاف بنفسه أيضاً قبل
يد عبد الحليم وأعلن التوبة على يديه . والتناش أيضاً قبل يد عبد الحليم — وقال :
أنت الذى أنقذتني من ضرب الكرايج . وخطيب الجمعة قال عنه : عبد الحليم
أفندى — الذى يتكلم بلسانين — صورة للعبد الحامد الشاكر ، يكلم أمه —
التي ربه — بصوت خفيض ، ويشكر ربه الذى ساق إليه الانجليزى الذى علمه
الجرفة التى فتحت له أبواب بيوت أفاضل الناس ، وعبد الحليم أفندى يسر بيننا

وفي صدره أسرار البيوت العالية — فإذا كلمناه عن سبائكته القصر مثلاً .. كلمنا بالمدح فيها والثناء عليها .

مع هؤلاء — يا مستمع — عاش عبد الحليم أفندي عيشة العزيز المكرم ، وتلك كانت عاداته : بعد ما يتناول ضباط مصر في المطار طعام عشائهم ، يعود عبد الحليم بالقرب من الغرب إلى الشرق ويدخل بيته فيستحم ويبدل ثوبه ، ويسير ، مع النساء ، على قدميه تحيط به الأشجار ، وفي قهوة العنية يجلس مع خلائقه فيلعب مع واحد عشرة طاولة ويدخن شيشة ثم يلعب عشرة طاولة مع آخر ويشرب كأسين من كونيأك فرنسا ، ويحاطب صحبة الأفندية ضاحكاً : الشط هو الذي يفصل بين الإنجليزي والفرنسوى ، ثم ينظر لساعته ويقوم ، ويركب عربة يجرها حصان توصله حتى بيته .

على هذا المنوال مرت السنوات ، وعلى هذا المنوال سارت حياة عبد الحليم ، لم يغير عادة ولم يبدل مسلماً إلى أن جاء اليوم الذى أوقفته فيه امرأة — وكان في طريقه إلى قهوة العنية .

قالت المرأة : ولدى الغائب يا عبد الحليم أفندي .

رد عبد الحليم أفندي على الفور : يعود سالماً بإذن الله .

قالت المرأة : هذا مكتوب منه ، وقدمت ورقة لعبد الحليم أفندي ، وقالت : اقرأ كلامه لى أنا أمه يا عبد الحليم أفندي واسمعى حتى يرتاح بالى وتبدى ناز شوق .

وقع عبد الحليم أفندي فى حيص بيص وأحس أنه سمكة فى شبكة ، وقال فى يمينه : الخرقاء بنت الخرقاء تقول لى اقرأ أنا الذى لا أقرأ ، وتذكر معلمه الإنجليزي فعاتبه : لا أنا ولا أنت حسبنا حساب هذا اليوم .

طار الوقت فلعب الفأر فى عيب المرأة وولولت : لماذا أنت ساكت يا عبد الحليم ؟ .. تكلم يا عبد الحليم أفندي وتخبرنى .. هل جرى مكروه لولدى ؟ انطق يا عبد الحليم أفندي .

صرخ فيها عبد الحليم وهو الحليم : لا تصرخى فى وجهى أنا لا أقرأ الورق ،
ورمى الورقة على الأرض .

هنا جمعت المرأة الملهوفة بالصوت العالى : آه .. مت فى بلاد الناس البعيدة يا
ولدى .

أطبق عبد الحليم على فم المرأة وأسكتها ، وقال لها مستعظفاً : لا تصرخى حتى
لا يلتم حولى العاقل والباطل ، ورفع كفيه عن فمها ، وانحنى على الأرض ونالها
الورقة ، وقال لها : أنا لا أقرأ ولا أكتب يا أم .. أنا أفندى بثوى يا أم .. وها أنا
بألم أشقى ثوى أملك .

ولم يذهب عبد الحليم أفندى على قهوة العنبة فى هذا اليوم ، عاد إلى داره ،
وأغلق بابها ، ودس نفسه فى حضن أمه .

تلك هى حكاية عبد الحليم أفندى مع المرأة الخرقاء ، رويتها لك -
ياأميرى - كما سمعتها من الرواة الفلاحة ، أنا الذى لم أشهد زمانها ، والله على
صدق ماحكيت لك - ياأميرى - شهيد .

حكاية الريفية

صفية :

الغبراء يتيمة الأبوين تباع السلة التي تصنعها أم الأم من خوص النخيل ، لتأكل من كد يدها وعرق جبينها ، ونحيا ككل بنات الفقراء في قفص ، بانتظار زوج فقير يمسك بيدها ويقودها للعيش معه في قفص ، وتمر الأيام وتفقد الحلوة ابتسامة الفم وعافية البدن، ويبقى الأبناء والزوج المكسود والصفيف والبيد والحشرة الضارة وتراب الأرض وعفونة المشّ ورغيف الشعر باليد ، ولا فكاك لبنت الفقراء من ظلمة المصير المحتوم المسطور في لوح الغيب إلا بالفعل الزاعق ... ثم يأتي النور ويحكون عنها في الحكايات :

(ولما كثر الكلام وشاع عن جمال الفقيرة وبلغ مسامع الغنى في قصره ، تعلق بها قلبه قبل أن يراها ، وقال لرسله هاتوها ، فلما أحضروها ورأى الغنى شعر الخيل على رقبة الطير والوردة الحمراء بعين بقرة متوحشة ، قال : سبحانك ربي .. كأنها الطبيعة أم الكائنات ، وأرسل في طلب القاضي ، فجاء القاضي في الحال وكتب في كتابه : على شريعة الله وعلى سنة خير الأنام تزوج صاحب القصر وخزانة المال من ذات الضففتين أخت الشمس والقمر)

يوم الثلاثاء :

يلتقى أكابر القوم في البورصة ويلعبون لعبة « الإنسان والقدر » بالخيط ودمية الخشب :

• فيذبح الجزار البقرة

• ويرتفع سعر الطماطم من قرش إلى قرشين .

• وتفقد الأم ابنها في زحام اليوم العظيم ، فتسأل عنه المتسول الأعشى .

• وتصرخ أخت الأيتام : الغشاش سرقني في الميزان وباعني البطاطس معطوبة .

• ويعد الحصان الشريد فمه ويأكل من غلة مكومة فتنهال على بدنه عصا التاجر والمشتري والوسيط والكيال ، فيغادر المكان وهو يصهل : هيهات هيهات يا أراذل الناس .. من منكم يجسر فيعتل ظهرى ويجهري على جر عربة بعد موت صاحبي .

• وللخارجين من السوق يغني المجنون من فوق حائط متهدم :

« ولع الوابور ياجودة ... القطننة أكلتها اللودة »

« والبنات عايزة تتجوز ... والصبيان نفسها مسدودة »

فيضحك صاحب العقل من خرقه ، ويضحك رب العلم من ركافة شعوه ، ويرمي صبي بحجر ، وتلدس بائعة الأساور الزجاجية حفنة بلح في حجرو وتطلب من الله أن يلطف بحالها وحال زوجها المريض وحال المجنون .

يوم الثلاثاء :

باغتت صفة ابن الأكابر ولطمته على خده لطمه أوجعته فطار الشر من عينيه وصرخ في صبحه : اضربوها ، لكنهم وجدوا الأنثى الضعيفة عاطلة بعشرات الأنفس لحمايتها من غضبة الذكر المفتري .

قال المضروب : والله بلا سبب .

ردت صفية : كاذب .
وقالت بائمة اللبن الحامض : قرصها بفخذها .

وردت القرية منها : لا يا أم حفصة ... وماها بالكلام اللين فومته بالخيشن
المؤلم .

ودق العجوز الحدود بحافر الحمار وتكلم في عبه : من جلور الحداد اكنوى
بناره ... ومن خرج من ذاره قلّ مقلاره .

بعد وقوع الواقعة :

تراحم شباب الفقراء — على باب صفية — المغلق — يخطبون ودها ويباركون
عفتها وينادونها لتعيش في حماية سواعدهم كربة النفس ، فسألتهم : ومن يطعم
الجلدة العجوز ؟ .. وتلمست من وعدهم وخاطبتهم بلسان يحفظ قول السابقين
لكل ثمرة أوان قطفء ولكل زرع وقت حصاد .

ونهرت صفية مالك القروطين المتزوج من امرأتين ونعتته بالفراغ . وقالت
صفية للعجوز الميسور الحال : لكل حبة مكيال يا جدى .. ولما تقدم لخطبتها
ابن الأكابر — الذى لطمته فى السوق بلا سبب — رفضته : وهى موقنة من أنه
ما جاء إلا لينتقم .. يهد أن يدس لها الفخ تحت ورقة سيكتبها شيخ ويشهد على
ما فيها شهود .. ثم يكون الهوان الذى ما بعده هوان .

النعيم :

تزوجت صفية من غريب عن القرية : لعب فى تجارة الحبوب والأقطان لعبة
حققت له حظ التجار وصيت التجار ومكانة التجار المرموقة — فملك البيت
المرتفع السقف الذى يقوم على أعمدة بيضاء من الحجر ، وعاشت صفية — كما
تروى الحكاية :

(فراشها لثين من ريش النعام ، وحلوها الفاخرة طازجة ومطبوخة ، وطعامها
لحمة فى صينية أو حمامة مشوية ، بدلاها الثوب الملون والثوب المنقوش والثوب
الخمر ، وصندوق زينتها مقفل على المكحلة والسوار والحجر الكريم . تحت قدميه

عبدل سؤءاء وعن يمينا جليلة بيضاء تروح بمروحة ، لو صرحت حضر الطيب ولو
زعت هرول خءم ، وإن طاف بمخاها خاطر سبب الضيق نظرت من شرفة ذات
خروم ترى الماء الجارى والنبات المتحرك وقبة السماء خضراء) .

الحالفة :

كان من عادة صفية — فى الليلة التى يكتمل فيها القمر — أن تركب العربلة
الذى يجرها حصانان أبيضان يسوطهما حوذى يجيبه المسدس القاتك بالأرواح ،
وتنظر من وراء ستائر اللاتيل المخفرة إلى ابن العامة وهو يفر خوفاً من
العجلات وأرجل الخيل والسوط كما تفر أشجار النخيل وأشجار غطال النى وكلاب
الطريق — فتضحك صفية من القلب ، وكلما راح بصر صفية إلى القاعدين
والناقمين أمام النور المبنية من الصفيح والميدان والطين والقش — انكمش
القلب .

(أنت يا صفية بنت هؤلاء — رغم النعم الذى تتقلين فيه ، لقد هربت —
وللى الأهد من مصيهم المغم .. إلا أنك — وللى الأهد — مروهة بسلاسل من
حليء إلى أهدان أهلك الفقراء التى نخرها دود القبور منذ زمان بعيد ، الحق حق يا
صفية — فتكلمى بالحق :

ذاكرة الفقراء تعرف النسيان ... أما ذاكرة الأغنياء فلا تعرف النسيان قط ...
لم يحضر الأغنياء يوم عرسك .. وفى العيدن لم تزرك غنية واحدة .. وفى أيام
المرض التى مرت بزواجك — لم يسأل عن صحته غنى واحد ، زوجك مثلك يا
صفية من صلب فقراء — ضحكك له الدنيا كما ضحكك ذات يوم من
الأيام) .

الهاوية :

السائرون فى طريق الانتقام أحكموا غلق المصيدة على الزوجين : فباتا لا
يلتقيان تحت نور ... وعلقا الأمل على الأيام حتى تزول النعمة .. إلا أن الأيام
جعلت واحدهما يقع بنقيصة الآخر ويسخط على نقيصته هو — ومن هنا نبت
الشعور بالشفقة على الآخر المصحوب برعدة الخوف من الآخر ، وهكذا استعصى
الحب الذى يوحد الأجساد ويشمر البين .

السلام :

جاء يوم ورأى ملاك الموت — وهو يطوف — شجرة الحياة تحمل فرعين
يايسن متباعدين ... فقصفهما .. وطوحهما لريح الخريف الأبدية .

حكاية أم دليلة .. طاهية الموت

بعينى هاتين— وأنا أعرف أنهما طعام الدود الملعون فى يوم معلوم— رأيت البنت يا أمى تركع على ركبتيها وتبلل بالدموع قدم والدها — وتقول : زوجنى يا أبى من الغنى ولا تجعلنى كشجرة جف عودها ومال فرعها لما غاب عنها الماء .

وبأذى هاتين — سمعت الأب الأمين يحاول رد ابنته عن مرادها بالكلمة اللينة وبحكمة الأقدمين — قال : يا ابنتى .. المال يصلح حال بيتى أنا الفقير .. لكن الرجل عجوز .. وأنت بستان بشمر .. وهنا يخرى الفير باغتلاء حيطانك .

ناحت البنت — ودموعها على الخدين دجلة والفرات : لا تخف يا أبى .. قلبى البارود هو الذى أحب ذهبه البارود .

ومالت الأم إلى صف ابنتها وناصرتها ووسوست فى أذنها : البنت سر أمها .. ولنا كلام .

هنا قلت أنا لنفسى : وقع المخطور يا ولد .. وما هو الزمان يكرر على مسمع الدنيا — حكاية أم دليلة طاهية الموت .

وها أنا أسوق إليك الحكاية القديمة يا أميرى ، من بدايتها إلى متنها بتفصيل
محكم :

قالت أم دليلة لزوجها — وعصرت على القول ليونة : لا تجزع من قولهم
(الرجل الفقير باع ابنه للعجوز الغنى) واسمع قولى (قل للعجوز الغنى الراغب
فى مصاهرتك والزواج من ابنتك .. سأخذ مهر ابنتى ثقلها من نقى الذهب ..
ولن تدخل بنتى قصرِكَ العللى إلا بعد مرور شهر) (وحين يصرخ الغنى : هاتوا
الميزان) (سنمسك نحن بطرف الخيط ونشد عامة الفقراء إلى بيتنا ليمدحنا لسانهم
ويوقعنا إلى مراتب الأغنياء) .. لو سألتنى (كيف يكون ذلك ؟) سأرد عليك
بالآتى (سندبح كل يوم وحتى يمر شهر بهيمة ليأكل الفقير والمسكين وابن
السيبل .. سيكون شهرنا بثلاثين يوماً تتدحرج .. حين ذلك ستطلع عيون فقراء
المسلمين إلى شمس يومنا كما لو كانت هلال العيد .. هكلنا بحسبون اليوم عاماً ..
وثلاثون عاماً من اللحم يا زوجى ستردم الحفرة التى حفرتها أعوام الشدة بدماغ
الفقير) .. وهنا كلام الفقير لصاحبه الفقير — بينما اصبعه يشير إلينا : (ها هم
الأغنياء منذ زمن بعيد يصاهرون ابن طبقتهم الغنى) .

وقالت أم دليلة لدليلة الراقدة فى حضنها : لن أخاطبك كما خاطبت الأم البلهاء
ابتها — وقالت (اغرفى من ماله وارمى فى حجر أمك) ولكنى سأعلمك فى
شهر واحد أنا المجربة طبعته الموت .

أ - وضع القدر على الكانون :

نحت الحميلة — همست دليلة فى أذن بعلها العجوز : أحس برفسة الجنين فى
بطنى .

قطف العجوز الغنى من كل خد برقوقة وزعق فى خدمه : إلى بالحكيم
القاهم .

ولما جاء الحكيم القاهم دخل حجرة نوم دليلة وبعد ما رد الباب عاين جسد
دليلة وفتح الباب وقال للعجوز : مبروك — ادخل ورش ماء الورد على وجه أمى
وارث مالك واسمك .

حط المعجوز كفه على قلبه وأُذِّن : انجذبت إليها الحكيم الفاهم فقلبي لا يحتمل
الفرح .

ب - القدر فوق نار هادئة :

دست دليلة قشر البيض تحت فراشها ، ورقدت وتقلبت وجعرت : آه يا
ضلوعى . جاء المعجوز بجري كصبي ، ووقف أمام سرير دليلة وهو يلهث ،
وشوح يديه في وجه خدمه وقال : هاتوا الحكيم المعالج ، وراح يلف ويدور حول
سرير دليلة ، يفرك قلبه تارة ويفرك راحتيه تارة أخرى — حتى جاء الحكيم المعالج .
رد الحكيم المعالج الباب وعانين جسد دليلة وفتح الباب وهو يضرب الكف
بالكف — وقال للزوج المعجوز : تلك حالة محوقة ونادرة .. أما الجنين فبخير
وهذا من فضل الله ، وفتش الحكيم المعالج في جسد الغنى وقال : كن على
حذر .. فنسيانك إسنك يفتك بقلبك لا تفعل كما يفعل الشباب .

ج - نمت القدر نار حامية :

كسرت دليلة مرآة قصرها الشتوى وصرخت : الجرح في رقبتي ، ركضت
الوصيفة — وهى عين لسيدتها ، وقالت سلم عقل سيدنى يا سيدى . وضع
المعجوز راحته على قلبه ليحميه من الوقوع ، وهرب حتى بلغ غرفة الزينة وخطب
دليلة : سبحان الله في طبعك يادليلة .. أنا انا لا أرى الجرح .. لكنى أرى رقبتيك
كبرج لبنان المطل على دمشق. بكى دليلة وظلت تلطم خديها وصرخت : ها هو
زوجى يتهمنى بالعمى وها هو يلاطفنى بكلام جميل لأنه يظن أننى بلهاء ولم
تسكت إلا بعد ما أحضروا الحكيم العارف الذى طلع برج لبنان ورأى دمشق ولما
نزل خرج من غرفة نوم دليلة وهمس فى أذن المعجوز الغنى : وربك بخير ..
وسيلة بيتك مريضة بالوهم .. لاطفها .. وأحطها بالمغنيات والمأشقة والمذكرات
والمضحك الخصى وضاربات الدفوف .. وعامل قلبك المعجوز برفق .. لا تحزن ولا
تفرح .

د - بعدما ينضج الطبخ - ترفع القدر :

فى القصر الصيفى — سألت دليلة زوجها الغنى المعجوز : متى يتسم لى
الزمان وأراك وقد نفضت المرض عن بدنك آه .. متى يقبل هذا اليوم ؟ .. وقت
ذاك نجلس أنا وأنت متجاورين على كرسيين ونطل من شرفة قصرنا العالى .. ونمتع

العيون برؤية الماء والخضرة ووجوه ناس هذا الزمان ، وصرخت دليلة في الخدم : إلينا بكربين .. أنا وزوجى هنك بشرفة قصرنا العالى .. إلينا بسلال الفاكهة وجوزة الهند .. وهاتوا لنا أطباق الجوز والفستق واللوز المقشور ، وحطبت دليلة يد زوجها العليل فوق كتفها وزحفت به إلى الشرفة ، وهمست في أذنه : فعلت ما فعلت خشية أن تموت ولا يتحقق حلمى ، وبالشرفة زقت دليلة بأطراف أصابعها حبة عين جمل في حلقوم بعلمها الغنى المعجوز ، وسألته — وأشارت بيدها : تلك البنت الماشية تدب وتثنى — هل تعرفها ؟.. نظر المعجوز إلى أسفل ورأى : الماء والشجر والزرع والزرع والحصاد والحاصل .. والأجران وحامل المنراة .. لكنه لم يعثر على بنت ماشية أو واقفة — فقال لنفسه : من الأسلم لى أن أجارها حتى لا تهمنى بأنى أهمها بالمعى ، وقال لدليلة : ها .. تقصدين تلك البنت الحافية .. أعرفها .. إنها بنت نافخ الكور . فسألته : مالى أراها معلقة البصر بشرفة قصرنا وكأنها تقول لى : قومى لأجلس مكانك . قال الغنى المعجوز هنا حال الفقراء يا دليلة .. يتطلعون بهمونهم إلى فوق — فرؤية الأغنياء تبهجهم وتحلب لقلوبهم المسرة .. كثرت دليلة : البنت تنظر إليك أنت لأنك تعرفها وهما هى تشير بيدها نحوك .. وأنا ألمح بعينك الرغبة . أسند المعجوز رأسه على صدر دليلة وسقطت عمامته فلم يلتقطها وقال : آه يا دليلة .. هذه البنت غيلة .. وكذا كل بنات العالم .. أما أنت يا دليلة قمر فى السماء . مالت دليلة وقبلت رأسه الأضلع ، وتمتمت : أنا أحبك وأغبر عليك يا مالك قلبى ، أحلفك بالله وبرسوله الكريم — لا تطلقنى من أجل تلك الجربوعة .. لا تطلقنى يا سيد بنى .. فأنا من حبك لا أنام الليل .

كبح المعجوز — وقال : وأنا يا دليلة لا أنام الليل ، ولا أنام النهار ... وهنا ما فعله لى . حبك .

هـ — رش الملح والحوابل :

كحلت دليلة الرموش ورشت المعطر على الثوب المنقوش وربطت العنق النافر بمنديل ملون وأسكت بيدها وودة وطلعت على زوجها الرائد فوق سرير المرض بوجه مضحك وجسد يرقص وقالت : والآن قل قولك يا رجل ، ومالت فقطف المعجوز من الفصن الدانى قبلة ، وقال : أنا فى النعيم وأنت حورية .. وأنا فى الجحيم وأنت جنية ... أخ . كل مرادى ضجعة فوق صدرك .. ثم أغمض العين . فتحت دليلة ذراعها — وقالت : تعالى يا رجل .. هنا — يا والد ابنى مستترج .. تعالى ..

حكاية الصعيدي

الذي هذه التعب فنام تحت حائط الجامع القديم

صحا على صرخة، ووجد لها فوق رأسه تيكى ، تلبس الأسود وتحمل بين يديها طفلاً ميتاً . قالت . يا فلان يا ابن فلانة هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجد غير هذا المكان تراحمنا فيه أنا وأولادى .. لقد قتلت ابني يا قليل النظر .. وحتى ينفث حزنى على ولدى عليك أن تغارق بيومها قبل أن يدركك صبح .

لج الصعيدي فى الكلام وعجن — قال : أتيت إلى المكان ولم يكن بالمكان
غيرى .

فصرخت فيه : لو لم أكن جنية مؤمنة ، بنت جنية مؤمنة ، بنت جنى مؤمن ،
لركبت كسفك عامين قمرين كما تركب الدواب يا دابة .

ضرب الصعيدي ضربتين، ولم ذبل ثوبه وأطبق عليه بأسنانه وانطلق يسابق الريح وهو لا يصدق أنه أقلت من شر جنية تسكن الخفاء ولا يراها ابن آدم إلا حين تهبط هي لابن آدم أن يراها .. بعد وقت صدق أنه نجاء وسأل نفسه : كيف أبهرح أم القرى التى تلمّ عظام جدودى ؟ .. سأذهب إلى حامل البخارى، حافظ كتاب الله المهاب من الجن وأشتكى الجنية .

وقال :

وجدته قاعداً تحت العتبة وأمامه الحطب مشتعل ، جعلت المسافة بينى وبينه قصبة ونصف قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه نصف قصبة ورددت السلام فلم يرد — بينما النار التى أشعلها لا تزال مشتعلة ، قلت — وقد فهمت : انتهى كل شيء إذن .. جاء الطواف قبل وقضى الأمر ، وحفنت من تراب الأرض بالكفين وكشحته على النار فخمدت ، وقعلت أبكى .

(كانت اليد الكبيرة يا أميرى قد رسمت له الطريق — خططين حديدتين نحيرى فوقهما القطارات .. وأعمدة خشب تشد أسلاك التلغراف) .

لما وجد الصعيدي الطريق مرسومة أمامه مشى فيها ، ظل يمشى وبلاذ الله تترى حتى بلغ أم المدينه فدخلها حافياً متوهم القلمين في اليوم الخامس من ذى الحجة وكان العلم عام الذئب والدية ، وفى بحر من الحديد والنار رأى الإنسان يحجل ويطلب الصدقة ورآه على البسكليت ورآه يلب ورآه بالأتوبيس وبالتروولى وبالترامى ورآه يطر ورآه يسوق العربى ، وقف يتفرج ويتعجب ونسى زمانه حتى جاء الرجل وسأله عن شخصيته . قال : فلان ابن فلان . قال الرجل : أنا أسأل عن بطاقتك ؟ . قال : معى بطاقة . قال الرجل : هات ، وأخذ الرجل البطاقة — وقال : أنت المرسوم أمامى ... يبقى الكلام المكتوب وتلك معضلة فأنا لا أقرأ . قال الصعيدي لنفسه : مادام لا يقرأ .. ومادام الكلام المكتوب كله عنى أنا .. وأنا الذى قلت هذا الكلام لكاتب البطاقات فكتب كاتب البطاقات بطاقتى ... إذن تلك فرصتى للتباهى ، وقال للرجل : أنا أقرأ ، ومضى ينظر فى البطاقة ويتذكر كل ما قاله لكاتب البطاقة ويقول للرجل . باغته الرجل ولطمه على فمه ليسكت فسكت ، وظل الرجل يضربه بالكف على القفا وهو ساكت ، ولم يكف الرجل عن ضربه حتى وقع الصعيدي فى أول يوم له بأى المدين على الأرض مغشياً غليه ، أفاق فوجد حواليه ناساً يجهلهم ويجهل قدر البشر وقدر الخير . فى نفوسهم (البشر مطوى داخل كل نفس ولا يعلم دواخل النفوس يا أميرى الا الله) كان عليه أن يتكلم معهم ليعرف مقاصدهم فتكلم ، وكان عليهم أن يردوا على كلامه فردوا ، وفهم الصعيدي أن الناس حوله (متفرج ومشفق ومصلح وناصح) ...

قالوا : لا عليك .. الرجل شرطه ، وقالوا : أنت هنا ولست هناك ، ونصحوه أن يغير محل إقامته وقالوا : بسيطة .. شجّ حاجبك الأيسر ، وقالوا مادمت من صعيد مصر فقل لنا إلى أى طائفة من الصعاينة تريد أن تذهب ؟ وعددوا له قومه : (باعة خضار وبوابون وعمال بناء وباعة جوالون) . قال لهم : لا مال معى أشتري به الشيء لأبيعه ، وقال لا أملك غير بدلى ..

قالوا : اذهب إلى عمال البناء ، ووصفوا له الطريق . ذهب إلى عمال البناء وكان النهار قد انقضى فوجدهم قد أشعلوا النار وتحلقوها . رد السلام وقال : أنا ابن فلان . قالوا : أهلاً أنت ربنا . وحكى حكايته . قالوا له : ما حدث لك يا فلان حدث لعبد الحليم أفندى . تحمس جرحه وأنّ ، قال : ليت أمى ما تزوجت أبى — وكان قاعداً فرقد . أقاموه ، وسقوه العدى الساخن ودعكوا قدميه بالماء الساخن والملح ، ولاموه ، لأنه أتى بمفرده ، وقالوا له : الأرض مرسومة يا فلان .. ونحن لا نمشى هنا فرادى وإذا مشينا فنحن قوم نعرف الحد ولا نتجاوز الحدود ، واعتصروا عن ضيق ذات اليد ، وقالوا : اليوم يوافق قبل نهاية الأسبوع بيوم،وها نحن لا نملك المال لنشتري البن لجرحك ، وقام واحد منهم ودفس الرماد فى جرحه ، ووعدهو بشراء البن لما يقبضوا راتب الأسبوع . وقالوا له : لما ينتهى نهار الغد ينتهى الأسبوع .

ولما انتهى الأسبوع اشترى الصعاينة البن ودفسوه فى جرح الصعبدى ، واشتروا « منديل عىلاوى » وريطوا به الجرح . وتناثرت الأسابيع وجاء الشهر وشفى الصعبدى من جرحه وأورام قدميه وطابت له الحياة مع أهله الصعاينة — إلا أنه فى الليالى المقمرة كان يتجنبهم وينام مبكراً قبل أن تطلع القمرة . وظل يتنقل معهم من مكان لمكان،ويبنى معهم العمارات من الطوب والحديد والرمال والأسممت ويبنى مزاويل حمره ومرمعات زرقاء واللؤلؤالى الأخضر، لكنه لم يسمع صوت سواقى أم القرى .

ومن زملاء العمل اختار له معارف من أبناء المدن الحرفيين سكان الحارات (الحدادون ... التجارون .. عمال وصف البلاط .. النقاشون) يزورهم فى بيوتهم،ويشرب معهم ومع نسوتهم الشاى ويأكل مع أطفالهم البطاطا .

دعوه مرة إلى حفل ختان أحياه مطرب بأرغول وراقصة لحمها أبيض تدق
 البصاجات فيقوم ناس ويقعد ناس . قلم مع القائمين وقعد مع القاعدين — وكان
 قد شرب الحشيش مع من شربوا الحشيش ، وتذكر أم القرى البعيدة فترحم على
 روح جلوده وهاجت شجونه وتقدم من المكرفون وأمسك بشلن ورق وأمر المطرب
 بالفناء لأم القرى ، وتكلم في المكرفون فلعلع صوته : السلام على الصعايدة الرجال
 بينون العمارات ويعمرون أم المدن . قام واحد من الحرفيين أهل الحى ودفع للمغنى
 والراقصة ربع جنيه وتكلم في المكرفون وقال : السلام على أرباب الحرفة الرجال من
 أبناء أم المدن فهم الذين يعمرون أم المدن . وعلى كلام الحرقى قعدت الراقصة
 تعجن لحمها الأبيض وغنى المغنى أغنية .

وكادت تشب مشادة بين الحرقى والصعيدى، لولا الصعيدى العاقل الذى قام
 ودفع للراقصة والمغنى نصف جنيه وقال في المكرفون : السلام على الجميع ..
 السلام على كل الحاضرين من صعايدة وأهل حرفة .. السلام على الرجال بينون
 العمارات ويعمرون أم المدن . وقلم حرقى خفيف الدم وحيا الصعيدى العاقل ودفع
 نصف جنيه للراقصة والمغنى ، وقال في المكرفون : الصعايدة ونحن نبني العمارات
 ونعمر أم المدن ولا نسكن في العمارات .. السلام على سكان العمارات .

فضحك الكل ، وهكذا انتهت الليلة بخير .. ومن تلك الليلة وصاحبنا
 الصعيدى يكلم نفسه : نحن الصعايدة نبني العمارات .. ونحن وأهل الحرفة لا
 نسكن العمارات لكننا نحن الصعايدة نترك الصعيدى منا — وهو أكبرنا سنا —
 على باب كل عمارة نبنها ، وسأله نفسه : متى يأتى دورى لاستريح وأقعد على
 دكة ..

ظل صاحبنا يضرب في المقيل بعد ما طرح ونسى الحاضر ، قال : الطيب
 محمد وقع من فوق إلى تحت فقصف رقبته وفقد دوره .. وعمود الساكت فقد
 دوره — لما قبض عزرائيل روحه وهو نائم .. كنا عبد البارى حين أراد أن يتمخط
 وهو قاعد بيننا فتمخط روحه .. يأتى دورى لأصير يواباً قبل عبد الحارس وعبد
 المنك .. بعد حجاج وعمود الظنى وعبد الحاكم ..

وفي نهار مشمس، وكان يطلع الدعامات الخشبية المربوطة بالحبال وعلى كتفيه حمولة الرمل والأسمنت — طرح صاحبنا وضرب ونسى الحاضر ، قال : لما تنتهى من بناء هذه العمارة سيقعد على بابها عبد الحاكم وثمانى لبنى العمارة التى سأقعد على بابها أنا فوق دكة من خشب .

في هذا النهار - ياأميرى - ضيَّع الصميدى عمره كما ضيَّعت بائعة اللبن الحمقاء اللبن .

حكاية برأس وذيل

يا أميري :

مر شتاء ، وهذا شتاء ، وكل الوصفات لم تفلح في القضاء على وجع الروماتزم ، وأم شعلان حرم جاد المولى شعلان تولول ، والصاحب المحرب ينصح جاد المولى أن تأكل أم شعلان لحم قطعة سوداء ، قطعة سوداء وبالييت قطعة بيضاء !! قطعة بيضاء ، لا قطعة سوداء — يا جاد المولى ، فلماذا قطعة سوداء ؟ .

(هو السر — يا أميري — أحاط به كالسوار بالمعصم ، كالعسكر بسوق الخميس ما دام البيع والشراء لا يتم بغير الكلام ، هو السر وهو عاجز بعقله حتى آخر العمر وكنا الكل عاجز — إلى أن يأمر الله الحريق في ذلك اليوم لتحترق الدنيا التي لا تزال تخالف) .

اشترى العبد العاجز — جاد المولى — فص أفيون من فكري الكور ودفع له من جهد بدنه ربع ريال ، والشابة (حلوة رغم الصفرة والقشف وتسوس الأسنان) صنعت له فنجان القهوة — كما أمر — سادة ، فشربه ومص فص

الأفيون وأطبق على حمامة راقنة على بيضها ونزع ريشها ريشة ريشة وقام وعاشر أم
شعلان — وتلك عادته لما ينتوى التدبير والتفكير :

(هي شابة — رغم قسوة الأيام ، حلوة — رغم ندرة الصابون ، وحرام يارب
أن تصير كسيحة ، وحرام والله أن يطلقها — لا قدر الله — فهي مطيعة أنحيت
وكلفته فوق العشرة جنبيات مهراً دفعها وعليه خمسة جنبيات يدفعها لو طلق —
لطف الله — فالطلاق بغيض والحياة مع كسيحة بغيضة ، والزواج من ثانية
بطلاق الأولى = خمسة عشر جنبياً × زمن نحن فيه + ما يحكم به القاضى ومن
جاوروه — لا أرانا الله أياهم ، والزواج من ثانية بغير طلاق الأولى = عشرة جنبيات
في زمن نحن فيه !!) .

عبط جاد المولى جيبته ثلاث خيطات موجبة فقامت أم شعلان وصنعت له
فنجان قهوة آخر شره وضاحكها فرقدت فعاشرها وضحك فضحكت فظل
يضاحكها حتى نامت .

(الأفيون — يا أميرى : رعاك الله — يشعل النار في الرأس ويصنع الروح
الحق والوهج الخادع لتلوح الطويق البعيدة قريبة : وجاد المولى شعلان الآن (الذى
لا نراه) بليل أسود يمسك بمجذع لشجرة سنط سوداء يهزه لتساقط الثمار السوداء
المرّة فيجمعها بعد ضنى من أرض سوداء متشققة ويهرول في طرقات سوداء حتى
يبلغ داره (فنراه تحت لمبة جازمهى الشيطان بعينه بالسنة من نار ودخان يطوح
بسكاكين مثلومة من ظل ومساكين من نور) وها هو جاد المولى يرى أم ابنه
تحضن شعلان ابنه النائم دوماً ويرى القطة صاحبة بيضاء ويرى الثمر المر بكفيه
أسود فوميه في حلة ماء ويوقد النار بالحطب والكهيت ويرقب الماء الذى سيصير
لماً يغلى أسود والقطة بيضاء حتى يلونها الماء الأسود ولا فرق بين لحم قطة سوداء
وقطة بيضاء — لكنه ما قر في النفس من زمان بعيد صنع للجلود كل هذه
القبور : وبذلك خيرنا الغراب الأسود) .

هو الأفيون — يا أميرى ، كذا هي فترة ابن آدم صاحب الخط القليل
من علم العلام الرحمن على العرش استوى :

قال جاد المولى : ها هو غر السنط المر في الماء .. والماء غلى وصار أسود ...

أدلى الماء مغلياً على القطعة البيضاء فتلوخ وتصير سوداء .. ثم أهرأ أم شعلان فتصحو من نوم وترى القطعة سوداء فيدخلها اليقين .. وبالقضيب وهو من حديد أضرب القطعة وأضرب حتى تصير ضعيفة فأذبحها — كما أمر الله .

ذلك — سيدى الأمير — ما فعله ابن آدم الملقب بجاد المولى شعلان ، كان قد دبر وعرف ما يريد ، فلما فعل فى القطعة فعلته فهمت الأعجمية الحيوان ويا للعجب ما يريد ، ربما — سيدى الأمير ، عافاك الله — لأن الماء كان مغلياً ، محشته القطعة فى ركبته وعضته بعد أن ولولت كما تولول بنت حواء ، فصحت أم شعلان وصحا شعلان من نوم طال : على ولولة أنثى وصرخة ذكر ، وخجل جاد المولى من خوفه وأربعة عيون تراه يواجه قطعة تكويرت — فواجه القطعة وضرب ضربة الخائف فخابت وضرب ضربة الذكر فأصاب وضرب ضربة الأب وأصاب وضرب ضربة الكاره وأصاب فضرب وضرب كأنما صراخها ، بينما القطعة الدم اللحم، تخمش وتصرخ تخمش وتصرخ ، آه يا مولاي حتى ماتت ...

وتلك — أميرى — نهاية حكاية الأعرج والكسيحة .

حكاية بزخارف

كان أبوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفور ويبيعه — تلك أميري أول ضربة على
قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق أبوه أمه وكان اسمها أسماء بعد أن أنجب منها سبعة مائتا الواحد بعد
الواحد — وبقي عباس ليرى أمه المعجوز ممزقة الثوب حافية تجنح وسنخ البهائم
وتبيع للكل وقود الأفران حتى للكاره ما دامت تبيع وما دام يدفع .

.. وتزوج أبوه من بنت بالعة كرشة اسمها صالحه فكانت شديدة القسوة عليه
لأنه مولع بالحرب وقرعة البعب — بيتا البيت حجة ضيقة وصيلة ضيقة .

ومن بالعة الكرشة — التي اسمها صالحه — أنجب أبوه البنت وسماها غالية ،
وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة اللسان ، كلامها أثواب من حرير
هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خباعة تلدغ : لقد رضعته
غالية من ثدي أمها اللبن الأسود ، أما عباس — يا أميري — فكان عليه أن يتأديها:
يا أختي وأن ينادى أمها: يا أمي .

يا لها من حياة دون ، يا تلك الأيام من أيام ، كل يوم بيلة طويلة ونهار

طويل ، وجلد عباس جلد آدمى ، وجلد الآدمى لم يكن فى يوم من الأيام جلد جاموسة بليدة ، كما أن الآدمى لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت أعلم الناس يا أميرى أن لكل ليل أسود نهاره الأبيض ولكل النهارات السود ليالها البيض — كنا الصغار أبناء الفقراء يكرهون فيحطمون الزجاجات ويخرجون للدنيا فى الشوارع بملابس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : عطاؤون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتلة لا يقتلهم إلا المشق .. غايهم القوضى واقتلاى المدن الآمنة — لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة .

إلى هؤلاء — اميرى — كان لابد أن ينتمى عباس لما قال لنفسه (الشارع أفضل من البيت ألف مرة) إلا أن عباس اختار — بتوفيق من الله — ثوب الثعلب الذى يموت حين تهد منه أن يموت — بهذا : نال رضا حلوانى فعلم صبي حلوانى ، ولما انتهى أجل الحلوانى مات الحلوانى فيكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقاً للحلوانى ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون إلى صبي جرسون وعرف العاطل والباطل وصيبة الورش والخير وشارب الكحول وباعة الصحف والصاحب الذى يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذى لو غضب لحطم الكراسى وقلب الطاولات .

من هنا — سبى الأمر — من مقهى بباين كل باب يطل على حارة صابر لعباس ثلاثة أبواب : ثوب ثعلب مأكروثوب قد وثوب قط له سبعة أرواح ، يخلع هذا الثوب ليليس هذا الثوب أو ذلك حتى جاء يوم ووقفت — هناك بالشارع — عربة بمحجم مركب وعلى شاكلة أوزة ، وهبط منها رجل بملبس حسن ينظر كأنه يمشى فوق ماء ودخل حارة أفضت به إلى حارة إلى أن بلغ المقهى وقد أدركه تعب فجلس وطلب كوب ينسون رغبة منه فى ملاطفة الروح الشعبية . جاء عباس ورحب واختفى يزق وأقبل ينقر على الصينية بالملقعة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لمادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المتبهج وكان غنياً لعباس « اترك المقهى وتعالى معى » ، وصرخ عباس: أنا ؟

ذلك ما حدث — يا أميرى — ولك أن تصعب ، لكنها دنيا بنت هوى تدبر ظهرها لسنين ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالأجراس .

هناك بيت الغنى تعلم عباس حروف الهجاء الثمان والعشرين — هكذا سريعاً — لينظم من الحروف العقود من خرز يلونه ليزين عنق ومعصمى ولى نعمته الذى علمه كيف يمسك السكينة يمينه والشوكة يسراه . هذا بيتا الغنى، بحق يتناول إطفاره وغداه وعشاه بصحبة عباس بالنادى : لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بط وديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضاً ونبيد ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا — الغنى وعباس — بحمام السباحة مع العراة من الرجال والأولاد والنسوة والشابات . ما مر شهران — يا أميرى — حتى تحول عباس إلى شخص يجهله كل من عرفه : طبع رقيق .. وأصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير .. بروح شفاقة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لاحقاً له بالتصاوير والرسم والموسيقا وغناء المغنيين ولسينما بمحلات الشرق تعرض الأفلام بلون وصوت .

هنا « يا أميرى » دعنى أحكى لك فيلم شافه عباس تسع مرات وأعجب به الإعجاب كله : ناس عراة يلبسون الرهش يسكنون غابة ويقتلون الناس بنبال مسمومة لأنهم لا يسكنون معهم فى الغابة (فجأة) يأتى ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق ويطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة يهونوا جميعاً — إلا كبيرهم صاحب الرهش الكثير الذى رلوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان أسرع من موتوسيكل وأسرع من نعلمة . وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحمة التى عالجت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة — ما عدا الفتى الوسيم فقد أعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لأن جرحه كان قتالاً ، وها هو الوسيم يطارد بمحصانه لابس الرهش الكثير — ليؤد الفضل لصاحبة الفضل، ولكن ما كاد الوسيم يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) فى حفرة مأكرة ذات عين كبقية سوداء ، وهاهو الوغد يسوق الفتاة كما لو كانت معزة ، لا يدرى عباس ان كان الوغد سيلحقها أم سيحلها — إلا أن عباس صرخ فى الوسيم «هنا» وأشار عباس إلى كثف يحضى خلف مرق الثوب الطويل (فجأة) لئرى كل العيون الراغبة فى الوغد : شجرة انفلقت — بعد أن شبت فيها النار الحمراء — إلى ساقين من جمر ، وصرخ عباس فى الوسيم « اسرع » وصرخ فى الفتاة « قلولى » فأمسكت هى ببلطة وتقدم الوغد وواجه الكل بمعنى ملود مخيف فقالوا « لا دخل لنا » ، ولكن الفتاة رمز المقاومة لا تزال تمسك بالبلطة : علامة الفخدين — ولا ملامة عليها ، (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد — حتى لا تصير الجميلة قاتلة .

وانتهى الفيلم — يا أميرى — بقبلة طويلة تحب الإنسان منا في الأفلام وتجعل كل صناع الأفلام ، أبناء زماننا ينهون أفلامهم بالقبل التي تحبنا في الأفلام ، بعد هذا. الفيلم — وهنا ما جعلنى أحكى لك « يا أميرى » حكاية هذا الفيلم : أقن عباس الخادق صناعة الكلام فقتل من الكلمات حبالا تصلح لشق آدمى وربط دابة وتقييد وحش وإغلاق طريق — كما أفلح في كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التي يلبسونها ، ذلك ما كان ، بينا — أنا — سيدى الأمير — نسيت إخبارك بخبر الرجل الغنى الذى يسكن بيتاً من أربعة طوابق بكل طابق أربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يشمر وأشجار ورد مزهرة تشر العطر ، وكان الرجل الغنى يحب مثله في عفة جعلته يلبس قناعاً : لا لمس أخداً ولا يدع أحداً يمسّه — فقط يحب ويدبل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مع عباس حتى أدركه وأدرك عباس اليوم الذى تحكى من أجله الحكايات وتنشد الأناشيد ويحمن من يحمن من بنى الإنسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا أيها النور » ، فأغلقت هى باب الشرفة وغابت ، وأشرقت في اليوم الثانى وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا أيها النور » ومضت وهى غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الأربعاء لتظل يوم الخميس وهدت كما لو كانت غاضبة ، ولما هم عباس بفتح فمه أدارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها ، وفي اليوم الذى يستريح فيه المسيحى أطلت بوجهه هو الأزاهر ومررت كفها على شفتها ونثرت في الهواء زهرتين شم ريحهما عباس فدلخ وأفاق وطالبها ببقاء عاجل كي النادى فهزت رأسها رافضة ومرت على جبينها من شعرها خصلة ، وقال عباس الملهوف « بسينا حدائق الشرق » — فرمت هى رأسها إلى الخلف رافضة وأعدت خصلة الشعر إلى مكانها ، وفتح عباس فمه وأغلقه ولما حركت يدها وأشارت إلى حديقة بيتهم وزيمت الشجر ورسمت الغروب .

أخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذى يشتعل بالنور إذا ما داهم الغروب
بيوت السادة ...

أخ ، يا أميرى ، كان الرجل مبيداً وكان فاضلاً وكان كهلاً احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يمتلك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف

قديم في طبيعة الأنثى ومن أحابيل السفهاء مثل عباس : سرّ البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والأجراس والكلاب السود والطلهاء السود والحمد السود ...

وكان عند السيد الكهل « يا أميري » عصا من العاج يمش بها وبها يجلد — تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق إن كان ماشياً يتريض أو راكباً عربته التي يسوقها سائق بسوط ، هكذا « يا أميري » بات من المقلد لباس أن يقع صيداً : يتوجع ويستنجد بالله في السماء ويزعم الناس على الأرض ، حتى يقض الله له ذلك الشرطي فجرو للمخفر سارقاً لا عاشقاً ، وخرج من المخفر إلى مستشفى يصبح به شرطي فقد ثبت أنه السارق لا العاشق ، ولما طابت جروحه وجد نقتسه حيواناً في قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص — لا يعرفه — يسبه لرجال جادين بوجوه صارمة لبسوا الأسود كالفقير يسمعون من فوق منصة عالية فيهزون أدمغتهم ويهيمون وكبيرهم أمسك بمطرقة، قرع بها لما تجاوز الرجل الذي يسب عباس فسب أم عباس والخلواني وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتم رأسه وقال إنهم — أم عباس والخلواني وصاحب المقهى — زرعوا بذرة الشر السوداء في نفس عباس .. فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباس فأدامها ودمر حياة صاحبها الغني الخير الذي أصيب الآن بصدمة قد تجعله — وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن — مطيعاً لأوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطاً بالويسكي وحب الحبان .. مطلقاً هو الغني كل طبيبات الدنيا الزاهرة كما يعلم سيدي القاضي وسادتي القضاة الأفاضل .

ومن عجب — مولاي الأمير — أن الرجل الشتام قصر أدق التفاصيل في حياة عباس بما يدل على نفوذه وسعة اطلاعه في الكتب والملفات السرية الكثيرة التي دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بنى الإنسان .

وبعد « أميري » وقد بلغت سيرة الكل — ها أنا أنهي على الباقي من سيرة عباس (حتمه سنه الصغرى من عقوبة السجن فهو بعد حدث — كما قال القاضي : رغم ما شاف لا يفقه من أمور الدنيا قدر خردلة .. ليكمل شأنه إذن لإصلاحية تربيته وتهذب روحه وتعيد خلق الإنسان فيه من جديد . تمالك عباس نفسه فلم يصرخ ، سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بإيعاز من رجل شتام لا ريب مأجور من زوج المحبوبة الجميلة التي لن ينساها عباس — فالحب لا

يموت هكلنا سريعاً .. كما أن مقادير الناس لا شك ليست بأيديهم فهذا أنت يا عباس الرجل تُعامل معاملة طفل لتصير حياتك المقيلة بالإصلاحية بأيدي بشر في الغالب الأعم كالكل قساة لا يرحمون ، ويفرض أنهم رحماء فلا نببذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سبتنا حقائق الشرق تلك التي تعرض الأفلام بلون وصوت .

نعم — لأنك ولاحي أنا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمة لعباس يا أميري.

حكاية ميلودرامية

البيت

بمدينة الفسطاط ، من طابقين من حجر أبيض ، بكل طابق أربع حجرات مرتفعة السقف ، الطابق العلوى للمعيشة ، والطابق السفلى : حجرة الزاد وحجرة الغلة وحجرة الراحة وحجرة الواجب — وتلك حجرة منفية عن سائر الحجرات وقريبة من المراض والحمام وقد أعدت لاستقبال الضيف الرجل .

وهو بيت من بيوت أشرف ذلك الزمان البعيد ، فى زمن لاحق ملكت مفتاحه — بحق المصاهرة — سيده تركية ، وقد آل بعد موتها إلى ورثة سفهاء — باعوه لما اختلفوا فى أمر إصلاح درجة الخشبي الذى يوصل الصاعد من الطابق الأول إلى الطابق الثانى .

بابه الكبير من خشب الأثل ، يفتح من الخارج بسلسلة متينة الحلقات يطبق على طرفها قفل كبير ، ويفتح من الداخل بمتراس ، فإذا ما جاء القادم طرق الباب بكف من حديد قابضة على خوخة من حديد مثبتة هناك فوق الباب — ووقف ينتظر ، ومن فرجة بصدور الباب تطل عيون أهل الدار — حتى يستينوا العدو من الصديق .

كواء الطرايش :

مالك البيت الجديد ، قبطى مؤمن ، اختار الحياة بمصر العتيقة — بالقرب من بابليون الدير والحصن والرمز والذكى الحية ، وحول حجرة الضيف إلى دكانه ، وعاش بالدور السفلى مع أمه العجوز ، ولما ماتت أمه لم يطق حياة الرحلة فى البيت الكبير — فأصلح السلم ، وتزوج من قبطية شابة عاش معها بالطابق العلوى حياة سعيدة — وكانت أما لابنه جرجس .

جرجس ولعبة الزمان :

ورث البيت عن أبيه وورث الحرفة ، لكن يد الزمان المختل امتدت ورفعت الطربوش عن رأس المسالم وباركت المتزلف ودقت عنق لابس الطربوش (المكابر والعنيد والمتمسك بعهد ولّى وفات) ، وها هو جرجس يميل على قميص نوم السيدة المخرم وفستان البنت القصير وقميص رجل البيت العارى الرأس (دنيا غرور كاذبة .. مثل السواقى النادرة)

مرقص مواطن صالح :

مرقص ابن جرجس .. والد حنا — جمع الأحياء من أهله وخطب فيهم ليقنعهم ببيع الدكانة وكذا حجرات الطابق الأرضى ، وقال : أنتم أبناء وأحفاد كواء الطرايش . أرغبكم الزمان العاقى على الرضوخ لحكمه .. قولوا معى الحمد لك فى ملكوتك أيها الرب الممتحن فقلك مشيتك .. خلقت حنا ابنا وحامل اسم أسرتنا لا يحسن العدو ولا يفرق بين التمرة والجمرة .. ولولا عيون المحبة الحارسة — نحن أهله — لنام على وجهه وتاه فى زحام الشوارع .. وها أنا اليوم بينكم العجوز الحنى الظهر الذى لا طاقة له على العمل .. لكن لا تتركوا اليأس يتمكن من نفوسكم المؤمنة .. واعلموا أن ابنا حنا يصلح للزواج .. وعلينا نحن أبناء وأحفاد كواء الطرايش أن نساعده وننتظر عطاء الرب .. والآن : هلموا يا أبناء الرب وكلوا من طيبات ما أحضرت (شرائح لحم الخنزير ولحم الضأن وفاكهة الصيف وشراب العنب والروم واليراندى والشموع تمثال العنراء) .

محمد كميل الأول :

مالك الطابق الأرضى ، السيد الجديد ، يدين ببطن وقلب من البلاستيك ، بعين من زجاج وعين ضيقة مزروعة .. يدارهما بنظارة سوداء كبيرة ، يملك بيتاً بباب الشعرية تعيش فيه أم أولاده زينة مع أهلها وأهله ، وله شقة بشارع سليمان

باشا الفرنسي — يحيا فيها مع خليلته الراقصة الكتوم التي علونته بإخلاص في أعماله « بيروت » قبل نشوب الحرب الأهلية ، له في البنوك البعيدة مال جامد وله في أسواق البلاد مال يتحرك ، يماله حول دكانة الكواء إلى بوتيك ميامي — حبس الضوء في أقفاص من زجاج سبحت في مائه الملون ثياب الأنثى الداخلية وزجاجات عطرها وعلب زيتها وآلات كي شعرها الكهربائية وكلها سيجارتها الأمريكية المفضلة « كنت » ذات النكهة الفخورة .

وكيل الأعمال :

صباح يوم افتتاح بوتيك ميامي — جاء العمال ورشوا الرمل أمام البوتيك — وصقوا أكابيل الورد وعلقوا الصورة وقد كتب تحتها بخط كبير (كبير العائلة بطل يوليو ومايو وأكتوبر وكل شهور السنة) .

وفي غروب يوم افتتاح بوتيك ميامي هبط محمد كميل الثاني من عربة أمريكية سوداء وتقدم — تحيط به عصابة من صحبه وأتباعه الأشداء — وأمسك بالمقصد وقص الشريط ، بينما المسجل يصدح بالأغنية التي يفضلها محمد كميل الأول (الطلشت قال لي قومي استحمي يا بنت يا ..)

وفي صباح اليوم التالي لافتتاح بوتيك ميامي — نشرت الصحف الصباحية الثلاث صورة لمحمد كميل الثاني وهو يضحك وقد أحاط به جمع يضحك كما نشرت إعلانا عن بوتيك ميامي — هنا نصه : محمد كميل اخوان ييشر المواطنين بمصر القديمة وينقل أعماله من بيروت ويخطو أول خطوة له مع بداية عصر الانفتاح على طريق العلم والإيمان .

الإصبع الثالثة :

لم محمد كميل الصغير الملقب بالإصبع الثالثة حبات مسبخته الملونة ودسها في جيبه ، وأخرج مندبله ففاح عطر فرنسي وتمخط وفرك راحتيه وأخذ سميت محمد كميل الأول — وقال للرجال الواقفين بجوار الشاحتين : افرغوا الحمولة وأدخولها المخازن — وأشار بإصبعه إلى الطابق الأرضي للبيت .

العشاء الأخير والأحد الأخير :

مذ رأى حنا المال وجل اهتمامه بهذا الورق الملون والصور المطبوعة عليه ، أكل

مع أهله وشرب بفكر شارد — فلم يفرط كما أفرطوا ، وسأل حنا حنا : كيف أحصل على الصرة المدسوسة فوق الدولاب دون أن يروني ؟ ورد حنا على حنا — بعد عشاء : لما يناموا ، وشعر حنا بضيق ققام وقعد وقام وقعد — وقال : ليتهم ينامون ، وكلما سمع ضحكات أهله وصوت سعالهم وصوت مضغهم ورشفهم — أحس بأنه يعانى عناء يفوق احتياله ، فطلب من العذراء أم المسيح أن تساعد . هنا بينا أهله يأكلون ويشربون ويأكلون ويشربون بشعور المحروم الراغب في شبع مقيم وشراب مقيم ، حتى أتت عربة الإسعاف الحكومية وحملتهم نصف موتى يسكنون ببطونهم المنفوخة — إلى المستشفى الحكومى حيث ماتوا .

حنا آخر الأحياء :

داس على الزجاجات الفارغة والمليئة وداس على قراطيس المائجو وحبات الكمثرى المبعثرة وطلع فوق كرسى — وهكذا وجد نفسه فوق الدولاب : فكف الصرة وأخرج المال وحشا به جيوب سرواله ، وكان حريصاً — فلم تقع عليه عين تمثال العذراء .

بعد ما عبر حنا الكوبرى — قصد السينا التى كثيرا ما حام حول إعلانها الكبير المعلق وكان لنسوة عاريتها يهرين ضاحكات من موجة البحر الساخط .

وكما جاء حنا ووقف يتطلع ، جاء رجال الشرطة أيضاً بعربة الشرطة — ووقفوا يتطلعون ، وما أن وقعت عين الخبير السرى على حنا حتى ظنه لرداءة ثوبه واضطراب حاله — من الصبية المتسولة .

وهناك فى مكنى الشرطة قلبوا جيوب حنا وأخفوا المال غصباً ودمسوه فى خزينة الحكومة وأغلقوها بمفتاحين ، أما حنا فرموه دافع العينين ليبيت ليلتين مع الفاجر والسارق والخنثى وشارب الكحول والمتباهى بذكورته والشمام ومدمن الإبرة — فى حجرة ضيقة معتمة رطبة يشقوقها يسكن القمل والحمل والبق والبزوغ والوطواط ، ثم ساقوه دافع العينين وتلك نهاية أمره — إلى دار رعاية وإصلاح حكومية — ستعلمه الحرفة وحسن التعامل مع مجتمعه الإنسانى .

قفص لكل الطيور

١ - وحيداً في بيتي :

دق بابي — ففتحت ، وعجبت أن يكون الطارق جاري الحريص على وحدته ، فصحت : من .. ؟ وحيد !! وقال هو — دون أن يذ السلام : لا تستغرب زيارتي .. فبينما أنا أفتش وأقلب في نفسي كمادتي — اكتشفت أنني لم أضحك منذ زمان .. ولما حاولت وفشلت — شعرت بخوف من نفسي . قلت : سلمت يا جاري من كل سوء .. لكن ما تقوله هو الخطر بعينه .. هيا بنا إلى حكيم من زماننا يقال له عبد البصير ..

٢ - إلى عبد البصير :

قابلنا عبد البصير بوجه عبوس ، وقال لوحيد : طئلك عندي .. لكنني اليوم في أسوأ حال .. فالضربير زوج الخرساء أختي — والدنيا عليمه بمدى حبي لها — عبوس ، وصباح الأحد تجري محاكمته . فصحت أنا : ولم الخوف يا عبد البصير — والأستاذ فصيح بيتنا ونحن أبرياء ؟

صرخ عبد البصير : بالله عليك لاتذكر اسم زفت الطين هنا أمامي .. لقد طلبت منه أن يتراجع ويدفع التهمة عن زوج الخرساء أختي — فطلب مني زجاجة

كيثا .. ومن أين لى أنا والفقراء أمثالى بشمن زجاجة الكيىا ؟ قلت : حياىى فذاك يا عبد البصر .. لا تشغل بالك .. أنا لها .. عالج جارى وعمشية الرحمن ستصلك اليوم زجاجة الكيىا . قال : لما تحضر زجاجة الكيىا سأعالج صاحبك .. فعاتبته : ألا تثق لى يا عبد البصر ؟ قال مستكراً : معاذ الله .. كيف لا أثق بك .. لكنى أحسب الحساب .. ماذا يقول الجار عنى حين يسمع جلجلة الضحككات فى بيتى — بينما زوج أختى المنكوبة داخل قفص من حديد ينتظر أفطع مصير ! قلت — وقد طاب خاطرى : صدقت يا عبد البصر ، وقلت لوحيد : تعال معى يا وحيد لتحضر زجاجة الكيىا .

٣ - من أجل زجاجة كيىا :

دخلنا دكانة الصيدلى ، وقلت أنا للصيدلى : هات زجاجة كيىا ، فلما جاء بها أدخلتها منه ونولتها لوحيد ، وسألت الصيدلى : كم ثمنها ؟ قال الريال لا ينقص مليماً . فطلمت : أفقأ الدمى بهال ؟ قال : وما علاقة الكيىا بالدمى ؟ . قلت : بمجسمى دمل عمرو يوم .. وقد نصحتنى صاحب بشرب زجاجة كيىا ، وسألتى الصيدلى : وهل صاحبك عليم بالطب ؟ . قلت : لا .. صاحبى يبيع العرقسوس .. ولكن ألا تصلح الكيىا لفقء دمل ؟ . قال الصيدلى : لا تحرف .. الدبوس والمرهم يصلحان . فصرخت : انجلى برك ، وسارعت بخلع ثوبى وقلت : هنا — وأشرت إلى فخذى ، وغمرت لوحيد — فهرب بزجاجة الكيىا . ولما زعق الصيدلى زعقت أنا — فالتئم الناس . وقال الصيدلى للناس : يا ناس .. هرب السارق وهذا شريكه . وقلت أنا : اخرس يا مأبون .. لماذا طلبت منى أن أدخل ثوبى ؟ . قال : لأرى الدمى . قلت وأين الدمى ؟ . قال بفخذك .

فصرخت فيه . يا كاذب .. يا مفترى ، وكشقت للناس الفخذين ، وقلت : انظروا يا ناس .. بالله عليكم هل رأيتم الدمى .. أم رأيتم الجبانى ؟ !

وتدبت : قلت للماكر « برأسى صناع » فقال لى أنا الذى لا علم له بالطب « أدخل ثوبك » ... ولما هم صرخت لأجمعكم — لتشهدوا معى ما صار اليه حال نفر من ناس هذا الزمان ، قلت قولى هذا — ورأيت أحدهم يخلع نعل الصيدلى ويهوى به على رأس الصيدلى ، كما بصق آخر على وجه الصيدلى ، أما أنا فعضيت إلى بيت عبد البصر لأخلى بوحيد .

٤ - الضحك يمت القلب :

قال عبد البصير : لو وقع الرجل - فما موقفك منه يا وحيد ؟ . رد وحيد : أعاونه على النهوض .

قال عبد البصير : ولو كسرت ساقه أو ذراعه ؟ . أجاب وحيد : أصنع له الجبيرة . قال عبد البصير : ولو دقت عنقه ؟ قال وحيد : أترحم عليه .. وأحفر الحفرة وأستر عورته وأواريه . فسأله عبد البصير : هل كان بإمكانك أن تضحك على الرجل في أى صورة ؟ . قال وحيد : حاشا لله .. كيف أضحك على من يصيبه عطب ؟ . قال عبد البصير : مرحى مرحى ذلك شأن الأصحاء يا وحيد .. ابصق في عيّنك يا حبة في عقد من لؤلؤ نضير ، وقال عبد البصير : بنا إلى الأستاذ فصيح . حاول وحيد التملص وقال : ما دمت بعافية وخالياً من المرض - فسأعود إلى وحدتي . فلامه عبد البصير . وقبض على يده يود : يارجل .. أنت من اليوم الفرد في الجماعة .. هيا ولا تتلكأ - فالخير في الجماعة .

٥ - مع الأستاذ فصيح في بيته :

صرخ فينا : لا تدقوا بأى هكلنا .. كلنا الوقت ليل .

قلنا : للضرورة أحكام يا أستاذ فصيح ..

قال : للنهار عيون .

قلنا : معنا زجاجة كينا ،

عاتينا بلطف : أبواب بيوت الفقراء التى نخزها السوس لا تدق هكلنا يا

صحاب ..

وفتح الباب ، وخطف منا زجاجة الكينا ، واعتذر عن العتمة - لما رأنا نتعثر ، وقال ، بسراجى زيت قليل أحفظ به لليلة سوداء ، وفتح طاقة دخل منها نور القمر ، وقعد في ركن يجرع من فم الزجاجة ، ويشد بأستانه جلدة تفرق كلما أخلاها ...

وسأل : ما قضيتكم ؟

قال عبد البصير : الضرب زوج أختي الخرساء - لما أتاه غلام صاحب القلعة - ذهب إلى الحداد والتجار وصانع الأقفاص من جهد التخيل وقال

لهم « تنافسوا في صنع قفص لكل الطيور — في زمن مقداره سنة .. والغالب منكم سيحصل على ألف قطعة من النحاس .. وصاحب القلعة سيهبط بنفسه ليمنح المال ويكمل المنتصر » ... ولما مرت السنة — وكانوا قد فرغوا من صنع الأقفاص وبأنظار هبوط صاحب القلعة الذي لم يهبط — ذهبوا إلى القاضي ورفعوا صوتهم بالشكوى فما كان من القاضي إلا أن أمر بالقبض على الضيرير زوج الخرساء أختى بنت أمى وأى .

قال الأستاذ فصيح : لا تقلق يا هذا .. سأنام بعد جرعتين .. وحين يصبح ديك الفجر أيقظني لأشرب ما بقى من الزجاجة .. ثم أمضى معك لأحصل للضيرير على البراءة

يوم الحساب :

دخل القضاة المقنعون — فوقتنا . وقعدوا على الكراسى — تحت السيف الذى يصارع السيف — قععدنا على الأرض . القاعد بالوسط له وجه الأسد ملك الوحوش ، والذى عن يمينه له وجه الثور الوثاب ، أما الذى عن يساره فكان بوجه الثعلب الواسع الحيلة .

ملت على أذنى وحيد وهمست : لقد تاه الضيرير في الغابة وعما قليل سنرى لحمة في فم الحيوان المفترس .. وهنا الفصيح ضل طريقه وضللنا معه بعد ما خدعنا وشرب زجاجة الكينا بمفرده .

قال وحيد : كنت أفضل أن أبقى في بيتى ..

القضية شرم يوم :

كشर القضية الثلاثة في الضيرير المحبوس داخل القفص — وزام الأسد : لم غررت بالحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ . رد الضيرير : لا .. كنت رسولاً لصاحب القلعة .. زام الأسد : وهل قابلتك صاحب القلعة ؟ . رد الضيرير : لا .. ما من أحد قابل صاحب القلعة .. لكن غلامه جاء إلى خُصِّى وأمرنى أن أبلغ قول صاحب القلعة للحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل . كشر الثور : لكنك بغير عينين فكيف رأيت الغلام ؟ قال الضيرير : زوجتى هى التى رأت .. أما أنا فسمعت . زام الأسد : زوجتك رأت .. أما

أنت فلا .. كيف تقطع إذن بأن الرسول هو غلام صاحب القلعة ؟ . قال
الضرير : زوجتى وصفت لى صورته . زام الأسد : كيف تصف لك صورته وهى
خرساء ؟ . قال الضرير : خرساء نعم .. لكنها تفهمنى وأفهمها . أنا وهى فى
المسرة والضرء شريكان نقسم الكسرة . كشر الذئب : وما هى أوصاف غلام
صاحب القلعة ؟ . أجاب الضرير : صبح الوجه أمد .. على خله شامة ..
جيله المظوق يعقد من لؤلؤ كأنه جيد يمامه .. بمحصمه سوار من نقى الفضة ..
وعلى بدنه قميص من حرير أبيض .. والقرط الذهبى يتدلى من أذنه اليسرى ..
والكتاب يمينه .

فعوى الثعلب : تلك العلامات الكل يعرفها عن غلام صاحب القلعة ..
والخرساء شريكة للضرير فى التهمة ومكانها داخل القفص لا خارجه .

قبض الحراس على الخرساء المعلقة البصر بالسماء وأدخلوها قفص الحديد .
وجمر عبد البصير : وأختاه . فهب الأستاذ فصيح وشخط فيه : اخرس انت ،
وكبح وخاطب القضاة (بعد السلام عليكم .. الرحمة نطلبها منكم — يا ظل
صاحب القلعة على الأرض .. ونحتمى بك من فيض هذا اليوم ... يقول الفقير
الأريب : ما من مخلوق على الأرض التى نعرفها يجسر فيدعى كذبا أن غلام
صاحب القلعة قد أتاه .. كما أنه ما من مخلوق عن نعرفهم يجسر ويتنكر فى ثوب
غلام صاحب القلعة .. ذاك يقينى .. فصاحب القلعة قوى مهتاب طويل اليد
شديد العقاب ... باطش لو أصاب وكلنا تحت القلعة — قضية ورعية —
الضعاف المنخورون المرتعدون من برودة الخشية التى نحن فيها متقعون .. أليس
كذلك ؟ هذا سؤال الذى أطلب جوابه فوراً — من القضية ومن الحضور ومن
الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جهده النخيل ؟ .

قال القضاة : نعم .. الأمر كذلك .. وكلنا كذلك .. ولا أحد يجسر ..

وقلنا نحن الحضور : نعم .. لا أحد يجسر .. ونحن كذلك ... وكلنا
كذلك .. نحن الرعية من برد الخشية ترتجف

وقال صانع الأقفاص من جهده النخيل والحداد والنجار :

نعم ... نحن كذلك .. من ذا الذى يجسر ..

وسألنا الأستاذ فصيح : والذي يجسر ؟
فهفتنا خلف القضية : مجنون أو أخرق ..

قال الأستاذ فصيح : ما دام الأمر كذلك .. فالضريير والخرساء لم يكذبا
لأنهما كالكل لا يجسران ... ويفرض أن ما زعماه كذبا — فهما ينتسبان إلى
الجنون والخرق — وهذا يدفع عنهما التهمة ويحيلهما إلى المورستان أو إلى دار
الإصلاح ...

زأر الأسد : دعونا نتشاور .. وساد في صفوفنا هرج ومرج . وهب عبد
البصر — وجعر : وأغتاه .. هل سيأخذونك إلى الخانكة أم سيأخذونك إلى دار
إصلاح ؟

٨ - الأستاذ فصيح يستمر في مرافعته :
زأر الأسد : عكمتا ليس من اختصاصها محاكمة المجانين أو الخرق .. لذا
يحال المتهم والتهمة إلى المورستان أو إلى دار الإصلاح فهنا من اختصاصهما .

قال الأستاذ فصيح : لا يا رمز القوة .. الضريير والخرساء صادقان في قولهما
(ويتمتعان بعقل كامل) فصاحب القلعة — الذي يهد قفصا لكل الطيور —
كلم غلامه .. وقد جاء الغلام للضريير والخرساء وكلمهما .. وذهب الضريير
بلونه وبشر النجار والحنداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل — بالجائزة التي
رصدها صاحب القلعة لمن يصنع القفص لكل الطيور ... وفات العام ولم يهبط
صاحب القلعة ليسلم أيما من الصناعات الثلاثة الجائزة — فجهاء الطامعون في مال
صاحب القلعة واتهموا الضريير بالكذب .. ولكنهم لو سألوا أنفسهم هذا السؤال
الواقعي : لم لم يهبط صاحب القلعة كما وعد ؟ ...

لو أنهم سألوا أنفسهم كما سألت أنا نفسي لأتاهم الجواب كما أتاني (ما
من أحد حقق الشرط ... ما من قصص مهما كبر حجمه يكشف لحبس كل
الطيور) ياه — قصص لكل الطيور ؟ ... يا لكم من سذج طامعون في مال
صاحب القلعة ... ها ها .. لعلمكم — يا من سقظتم في أول اختبار — هناك
طيور الجهات وطيور البحر وطيور النهر وطيور الحقل .. وهناك طيور تسكن
اليوت وطيور بنت عشها في السحاب وهناك طيور تبيض ولا تبيض .. ومن

الطيور الجارح والأليف والمفرد .. وبعد ، لقد ضيعتم وقت المحكمة الغالى وافترعتم على الأبرياء .

٩ - الجزء من جنس العمل :

دوت أكفنا بالتصفيق لمرافعة الأستاذ فصيح البليقة . وانشغل القضاة بالتشاور مع بعضهم . وصرخ النجار فى الأستاذ فصيح : خربت بيتى الله يخرب بيتك . وقال صانع الأقفاس : انجلبنى يا أستاذ من كرب أوقعتنى أنت فيه . وقال الخلداد : لو تعرضت لمكروه يا أستاذ فصيح فستدافع عنى يا حجة أهل زمانك . وقال الأستاذ فصيح : الخراب والمكروه والكرب واقع واقع .. لا تجزعوا .. سأدافع عنكم وسأحصل على أتعابى بطريقتى .. سأخذ الأقفاس الثلاثة .. وسأستخدمها بالطريقة التى تحلو لى : السرير من حديد لأنام عليه .. والطاولة من جريد النخيل .. وما الدولاب إلا من عند النجار .. لكن النجار الصفيق أهانتى .. وما أنا أطالب بزجاجة كينا طولها شبران وسعتها لتران ...

١٠ - الحطام مبيك وغدير :

زأر الأسد : الضربى برىء والخرساء بريئة .. والنجار والخلداد وصانع الأقفاس من جريد النخيل مدانون ويستحقون الحبس .

قال الأستاذ فصيح : حضرات القضاة ...

فكشر الذئب — وعوى .. ماذا تريد يا بومة ؟ .. خذ الضربى والخرساء واغرب عن وجهنا قبل أن نخلط لحملك بعظمك ...

انحنى الأستاذ فصيح — وقال : حتى تكتمل بهجة المحكمة وبهجتنا — أمأروا المحاييس بخلع ملابسهم .

مد الثعلب لسانه — وعوى : لك ذلك ..

بكى المحاييس — وقالوا : يا ويلنا ها نحن عراة ، وقالوا للأستاذ فصيح : ألم تعدنا — ووعدناك ؟

وكلم الأستاذ فصيح القضاة : ها هم أمامكم يا أفاضل جلد على عظم .. وإن كان ثمة لحم — فهو مر لا يؤكل ... ومن كان هذا بدنه — فدماعه فارغة من المخ .. وأنتم يارمرز القوة لاشك زاهدون فى تلك الأبدان المرة والأدمغة الفارغة .

هكذا تكلم الفران

٣ أحلام وحكمة و٣ أفعال

قلب لى الزمان وجهه وأدار ظهوره — فعز النعم ، وكنت من المؤمنين بقول الحكيم القديم : سافر ففى الأسفار سبع فوائد — هكذا يا أميرى استعرت دابة جازى الطبيب ، وقصدت صاحبي الميسور الحال الملقب بابن خلف — المقيم ببلدة العين من أعمال محلة ضرّوف ، وهناك شكوت للصاحب من الفقر وعدم النعم ولعنت الزمان . فخطب ابن خلف على فخذه لين المال فى جيوبه وضحك ، وقال : لا عليك من الفقر فهو مرض منتشر .. أما الأرق فميسور علاجه . قلت : كيف ؟ . قال : اصبر .. والله مع الصابرين يا صاحبي ، ونادى غلامه وأمره بإحضار الفران زوج أم أسماء . وبعد ساعة من الزمان — عاد الغلام ومعه زوج أم أسماء الفران . فلما نظرت اليه ووجدته : ضامر العود .. فاحم اللون .. ربعة .. بحاجب مجروح .. على بدنه قميص كله ثقوب من حروق .. وقد تلفع بخرق كعادة أبناء الحرفة ، قلت فى نفسى : سبحانك ربي .. تبوح بسرك لأضعف خلقتك ..

كلمه ابن خلف : ما تريده من ألوان الطعام .. سنأمر لك به يا فران .. ولنا شرط .

رد الفران : فول بزيوت وفول وبسمن وفول بطماطم — ذاك مطلبى .. وهات شرطك ..

قال ابن خلف : لك علىّ هنا .. وهاك شرطى .. مستقص على ضيفى من تخايف نومك ويقتلك حتى ينام .. ولن أسمع لك بدخول الحمام .. فإذا ما فشلت يا فران أمرت خدمى بفتح بطنك وإخراج طعامى منها ..

قال الفران : شرطك هين .. وعلاجى ناجع .. والآن عجل بطلب الطعام فبطنى خلوية ، وأشار الفران إلى : أما أنت فسأحكى لك الحلم الأخضر البهيج .. والحلم الأزرق المرعب والحلم الأبيض الذى لا طعم له .

وبسط الفران كفه الخالوية ، وأمسك الهواء بأصبعين ، وكمن يدس النشوق فى أنفه — دس الهواء فى أنفه وعطس ، وقال : لقيته أملك باب الفرن ، ممسكا بلجام بغلة ، ورددت عليه السلام قَرْدٌ ، ولما أعطيته ظهرى — نادانى : إلى أين يا سيدى ؟ . قلت : إلى دار أم أسماء . قال : ولم لا تركب البغلة ؟ . قلت : لا مال معى يا فتى .. لقد عملت اليوم بشن الرُغفة التى حرقتها . قال : لكن .. تلك بغلتك يا سيدى . فقلت لنفسى : الفتى مجنون أو أحمق .. وعلى العاقل مثلى أن يتعد أو يتنز ، وقلت له : ساعدنى على الركوب .. واجعل غايتك درب سعادة ، وقلت لنفسى : سأنزل قبل شخصى بخصين حتى أضلله فلا يهتدى بعد ذلك إلى سكنى . وقال هو : ما الضرورة لدرب سعادة هنا يا سيدى وسيدنى بالبيت تنتظرك ؟ . وقلت أنا لنفسى : هم .. سيدته تنتظرنى ؟؟ .. لقد بان المستور — فهذا الولد تيس لسيدة من علية قوم هذا الزمان تبحث عن فحل من عامة الناس ، وسألته : وأين تسكن سيدتك يا فتى ؟ . قال : بحى الحدائق والزهور ياسيدى . فقلت له : ها .. حيث يسكن أبناء العرب وأبناء الفرنجة ويختلطون .. ليكن ... أنا لها .. خذنى يا فتى إلى حى الحدائق والزهور هذا .. ولا تقلبنى بعد الآن بقول .. فأنا راغب فى نوم أستعيد به عافيتى ، وقلت فى سرى : وهل ينام المشتاق المحروم ؟؟

وأمام بيت لطيف منير به حديقة صغرى بسور وباب من حديد تتسلقه باسمينة نعبانة — هبطت أنا من فوق ظهر البغلة بمساعدة الفتى وتقدمت صوب الباب — فهب بواب 'نوى' نظيف شلبد البياض وحيانى ، طلوح رأسى — كما يفعل السادة — ورددت التحية ومرت من الباب ، وسرت — أنا المزمو — بطريقة قصيرة مرصوفة بمصى ملون حتى قابلتى باب مغلق فطرقتة ووقفت أنتظر ، وألقيت نظرو عن يمينى ونظرو عن شمالى — وهالنى أن رأيت

أُسدين رابضين وعيونهما على — فتنطقت بالشهادتين ، ولما سمعت صوت صفارتين ورايت الأُسدين يغمزان لى بعينيهما بضوء ملون أدركت أنهما لعبتان — فبصقت فى عصى وشكرت الله . ومن فرجة الباب أطل غلام أُمرد كأنه بئر السما اغنى وتنحى . فمرقت أنا وتحت الثريا وقفت وأغلقت عيني لأحبيهما من قسوة الضوء . ولما سمعت صوت خطوات فتحتهما فلذا به أمامى بشارب مفتول وعلى رأسه طرطور .. يمسح دموع عينيه بمندبل ، فقلت — وقد ألمعنى الله ما قلته : أنت الباشا رب الدار ... وقد حلت بأهل بيتك مصيبة لم تكن فى الحسين .. على أية حال أنا حزين وأنا لله وأنا اليه راجعون ..

أنا يا باشا راجع .. سأفارقكم توا لكنى تحت أمركم فى أى وقت ترونه مناسباً ولا مقام فيه لمرض أو موت .

ضحك لابس الطرطور — وقال : أنت خفيف الدم يا سيدى وهذا طالع طيب .. لقد جعلتنى أنا الذى تعرضت لأشد ألوان الإهانات فى حياتى — أضحك . قلت له : لا تهتم .. فالدنيا دون والناس دون والربان دون . انتفض كالملسوع وسقط من فوق رأسه الطرطور — وتهته : عفوا يا سيدى .. لم أقصد هنا .. كل ما فى الأمر .. بل كل الأمر .. وذلك قصدى .. نعم .. هنا بالهام والكمال ما أود أن أقوله .. لقد منعتنى سيدتى من طهو وجبة العشاء لك ولها وللمحروسة الصغرة أطال الله عمرها .. ولكن لو لم تفارق سيدتى المطبخ فوراً يا سيدى — فسأفارق أنا البيت حالاً .. لأنى أحترم مهنتى يا سيدى . فصرخت فيه : لا يا طباط .. لا يربك .. لا تنزع قلبى من موضعه .. تعال وأرى سيدتك وأنا كميل باقناعها وستفادر المطبخ بإذن الله .. فانا قادر على إطفاء نارها ولهذا أفتيت ، وقلت لنفسى : سأجعلها ترى الخرزانة .

وهناك بالمطبخ وجدت ، يالدهشتى ، من ؟ يا رب السموات هل أنا بحلم ؟ ، كأنها أم أسماء ، نعم ، تلك هى أم أسماء قاعدة ومحجرتها أسماء تلعب فى كرم لحم وكرم قمح — وقد تنلى من أنفها على فمها خيطان من مخاط ، نعم تلك هى تدق الهلبن ، وهى أم أسماء أمامى تلوك قطعة لحم نيفة ، ضربت جبتهى بيدي — لأن اختلاط الأمور ليس بالأمر المحمود وسألت لابس الطرطور — لأقطع الشك باليقين : وأين سيدتك ؟ . قال — وأغنى : ها هى أمامك يا سيدى بجهة النور .

فقلت له : انصرف وانتظر بعيدا ، وخاطبت القاعدة بأدب حتى يستين لي الأمر : لم يا أم أسماء تمنعين الطاهى الماهر من طبخ طعام لنا ؟ . ردت المشقومة : لا تحاول معنى .. لن أفارق المطبخ ما حييت .. وها أنت ترائى أدق القمع واللحم فى الهون لأطبخ لك كفتة . فقلت : أنت أم أسماء اذن .. زعقت : ومن تظن ؟ .. أم برة ٩٩ . سألتها — لأفهم منها مغزى ذلك الذى يجرى : وهل لك جدة تركية ماتت بأسطنبول — فورثناها ؟ . قالت : لم وولى النعم صاحب الأمر العادل — أطال الله عمره — خيرنا بين حياتين ولقد اخترت أنا تلك الحياة لى ولك ولأسماء صانها الله من كل سوء .. سنقضى بقية عمرنا نأكل الكفتة يا زوجى الغالى .. وبعد ألا تستحق أم أسماء منك كلمة حمد . بعد هذا القول ارتاح خاطرى ، وناديت الطاهى وأمرته : دع أم أسماء على حالها تطبخ لنفسها ما تشاء .. أما أنا فاطبخ لى قرع كوسة باللحم المقروم وقرعا عسليا باللحم المبروم .. ولحما خالصا ببصل وبفلفل وبشم .. وعجل بربك يا طبخ . وبالبهو قعدت على كرسي مغمض الغيتين — أفكر وأطرد كل وسواس خبيث ، ورغم ليونة الكرسي وطراوة قاعدته — إلا أنى كنت كالقاعد على جمر ، وكلمت نفسى : لتظل أم أسماء بالمطبخ — هذا فيما لو استمرت هذه الحياة — تدق الكفتة وتطبخ الكفتة وتميش ما بقى لها من أيام راضية سعيدة .. أما أنا رب هذى النار وصاحب هذى النار فسأتزوج من ثلاث كما أحل الدين الإسلامى الخفيف : شامية ومغربية وبنيت بلد مصرية لها لون المهلبية وطعم المهلبية وطراوة المهلبية .

وأيقظنى الغلام الأمرد من شرودى الحلو — وقال إن التليفون يطلىنى أنا سيده . فقلت له : وأين هو ؟ خذنى إليه أو قل له تعال . قال الفتى : هاك يا سيدي ، وأرشدنى فقال : من تلك الفتحة تكلم يا سيدي ومن تلك الفتحة يا سيدي استمع . ومن الفتحة قلت لمكلمى : من أنت ؟ . قال زعبوط الخياط . فسألت : ماذا تريد يا زعبوط ؟ . قال : هل أحضر لأخيظ لك ثوبا ؟ . قلت له : وتساأنى يا زعبوط ٩٩ . والله إن أمرك لعجيب .. ما الذى منعك عنى طوال تلك السنين يا زعبوط ؟ أحضر ثوبا يا رجل ولا تضيع وقتا . ومن فتحة التليفون العجيب — كلمنى مسمار الجزيمى — فقلت له : تعال يا مسمار وعجل .. أما كنت تعرف يا مسمار أن قذمى الخافية يلزمها حذاء ٩٩ .. باليقين أريد بلون أصفر يا مسمار . ولما اتصل لى رفاق صباغ الفطوية المالحه والفطوية الحلوة ودعانى لى حفلة سيخاصر فيها الرجل الأنثى ويرقصان . قلت له : لا مانع عندى يارفاق ، وقلت له : لا مانع عندى البتة .. سأحضر ، وسألت : ما الذى حدث فى الكون يارفاق ؟ وكيف كان ذلك ومتى تم ؟

قال : ما حدث حدث ولا فائدة من التفكير في الأيام السوداء التي ولت وما كان كان وهو خير .. وكل ذلك تم في يسر كاتفصال الخيطين وقت الفجر . قلت له : هذا بينما كنت أنا الغافل أمام نار القرن بمخبر اسرافيل ؟؟ .. لقد أجبرنى الظالم على العمل بغير أجر نظير ما حرقت من أرغفة .. تخيل معى هذا يارفاق .. والآن أريد أن أغير حرفتى يا صاحبى — فهى والله مهلكة . وأتانى صوت رفاق كأنه الصراخ : لا يا فران .. لا تفعل .. هنا غير ممكن .. كل منا فى مكانه يخدم الآخر .. أنت تعمل من أجل الغير والغير يعمل من أجلك ذلك هو الشرط الأوحد لولى أمرنا .. ماذا تريد برك ؟ .. ما الذى تريد بنا ؟ .. لا تسد حياتنا الجديدة يا فران .. أرجوك . قلت له : لا تقلق .. هنا يكفى يارفاق .. لكنى لا أحسن الرقص . قال : لا تشغل البال بمثل تلك الأمور .. هنا هين .. هنا معلم رقص يعلمك الرقص — وما عليك إلا أن تحضر قبل الموعد بوقت .. سلاما . قلت : سلاما يا رفاق .. سلاما . وناديت الغلام الأمد — وسألته : أين الطعام ؟ قال هناك .. ينتظر الأكلين ، وأشار إلى حجرة — دخلتها فوجدت طولة فوقها أطباق تبخر ولها رائحة طيبة تسيل اللعاب ، وهجمت على اللحم هجمة ، وباليدين أطبقت على فخلة ، وفصلت العظم عن اللحم بضربة ، ومزقت بأسناني ما استطعت ، وفتقت بأصابعى ما أمكنتى ، ورفعت طبق القرع كوسة الساخن ودلقته فى حلقى — فكوئتى ناره — وجرى اللهب فى بلعومى وأيقظتنى من حلم عزيز، أود لو يتحقق أو يتكرر .

فكرت فى قوله ساعة . ولف هو الفران — من الوهم — سيجارة ، ودخنها بشهقة طويلة ، وطرد الدخان الوهمى عن رئتيه برفقة طويلة — وكبح . فعزمت عليه بسيجارة مرسوم عليها النزالة — وقلت : هذا صنف رخيص أدخنه أنا بعد الفقر الذى حل لى .. بمقتورك يا فران أن تدخن منه كل يوم علية — تعوضك عن تدخين الوهم ونفخ الهواء . قال : أنا لا أجد ما أكله يا حكيم الزمان — فكيف بالله أدخن ؟ تلك هى الأولى .. أما الثانية — فخذ .. اليوم تبينى أنت سيجارة وبالغد لن أجلك .. وهكذا تسلمنى لآخر والآخر يسلمنى لآخر .. وتدور الدورة وتحول أنا الفران — على يديك ويفضلك — الى شحاذ .. والثالثة يا اخا العرب — إن من لا يأكل يموت .. أما الذى لا يدخن فلا يموت .. والرابعة ولا مقام لها هنا — اقولها لك رغبة منى فى ابعادك عن كل حماقة فى القول أو فى الفهم ..

قال الفران : طردنى صاحب الفرن وحرمنى من أجرى — لأنى حرقت الأرغفة ، لعنة الله على صاحب الفرن ولعنة الله على الأسباب ، كنت واقفا أمام عين الفرن عريانا فى مواجهة النار ، ونحت قسوة الوجه لعنت واقعى وقلت . جهنم أرحم وسرحت بفكرى — فوجدتنى أمشى فى طريق معبد على جانبيه أشجار الكافور التى ترمى بالظل اللين — حتى بلغت الميدان الواسع وهناك وجدت جمعا هائلا من الناس — فداخلنى الشك أنى يوم الحشر ، وسألت جارى — فلكرنى فى جنبي وقال : هس ، ولما نفخ شخص — على رأسه ريشة — فى نفيى أقبل الرجال على صهوات الخيل وترجل سيدهم فحملوه على محفة ، وطلعوا به درجات النصب التتكارى ، بعدها نادى المنادى — وقال : السيد الكبير ملك الجاز والغاز لابس القبة الكبيرة المرشوق بها ريشة نعامة والمتحلى بالخلى والأساور وعظام البشر — قال : سأدفع ألف جنيه لمن يحل اللغز ، وتقدم رجل أصلع على برقته فوطه — وزعق : ما الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنتين .. وعلى ثلاث إذا ما هبط المساء ؟ . هنا صرخت أنا — ودفعت كل من حولى باليدى (الإنسان) .. وهكذا بضربة حظ كسبت أنا الألف جنيه ، وأحاط بى الخلق بعضهم يسمح بكفه على كتفى .. وبعضهم يطمع فى مالى الكثير .. ومنهم الحاسد والملاح والنشاز وسارق الكحل من العين .. ومنهم ذلك الذى سألنى : ماذا ستفعل بمالك ؟ . فرددت عليه فى الحال : لن أفعل كما فعل ابن بلدق الصعبدى المنحوس الذى شترى ميدان العتبة الخضراء .. سأشترى الطعام الذى يكفينى لمدة عامين .. وأولى وجهى نحو الجبل المقطم .. وأزرع شجرة أحتسى بظلها .. والحجر الكبير يلزمى — سأهذب حوافه وأخلق منه هرما صغيرا بقمة وقاعدة وسرداب وباب .. بعد ذلك أستريح وأقعد تحت ظل الشجرة على دكة بغدادية فوقها فروة من خراف برقة .. وأرمى على كتفى شالاً دمشقىا بشراشيب .. وألم بدنى تحت عباءة من جوخ مراکش .. وهكذا أجمع النقود من السياح هواة الفرجة على الأهرامات . جلعجل سائلى وشنشل ولكنى — شلت يده — لكثرة أبقتنى من حلمى السعيد وأعدتني إلى واقعى المير بمخيز إسرائيل .

قال الفران :

ولما حكيت حلمى لأم اسماء زوجتى — قالت : يا لك من صعيدى منحوس .. لا يحسن اختيار معارفه ولا يعرف الاقتصاد فى كلامه .. كنا سنقصي

بقية أيامنا في نعيم يا رجل .. نأكل في كل وجبة سملك السلون الملح .. ولكننا حلونا دوما عسلا أسود بطحينة .

شردت ساعة واقفت على كلام الفران وكان قد رسم على الأرض يعود :
الكلب والكلبة والجرو والعظمة . قال : في الربيع تصاب عيونهم برمد الربيع —
فيرفضه أصحاب الأفران لأنه يحرق الرغفان . وذات يوم من أيام الربيع ، قالت أم
أسماء لزوجها الفران : ما الحل ؟ وما من صاحب قرن يقبلك عند هذا بينا أنا
جلد على عظم .. والصغيرة السمراء لا تجدد بالقرنين اللبن .. ما رأيك لو
خدعت أنا ببيوت الأغنياء ؟ فصرخ الفران في وجهها : لا يأثم أسماء .. حرة
العرب تجوع ولا تأكل بظليها ، وقال لنفسه : ثم يا رجل .. وادخل عيادة طبيب
وعالج عينيك ، وقال : لما نمت — توجهت إلى عيادة طبيب عيون يقال له « خير
الله » وجاء خير الله بوجه هاش باش ومعطف أبيض ، وقال لي — بعد ما
فحصني سأصنع لعينيك عيونات من زجاج ملون تحميهما من ضوء الشمس ووجه
نار الفرن . قلت له : أشكرك ، وسألته : ومتى يتم ذلك ؟ . قال : تعال بعد
ساعة من الزمان أو ابعت برسول . فصحوت من النوم وقلت لأُم أسماء — ورسمت
لها الطريق إلى عيادة خير الله طبيب العيون : قولي له : أنا زوجة صاحبك الفران
المريض .. أتيت في الميعاد لأخذ عيوناته الملونة . وحملت أم أسماء على كتفها أسماء
ومضت . وقلت أنا لنفسى : والآن .. ما الذى ستفعله يا فران — حتى تعود أم
أسماء ؟ .. كيف تقضى الوقت وحلك في مكان هو القبر ؟ . وقلت : حاور أيام
الخراء بالنوم والفساء ، ونمت — وذهبت إلى كازينو يطل على النيل وقعدت على
كرسى تحت خيملة — بانتظار عودة أم أسماء من عند خير الله طبيب العيون .
ومرت أمامى واحدة في مشيها ميل ورقص — يفوح من بدنها وثوبها عطر ،
وجلست بقرى تحت الخيملة التى تلاصق خيملتى . وأغراني بمغازلتها أنها تقعد
وحيدة ، وفكرت في كلام حلو للين له طلاوة الشعر ، وارتجلت تلك الأبيات :

أنت في اليم سفينة

يا طرية كالعجينة

يا حلاوة في حلاوة

أنت ملين يا سمينة

يا مليحة بخففر

هات خدك نتنصر

يا طحينة بغسل

بعد قبلة نصبل

قلت قولي وانتظرت . فأقبل شاب كأنه الغيمة ورفعني من فوق الكرسي رفعا — كأننى كرة اللعب ، وبصق فى وجهى ، وأقعدن مرة أخرى على الكرسي . فى هذا الوقت وصلت أم أسماء — فأمسكت بتلابيب الشاب وصرخت . والنم ناس . وقامت البنت — التى كنت أعتبها بشعرى واتجهت نحونا . وقلت أنا لام أسماء : أين نظارك الملوثة ؟ . قالت : معى : قلت : هاتها حتى لا تتكسر . قالت : خذ . قلت : دمت لى يا أم أسماء زوجة سالحة ... لا تفتلى الشاب من يدك .. ولا تكفى عن الصراخ حتى يفصل الناس بيننا ، وقلت للناس يا ناس .. لقد أهاننى أنا المعجوز الميهض ، ووضعت نظارك الملوثة على عيني — لأمتع البصر برؤية فاتنتى الشابة وأقرأ تفاصيلها ، ولما دنت وقرأت — صرخت : هنا مستحيل . على صرختى انتهت أم أسماء ، ورأت وصرخت صرخة عظيمة ارتج لها الكازينو ، وسقطت مغشيا عليها . ولطمت أنا خدودى أمام الناس — وقلت : يا للعار .. أسماء بنتى أنا تجلس مع شاب غريب تحت حملة بكازينو . ولما هم الشاب بمعاونة زوجتى على القيام من سقطتها — صرخت أنا فيه : لا تلمس عرض أشراف العرب يا عديم الحياء والذمة يا سافل ، وتقدمت ورششت المياه على وجه أم أسماء فأفاقت ، وقلت لها : هيا بنا من هنا فثلك أماكن لا يرتادها إلا أوباش الناس .. وخذى البنت ولا تحدثها عن الذى جرى حتى تنوق فضيحة يتحدث بها الراكب مع الماشى والقاعد مع الواقف .

هكلنا عدنا إلى البيت فى صمت . وفى البيت — منعنى الحجل من النظر إلى أسماء التى غارتها بالكازينو — فقلت لنفسى ثم .. فالنوم خير حل لما أنت به ، ونمت ومن نومي أيقظتنى أم أسماء — وهى تبكى وتترجع : أنت رجل لا أمان له . سقط قلبي من بين ضلوعي — وقلت : يا امرأة لا تصدق. صرخت : كيف لا أصدق وقد عرضتنى للإهانة وألم البدن .. صاحبك طيب العين طودنى .. وترجى صاحبك طيب العين لكزنى فى جنبي وركلنى على مؤخرى . قلت لها — وحمدت الله : اقعدى يا أم أسماء .. واحمدى الله معى يا امرأة .. لقد اختلط الحلم بالواقع ، وحكىمت لها ما جرى وما كان بالكازينو .

فقالت : ولكن أسماء يارجل بنت شهيرين ومعها ملاك بمجنحين يحرسها ..

ومى على كفى كل الوقت .. لم تغادرني إلى كازينو أو خلافة . قلت لها : والله لو فعلتها في يوم لأذبحها كما تذبح البيمة — فأنا رجل عرى محافظ أحمى التقاليد وأصونها ماعشت .

فردت — بنت الأزقة : عيبك الله يا عرى .. ومن تكون تلك التي غارتها في الأحلام ؟؟ .. ولعلمك — يا قطار خشب ويا درهم حلالة — اني من اليوم سأخدم في بيوت الأغنياء حتى لا نهلك من الجوع .

صحوت — يا أميري — على هزة من يد ابن خلف وهو يقول : قم يارجل .. نحن بالضحي . ففركت عيني — غير مصدق أنني نمت ، لكن الشمس كانت فوق بعيدة عن سماء الشرق قلدر ذراعين . وقال ابن خلف والآن .. قل لي — ما رأيك في طب الفران ؟ . قلت : والله .. لقد جعلني أفكر ساعة وأشد ساعة وأنا أنام أنا المفلس — على حب وكرو .. وها أنا في يقظتي — ككل الفقراء — أطمع في الحصول على الجرة الذهبية .

حكاية للأمير عنوانها : من يعلق الجرس

هذا نور مأم يا أميري ، لقد مات الرجل الغني اليوم والليلة سأقطف لك من
حياته الثمرة المرة والثمرة الحلوة فقد تنام .

يوم حفظ كتاب الله :

علقت أمه في أذنه المخرومة خرزة زرقاء ، وقالت « من شر عين الحاسدة
والحاسد » ورشت أرض البيت بالملح . ولما جاء الرجال بالصرة فكَّت أمه الصرة
وقالت « من مال المسلمين » ونثرت ما فيها أمام عيون النسوة : الجبة حمراء مطرزة
بالقصب ، والطربوش مغرني أحمر والمنداس الأصفر من جلد الجمل ، والخزام
أخضر، والقفطان الأبيض بخطوط سوداء .

ولما لبس صابر — وهذا اسمه — ملابس الشيخ وهم بالخروج مع الرجال
قبلت أمه يده وقالت « يا مولانا » ومسحت دموع الفرحة بطرحتها السوداء .

في جامع عهد الله :

ركع صابر ركعتين وشكر ربه ، وقام ، وقبل يد موله ومعلمه الشيخ سليمان ،

وتسلم من يمينه السيف الخشبي وتقدم — هو الصغير — جمع الرجال ليطوف بهم
دروب القرية .

في بيت أمه وأبيه :

أزاح صحن البصلارة وقال لأمه « شبعان يا أمي » وحط يده على خده وفكر :
لن أركب قطار الحديد ، ولن تنظر العين مصر أم الدنيا التي يجري فوق أرضها
الترمواي ، ولن تدخل الأزهر يا صابر وتعيش عيشة المجاورين وتصبح أبناء الشام
وعرب المغرب ، وسأل صابر ربه : لم يارب خلقت أبي حارس حقول وأجران الغير
يهش الطير عن الحب بمقلع ؟

وفي بيت أمه وأبيه :

قال لأمه « جوعان يا أمي » ورفع يده من على خده وفكر : لا فائدة من لبس
أجنحة الطير بما دمت غمك ثوب الشيوخ ، أنت تحفظ كتاب الله وصوتك لا
عيب فيه وكلام الله حلو لما يزل وكلام الله يلىق بالآثم ويليق بالأعراس ، كن ابن
يومك يا صابر ولا تعاند زمانك ، احبس نفسك في قهتك وانشد القرآن ورتله في
أفراحها ومآثمها ، ولما يتوفر لك المال اشتر الدابة واركبها ، ورتل القرآن في مآثم
وأفراح النجوع البعيدة، ومن يفتح اليم ببصلة فسيأكل في الغد اللقمة مغموسة
بالصل ومن يفتح اليم ببيضة فسيأكل في يوم بهلة .

الأم الحافظة — ذات الفصل — لا أمان لها :

جاء اليم البلاد ففرق حبلين من حبال صوت الشيخ صابر ..

وجاء اليم الماطر فقطع حبلين من حبال صوت الشيخ صابر وشرح القصة .

خلص الشيخ صابر بقايا اللحم من بين أسنانه بعيدان الكهيت ، وقال :
حين تضعف همة الإنسان تقبل الفكرة السوداء وتنش روحه ليظل قعيد البيت
كمعجائر النسوة .

وفى يوم السبت طلع على الناس بغرب العارف :

قال : لكل مرض علة ولكل علة سبب .. هناك يا أخوتي داء لا يقتله الا الكي بالنار .. وهناك مرض لا يفيد فيه شراب يبيعه الصيادلة . كما أن العلاج بالعشب لا يتقنه الا أنا الخبير بخلط الأعشاب .. أما التمل الأسود فطرده من البيوت سهل لو كتبت أنا آية من آيات الله على ورقة بحجم إصبعي — ولصقتها أنت بعجينة على باب دارك .. كنا أنا قادر على طرد الجنى ومصر سم العقرب .. وأنا أرفع الخوف من كل نفس خوافة قابلهما المعفيت فى ليلة معتمة، يا أهل قريتي وناسى لا تخوف عليكم من لدغة النعيان وقردة اليرغوث .

ولما خبرته النجوم بيوم معمله :

دخل السوق . وقصد مجلس الشمرلى شيخ تجار السمك ورد السلام . رد الشمرلى على السلام بسلام أفضل من السلام، وقام وصافح الضيف الغريب وأجلسه بمجواره على الذكة فوق الفرو وطلب له قهوة ونارجيلة وسأله عن غايته . قال صابر : الخير كل الخير .. بكم تباع السمك وبكم تشتريه ؟ قال الشمرلى : أشتري القنطار بنصف فضة وأبيع بواحد فضة . قال صابر : أنا أبيع لك القنطار بنصف فضة .. كم قنطارا تشتري ؟ رد الشمرلى : ما عندك . قال صابر : عندي الكثير . قال الشمرلى : أشتري منك نصف حاجة السوق .. قل عشرة قناطير . قال الشيخ صابر : الناس تقول (الذى أوله شرط آخره نور) وأنا أقول لك يا شيخ (هات نصف الثمن فوراً .. وأنفذ أنا اتفاق بعد يومين والعقد على رقبتي سيف) . قال شيخ السماكين : موافق ومالى حاضر . قال صابر : على بركة الله هات الشهود والمؤثق .

وهذا نص الاتفاق — يا أميرى :

على بركة الله نشهد نحن الشهود أن شيخ العرب صابر بن فلان من فلانة سيباع كل عشرة قناطير من السمك الطيب لشيخ السماكين الشمرلى بن فلان من فلانة بسعر القنطار ثمن الفضة والعقد قائم لمدة شهر قمرى وقابل للتجديد لو رضى البائع والمشتري .. وبموجب هذا العقد يدفع الشارى فوراً للبائع نصف الثمن

فضة ، والعقد نافذ المفعول من بعد طلوع شمسين ، والعقد على رقية البائع سيف .

الكلام الأزرق :

قالت الأم : بهت الهواء يا ولدى وتبضت الفضة .
رد صابر : بهت السمك يا أمى ومن يبيع الهواء لا يقبض الفضة .
قالت الأم : بهت ما لا تملك يا ولدى .
قال صابر : السمك فى الماء يا أمى .
قالت الأم : لكنك لا تملك سمك الماء يا ولدى .
وسألها صابر : ومن يملك سمك الماء يا أمى .
قالت الأم : لا أحد يا ولدى لا أحد .

قال صابر لأمه : صرر المال تحت حزامى .. أدخل حارة التجارين فيصنع لى التجار القارب من خشب التوت وأنا أشتريها ، وأبحث عن صيد قليل النط كثير الصيد وأقول له: اركب القارب وارم شبكتك فى الماء ولم السمك من الماء وكومه على الشط وخذ أجرة يومك منى ، والحمال لو رفع السمك وحطه فوق العربة سأدفع له أنا أجرة يذنه وعرق جبينه ، كذا الحوزى سيأخذ أجرة منى لما ينقل السمك من شط النهر إلى السوق ، هكنا أفى بشرطى يا أمى وأرفع السيف عن رقبتي .

قالت الأم : حفظ الله عقلك يا ولدى ..

حديث الغلب وبكاء النواطير :

مر الشهر وقال صابر للشمردى (تجلد العقد) ومر بعد الشهر شهر وشهر واشترى صابر القارب ومر شهر وشهر وشهر وشهر واشترى صابر القارين . وقال للشمردى (أنا لا أرغب فى تجديد العقد) ، سأله الشمردى (لماذا) قال صابر (العقد ظلمنى يا شمردى نكتب العقد الجديد — وتقنع أنت بنصف ما تكسب اليوم) ، وكان صابر كلما مر شهر وشهر وشهر يشتري قارب صيد ،

وينادى الصياد الذى يحمل الشبكة على كفه ويقول له (اطلع فوق القارب فهذا أفضل من مشبك على الشلوط بقدميك) ، بعد عام ونصف عام قال صابر للشمردلى (اتقع ببيع ما تكسب يا شمردلى) ، قال الشمردلى (ما الذى غيرك يا رجل ؟) ، قال صابر (كن قنوعا يا صاحبي فأنت تكسب دين أن تقوم من ذكك) ، بعد عام فسخ صابر العقد بينه وبين الشمردلى ، ولما باع الشمردلى السمك بالسعر الذى يبيع به صابر اقتسما السوق ، لكن صابر خفض سعر السمك وخفضه فهرب المشتري من الشمردلى وهرب الشمردلى من السوق بما تبقى معه من مال وقضى بقية عمره فى محارة صاحبها مالطى .

هكذا بقى صابر فى السوق بغير منافس واحتكر بيع السمك :

اشتري قارب الصيد لكل صياد يروح على الشط بقدمين وفوق كفه شبكة ، وحذر الصيادين من صيد السمك الصغير وقال لهم (السمكة الصغيرة اليوم هى حوت الغد) .

وبدل الموازين وأمر المنادى بأن ينادى فى السوق (البيع من صباح الغد بالكيلو لا بالأقعة) ، وجاء بمصنف خبير بأنواع السمك ومنحه الأجر الكبير وقال له (قيم أنواع السمك واختر لكل نوع من السمك الاسم وحدد السعر فالتناس عيب وسادة وكلنا السمك أيضاً) .

وقال صابر لرجاله :

(اطرحوا نصف حاجة السوق من السمك الحى والباقي ملحوه .. بذلك نرفع سعر السمك الحى ، ونحدد نحن سعر السمك المملح) .

وقال صابر لنفسه :

(ها أنا بقتل الراجح أحكم السوق بقلب الأسد ملك الحيوان) .

حديث صابر مع الزمان :

أطل صابر من شرفة قصره وكلم الزمان :

- ملك السمك الحى والسمك المملح (عجوز) .
- خالق الرحمة بالأسواق (وحيد) .
- مالى يجرى القارب والصياد والحمال والحوى والعربة والبغل والحمار ورهشة الرسام (وأنا جامد) .
- عربى يجرها حصان أبيض وحصان أسود (وأيامى يجرها ليل أسود ونهار أبيض إلى المقيّة) .
- يفسحون الطريق لى أنا الملك حامل السوط (وأنا راحل وهم باقون) .
- كما يرقد المال فى خزانتى سأرقد (بلودا كالفضة)
- يا أيها الزمان أنت الوحيد الذى لم أهرمه (كأنك أنت الملك) .
- بذهى سأشتري أجمل بناتك أيها الزمان لتلبس بهدى ثوب الحناد . وتنفع بطنها من أى ابن زانية هذا فيما لو عجزت أنا وعزائى أن تظل ألسنة النار مشتعلة بالأسواق تُحدث الآتين بخيرى .

ترنيمة للأمير

كنت بهزارة صديقي ، وكان أستاذنا ، وهناك التقينا فقلت لنفسي .. أخ ..
تلك فتاتك الموعودة .

وكانت هي تكلم الأستاذ وتسمع منه وتضحك وتميل لقدام فتطير خصلة من
شعرها الأسود وتحط على جبهتها فتدها يديها وتعود لوراء كما كانت : كما لو كانت
الغصن يا أميري يواجه نسمة .

بيديها يديها .. آه يديها — وقد قامت — صفت الورد ورسمت اللوحة
بالوان وعطر يا عقل وغادرتنا « هكذا سريعاً » وابتمت وسلمت وابتمت :
كأنها قالت لي أهواك هكذا سريعاً ، وهكذا سريعاً غادرتني ، وتلك الرائحة التي
خلفتها ما كان بمقدور الورد أن يفوح بمثلها — وهل يجزؤ الورد .

طالبني صديقي بالبقاء وكنت راغباً فيه : لقد كانت هنا ، وقال لي من عمري
وأنا محتاج للمال لأعيش .. أنا الأستاذ كنت أبغى التطوع بالجيش الذي سافر
للحرب باليمن فمرتبات الجند هناك كانت عالية .. لكنني الآن أفكر في الزواج من
تلك التي أحبها — مع أن الفرصة أتتني الآن لأسافر لليمن معلماً يراتب يفوق

راتب جندين إلا أنها لا تحب غير المدن .. وها أنا كما ترى حائر بين حبي ومستقبل ومستقبل وحى ، وسألنى أيهما الصحيح الزواج أم السفر ؟ ها هو الفالح يطالبنى بالإجابة ، زلو قلت له (مستقبلك) فقال (حى) ، وأنا أعرف أنه يقصدها هى ، دعه فهو لا يعلم ، لكن يا أمى للصديق على الصديق حق لا يعرفه إلا الصديق ، من جانبى سأدمن الخمره فهى كفيلة مع الألم أن تأتى بالنسيان ، نعم سأدمن الخمره — ما الذى بقى ؟ .

فى البار — بعد السنوات أمتنى أخباره : لقد سافر إلى اليمن وتزوج من يمنة مات زوجها اليمنى فى حادث جد مؤسف فورثت الأرض الواسعة الجيدة تزرعها بنّاء ، بعد زواجها الثانى لم تعد تباع البن أخضر ، فقد أشار عليها صديقى بشراء محمصتين ومطحنتين وكذا مصنعا لتعليب البن وقال لها : بمصر عاصم كثيرة ومصانع لتعليب البن كثيرة معروضة للبيع بسعر قليل — وتلك فرصة لابد أن تقتنص ، وافقت هى واشترطت أن لا ينزل هو بالفنادق الكبرى فسمعة الفنادق الكبرى تعرفها هى من أم لها ماتت ، وقالت له من الأفضل لنا شراء بيت بالقاهرة لتكون القاهرة لنا مسكنا شعبا ويبقى اليمن مسكنا صيفيا ، وكان هو قد تعود بفضل ذلك الشعور القديم بالفقر أن يعمل بما تشمر به زوجته الغنية التى أطلقت حوله العيون : من وقت يقطع بالطائرة من صنعاء إلى أن يهبط بمطار القاهرة ... يقضى نهاره وبعضا من ليله بين المحامص والمطاحن ومصانع التعليب ويعود إلى البيت — تنبجه العيون — مهلودا فينام .

(فى الحلم قابلها صدفه فلامته وقالت له : لقد شغلت عنى بالمال ويزوجتك الأرملة الغنية اليمنية ، فقفز من نومه فرعاً لتكسر ساقه ، لكنه أصر على السفر بساق مكسورة : قصد مطار صنعاء وحده وركب الطائرة المقلعة لمصر ، وبمصر بحث عنها ولم يلم يجدها بحث عنى أنا الصديق المخلص مدمن الخمره فوجدنى فى البار)

ذلك ما قاله لى ...

(سافرت إلى فرنسا لزيارة شقيقها المتزوج من فرنسية وهناك تزوجت من شقيق (الفرنسية) وقتلت له (هذا كل علمى) .

وكل علمى بعد ذلك — يا أميرى :

أن الأستاذ عاد إلى اليمن مغموماً ، أدمن القات يعضفه ويمصه ، حتى قالوا
ياأميرى—جن ، وفعلت العجينة كل ما يمكن أن تفعله زوجة غلصة : أتت له
بالحكماء المعالجين من كل بلاد الدنيا .. وبناء على تعاليمهم اشترت له طائرة
هليكوبتر كانت تقودها بنفسها — هى المحبة — خرقا عليه ، وذات يوم غافلها —
هو المدمن للقات — وركب الطائرة وحمل معه خارقة ودليل فرنسا وكان يخفيها فى
ثنية سرواله ، وطارت به الطائرة إلى قدره وقدرها ، وكانت هى تطل من بلكون
تشير بيدها إلى تلك الحقائق الفرنسية الشهيرة — فظن العاشق المجنون مدمن
القات أنها تشير إليه هو ، ولما لم يحسن الهبوط اصطلم جسم الطائرة بإفترس
البلكون، فاحترقت الطائرة وأحترق هو واحترقت هى ...

وها أنا أيضاً — ياأميرى — بالخمرة أحترق .

حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطيور الجارج

أمام دار السينا — التى تعرض فيلماً ملوناً عن البنات والبحر ، كانت طيور
المواء تحفف شعر البنت القادمة لتوها من البحر ، وكان البيغاء المحبوس داخل
قفس كبير ملون معلق على باب السينا يردد : فيلم ملون .. البنات والبحر فيلم
ملون ، وكانت البنت الجميلة التى تنتظر صاحبها الجميلة — تدق بقدمها
النشيطة الأرض ، تدق الأرض ليرتج الثدى وبين الفخذ ويلطم الثوب الركبة —
فيصرخ البيغاء — الذى يجهل حب البنت الحلوة لبنت حلوة : البنات والبحر ..
فيلم ملون .

الولد — القادم من تحت الأشجار — وقف ، ورأى .

والحمامة — التى ترى بعين سليمان النسي — رأت ، وطارت لتخير سليمان النسي
بما رأت ...

والحمامة — من فوق برجها العالى — رأت ، وحضنت فرخها أما اليوم —
فمن عجب أنها لم تهتم ...

ونوارس البحر — لم يكن بمقدورها أن تخلق بالأعلى لترى—والقواس الطائر ،
مر ، وما رمى بسهم العشق قلب البنت ورمى بسهم العشق قلب الولد .

وأنا الذى رأيت — تقدمت ، للبنت التى تبيع التلاكر — والتى تلبس
ملابس الطاووس ، أريد تذكرتين (تذكرية للولد القادم من تحت الأشجار وتذكوة
لى) .

لكن البنت — التى تلبس ملابس الطاووس — صرخت كما يصرخ الببغاء :
الفيلم للبنات .. وعن البنات والبحر .

لما رجعت أنا الخائب — يا أميرى ، رأيت الولد يدمى بمنقاره أجساد فتيات
الإعلان — الطالعات والنازلات البحر — الواحدة تلو الواحدة .

هكذا يا أميرى فررت — من مكان العشق على أرضه مستحيل ، وأنا
أضرب الكف بالكف من اختلاط الأمور فى هذا الزمان ، ولسان حالى يقول :
لا حول ولا قوة إلا بالله .. وآه من زمان أميحه .

حكاية علي
لهان كلب

أيامى فى الريف

أنا ابن الصدفة العمياء

اسمى محظوظ ، ولاسمى حكاية تحكيها أمى : « ولدت جروين وجروين وجروين .. وكنت أنت أحدهم .. » وقال صاحب الدار لأم أولاده : « اختارى يا أم أولادى من تلك الجراء جروا يحيا مع أولادنا » . أشارت زوجته إليك — وقالت : الذى نصفه أبيض ونصفه أسود . فقام صاحب الدار وحمل اخوتك ورواهم فى الخلاء البعيد — للجوع والبرد والريح والمطر والحيلوان المفترس . وتقدم أبوك منك وشمك ولعقلك — وقال : أنت محظوظ . فقلت أنا : ما رأيك لو نسميه محظوظ ؟ . رد أبوك : موافق يا أم محظوظ .

القاتل وأنا فى بيت واحد

لما رأيت صاحب الدار نهبت فى وجهه : أنت رجل بلا قلب ، ونهبت فى وجه أبى — لما رأيته يهز ذيله مرحبا بصاحب الدار : كيف تحب بقاتل اخوتى ؟! . رد أبى : لقد فعل الرجل ما فعله لأنه كامل العقل يا صغير العقل .

قلت : ما دام العقلاء قتلة .. فلنبحث عن بيت صاحبه مجنون . وتهدت أمى :
حتى المجنون لا يقبل قبيلة من الكلاب في بيته . وقال أنى : هل يطعم الفقير قبيلة
من الكلاب ؟؟ .. هه آآ؟ الرجل غير قادر وعنده قبيلة من الأولاد . وتهدت
أمى : نعم .. الفقير سبب كل بلاء .. الفقر هو القاتل يا ولدى .

صاحب الدار وأنى واللصوص

— يا دنيا .. أمورك غريبة « وأحوالك عجيبة » !!
أنى وصاحب الدار — كلاهما يبيت خارج الدار. أنى يحرس الدار بالليل من
اللص — والدار مبنية من صفيح وطنين وقش !! . وصاحب الدار يحرس بالليل
بستان الغنى من اللص — والغنى نائم !! . أنى ينبع كل الليل — بسبب ومن
غير سبب — حتى يخاف اللص فلا يقترب من دار ليس فيها ما يسرق !! .
وصاحب الدار يقضى الليل كله يتمخط ويهتق — بسبب ومن غير سبب —
وقد يطلق رصاصه في الهواء ثم يزعم « من هناك ؟ » : هكذا يخاف اللص فلا
يسرق البستان ١ . وأنى لا يملك الدار !! وصاحب الدار لا يملك البستان !! .
أما اللصوص فيسهرون بخارج الدور — لأنهم بغير دور ، وهم أفقر من أنى ومن
صاحب الدار .. ولذلك فهم يطمعون في أشياء صاحب الدار القليلة — لولا أنى
الصاحي يقط !! .. وهم طامعون في بستان الغنى النائم — لولا حارس البستان
الساهر والقاطض بيديه على بندقية تخرج النار الحارقة من ماسورتها !! .

يوم لا أنساء

جاء ضيوف من أهل المدينة — لقضاء يوم في الهف ، وقفز الأولاد والبنات —
من العربة المكشوفة التى تشبه الأروزة — وعانقوا وقبلوا أولاد صاحب البستان وبنات
صاحب البستان .

ونظت من العربة كلبة بيضاء .. قليلة الحجم .. نظيفة .. يكسوها شعر
غزير ، وكان اسمها « لولو » ، وكان برقبة لولو طوق من الجلد تدلت منه أجراس
تدق وتنشر النور ، وكانت لولو رشيقة الخطوة .. مشبها على الأرض يشبه الرقص .

أخاف - يائى - أن يطير عقل من رأسى

قلت : ليت أمى فى مثل جمال لولو .
رد أبى : الطبيعة هى التى أهدت لولو شكلها الجميل .. يا جاهل .
صححت كلامى : ليت الطبيعة أهدت أمى مثل جمال لولو .
رد أبى : لولو من عائلة اللولو .. ونحن من عائلة البلدى .. يا مغفل .
قلت : ولم ظلمت الطبيعة أمى وأنصفت لولو ؟ .. الطبيعة غير عادلة يا أبى .
نبح أبى فى وجهى : لا تنبح فى وجه الطبيعة أم الكائنات أيها الغبى .
وتركنى أبى - مع أمى - ونط فوق سور البستان

يا أمى : أخاف أن يطير عقل من رأسى

قالت أمى : مالكة السيارة هى صاحبة لولو،هى التى أهدت لولو الطوق وهى
التي علمت لولو كل لغات الأرض .
فقلت لأمى : وهكذا ظلمنا صاحب الدار - لأن الدنيا ظلمته .. يا لها من
دنيا ظالمة .
قالت أمى : اتقع بنصيبك يا ولدى .. لا تعاند .. هيا هنا نلحق بأبيك ..
فهناك ولجة أقامها صاحب القصر ببستان القصر - حتى يرى الضيوف وهم
يأكلون : الخضر والماء والمنظر الحسن .

عقل سيطر من رأسى

من فوق سور البستان - نظرنا إلى مكان الأكل .
كانت لولو تأكل من دجاجة مشوية راقدة فى طبق .. وتلحق الخضر والمرق من
طبقين .. وتشرب الماء - الذى رشوا عليه ماء الورد والسكر - من طبق ، وكان
أمام الضيوف وأهل القصر مائدة فوقها البط المحشو والحمام المشوى والدجاج المقلى
واللحم المسلوق ، وكان الضيوف يرمون البقايا من شحم وجلد وعظم فى أطباق ،
وكان الخادم الذى يلبس الطرطور يرمى مافى الأطباق على الأرض - لتأكل كلاب

صاحب البستان التى تشبه الذئاب ، وكان صاحب دارنا يقف كالناطور ويحاربه
خادم بيده حورق الماء الملون .

قلت لأنى : أتيئا لتأكل .. وما نحن نتفرج .

كشر أنى : لست وحدك الذى يتفرج بإجرة الكلاب .

قلت : هاهى كلاب أرمنت تأكل .

زام أنى : هم أهل المكان ونحن غرباء .. هل فهمت يا بلدى يا ابن البلدى ؟

وقالت أسمى : الأكل كثير يا محظوظ .. بعدما تشبع كلاب أرمنت وتعاف
الطعام — سنأكل أنا وأنت وأبيك حتى تشبع .. سيبقى الكثير يا ولدى .

هممت بفتح فمى — فزعت أنى : إخرس .. لا تفسد على متعة الشم فهى
عندى كمتعة الأكل . ونظر لأسمى — وقال ساخراً : إبحثى عن ريشة وضعها فوق
رأس ابنك فهو يظن أنه الملك ..

قلت : لا يألئى .. سأبحث أنا عن ريشة وأضعها فوق رأسى .

وقفزت من فوق السور ، وجهت إلى الطعام ، وأمسكت بعظمة بها لحم .

معركة غيرت مجرى حياتى

حاول الكلب الأرمنت الصغير نزع العظمة منى — فضربه بالعظمة على رأسه
ضربة جعلته يصرخ ، وتقدمت أمه مكشوة فكشرت أنا ولوحت بالعظمة
مهدداً — فوقفت فى مكانها تزوم . وقفز الأب ناحيتى فراجعته خطوتين وملت
شبين — فوقع على الأرض . ولما قام وواجهنى بعينين تشتعل فيهما النار — ضربه
على عينه بالعظمة هكلاء لم يعد يبصرنى فطاشت كل ضرباته ، أما أنا فقد
أشبعته ضرباً بالعظمة .

المحاكمة

جاء أنى بجبرى ، وكان غاضباً ، وعرضنى فى أذننى أمام الجميع ، ووصفنى
بأشنع الصفات . وهتف ولد من الضيوف :

اتركوا الكلب الصغير يصارع الكلب الكبير .. أهدأ أن أتفرج . وصرخت
بنت من الضيوف :

لا .. لا .. لولو خائفة .. إبعثوا هذا الكلب الصغير المتوحش .

عند ذاك صوب حارس البستان بندقيته ناحيتي — فجهت واختفت بين الأشجار .. وأنا أنبج وأكيل له السباب : يا ناطور .. يا ناطور .. أنت تتفرج وهم يأكلون .

الخطبة التي جعلتني أهاجر

هاج أفى وماج ، وارتمل خطبة قال فيها كلاماً له ثقل الأحجار — كان يتساقط فوق رأسي وأنا منكمش تحت الأشجار :

« سيداتي سادتي .. أنا أحييكم برأس محنية .. وأعتذر لكم أيضاً برأس محنية .. في يوم أغبر ولدت شريكة حياتي هذا الكلب الفاسد .. في هذا اليوم بكت السماء فسقط المطر. وكفت العصافير عن التغريد وجف في حلقها النشيد .. ومرت الأيام وكبر الفاسد فقلّ ماء النهر وقل حجم القمر في السماء .. واليوم أفسد الكلب الفاسد متعة الضيوف عولاهن كلاب الأرمت ، وأفرع المحترمة لولو .. ومن اليوم سأرى أنا الكلب الصالح النور ظلاماً والظلام نوراً .. هكذا تختلط الأمور بإسادة — حين يتطاول مخلوق من مرتبة سفلى على مخلوقات من مرتبة عليا .. ومن اليوم — لا هو ابني ولا أنا أبوه .. سأطرده ليعيش عيشة الكلاب الضالة .. وسيعلم بعد فوات الأوان — لما تسقط على بدنه عصا الشحاذ — أن انتقام السماء عظيم .. وصدق الذي قال (لا تشتري العبد إلا والعصا معه — إن العبيد لأنجاس منكبد) .. والسلام عليكم » .

صدق الضيوف وصغروا ، وهتف بعضهم بحياة أفى ، وهتف بعضهم بسقوطي .

الوداع

بحثت أفى عني ، ووجدتني ، وقالت وهي تبكي : قلبي هداى إلى مكانك يا ولدى قبل أنفى ، وقالت : كبد أملك يتمرق يا ولدى .. وأبوك تكلم بلسان الحرف ..

قلت : لا تحمل همك وهني يا أفى .. أنا كرهت الحياة هنا .

فسألتنى : وإلى أين أنت ذاهب يا ولدى ؟
قلت : خلف العربة .. إلى المدينة .. وراء لولو .. سأجرب حظى .

الرجيل من الريف

جريت خلف العربة ، وناديت لولو المنكმشة فى حضن صاحبها : لا تخافى
يالولو .. ولا تصدق كلام ألى عنى .. أنا كلب طيب ومعجب بك .. والطريق
الطويل يحتاج لأنيس .. أنا ذاهب إلى المدينة وأنت من سكانها .. أنا لا أعرف
المدينة وأنت تعرفها .. ساعدنى يالولو .
أخيراً تكلمت لولو — فابتسمت أنا . قالت لولو : لقد أفزعتنى بتصرفك
المتوحش .. لكنى لا أمتنع عن مساعدة من يهذ المساعدة . قلت : عشت يا
لولو .. ودامت لك النعمة التى تعيشين فيها .

فقلت : أشكركم والآن كف عن الكلام حتى لا تغضب صاحبتى منى ..
وتعال بالغد مع الشمس إلى الفيلا التى ستقف أمامها العربة .. ستجذبى وحدى
ألعب فى الحديقة .. باى باى ..

أيامى فى المدينة

ليلة فى شوارع المدينة

ليل المدينة بنهارين .. كل نهار بشمسين ، والناس فى المدينة يمجرون على أرض الشوارع كماء السيل .. ملابسهم غريبة — وكأنهم فى مولد أو عيد .
رأيت العجب — وأنا اتسكع فى أسواق المدينة :
الطير الملون المحبوس — يضى داخل القفص ٩١ ، النور بكل لون ، الألوان تغمز وتتبادل الأماكن ، المخلوقات والأحذية والياب وكرة الطفل — محبوسة داخل أقفاص من زجاج ، المرأة المعلقة على الحائط تصرخ بغير صوت — وهى تفرق فى ماء البحر — ولا أحد ينجدها ١١ . الحوانيت أغلقت أبوابها — فقل النور واختفى الناس ، لولا وجود العربات وأصحاب العربات لنبعت أنا فى وجه المدينة : يا مدينة هجرك سكانك .

تمكن التعب من بدنى — فوقفت أفكر فى حالى ، وأفقت من أفكارى على قرصة فى أذنى — فهرشت أذنى . وهمس صوت فى أذنى : لا تهترس من فضلك

فأنا غملة . نبحث . بفضب : ابتعدى . همست : ابتعد انت أيها الكلب عن هذا المكان .. وأبحث عن مكان آمن يحملك من بنقية الصياد . قلت : أنا غريب يا غملة .. قادم من الريف .. لأصاحب لى هنا ولا بيت . همست الغملة : مسكننا قريب .. تعال معى وقابل أمى الحكيمة .. أمى ستساعدك يا كلب — فهى تفهم أكثر منى لأنها أكبر منى . قلت : أنت خيرة يا غملة . فهمست فى أذنى : أنا صابرة .. اسمى صابرة .. وسأقدم لك خدمة مقابل خدمة . قلت : اطلبى يا غملة . همست : سأبقى هنا بجوار أذنك وأتفرج على الدنيا .. لأن ما تراه أنت فى ساعات — بفضل خطواتك الواسعة — أراه أنا فى شهر وعامين . قلت : اتفقنا .. موافق يا غملة .

التصقت بساق الشجرة — فزحفت الغملة الحكيمة وحطت فوق أذنى وهمست : لو كان بيتى يسعك لقلت لك : « أهلاً بك فى بيتى » .. وأنا لا أنصحك بالبقاء فى المدينة — حتى لا تموت ميتة الكلاب على يد صائد الكلاب . قلت : لا أريد أن أغادر المدينة .. لى صاحبة تعيش بقصر وسأقابلها فى الصباح .

همست الغملة الحكيمة فى أذنى : أنت كلب طموح .. ولكن لا تدخل المدينة بالنهار . فسألتها : وهل تبغى لولو هلاكى ؟ .. ردت الغملة : لا تفهم كلامى بالمقلوب ولا تعظم لولو .. لولو تعيش فى قصر — ولا يعرف عيشة الشوارع إلا من عاش فى الشوارع .. ولولو قد تمشى فى الشارع — فهل كل من يمشى فى الشارع يعرف عيشة الشارع ؟ . الشارع بحرمان مالخان يا محظوظ — أنا أحزنك من السير بالنهار فى شوارع المدينة ، لأن صائد الكلاب يعمل بالنهار وينام بالليل ، وتلك خصلة حيوة من خصال أولاد آدم . قلت أنا بحزن وفرح معاً : ضاع لقاء لولو .. والمدينة مباحة بالليل .. ولا أعرف المكان الذى أختفى فيه بالنهار .

ردت الغملة الحكيمة : لا .. اذهب الآن إلى قصر لولو واترك ابنتى هناك .. وستقول لها لولو ما تريد أن تقوله لك .. وعندما يحل الليل اذهب مرة أخرى إلى القصر لتعرف ما قالته لولو لصابرة ، وقد تقابل لولو .. واقضى نهارك بالأحياء الشعبية — فصائد الكلاب يعيش هناك ، ولكنه يعمل بالمدينة .. ككل سكان الأحياء الشعبية .

نهار يشوارع الأحياء الشعبية

الناس أكلوام ، والقمامة أكلوام ، والبيوت خالية من الرجال ، عامرة بالنسوة الجالسات أمام الأبواب يطبخن ويغسلن ويأكلن ويومين بالفضلات لنا نحن الكلاب — لكن الصبي المتشرد يطارد الكلب بالحجر وينزع العظمة من فم الكلب . النهار — هنا — شمس بلا عيون ، والحياة — هنا — عذاب ما بعده عذاب .

ليلة أخرى بالمدينة

على باب فيلا لولو أسندت رأسي — فحدثني الثملة صابرة بحديث لولو ، قالت صابرة إن لولو تقدر موقفى وتقيل اعتذارى عن موعدى معها « ولولو تعتبرى من أبناء جنسها الحيوانات. — مع إنى من عائلة بلدى » ولولو تعتذر الليلة عن لقائى لأنها تنام مبكوة « ولولو تسهر أيام الخميس — لكن خارج البيت ، وهى فى كل مرة مع صاحبها .. فى زيارة للأصدقاء أو لمشاهدة مسرحية أو سيوك » ولولو تقول إن اللقاء فى السيوك ممكن .. وعسير فى بيوت الصاحبات ، ولا يجوز فى السيوتا ، ولا يلحق فى المسرح » .

وقالت لى الثملة : لولو ستري ألعاب السيوك يوم الخميس المقبل — وهذا من حسن حظك — .. ولولو تركت لك قطعة لحم وفطيرة فوق قاعدة من الحجر يقف عليها تمثال من النحاس لأسد زاقد يبيخ الماء من فمه .. نُظف السور يا محظوظ وخذ قطعة اللحم وخذنى معك — لقد نلت مرادك من هنا . قلت : تعالى يا صابرة .. إن ضاقت عليك أذى حملتك فى عيني .

من أقوال الثملة الحكيمة

حكيت للنملتين ما جرى لى فى اليف — من الألف إلى الياء . فقالت الثملة الحكيمة : « أنا لا أحب الانسان ولا أكرهه .. وأعجب من ظلم الانسان لأخيه الإنسان . حياتك مع النمل ستعلمك الصبر .. نحن جموع النمل ننال بالصبر كل ما نريد » .

فى السوك مع لولو

دريت حول مبنى السوك دورتين من بعيد — حتى لا يعاملنى إنسان معاملة الكلب الشريد ، عرفت ملأخل السوك وخارجه — لأضمن السلامة إذا ما حدثت المتاعب ، سأدخل فى أعقاب لولو — فيظن الواقف على باب السوك أنى كلب صاحبة القصر ، وسأجلس بجوار لولو فى أدب ووقار — حتى لا تشك صاحبة لولو فى أمرى وتحسبنى كلب الإنسان الذى يجلوها .

ضربت المروضة الفيل بالعصا وأمرته أن يتام فنام ورفع أرجله فى الهواء ، وصفت لولو فصفت أنا ، ولما ضرب المروض الهواء بالسوط .. فرقع السوط وصفر الهواء ونحاف الأسد قعد على الأرض وقلد الفلاحة وهى تعجن العجين ، وقامت لولو وقعدت فقامت أنا وقعدت ، ومشى الدب بالدراجة على السلك الرفيع المعلق فى الهواء ، وقالت لولو أيتها الدب .. سنلتقى كل يوم محبس من أول كل شهر ، وقلت أنا : ليتى أراك كل يوم يا دب مرتين .

حديث القلب مع القلب

أمامى شهر ثم ألتقى بلولو فى السوك .. وبعد الشهر سنلتقى أنا ولولو — ثم نفترق لنتلقى بعد شهر .. هكذا ستمر السنوات والسنوات يا لولو — وأنت بالقصر فى أمان وأنا بالشارع فى هوان .. الشهر زمان يا لولو والشهر مسافة .. والمسافات تباعد بيننا والزمان يعادىنى، والسوك أحلى الأمكنة يا لولو .

أول هزيمة للزمان وهزيمة كاملة للمسافات

قالت لى الغلة الحكيمة : لو عرفت الجماعة ما تريد لاقتربت المسافات البعيدة .. قل لى كل ماتريد أن تقوله للولو .. وسأنتقل أنا كلامك لجاراتى القريبة .. وجاراتى ستنقل كلامى إلى جاراتها القريبة .. سيجرى كلامك من فم غلة

إلى فم غملة حتى يصل إلى أذن لولو ... وهكذا لا يتعرض القمل للمتعب ولا تتعرض أنت للمتاعب .

رسالة إلى لولو

سأعمل بالسرك يا لولو .. لا تندهشى وتجنى الحكمة من فم القمل .. بالصبر سأنال كل ما أريد .. المروض في السرك مسلح بالسندس والسوط — لأنه يخاف من لسعة السوط وغدر السندس .. أما أنا فسأعلم نفسي بنفسى — فلا تخافى يا لولو .. لن أحتاج إلى من يجلبنى أو يهدلى .. وأنا الآن أبحث عن ألعاب جديدة تصلح للسرك .. وحتى نلتقى — دمت لى يا لولو .

القفص ينكسر

(١)

حلفتى لولو : لن يكون موقفك اليوم افضل من موقفك يوم البستان . قلت : حسبت حساى يا لولو ولن أضيع الفرصة .. الكل هنا يضحك على المهرج وعلى محاولاته الفاشلة فى تقليد الآخرين .. وأنا سأشارك مع المهرج فى ثمرته .. إن فشلت فسيضحك الكل على كى يضحكون على المهرج .. ولو نجحت فسأخرج لساى للزمان .

(٢)

وقفت على الأرض بساقين ورميت ساقين فى الهواء .. ومشيت على الساقين الأماميتين مرة ، وعلى الساقين الخلفيتين مرة ، ووقفت على رأسى .. وكأ تندحرج ككرة الحظ تدحرجت .. ودرت كما تدور الساقية .. وما أنا فى الأرض مرة، وما أنا فى الهواء مرة أتفادى ضربات المهرج الطائشة .

(٣)

قال صاحب السرك — وعقد العمل بين يديه : من سيركى نال شهرة ..

وليس من العدل أن يعمل مع صاحب سيك غوى .. سأدفع له كل ما يريد
من مال .

وقالت رشا صاحبة لولو : براثو ميزو .. وقالت لولو : براثو .. رائع يا
ميزو ..

صوت واحد لم أسمعه .. صوت صابرة .. وقعت صابرة وأنا أصنع مجدى .

أيام هنا .. كل يوم بسنة

- ون -

صرنا نلتقى أنا ولولو بالسيك وبالفيللا ، وكان أهل الفيللا يرحبون في ويفخرون
بالرابطة التي تربطني بلولو وبهم ، واليوم هش صاحب الفيللا في وجهي وحش -
وقال لضيوفه : ميزو في سماء الفن نجم .. وارتباطه بالمجتمع الراق طبيعي .. هذا
حقه ، وأشار إلى الحائط : كنا داخل الإطار الذهبي نتسم من وراء الزجاج -
أنا ولولو ورشا ابنته ، وكانت الصورة الملونة معلقة في المكان الذي يستقبل فيه
أهل الفيللا ضيوفهم .

- نو -

إسمى ميزو أسكن فيللا بنام في حديقتها الياسمين ، عندي عربة ليموزين
وموتوسيكل ، أقوم بالعانى في السيك بقبعة ودراجة وعصا ، الطوق في رقبتي
والأجواس في قدمي من الذهب الخالص ، الباعة ينادون على تماثيل المصنوعة من
الحجر والبلاستيك والشمع والسكر الملون في القطارات والمقاهي وعربات الترولي
باس ، والدمى التي على شاكلتي محبوسة داخل فاترينات كل المحلات ، ولين ميزو
أفضل هدية تقدمها الأم لطفلها ، وكلما سرت في شوارع المدينة - سد على
المعجبون المنافذ وطلبوا بصمتي على صورتي ، ويشق لي حارسى المسلح الفجوة
التي أنفذ منها - فيرويني عشاقى بالورود وأصابع الحلوى واللوز المقشور .

- ثرى -

أرسلت الرسول إلى الريف — فجاء أئى وأمى واستقر مقامهما فى حجرة تليق
بهما بدار الرفق بالحيوان ، وحاول أئى تفسير مواقفه القديمة منى — فقلت له : لا
عليك بأئى .. عندما كنت تقسو على بلسانك — كنت أنظر فى عينيك وأرى
نفسى محاطة بكل حب ، وتركتهما — لأئى مرتبط بأداء دورى فى فيلم « ميزو
وعصابة المرأة المقتمة »

- نور -

اشتريت نظارة لأئى وأسنان صناعية لأئى ، وقلت لنفسى : لا بأس من وجودهما
بدار الرفق بالحيوان .. ولا مبرر للحزن، فلك دورة من دورات الزمان لا ينالها إلا
المترف والمخطوط .

هبة الكلاب أبناء الكلاب

تحت شمس الظهيرة — نصب العمال الصوان . دقوا أعمدة الخشب فى
الأرض ولغوها بالقماش المنقوش .. وعلقوا الرايات واللمبات الملونة .. وصفوا
الكراسى وأكail الورد .

وتحت النور — جلست أنا ولولو على كرسيين كبيرين .. نتسم للراقصة التى
تدق الصاجات وتتلوى كسمكة فى الماء .. ونقبل التهاى من أكرم وأعرق
عائلات اللولو والروولف والرومى والسلوق ، وفجأة سمعنا التباح العللى البغيض ودق
الطبول ونفخ المزمار البلدى وأفواه تغنى بصوت قبيح: « الدنيا حظوظ .. واليوم
يومك يا محظوظ » ، إنها وفود من الكلاب البلدى وكلات أرمنت زحفت إلى
عاصمة البلاد فى مظاهرات صاخبة لتحضر فرحى .

بان الفزع فى وجه كل الحضور : صرخت إناث السلوق وأغمى على ذكور

اللؤلؤ، وتعالى صرخات عائلات الرومى تطلب من الحرس المسلح العون فى وقت الشدة .

نظرت إلى حارسى وأنا أهوهو غاضباً : يا لهم من أغبياء .. لقد انقلب عرسى إلى مآثم .. فأشكر حارسى إلى بقية الحراس — وصرخ : اطلقوا الرصاص .. دعوا الرصاص يلعلع .

على النجوم مسامرة الموضة

اشتهت سبارة رولز رويس صفراء ، ونزعت طوق الجلد وعلقت فى رقبتى سلسلة من الذهب تلى منها تمثال لولو ربة الجمال وربة بيتى ، وعلى وسطى علقت الحزام الموضع بالختاف المنحوتة من الحجر الكريم .

الشهرة كشجرة الفاكهة : طعمها حلو وبذرهما مر

وقتى وزع بين السيوك والسينا والتليفزيون والإذاعة والسهرة والمقابلات والافتاقات — مع المنتجين والموزعين والمخرجين .. وعند الكوافير والمذلل والمعلم الأظافر ، لا أرى أسمى وأبلى إلا قليلاً — ولكنى أرسل لهما الهدايا والتحيات مع سكرتيرتى « سالى » وسائقى عربتى « فرج الله » .

الحرام والحلال

طبيبات الأرض كثيرة أمام عيى وفى متناول يدى — لكن أقل القليل منها مباح ، أطباء فرضوا على النظام القاسى — حتى يحتفظ جسمى برشاقتة ومرونته . متعتان لا أسمع فيها رأى الأطباء : تدخين البايب والفرجة على لعب الورق المسماة « كُنْ كان » .

الماضي يطاردني « أ »

ابني من لولو — له وجهي الكبير وجسم أمه الصغير. شكله المضحك أبهكتني وأصابني بأرق جعلني لا أنام — إلا إذا حضر الطبيب ورشق الإبرة في جسمي : ليجري السائل الأصفر في عروقي .

باسم ابني « لوز » حرف اللام من لولو .. وحرف الواو من لولو وميزو .. وحرف « ز » من اسمي أنا « ميزو » أبوه ، لكن الصغير الغبي ينطق اسمه هكذا : « لوظ » .. كأنه يهد أن يذكرني باسمي القديم « محظوظ » .. ذلك الأسم الغليظ على السمع والقلب .

الماضي يطاردني « ب »

بينما الكوافير يصفف شعري — أحسست بقرصة في أذني ، كتمت الألم ولم أهرش ، أجلت هذا الفعل الذي لا يتفق مع اللوق الراق — حتى أختلي بنفسي ، ولما اختليت بنفسي — سمعت الصوت يهمس في اذني : أنا الفلمة الحكيمة أم صابرة .. أتيت لأرى ابنتي يا محظوظ ، فنبحت في غيظ : أنا ميزو .. وصابرة هناك مع محظوظ ، وهرشت أذني — وأنا أعوي كذئب : والآن الحقني بهما في نار جهنم أثبتا الفلمة الحكيمة .. وبلغني سلامي إلى صابرة ومحظوظ .

الماضي يطاردني « ج »

لعمت الدورق الكبير الذي يطفح منه اللبن الدافئ — لتهدأ أعصابي النائرة ، ونظرت إلى المرأة — وأنا أكلم خيالي : قل لي يا خيالي .. خيالي من أنت .. خيالي ميزو أم خيالي محظوظ ؟! وقبل أن يد دخل الطبيب ورشق الإبرة في بدني فجرى السائل الأصفر في عروقي وتراجع الماضي . ولما أقبل النوح — وألبسني نظارة سوداء رأيت بها كل شيء يحترق .. كل شيء .. والنار تقترب مني، وأنا لا أتحرك ولا أفعل شيئاً ..

الطوق والاحورة

للشجر المورق العالى .. وللريح المغنية وللإنسان ،
— على الأرض ذات الخبز — فى قوته وفى ضعفه .

يسين الطاهر بجباله

القسم الأول

الغائب

مع الرجال رجل مصطفى إلى السودان ، وهو بعد صبي . مر عام والعالم الثاني .
يطوى شهو الأخير ، وما من خبر عن الغائب الغالي .

عقل حنينة قلب أم

عقل حنينة مع ابنها : هناك في البلاد البعيدة . وأذننا اليمنى التى تسمع —
هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور
من عامين . بعينها اليسرى ترقب : البشارى الراقذ فوق المصطبة التى تطوق جذع
شجرة الدوم .

(صار بعد العمر الذى مر كالثقة ، ترفعها من مكان به شمس ، وتضعها
بمكان به ظل ، يرقب الشمس الجارية فى السماء ، ويصرخ ، فى وقت : « أبنى
الشمس » ، ويصرخ فى وقت آخر : « أبنى الظل » — هكذا طوال النهار ، هكذا
يمر النهار ، وهكذا تمر الأيام التى تطوى الأعمار : هى وابنتها تحملان القفة .. من
الشمس إلى الظل .. ومن الظل إلى الشمس — لكنه رجلها فى الحلال ووالد
مصطفى وفهيمة) .

* سبق أن نشر « يحيى الطاهر عبد الله » الجزء الأول من هذه الرواية فى مجموعة « الدف
والصندوق » فى قصتي « الشهر السادس من العام الثالث » و « الموت فى ثلاث لوحات »

اليدان تلعبان — هنا — بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ،
والعقل — هناك — مع الغائب فى بلاد الناس البعيدة .

بحيث البشارى فى حديث يقظة

المصباح شح زيته واللبل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى
قليل ويول لا أتحمك فيه ، حزينة المخرفة تنطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو
حملت قشر الثوم ومن قدم تلوس كسرة خبز مرمية ، معلورة : هى امرأة ، الرجل
ينًا كابد ، عقلها مع الولد — والولد بالسودان البعيد ، قلب الولد من حجر وأنا
قعيد البيت ، أرغب فى النوم .. أشتهي ، لو نمت وطلال النوم — بدون أحلام
وكوابيس — سأذهب إلى الله الرحيم : أنا المسلم — وأتخلص من الأوجاع والعمر
المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخننت ومُر هذا الوقت البطيء الثقيل
الذى لا أحتمله .

من حكم الليل معلم القرى

- ١ -

نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحتترقت قبل أن تبلغ
الأرض : — لو مست البشر أو الحيوان أو الزرع وحتى الجن ! لتحول فى التو إلى
رماد .

- ٢ -

مصطفى الأصغر لكنه سيد فهيمة التى تكبو بعامين ونصف عام :

يضرها وتحبه ، والأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة وخوفها من
العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت . البنت ثوب أبيض طويل الذيل ، عليها أن
تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة ، وهل بالطرق غير التراب والوحل
والقش !!

الصبيّة مضطربة والليل رفيق الأفكار

هى بنت الأم والأب ، وهو شقيقها ، وهى تحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب .
فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت كانت تعتمد الفعل المعوج ليضربها ،
فتتصنع البكاء وتشتتمه ، هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف ، وجهه الرجل
يطفر بالدم الأحمر الدافئ ، والعروق فى رقبته تنفر وتكاد تنفجر .

يا حفيظ من غضبته ، هذا الذى كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل —
يكون أحمد المحروق الحارس فى سابع نومة ، يسرق مصطفى البلح ويبيعه ويشتري
الدخان ويدخن ، لم تقل فهيمة لأمرها حنينة ولا ليخيت والدها إن مصطفى
يدخن ، وحتى الآن هما لا يعرفان ، لقد كان مصطفى يهاب أمه ويهاب والده
المريض .

ولقد كان يسبح فى التربة مع الأولاد ، دون علم والده وأمه ، وعلى غير
رغبتهما ، خشية أن يغرق ، أو أن تحطف قلبه جميلة من بنات الماء فينساق خلفها
إلى الأعماق البعيدة الزرقاء .

خلع كل ملابسه ، وصار عاريا كما ولدته أمه ، تبعته فهيمة — لكن خفية ،
ولم تقل لوالديها ، وهل كان بمقدورها أن تقول ؟! ، وحتى الآن لا هو ولا هما
يعرفان .

خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسلفت فهيمة متسترة بالليل ،
وكان للبول المختلط بالتراب الجاف : رائحة ثمرة حمير خضراء عطنة ، وحين تتذكر
فهيمة مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمرة الحمير الأخضر العطن ، وفى السر كانت
فهيمة تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه — التى تلم جسده —
قبل أن تغسلها .

وها هى الصبيّة ترقب نجمها السارى وقلبها يرجف :
كم هى بعيدة تلك السماء الشديدة الزرقة ، وكم أنت مخوف — رغم البعد —
أيها الشقيق الغالى الغائب .

الشهر السادس من العام الثالث

مهمت العجيرة لترقص « الحلقان » المتدلية من الأنف والأذنين ، وسحبت من مقطفها صرة من التماش ، فكَّتها ، فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها ببيضتين . قالت العجيرة : « ثلاث بيضات » ، وابتمت وهي ترمي فهيمة بنظرة ، ولعت ستنها الفضية ، وتمت : « مليحة الصبية .. كالقمر لما يكتمل » . نحت حزينة « الحلقان » وهي ترقص — قالت : لن أتركها تخطف ابنتي .. تلك التي لا دار لها ، سارقة الكحل من العين ، سارقة الدجاج والأطفال ، لن أتركها تسرق ابنتي ، لكنها تعرف كيف تكلم الحجر وتسمع منه ، ثلاث بيضات ثلاث بيضات ، مهه .

ما قال الحجر وما قالت العجيرة

أراه ، ها هو ، اقترى يا أم وانظري :
قطار من حديد أسود رمى خلفه الدخان والأهل والتراب والزرع والبيوت ،
وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء ، والرمل الأصفر على الجانبين ،
وبالبلاد ملوك ، وشمس جانبية في السماء وشمس تجري في الماء ، في الماء قمر وفي
السماء قمر : إنها الأيام والليالي يا خالة ، أبشرى يا أم : في الشمس الثامنة حط
ابنك على البر بسلام .

خبير

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبي الموارب ضربت ضلفته الواحدة
بقدمها ، وزعقت : « آماه .. آماه » . تمكَّك حزينة غضب — سمعت خبط
الضلفة الخشبية بالحائط الطيني وصراخ فهيمة وصوت الجرة التي سقطت من
فوق رأس فهيمة فانكسرت ، قالت حزينة : « الرعناء » . وصرخ البشارى ونفض
عن رأسه الغطاء : « البنت تصرخ في سوق على بضاعة بارت .. ما الذي
حري ؟ .. هل قامت القيامة ؟! .. » صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد
الحكم لأهله . قال بخيت البشارى » : البنت ما تزال تنادى في السوق .. من
يكون عبد الحكم ؟ .. مالنا ومال عبد الحكم ؟! . قالت حزينة : « عبد الحكم
ابن تقيدة بنت على .. رفيق مصطفى في غرته » . قال البشارى : « عبد الحكم

بن طه محمد .. تقصدان عبد الحكم ابن طه الحاج محمد .. ههه ؟ ، وسأل
مستفسراً : « ومصطفى !! ما أخبار مصطفى ؟ » . نظرت حزينة للحجة
المكسورة وانقبض قلبها : « هذا النذير » ، وردت على بحيث بعد وقت وقد همت
لبس يردة الخروج : « منهم سأعرف .. سأعرف منهم » .

بشارة

في خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله : ها قد ارتاح بال
حزينة ، جلست مع النسوة ومع تقيدة بنت علي أم عبد الحكم ، أكلت تمرأ ،
وشربت شاياً ، وصحبت خمسة أطنان من الكلام عن الرجال وعن مضمون الخطاب
وعن المال ذلك الحلم ، ورددته كالبيغاء على مسامع البشارى وفهيمة :

« بيتون في خيام تجاورها خيام ، والأرض ذات الخير محتاجة لماء ، يشقون
الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية معهم في الخيام وفي العمل عساكر سود
يرطنون رطانة الانجليز الحمر ، وصوت الوحش البعيد يسمعه الرجال ، والثعابين
كبيرة برقيتها أطواق سوداء ولها أجنيحة ، وكذا العقارب كثيرة ، السودان بلد
الأولياء والصالحين وأهل الخير وبلد السحر والأحجية والمهدى المنتظر بعض أهل
البلد يستطيعون لحم الآدمي » لكنهم يسكنون الغابات بعيداً عن الرجال .

الحمد لله والشكر لله

باكو دخان معسل كبير مرسوم عليه نجمة قايعضت عليه حزينة منصور
الصادق صاحب دكانة الأمانة ، أعطت حزينة منصور الصادق ست بيبضات
وأخذت باكو المعسل وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى في جمع النذور ،
وطلبت حزينة من يوسف سليم أن يعطي باكو المعسل للشيخ موسى وأن يطلب
من الشيخ صاحب الدعوة المقبولة من الله أن يدعو لمصطفى بالسلامة في بلاد
الناس .

نقاش

قال نحييت البشارى الحزينة : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ،

وفكر : « باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة » .

فكرت حزينة : « بحيث البشارى كان يريد الدخان لنفسه .. كى يأمرنى بإشعال النار فى الحطب .. ويأمر البنت بوضع الماء فى الجوزة .. وينفخ هو الدخان من فمه وأنفه ويكركر كالسلطان ، يوسف سليم رجل طيب » .

وقالت لبخيت : « يوسف سليم رجل طيب .. فضله الشيخ على سائر أهل البلد واختاره ليكون نقيبه فى جمع النذور .. هل اختارك أنت ؟ » .

فكر بحيث البشارى فى حزينة التى عرفها من المعاشرة الطويلة : « حزينة مناكدة .. هى الآن تريدنى أنا .. تريد لحمى لتتشنه .. أنا رجل البيت .. لما كنت أملك عافية الشباب كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الفطاء لو صحت حزينة أو فهمية على صوت بكائى سأصرخ فيهما : اتركانى لحالى .. أبكى من العلة .. لأشء .. دعائى .. أبكى من العلة » .

قالت فهمية حتى تبدد الصمت بين الأم والأب : « الشيخ موسى كله خير وبركة » . وفكرت فهمية : « وهو فى مثل سننى خلع ثوبه ورماه فى الماء فظفاه الثوب وقعد عليه الشيخ وعبر النهر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق وليس ثوبه الذى لم يبتل » .

وعاد بحيث البشارى إلى نفسه يلومها — وقد خاف الضرر المخوف فى الغيب : « يوسف سليم رجل طيب .. كان يعمل بالتجارة ويكسب ، كانت دكانته حجرة من حجرات بيته تطل على الشارع .. ولما اختار الشيخ تلك الحجرة لتكون خلوته التى يعيد فيها الواحد الأحد كف يوسف سليم عن الجزارة وأصبح نقيب الشيخ فى جمع النذور ، والشيخ يغلّق باب حجّته عليه بالنهار ويظنّ الجاهل أنه بداخلها بينا الرجل الصالح يخوس هناك بمكة المكرمة حيث قبر الرسول الطاهر .. فى عام حجّ لمح الحاج حسن عبد الله الشيخ مندساً فى زحام الحجاج فناده — لكن الشيخ اختفى بقدرة قادر ، نعم فالشيخ لا يحب العلانية فى العبادة .. حتى وقتنا هذا لم يشاهده مخلوق يدخل الجامع ليصلى .. لكن الشيخ يصلى ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .. ومن يقول غير ذلك فهو جاهل بمقام الأولياء » .

لولا المرض الذى يقعد بجنت لزار بجنت الشيخ ، وقبل يد الشيخ ، ويكى بين
يدى الشيخ ، وجلس مع أحباب الشيخ ومريديه وسمع منهم وسمعوا منه ، وشرب
المعسل ، وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول ، وشارك فى الأذكار ،
وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

جواب

بعد ثلاثة شهور ونصف شهر من وصول رسالة عبد الحكيم طه لأهله
وصلت رسالة من مصطفى لأهله على عنوان الشيخ الفاضل .

أفاد مصطفى والده البشارى بالخلاف الذى نشب بينه وبين الرئيس عبد
الظاهر ، وطلب من والده عدم التدخل فى موضوع الخلاف وعدم مناقشته فى
ذلك الأمر الذى حسم . قال مصطفى :
« أنا رجل أعرف مصلحة نفسى ، فلا تدع الأفكار السوداء تتناكب من ناحيتى ..
كتبت أخاطب الرئيس سعيد عقيل بفلسطين الشام .. أرسلت خطابى بالبريد
العاجل .. وفات أسبوع كامل من يوم أرسلت الخطاب .. حال ما يرد الرئيس
سعيد سأسافر من هنا رأساً إلى فلسطين الشام .. سلامى إلى أمى الغالية حزينة
وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة تحت سقف بيت ابن حلال ،
يأتى. ويدق الباب ويقام العرس فى حياتك يا أوى : أطال الله عمرك » .

عطر الحبيب

فرغ الشيخ الفاضل من قراءة الرسالة وهم بطبها ، فخطفتها حزينة الملهوفة من
يده وهمتها وقبلتها ، وكذلك فعلت فهيمة ، وما عاد بجنت البشارى بقادر على
كتمان فرجه برسالة الابن فطلبها وشمها وقبلها، وحبس الدموع حتى لا يفضح
ضعفه وهو. رب البيت مازال .

ذلك المجهول

الفرحة برسالة الابن الغائب أنست الجميع أن يسألوا الشيخ الفاضل عن
كتب الخطاب لمصطفى الأوى . أما الشيخ الفاضل فهو الوحيد الذى قرأ تلك

الجملة على ظهر الخطاب :

« مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب .. والسلام لساعى البئد » وسأل
الشيخ الفاضل نفسه « من أنت يا محمد أحمد ؟ .. ومن أى بلد أنت ؟ » .

قلب العذراء فى الصندوق

« أ »

فجأة تقل رغبة البنت فى الكلام مع الآخرين من حولها لما تشعر بثقل الحمولة
على الصدر ، تظل بعينها من مرتفع على الصدر الذى انشق وترى الشدين همسين
طالعتين ، فيكلم حوارهما مع القلب :

« عيسى قادم على حصانه .. عيسى راكب فوق سرجه .. عيسى يطرق
بابنا وأنا التى ستفتح الباب .. إن لم يكن اليوم فغداً .. إن لم يكن اليوم فغداً
وتلك مشيئة الله .. يا فرحتى لو جاء غنياً .. ولو جاء فقيراً فهذا نصيبى ..
الغنى للغنى والفقير للفقير . ولكنى مليحة فهل ترائى عينوك أبها الغنى مليحة ..
كل ما يروق لك عندى يا رجل .. هذه هى أشياء الجميلة فى صندوق الخشى
الحلى بصورة الزنابق خليفة والهلل سلامة وكليب وجناس والبسوس المولولة :
مكحلة .. ومناديل ملونة ذات شراشيب .. وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونة
معطرة » .

« ب »

فنتح فهمية صندوقها الخشى ، وأخرجت من بين طيات الثوب المنقوش
رسالة مصطفى ، وهبتها وقيلبتها ، وما شبت وما ارتوت ، ونقلت عينها بين
الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق ، وقالت لنفسها
وهى تخاورها :

« هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف
والصدر وشارب مقتول ! .. وهذا هو الزنابق خليفة المصروع بيد الهلال سلامة
يحمل تحت أنفه شارباً مقتولاً أكبر من شارب الملك ! .. وهذا هو الهلال قاتل

الزناقي بغير نياشين على الصدر والكثف ! .. ومصطفى يوم سافر كان بغير شارب .. فهل له الآن شارب يقتله ؟! » .

من الشام

بعد مضي أربعة شهور من وصول رسالة مصطفى الأولى من السودان، وصلت رسالة مصطفى الثانية من الشام وبها حوالة بريدية — قال مصطفى :
« أنا بخير حال .. وفلسطين الشام جنة الله في الأرض ولا يشغل البال غير بُعد الأهل . » .

رسالة ثانية من الشام

ما مر شهران آخران حتى وصلت رسالة من مصطفى ، بها مال أقل من المال الذي بعث به من قبل في رسالته السابقة .. قال مصطفى :
« أنا بخير حال .. ولا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن الأهل والأوطان » .

حديث الشيخ الفاضل مع نفسه

فارق الشيخ الفاضل دار بخت البشارى، ورمى خلف ظهره خمسة بيوت طينية واطعة وحديث نفسه — هو الذى قرأ الرسلتين :
« جنينان .. فجنيه .. ثم نصف جنينه ؟! .. ثم يأتى دور « لاشئ » : هكذا يدخل الأبناء الحياة ويجريون ، المال فى يد الصغار مفسدة .. وفى يد الصغير المحروم كمصطفى مفسدة وأى مفسدة » .

ولمَّ الشيخ الفاضل فى ذاكرته تلك التفاصيل وابتسم :

- ١ — بيت بخت البشارى سرير جديد : لم يحف جهله الأخضر بعد .
- ٢ — حزنه تأمر فهيمة بأن تحضر حصيرة وتفرشها على المصطبة ليجلس هو : الحصيرة جديدة ومن عشب السمار .
- ٣ — أت فهيمة بكوب الشاي على صينية جديدة مرسوم عليها ورد أحمر كبير محاط بورق أخضر صغير لكنه كثير .

القسم الثانى

ما يخافه البشر

- أ -

ها هو يجتث البشرارى ممدد على سريره — الذى صنعه يديه من جريد النخيل ، قبل أن يقعله المرض من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ، ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأزرق والأصفر ، فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : « اركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل » وقالت حزينة لنفسها — وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : « ها هو يقاوم بعزيمة الرجال » .

- ب -

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانة الحريرى الأبيض من خلف وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه التنظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بمحصية فرشتها على المصطبة .. وقعد الشيخ الفاضل .

- ج -

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكثيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحك وتصدر أصواتاً أشبه يزحف الحيات ومنط دغل الحلقاء ، وضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحواطئ الفناء الضيق .

أشار الشيخ الفاضل بالفائدة التي تعود على المريض من شعاع الشمس الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت . فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، وقالت لنفسها : « سأجاري أُمي في كل فعل تفعله .. أنا لم أخير بعد هذا الذي خيرته هي » .

- د -

أدار الشيخ الفاضل وجهه بحيث للقبلة الشريفة ، وباعد بين الشفتين وصب الماء الطهور ، ومال على أذنه مجاهراً : « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله » ، وعاد الشيخ الفاضل وقعد على الحصيرة فوق المصطبة .

- هـ -

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة ، نحن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المختكة : « نعم هو ملاك الموت » . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفניה — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحصى عينها — فالتراب مهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين .

- و -

سمعت حزينة وسمعت فهيمة وسمع الشيخ الفاضل — صوت الباب الذي انفلق خلف ملاك الموت الحامل روح بحيث البشارى . فما قدرت البنت على كتمان الصرخة العالية ، أما الأم المجرمة فقد حبست صرختها وأطلقت دموعها ، فهي تعرف أن هناك واجبات نحو الميت عليها أن تقوم بها قبل أن تقول حان حين العويل . وتقم الشيخ الفاضل : « إنا لله وإنا إليه راجعون »

النسوة المعزيزات يشاركن حزينة الصراخ ويلطمئن الخد . وحزينة تعلم أن كل واحدة منهن تنادى موتاهما الغوالى — لا حباً لبخيت فى حياته ولا جزعاً عليه بعد مماته . أما هى فبعقلها — هناك : مع الولد البعيد الذى لن يحضر جنازة والده ، مع الميت ، مع الرجال بالفرقة القرية .

« يرفعون الشَّعْرَ عن الإبطون والعانة ، ويغسلون الجسد بالماء ، ويدعونه بعشب العفن المر ، يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ، يحملونه على خشبة ، ويصلون عليه ، ينزلونه فى الحفرة ثم يبيلون التراب عليه ، وعليها هى أن تتدبر فى أجر الفقهاء؛الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للمغفرة والرحمة .

على الأحياء واجب نحو أهل الميت

- ١ -

لأن الشيخ الفاضل يعلم حق العلم حرمة البيت فقد قام بواجبه :
اشترى الأكفان البيضاء التي لفت الميت من ماله ، وصلى بالناس إماماً ،
ودفع من ماله أجر الفقيه الذي قرأ القرآن على روح بحيث طلباً للرحمة والمغفرة .

- ٢ -

أيام العزاء مرت كل لحظة خاطفة :
بجيت البشارى فارق دنيا الأحياء ، فهيمة في مواجهة حزينة ، وحزينة في
مواجهة فهيمة ، ها هما وحيدتان ، عائلتهما الرجل في بلاد الناس البعيدة ، وها
هما — البنت والأم — في مواجهة عالم الناس وحيدتان .

والنسوة المعزيات شغلن الدار حركة في الأيام التي مرت ، أحضرن الشاي من
بيوتهن لكى تقطر حزينة وفهيمة ، وباليبيض والجبن لتتغدى حزينة وفهيمة ، وغالباً
ما كان العشاء اللحم المقل والخضار المطبوخ .

وفي صوت حزين يفتت الكبد كن يرتجلمان المراثى ، بعد تناول الفطور وعقب
الغداء وقبل الغروب .

من مرأى النسوة حفظت فهيمة ما تردده — الآن — بصوت خفيض ، حتى
ترد الواجب في حينه — لكل من شارك في مأثم الأب — بدلاً من الأم التي
شاخت :

« كَتَبَ الكتاب ياليتى شفته ، كسرت القلم والحبر نشفته »
« كَتَبَ الكتاب ياليتى رأيت ، كسرت القلم والحبر كَيْتته »

لوح الشيخ الفاضل بالسيف الخشبي في وجه الرجال — من فوق منبر جامع جده
عبد الله — وخطب في المصلين :

« امنعوا نسوتكم من ترديد تلك المرائي .. لن يرحمكم الله إن لم تأمروا حريمكم
بالكف عن الفعل الحرام .. والرجال قوامون على النساء .. وتلك عادة جاهلية
وأنتم مسلمون ... فلا تعرضوا موتاكم وأنفسكم لعذاب من الله شديد .. وصلوا
على أرواح الموتي يغفر الله لهم ولكم ولنا .. إن الله غفور رحيم » .

كتب الشيخ الفاضل رسالة على عنوان الرئيس سعيد عقيل بفلسطين الشام
وطلب منه أن يسلمها لمصطفى بخيت على عجل . قال الشيخ الفاضل في
الرسالة : « انتقل والدكم بخيت البشارى من الدار الفانية إلى الدار الباقية ، تجمل
بالصبر يا ولدى ، فليس من ديننا من لطم الخد وشق الجيب ودعا بدعوى
الجاهلية ، الدوام لله وحده وكلنا إلى فناء » .

وصلت رسالة مصطفى على عجل — قال :
« لم أصدق ولن أصدق ، والذى حى — لكنه بعيد ، وأنتم بعيدون ، وتلك
إرادة الله ، كان يجب على أن أراه قبل أن يرحل ، مرسل لكم مال لتقوموا بواجب
الميت ، والدوام لله وحدة ، ولكم طوائف العمر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان

- ١ -

أملت حزينة علي الشيخ الفاضل ، فكتب :
 « طلب الحداد الجبالي يد أختك فهيمة ، أجلنا الرد حتى تصلنا منكم
 الموافقة » وأضاف الشيخ الفاضل من عنده :
 « الحداد حسن السمعة طيب المعاشرة ، يملك بيتاً من والده المرحوم الجبالي ،
 ويرث سبعة قراريط : ثلاثة قراريط من أمه وأربعة قراريط من أبيه ، ولا يأكل من
 ساعد الحداد غير أخته الحدادة زوج المرحوم القناوى ضاحي ، ولا أعتقد أنه
 سيفيب عن بالكم أن الناصح ضاحي قادر ، وفقه الله وفقكم ، ووفقنا جميعاً لما
 فيه الخير والصواب » .

وذلل الشيخ الفاضل الخطاب بملحوظة ، أوصى فيها مصطفى بأمه ويلوى
 الأرحام ، مذكراً إياه بقول النبي : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

استملمت حزينة الملحوظة ، فأمسكت بيد الشيخ الفاضل وقلبتها ، ومثلها
 فعلت فهيمة .

أوصلت حزينة وفهيمه الشيخ الفاضل حتى باب الدار .. وخلعت حزينة
غطاء رأسها ونفضت شعرها الأبيض ورفعت ذراعها وتطلعت للسماء الزرقاء
المفتوحة ، ونادت الله :

« يا رب اجعل عقله الميزان العادل للأمور ، واجعل خلفه صالحاً ، ومد في
عمره ، لقد وقف الرجل بجوارى أنا وابتنى في الوقت الصعب » .

وافق مصطفى على زواج أخته من الحداد، وأرسل المال مساهمة منه في تكاليف
عرس الغالية بنت الأم والأب — وقال :
« لو كان بمقدورى لإرسال أكثر من المبلغ المرسل لأرسلت والله أعلم »
ووعده مصطفى بإرسال مبلغ شهري لأمه :
« يعينك على مطالب الحياة التى أعرف أنها قاسية »

تهلل وجه حزينة وكساه الفرح ، ودعت لمصطفى بطول العمر . وطوى الشيخ
الفاضل رسالة مصطفى ولبح كتابة على ظهر الورقة فقرأ :
« ربطنى العيش والملح بأسرة شامية ، لها بنت هى عين العقل ووجه القمر ،
ربما تم زواجى فى القريب العاجل » .

واضحة شمس هذا النهار ، والحق — مثلها — واضح لا إبهام فيه ، وحزينة لما
علمت بخبر زواج ابنها — فى القريب العاجل — غطى الكدر الأزرق وجهها .
والشيخ الفاضل رأى وجه حزينة لما غطاه الكدر ، وحزينة غير قادرة على خداعه :
« هكلنا — حتى تأتى العاصفة وتعصف بكل البشر — ستظل غيرة أم الابن
من زوجة الابن غيرة أبدية » .

القسم الثالث

من فلسطين الشام كانت الأموال المعلومة تصل حزينة بانتظام ، لم تنقطع علم الله إلا في شهر واحد ، واعتذر مصطفى في الشهر الذي يليه :

« أسقطت زوجنا الغالية حملها ، كانت بالشهر الرابع ، وهي الآن تتمتع بصحة طيبة ، لولا هذا السبب القهري ما تأخرنا في إرسال المعلوم » .

ترددت فهيمة على بيت أمها بحجة الزيارة ، كيف يتقبل العقل تلك الزيارات المتكررة من عروس ، وهل يفوت حزينة أن الحتاد أيضاً كان يأتي في أعقاب فهيمة مباشرة كما لو كان قشة تعلقت بذيل ثوبها :

« ههه .. مما يخاف الحتاد ؟ .. آه .. أن تبوح البنت لأمها بسر لا يريد الحتاد لحزينة أن تعرفه ؟! » .

في كل مرة أتت فهيمة أتى خلفها الحتاد ، ولا يبقى أكثر من الوقت الذي يشرب فيه كوب الشاي ، وينهض ، ويرمي فهيمة بنظرة عتاب ، فتقوم البنت وتتبع زوجها صامتة ! ، وهما لا يتبادلان الكلام مع بعضهما ولا يكلمان حتى حزينة » .

تحاليت العجوز وخلقت الخلوة التي جمعها بابنتها ، وها هما على انفراد :

« اطردي الخجل وصارحني يا بنتي أنا أمك » .

وقالت وهي تتاور : « الرجل منهم يفلح أرضه .. يحرقها ويرمي البذور ويتابع
الرى .. ثم يحصد ، هل يفلح الحداد أرضه !.. أم أن الأرض كافرة لا تعطى ؟
تكلمى » .

ترددت فهيمة ثم باحت : « ينفخ المصباح ويأتى إلى فرشنا .. يلتمنى ويظل
يقام .. هناك قوة تقيله .. يمر وقت طويل .. يهمد وينفلت في بكاء مر » .

لأمت حزنه ابتها ، ورمتها باليله والخيلة الشديدة ، وحلقتها من أن تحكى ما
حكىه لكائن من كان — وقالت معاتبة :

« وتكتمين عن أمك لير كل هذا الوقت ؟! مثل تلك الأمور لا يسكت
عليها ، والأمر غير كبير كما تظنين : واحدة من بنات الإنس تهذ الحداد لنفسها
ولا تهذه لك يافهينة .. فاستعانت الشريرة ببنات الجن القادرات ، هكذا تم
الفعل الشرير ، والشيخ العليمى ساكن نبع الجبل القرى يستطيع رد الشر إلى
صاحبه الشر : يديه القادرتين سيفك الحبال التي تربط رجولة الحداد » .

قصدت حزنه الشيخ العليمى ، وطرقت باب خلوته بنجع الجبل القرى ،
فأجابها وجمع شكواها ، وأعطاهما قلب المدهد الأبيض وزجاجة صغيرة بها سائل
عكر وورقة ظوينة تسع وتسعين طية . ومدت حزنه يدها بقطعتين من العملة
النحاس . ورفض الشيخ العفيف المال ولم يأخذه إلا بعد إلحاح شديد من حزنه .

أذنت الديكة من فوق أسطح البيوت ، فهبت حزنه من الفرش وليست بردة
الخروج ، ستجنب لقاء أى واحدة من بنات الإنس حتى لا ييطل مفعول
الورقة . ونمت عتبة دار الحداد دفنت الورقة المطوية تسعاً وتسعين طية .

يبقى قلب المدهد الأبيض : يشوى ، ويصحن للقيق ناعم ، وينثر الدقيق
خلف كل زائر يلوس بقدمه عتبة دار الحداد :
« الحذر يا فهيمة يابنتى .. بطل كل شئ لو دأست قدم الحداد ذرات
الدقيق » .

« هذا السائل العكز لن أبوح لايتنى بسره .. فهو من صلب رجل كامل القدرة من رجال الجن ، على فهمية أن تضع نقطة واحدة لا تزيد من أسائل في حلة ماء طاهر ، يستحم الحنّاد وتحفظ فهمية الماء ، وفي اليوم التالي تفعل فهمية ما فعلته في اليوم الثالث ، وتزيد النقطة إلى نقطتين ، ويستحم الحنّاد وتحفظ فهمية الماء ، ويتكرر الفعل لمدة ستة أيام لا تتدخل فيها الجمعة المباركة ، وتزيد النقطة بعدد الأيام : هذا وإلا بطل كل شيء ، قبل طلوع شمس اليوم السابع تستحم فهمية بالماء الذي جمعته من الستة أيام الماضية ، وتلتقي بالحنّاد في فرشته ، وسيم كل شيء بإذن الله وتعال المراد من رب العباد » .

اعتلر مصطفى عن إرسال مبلغ أكبر من المبلغ الذي يرسله ، بينا الجفوة القائمة بين فهمية والحنّاد لها تكاليف ، والبنت الجاهلة بالحياة تغفل دائماً بالشروط وتفسد كل شيء ، وما هو الحنّاد يتحاشى حزنه حتى فيما لو زارته في بيته ، يزوغ الحنّاد بعينيه ويحتل بعلل لا تقنع عقل حزنه لهرب من البيت وكأن حزنه شيطان والبنت باحت لأمرها بأن الحنّاد يضرها ولا يدخل بيته إلا لينام بعد سهر طويل في الخارج مع العاطل والباطل ...

« يشرب الحشيش يا أمي في غرزة توفيق السيك ، ويمص الأقيون ويدسه في جيوبه ، ويداري عجزه بالنظر الحرم الغير ، والحنّادة أخته رمتي بالثمن الباطلة ، تقول الحنّادة إنني أنقل الأشياء من بيت زوجي لبيت أمي » .

« الحنّادة تشعل النار في قلب الحنّاد لتحرق ابنتي » .

« هل تصدقين يا أم .. لقد واجهني وقال إني عاقر » .

سيطلق الحنّاد فهمية ، إن لم يكن اليوم فبعد اليوم يوم أو بعد شهر أو بعد عام على الأكثر ، الطلاق واقع واقع لا محالة ، والحنّادة أخت الحنّاد تمهد للأمر وتشيع في كل مكان أن بنت حزنه عاقر ، ومتى طلقت فهمية من الحنّاد فلن يطلب منها ، وستبقى البنت مع حزنه في بيت البشاري بضاعة بارت : عازب وعاقر وعتية داست قدم ، الحنّادة تطمع فيما يملك الحنّاد من قرايط ، والحنّادة لا تريد الخلف للحنّاد لثرتة هي ففي ذلك مصلحة لأولادها من القناوي ضاحي .

« هكلنا إذن تجرى الأمور ، لابد من تدير سريع يسبق المحذور ، ولن يميز عقل الحداد المخدور بصفة دائمة ما ستخيطه حزنة بؤرتها .

قالت المعجوز للصبية : « ربما كان العجز عندك » .
قالت البنت : « لم يقرنى قط » .
قالت الأم : « نجرب حتى نتأكد » .

ها هو المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير ، تهدم بعض الحجر وسقط من بعض جوانب السور بفعل الزمن العاقى ، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ، من فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان .

هناك بالداخل هو الأعمدة حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم ، لقد حرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة ، وبالداخل رب النسل المكشوف العورة المهبوس بفرثه الضيقة ، والمسلة التى لم تكتمل .. المسلة ذات الصوت الرنان ، والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط رغم عيون الماء التى لا تكف عن البكاء لتصب فى حوض البحيرة الصغير : كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأسلور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات .

أمام بوابة المعبد القديم وقفت حزنينة تكلم العراى أب فكرى على انفراد .
ومضت فهممة تنقل عينها بين الكباش :

« تلك الكباش كانت بشراً فى الزمن القديم ، وغضبة الله هى التى حولت بشر الزمن القديم إلى حجر ، عقاباً لهم على كفرهم ، نعم .. كيف يتزوج الأخ من أخته ١٩ والأبن من أمه ١٩ وها هم البشر العصاة يرددون فى صفين متقابلين لهم رؤوس كباش وأجساد أسود .

تقدم العراى أب فكرى من فهممة وقال : « اتبعينى » .
بستدخل فهممة على الرجل الذى كان يتفاجر برجولته فحوله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الآبدين .

» تركوه مع النسوة ومضوا للحرب ، ودامت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان هو يرسل لهم الأبناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه إلهاً من دون الواحد الأحد . »

صرَّ المفتاح في القفل الكبير ، وصرت البوابة الحديدية الكبيرة ، وقال العراى أب فكرى لفهيمة : « ادخلى » ، فدخلت ، ورد العراى الباب خلف فهيمة .

فهيمة بمفردها ، والغرفة رطبة معتمة ، والخفافيش تطير قريبة من الوجه وتحرك الهواء الساكن ، وفهيمة تسمع صوت تنفسها وتسمع دق قلبها ، وبالتدريج وضع لمبنى فهيمة — تحت الضوء الساقط من كوة عالية بالسقف المعلق شبح الرجل الضخم الأسود العراى المكشوف العورة : عينان حمراوان كأنهما جمرتان مشتعلتان . حاولت فهيمة أن تطلق صرخة احتبست في الحلق ، وفشلت في إيقاف الرعدة الشديدة المفاجئة التي هزت بدنها — وهى ترى الرجل الضخم الأسود العراى المكشوف العورة يتحرك ويخطو نحوها .

» ها هو الظلام يطبق كثيفاً .. انطفأ كلياً نور العينين ، وسقطت الروح في الكعنين ، والعقل ضاع ، أما السمع فحى ما زال يلتقط دهبدة الأقدام الحجرية الكبيرة على الحجر . »

أسلمت فهيمة ظهرها لمن فتح الباب وغابت عن الدنيا .

» هذا بيت أمى ، أنا راقدة فوق سرير أبى الميت ، القائمة ترعانى هى أمى : تطلب جهنمى الملتهية .. وتمسح وجهى الذى يحترق .. وتذلك عنقى .. وتضغط على صدرى ، الماء البارد حلو ، والماء الدافئ حلو ، النوم الطويل المقبل حلو ، أشتهي البلع الرطب ، الأيام مالمها تمر سريعة ، أشم رائحة عرقه ، أشم رائحة البول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر المنطن ، أشتهي ، أنت أختى وأنا بنت الأم والأب ، هاك حضنى .. خذنى .. تعال » .

شربت فهيمة شايّاً دافئاً ونامت نوماً عميقاً .

القسم الرابع

غير الماكين

له التدبير الأعلى ، أرسل الموت — في صورة خنجر بيد مجرمي خسيس — إلى ابن الخطاب عمر وهو أمير المؤمنين ، ورعى النطفة في بطن فهيمة فإذا هي حبل بعد علم ونصف عام من زواجها بالحداد .

مكرت حنينة — لكن الله غير الماكين ، وها هي حنينة تجنى الثمرة المرة : لقد خرجت فهيمة من بيت الحداد — طالق بالثلاث ، ولم يشفع لها عند الحداد أنها حامل في شهرها الرابع .

رسالة إلى مصطفى ورسالة من مصطفى

لخص الشيخ الفاضل الخير البهيم وكتب .
« وقع الأمر المكروه من الله والناس ، وبالطلاق الذي لا رجعة فيه انفصلت شقيقتك فهيمة عن الحداد » .

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوسواس في اليقظة والكوابيس في المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها في بلاد الناس البعيدة — لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :
« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء — عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنيين كبشين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد، وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنيين . ولبان حلو للمضغ ، تتحایل به الحامل على الوقت الطويل فهي ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة في العنب الأسود ، والأولان ليس بأولان العنب ، وكم هي كثيرة وغريبة رغبات الحوامل ؟! » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار البنط . القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هي أمينة زوجة التهامي : امرأة يشغلها الأولاد الكثر وهموم الدنيا عن الخوض في سيرة خلق الله .

حكّت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل في العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إن لم تتحقق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :
« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .
ضحكت حزينة وقالت :

ظلت حزنه تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوسواس في اليقظة والكرايس في المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها في بلاد الناس البعيدة — لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :
« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء — عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزنه إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرزتين كبيرتين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلده وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرزتين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحامل على الوقت الطويل فهى ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة في العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكى هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل ؟! » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزنه منتصف الطريق أحست بالثعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثير وهموم الدنيا عن الخوض في سيرة خلق الله .

حكى حزنه لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل في العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إن لم تتحق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه جبة عنب ، وضحك أمينة وقالت :
« وربما على شكل عنقود عنب متفخ الحبات » .
ضحكت حزنه وقالت :

« الدلع طبع بنات اليوم .. حملت بمصطفى وحملت بفهيمة ولم ترغب نفسى
فى شىء » .

قالت أمينة — رغبة فى المرح ، ولكى يقصر المشوار ، وحتى تتجنب الحديث
عن طلاق فهيمة من الحداد ، ولتطرد صورة المتسول المقطوع الساقين بالسوق :

« احمدى الله .. أن تكون بنتك راغبة فى العنب هذا أهون من أن تكون راغبة
فى البطيخ » .

وضحكنا ضحكة قصيرة انقطعت ، ولم نجداً بعدها كلاماً تقولانه ، حتى
وصلنا مدخل القرية ، وبحوار الزير المملوء بالماء — تحت شجرة النبق المسماة
بشجرة الله — ليشرب ابن السيل العطشان المقليل بوجهه على القرية أو المولى
ظهوره للقرية ساعياً فى بلاد الله ، تواعدتا على لقاء قريب ، وافترقتا كل تبغى
دارها .

القسم الخامس

لماذا نبوية ؟

- زار الحداد مطلقته ، ليرى المولودة ، درس في لفة المولودة قطعتين فضيتين ،
وتحاشى بعينه فهيمة ، وقال الحزينة منبهاً :
— « جئت من أجل ابنتي .. والمال لها » .
وعارض في تسمية البنت بنبوية ، قال الحداد :
— « لماذا نبوية !؟ ، هناك أسماء جميلة كثيرة !! لماذا ترفضان الأسماء
الجميلة !؟ ، هه لا أحد يشتري الأسماء الجميلة بالمال ، لماذا نبوية ؟
سأسميها بحورية ، حورية اسم جميل والبنت جميلة ، ألا تشوفان » .

زهارة ثانية

- أتى الحداد لابنته بأقمشة كستور ملونة « لأن الشتاء مقبل » . وضاق الحداد
من إصرار حزينة وفهيمة على مناداة بنته حورية الجميلة بنبوية . وقرر بينه وبين
نفسه عدم مناقشة الأمر معهما ، وعليه هو أن ينادى ابنته الجميلة حورية :
— « حزينة عندما تركب رأسها لا يقنعها الكون بأجمعه ، وفهيمة بنت
أمها » .
ولام الحداد نفسه الراغبة في إعادة فهيمة للداره . وقال :

— « كنت سأفعل ذلك من أجل حورية » .

واستعاذ الحداد بالله من تلك العجوز الداهية المسماة بحنيئة :
« جعلتني أدخل المحكمة لأول مرة في حياتي ، وأقف أمام القاضي الذي
حكم لفهيمة بدفع نفقة العدة ومؤخر الصداق ، ولن ترجمني حنيئة إلا إذا
دفعت نفقة للصغيرة ، لن أذهب للمحكمة ، سيم الأمر برضا كل
الأطراف ، لكن العودة لبنت حنيئة محال : تلك التي شككت في رجولتي
وأحاطتني بالنظرات الشامتة » .

القرار

« سأدفع ريالاً ونصف ريال لابنتي حورية ، سأرسل المال مع أي فرد
غيري ، حورية ستكبر وسأستردها من حضانة فهيمة بأمر من المحكمة ،
نعم .. هذا هو قراري الأخير : البعد عن الشر غنيمة »
وحتى ينتهي الحوار مع النفس كلية ، قرر الحداد أن يفتح أخته
الحدادة بشأن زواجه من بنت الصيد .

القسم السادس

على غير توقع حدث كل هذا

- { -

عبد الحكم طه قدم من فلسطين الشام ، جاء بطرد هدية من مصطفى :
قفص صغير به تين جاف وبنّاق وأقراص قمر الدين وثوب أسود للأُم وثوب به
نقش للأُخت ، ولكل منهما طرحة سوداء ، وللبنت الصغيرة نبوية قطعة قماش
تصلح ثلاثة أثواب .. وحذاء أصفر على بضفيرة حمراء .. وثور صغير من الحلوى
بقرنين مشرعين .

من هدية الابن أهلت حنونة الأُخوة :
« أُم يقفوا بمجوارى في ظروفي الصعبة التي مرت ! .. لقد قاموا بما يجب ..
وها أنا أُرَد » .

سَيِّتان ذهبتان لمعا لما ضحك عبد الحكم ابن تفيدة — وقال :

« مصطفى بخير حال .. ومشتاق للأم والأخت .. ويتمنى رؤية الصغيرة نبوية ، نعمل مع الجيش الانجليزى .. تحت أمر الرئيس أحمد الزيناعى .. أحمد الزيناعى بلديات من البر الغربى .. طالبنى بأن أزور أهل بيته .. سأزورهم اليوم .. حملنى أمانة وطالبنى بتوصيلها لأهل بيته ، قد نعود للبلاد فى القريب ، مصطفى طلق زوجته الشامية .. لم يرزق منها بخلف ، مصطفى حملنى مالا وطالبنى بتسليمه لكم »

وأخرج عبد الحكيم حافظة نقوده — كانت من الجلد .. صفراء اللون .. متفخة .. مطبوع عليها بلون أخضر وجه أوى الهول ، ومن رزمة محكمة بخيط من المطاط استل جنياً ، مد عبد الحكيم يده بالجنيه الحزينة ، ومدت حزينة يدها وهى تبتسم :

« وقد طلق زوجته .. سيبقى لى بقلبه وماله .. أنا التى حملته ببطنى تسعة أشهر وتحملت وسخه لما كان كومة لحم يقضى حاجته بالعوئل .. لن يفسر عبد الحكيم ابتسامتى بغير الرغبة فى المال ! .. مع عبد الحكيم مال كثير .. ليت مصطفى يعود .. أى كنز ذاك الذى يغرب منه الانجليز .. هى أموال قارون عمر عليها الانجليز ومنها يدفعون لمن يعمل معهم ! .. »

قال عبد الحكيم :

« مشغولياتى كثيرة .. وهذه هى زيارتى الثانية لكما .. والوقت ضيق ، اليوم سأزور أهل أُمى بنجع الملقطة ، معى رسائل وأمانات من الصحاب زملاء العمل ويجب أن تصل لأهاليهم ، سأزورك فى القريب .. قبل السفر إن شاء الله .. للسلام » ونظر لفهيمة وابتسم .

فتح فمه وأغلقه على الذهب الذى لمع :

« ربما تودان إرسال أى شىء لمصطفى »

قالت فهيمة :

« احضر وتناول الغداء معنا .. سأذبح لك حمامة »

وابتسم عبد الحكيم مختلاً بستنئه النهييتين ، وردت عليه فهيمة بابتسامة فيها

حياء ، وقالت حزينة :

« أنت ضيف .. وأنت كمصطفى .. وأنا أحق من الغير وأسبق من الغير »

قال عبد الحكم : « سأحاول » ، وشكر فهيمة وحزينة على شعورهما الطيب نحوه .

وقال إنه يفضل زيارتهما له في بيت أمه وأبيه رغبة في الأُنس والمسامرة —
وابتسم .

حدثت فهيمة نفسها : « ربما يكون قد ابتسم بكسر عينه »
وهو يودعهما ضغط على كف فهيمة ، واستبقاها في راحته لوقت ، ولعت
سنتاه النهييتان ، ومن المؤكد أنه غمز بكسر عينه :
« هل هو راغب في الزواج .. أم هو طامع لأنه سمع كلام الغير ؟ .. هو قادر
بما معه من مال على الزواج من بنت حسب ونسب تفوق فهيمة في الخلاوة —
لكن قد يشط القلب وربما تزوج العاشق من مطلقة غيره » .

نعم ففهيمة لم تفقد بعد نضارتها وحلاوتها ، وهى مازال مرغوبة من الرجال .

زارت حزينة وفهيمة عبد الحكم في بيت أهله ، تم الاتفاق على أن توصل
فهيمة الحاجات المرسلة لمصطفى إلى محطة السكة الحديدية .
قال عبد الحكم : « سأركب قطار الفجر .. سأنتظرك أمام باب المحطة فلا
تقطعى تذكرة دخول » .

قالت حزينة : « نبوية بنت فهيمة كما تراها تمشى وتتكلم »
وقالت حزينة لنبوية : تكلمى ياغالية .. قولى لعمك عبد الحكم سلم على
خالى مصطفى »
رددت البنت نبوية كلام جدتها : « سلم على خالى مصطفى يا عم عبد
الحكم » .

تضايقت فهيمة من أمها : « هذا يذكر عبد الحكم بأننى تزوجت وطلقت
وبرقبتى بنت » .

لا حزينة نامت الليل ، ولا فهيمة نامت الليل ، حتى نبوية بنت فهيمة ظلت
ساهرة لوقت متأخر من الليل : تقلب الأشياء وتجرى في المناطق التى ينعمرها ضوء
القمر وضوء القانوس .. وتضحك بعلو الصوت .

من دقيق القمح الأبيض صنعنا الأقراص .. سطح الأقراص مغطى بالسكر
ومدهون بالسمن البلدى ، والفرن الحامى لم يحرق قرصاً واحداً .

الفجر لم يؤذن بعد ، والقفة بها أقراص ، وبلغ ، وغطاء القفة محكم بخيوط
القنب .. أرف الوقت : فلتتحرك فهيمة وتقصد محطة القطار بالبندر .

على باب المحطة قابلها عبد الحكيم ، أنزل عن رأسها القفة ، ونظر لوجهها
فأسبلت عينها على خجل ، لمست يده وهى تهبط ثديها لمساً خفيفاً .. فارتج
الثدى :
« بقصد أم بغير قصد .. فى وداعه وعدنى : بالحرارة التى سرت من كفه إلى
كفى » .

طريق العودة طويل من البندر إلى القرية ، فى اللهاب كان أقصر .

النور يرفع العتمة عن البيوت ، ويكنسها ، فتجتمع هناك فى الأفق القصى ..
الشمس لم تطلع بعد .. وإن كان هذا نورها .
صراخ له رنين مخبول ، أرتفع ومزق الصمت .

بلغت فهيمة دارها ، وقالت حزينة : « أحترق الخنّاد وبنت الصياد » .

الليل والحر الخانق ، والرغبة فى النوم ممتعة ، والرأس يدور فى دوامة الأفكار
المسعورة ، وفهيمة لا تكف عن الجرى خلف الحقائق :

« بنت الصياد بيضاء الجلد ، كالبطة دهن ولحم ، العينان واسعتان سوداوان
بغير كحل ، شعر رأسها الأسود الطويل كرموشها الطوال يلمع » .

« لو كشفت بنت الصياد عن صدرها ، سرى الخنّاد الثدين الشرعين ..
وبياض اللحم .. والحلمة السوداء .. والشق ، سبهم الخنّاد .. ويقاوم .. ويضم
الجسد .. ويخاف القضيحة المقبلة .. فيعض ويمزق اللحم .. ويسكت الصرخة

برش الجواز وحرق الجسد .. وبرش الجواز على نفسه ويموت محتقاً بسره » .
« لو تمكن لحرقنى فأنا أيضاً أعرف سره »
« هل يعرف بالى الراحة بعد اليوم ؟ .. لا أظن »

- ب -

هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ومع ذلك فالسلطات تطلب الأكباد
للجهادية وهؤلاء الخدعة في معسكرات الحمر الملاعين ، القادر على دفع البدلية
والفقير طلب من ابنه أن يقطع الأصبع الذى يدوس على الزناد .

اختفت سلع وبارت سلع ، وارتفع سعر الحاجات : ماكان بجليم صار بقرش ،
حتى سكر القمع والمكنة والناعم أختفى ، والشاي يحلى بقطع الملابس والبنبوتى —
تلك الحلوى التى تنوب بصعوبة ، شمع الجواز والزيت حتى الشموع والمصابيح
تضاء بفتائل تغمس في دهن الحيوان ، أصاب اليسر بعض الناس واشتد فقر
العامة وعمت السرقات ، ولا رسائل تذهب إلى الأبناء ولا رسائل تحيىء ، فلتحرق
هذه النار الانجليز وليحترق هتلر والبقالون والملك وتجار الأكفان .

القسم السابع

- ١ -

تلا حسان العاجز فاتحة الكتاب وختم بقراءة سريعة لسورة البقرة ، وطلب من حزيمة وفهيمة أن تترجما على أرواح من ماتوا على دين الله وسنة نبيه ، وقام من قعدته ورفع كم يده اليمنى المقطوعة . وأفرغت حزيمة مائى مقطفها الصغير من بلح وخبز أصفر .. معجون بلبن وكُرْكُم — فى كم حسان . ومضى حسان ليقرأ على قبر قريب ، وكانت بانتظاره نسوة قاعدات .

قالت حزيمة لفهيمة — وهى تشير إلى النسوة القاعدات :
« حريم الرجال ، من ماتوا بالبر الغرى فى حادثة الآثر »
رجف جسد فهيمة ، أمها تتكلم عن الحادثة القديمة والمعبد القديم ، وهناك أيضاً الهو والفرقة المظلمة والرجل الأسود المكشوف العورة .

قالت فهيمة : « سأقوم .. سأقوم بهناد »

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت

ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزنه تدب من قدام في وجهه وفهمه تتبعها ، وأشجار التمر حنة — تحت هبات الريح الخفيفة لا تكف عن إظهارها بالزهر الأصفر . كانتا تسلكان طريقهما وسط المقابر محاذرتين متطيرتين من هول ما يمكن أن يصيبهما فيما لو دامتا عظام ميت .

حادثة الرجال الذين ماتوا في المعبد القديم ترج عقل فهمه وحزنه تلح على الأذنين بحكاية سبق أن حكها أكثر من مرة :

« خرج رجل من النفق ، كان وجه الرجل مترباً والعرق يتساقط من رقبته ويتكوى على صدره كتلة من الطين الأسود ، وكلم الرجل الهيس بيسوى ، ونقل الهيس بيسوى كلام الرجل لمفتش الآثار الفرنساوى ، رطن المفتش بالفرنساوى ورفع عصاه القصوة في الهواء وشوح بها في وجه الهيس بيسوى والرجل المعفر : « ابن العرب يلعب ولا يعمل .. ابن العرب لا يحب العمل » ، زعق الهيس بيسوى في الرجل المعفر فعاد الرجل إلى النفق على الفور لينقل الأمر للرجال .. وصرخت الأرض بأمر ربه وصار الفرق تحت ، حدث ما حدث في الظهيرة ، ورفعت جثث الرجال قبل الغروب » .

جاهدت فهمه جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والخواف السوداء — لكن عقلها عصاها ، فاستسلمت للقوة الغالبة تقوياً خلف أمها بغير إرادة .

كلمت نفسها : « فكرى فيما جرى للرجال داخل المعبد ولا تفكرى فيما جرى لك في المعبد .. لا تطوعى أفكارك وإلا وجدت نفسك بغرفة الرب الأسود العارى المكشوف العورة » . المهندس الفرنساوى سقطت به العربة في النيل ومات غرقاً وكان مخموراً وكانت معه زوجته ، وامرأة الهيس بيسوى تنجب الأولاد فيموتون في شهرهم الأول »

انتهت حكاية « حادثة الرجال في المعبد » فتوقفت فهمه تتذكر حكاية أخرى حتى يهرب مما جرى لها في غرفة الرب بالمعبد . وتذكرت حكاية الجنيتات الثلاث فقالت سأحكىها لنفسي :

« ثلاث أرامل .. ثلاث شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم ، يظهرن فى الظهيرة .. وقت تكون الشمس بوسط السماء : عين حمراء متوهجة كجهنم ، بينا ظلّ السائر وتد ملقوق بالأرض ، وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ، ثلاث أرامل .. ثلاث جنّيات ، يمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والققط الضالة .. فتتكسر العظام فى طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخناً يضرب وجه الجنّيات بينا عيونهن تقدح بالشرر .. ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء وصراخهن المجنون يصل للسماء وترتج له طبقات الأرض .. القادرات .. ذوات أنياب الذئاب ، أصواتهن وكل الأصوات فى أذنى فهيمة :

« كلاب تنبح ، وقطط تموء ، وضفادع تنق ، ولحم يقطعلى وماكينة طحين تدق : تك .. تك ماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم المستمر يتقدم الرجل الأسود العارى المكشوف العورة ويذب بقدميه الحجريتين فوق سطح من حجر » .

- ب -

صحت حزينة بالليل الأخير على صوت فهيمة تتضرع : « أمه .. أمه »
فهبت من تحت الغطاء فزعرة .
قالت فهيمة : « البيد .. البيد يا أمه »
« نعم .. جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه موقد » .

لمت حزينة كل الأغصنة وكومتها فوق الجسد ، وبالحل والماء بللت خرقه ومضت تترطب رأس فهيمة ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق .
قالت لنفسها : « هى الحمى المميتة »

جاء المأمون المدكلم حلاق الصحة .. وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصله بالموسى ، وامتنص بالحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القلر القاتم اللون ، وقال هناك دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو

كانت صحة فهمية تحمل لإخراج معجمين آخرين وضمن بذلك سلامتها وقال
المأمون المذكوم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما
يجب .

جاء المأمون المذكوم ورأى فهمية ملازمت على حالها لا تفريق من غيبوبة حتى
تسقط في غيبوبة ، فأوقد ناراً وحى مسماراً وكوى رأس فهمية ثلاث مرات ، وقال
المأمون المذكوم : « بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله
وحده يفعل ما يشاء » .

ظل الأمل يرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة
العصر ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب ، وأذن
يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وما هي فهمية قليلة
الخير تبتسم .

صرخت حزينة في وجه القادم ، وشقت ثوبها إلى نصفين :
« لا .. لا .. إنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة
الأم .. إنها لا تهلك أنت ، لكنها تهدد للعذاب أن يتبى وللجسد أن يستريح ..
لكنها حمقاء لا تعرف أنك الموت » .

القسم الثامن

نبوية الوارثة لوالدها الحداد شرعاً وقانوناً . الحدادة أخت الحداد الكارهة لنبوية
وأم نبوية وجدة نبوية فكرت وديرت لتتبع عن البنت الصغيرة « حق الله » .
الحدادة قالت :

« أخى رحمة الله عليه باع لي ميراثه من الأم والأب ، وهامى ورقة البيع محتومة
وعليها بصمة لصبيح الحداد » .

حزينة استجارت بالشيخ الفاضل ليحميها ويطل الأعيب الحدادة .

الحدادة استعانت بالشيخ يسرى ابن يوسف دياب :

« لم يقلح في دراسته بالأزهر الشريف — إلا أنه قضى عامين بهواق الضعيفة
وهو الآن شيخ كتاب القرية ، على يديه يحفظ الصغار القرآن ، للأفراح يرتجل
الرجل المفرح ويقوله أمام الميكروفونات ، وللأمم يرتجل الرجل الحزين وينوح أمام
الميكروفونات .

قال الشيخ يسرى للحدادة :

« أتركى الأمر لي .. والمطلوب منك أن تسرعى وتسجلي ورقة البيع بالشهر
العقارى »

وعرض الشيخ يسرى على الخدّاة الزواج من بنتها إنشراح .
ردت الخدّاة :

« البنت صغيرة .. وأنت متزوج من ثلاث »

قال الشيخ يسرى :

« حقى المشروع من الله أربع زوجات »

ردت الخدّاة :

« دعنى للوقت حتى أفكر على مهل »

سأل الشيخ :

« لى .. ما ؟ »

أجابت الخدّاة :

« زواج البنتين كلفنى الكثير .. وأنا غير قادرة على تكاليف عرس الثالثة ، كما
علّ أن أستشير السعدى .. لقد كبر الولد وصار رجلاً وهو الذى سيحدد مهر
أخته إنشراح » .

الخدّاة الماكرة تبتسم :

« سأحصل من الرجل المعجوز على مهر كبير .. مهر بنتى سيكون أكبر من
مهر قربنائها ، قلت للرجل : سأستشير ابنى السعدى ، سأعود للرجل وأقول :
السعدى رافض .. دعنى لفترة حتى أجعل رأسه تلين ، ثم أعود وأقول للرجل
المعجوز ، الولد يطلب مهرأ كبيرأ لأخته ، سيقول الرجل المعجوز : هذا كثير ،
سأرد عليه بعد يومين : اتفقت مع السعدى على كذا من المال .. حاولت معه
بقدر ما أستطيع .. لكنه لن يقبل أقل من كذا ، سيوافق الرجل المعجوز فالبنت
صغيرة ومليحة ووارثة » .

قال الشيخ الفاضل لحنينة :

« سنرفع الأمر للمحكمة .. والقاضى هو الحكم »

القسم التاسع

ولد و بنت

الشيخ الفاضل يملك كرم نخل — لا سور له — خلف داره الكبيرة . وحتى تحصل نبوة على مرجيحة ، ستعقد طرف الحبل الطويل في ساق نخلة والطرف الآخر في ساق نخلة ، وما بين النخلتين فضاء متسع تطير فيه نبوة ، وقد بسطت ذراعها قابضة على الحبل الذي يحز في عجيزتها ، ويوقع الهواء الثوب ويلفح الوجه الجميل .. ويجعل الشعر يتطاير .. ويأتى بالبهجة التي تصنع الضحك .

ابن الشيخ الفاضل من أسماء التي ماتت بمقارب لنبوة في العمر ، وهو الوحيد الذي يشاركها اللعب لما يعود من المدرسة ، الولد عنده الكثير من الحكايات الحلوة .. يأتي بها من المدرسة ويحكىها لنبوة فتسمع وتبتسم وأحياناً تفهمه وفي بعض الأحيان تقول له أنت تخرف فيغضب فتصالحه فيحكى لها حكاية أخرى :

« قبة الكرنك القديم هذه كانت في الزمن القديم هي والأقصر مملكة مصر والعالم ، كان اسمها طيبة ، وكان للمعبد سور كبير غير متهدم له أبواب وبه كانت

تقام الصلوات ، وحول المعبد كانت بيوت الأهالي ، وبالجرف توجد المقابر ، وكان طريق الكباش يوصل من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس ، والمصريون القدماء لم يكفروا بالله كما يظن الأهالي اليوم ، فهم أول ناس عرفوا الله وحفظوا الجسد بسر لم يعرفه البشر بعد ولن يعرفه اللود مهما حاول .

« الأرض كرة كبيرة تدور في الفضاء ، وفي الفضاء تدور أقمار وحُموس وتلك النجوم التي نراها في السماء ... »

ضحكت نبوية وظلت تردد نهاية كلمات الولد غير مصدقة :

« وتلك النجوم التي نراها في السماء ! »

نفخ الولد ، وقال بغيط :

« أنت غبية . »

عرفت نبوية أنه غضب فقالت لنفسها :

« سأطيب خاطره . »

وقالت نبوية لابن الشيخ الفاضل المحرم من حنان الأم :

« احكي لي حكاية الملك . »

عاد الولد إلى الماضي ، وتذكر ، ونسى غضبه :

« قبلها يوم قال الناظر لكل المدرسة في طابور الصباح : ياكر يأتي كل منكم نظيف الجسم لابساً أحسن ما عنده وعلى رأسه طربوشه .. ومن محلة الأقصر حتى بوابة معبد الكرنك كنت تهن الناس على الجانبين : طلبة ونظار وأساتذة ومشايخ ونسوان وعساكر وضباط وعمال وكل موظفي المصالح يهتفون « عاش فاروق ملك مصر والسودان » ، ومرت العربة وكان بداخلها الملك وكانت مفتوحة النوافذ تحيرها ثمانية خيول بيضاء كاللبن ، وكانت الستائر أيضاً من الحرير الأبيض كاللبن ولكنها كانت مسدلة تمنع العيون عن رؤية الملك .. »

قاطعت نبوية : « هو أعور وله عين من زجاج . »

قال الولد : « كذب .. له وجه أحمر يطفر منه الدم . »

قالت البنت : « أنت لم توه .. »

رد الولد : « لم يوه أحد قط .. لكني رأيت صورته الملونة في كتاب المطالعة .. والكتاب عندي وسأجعلك تشوفين الصورة . »

سألت البنت الولد : « يقولون إنه يأكل خروفاً بمفرده » .
قال الولد بقطع : « ليس كذلك ، الطباخ يضع الخروف في حلة كبيرة بها ماء كثير .. ويضع الحلة فوق نار حامية . فيقل الماء ويقلّ .. حتى يصل إلى ما يلائم كوباً واحداً فيشربه الملك » .

الولد جميل في عيني البنت .. وهو كل الأولاد ، والولد جميل في عيون كل بنات القرية وهو كل الأولاد :

« يلبس البنطلون والقميص والجاكت ، ويدخل سينا البندر كل خميس ويطل من البلكون ، يركب البسكلت فيتطائر شعره الناعم ويغطي عينيه المفسولتين المكحلتين بحمل رباتي ، والده يملك الكثير من الأراضي والكروم والخيول والجاموس والحمير والأبقار والماعز ، أمه ذات حسب : جدها يوسف عبد الكريم أغا وأمهها زنوبة ووالدها عبد السميع عبد القادر » .

عالم نبوة ضيق : يتهم ، كرمة النخل ، بيت الشيخ الفاضل ، النهر — لكنها ترى عالمها شديد الاتساع :

— فجدها وإن كانت عجوزاً متذمرة دائمة الشكوى قليلة الحركة لا ترى البعيد ولا تسمع غير الصراخ — إلا إنها تحب الحلوى تماماً كنبوة .
— وصالحة زوجة الشيخ الفاضل أخت أسماء التي ماتت ، تكلفها بقضاء أمور مثل إشعال النار ووضع الجمر في بوتقة النحاس وشراء دخان المعسل من الدكان البعيد وإبدال ماء الشيشة العكر بماء نقي — لكنها كريمة تمنحها خيارة أو شريحة بطيخ أو حفنة بلع .

أما النهر فهي تعشقه : الشمس ترمى باللون في الماء .. وطيور الماء ترف بأجنحتها وتلتقط السمك الميت الطافي .. والمراكب بأشرعتها البيضاء المنفوخة بالهواء .. والجبل الكبير والرمال الصفراء على البر الآخر والبيوت صغيرة تحت الجبل كأنها الماعز في المرعى .

ابن الشيخ الفاضل يحب الأرناب الصغيرة والأرناب الكبيرة والأرناب السوداء والأرناب البيضاء وهو حائر : تلك الحيوانات الضئيلة الأجسام ، كيف تطلوعهم

نفوسهم فيسلخون جلودها؟! ، كيف تشوى على نار وتقل في دهن؟! الأرنب لا يجب أن تطبخ فهي جميلة مدهشة حين تنط وتقرض الحشائش وحين تحتوى بالبحرور .

نبوة ترصدت للأرنب المسكين ، أعطته الأمان حتى خرج من جحوه ، ولما بعدت المسافة بينه وبين جحوه ، رمت نبوة بكل جسمها على الأرض وأطبقت يديها على الأرنب وأمسكته ورفعت نبوة يديها بالأرنب لفوق وقالت للولد : « أنظر » .

قال الولد : « إنه ميت » .

قالت نبوة : « ما مسكت أبداً بأرنب حتى .. دائماً يموت بين يدي .. وأنا لا أبهى غير تمير الراحتين على القرو الناعم اللين » .

قال الولد وهو مغمض العينين : « لا تمسكه مرة أخرى حتى لا يموت » .

بكت نبوة وها هي عاجزة عن التوقف وغير قادرة على إسكات رعشة الجسد وعلى إيقاف صلرها الطالع النازل — ولكنها لا تهد إفلات الأرنب الميت من بين يديها .

اقترب ابن الشيخ الفاضل من نبوة وطيب خاطرها ورت على ظهرها بحنو — وقال : « لا تمسكه مرة أخرى حتى لا يموت » .

ارتفع بكاء نبوة ، فلم الولد جسمها الطالع النازل بنزاعيه وشدها إلى صدره الصغير — وقال : « كُفّتي .. كفى عن البكاء » .

ولما لم تكف نبوة عن البكاء ، لم يقدر ابن الشيخ الفاضل على منع نفسه من البكاء وقد استدعى بخياله صورة أمه المتفقة .

القسم العاشر

أراجيف وأسمار و .. وقائع أيضاً

١

، ، ،

اليهودى الماكر بأنفه المعقوف ، عرض ثلاثة دنان من الخمر للبيع بأقل من ربع الثمن . ابن العرب الفنى قال لنفسه وهو يحاورها : « هذه الصفقة ما أرخصها » . بنت اليهودى الجميلة المختة بيدها كأس مملوءة بالخمر ، ذاقها بلسانها ، ورشفت رشقة ظلت تمتصها على مهل — قالت : « خمرتنا جيدة » .

(شعر البنت أصفر كالذهب النقى ، وعلى كل خد وردة حمراء) .
الخمرة سالت من الشفاه ، وجرت فى الشق الذى يفصل بين الثديين وتجمعت عند الصرة .

— ابن العرب قال : « تلك كأسى » .
— بنت سارة قالت : « تلك كأسك » .

الأنف يشم والعين ترى ، وجلد الحية طرى ، وشعر الإبطين والعانة طويل ومرسل ، للعرق رائحة وللمطر رائحة ، الكلب يعوى والحية تلدغ ، والبيارة جميلة بها شجر البرتقال صفوف تقابلها صفوف ، والبنت جميلة (على كل خد تفاحة حمراء وشعرها أشد صفرة من يرتقالة ناضجة) ، والأفهام تمر ، والأفهام لا بد أن تمر ، وكرومات العنب طولها دهر وعرضها دهر .

اليهودى مالك البيرة الجليل يد حفر بحر تجلب الماء للشجر . أولاد العرب بسواعدهم القادرة حفروا البئر ، وتدفع الماء . اليهودى المماطل أبداً المحب للمال دوماً — قال : « أدفع الأجر لما تحفروا عمقا للبئر يطول قامتكم » . فعل أولاد العرب ما أراد الخبيث . فأهال اليهودى كاره العربى التراب على الرجال ودفنهم أحياء ، وقال :

« هذا هو العمق الذى أنبئه لبعري » .

- ٢ -

عصابات الصهيانية أعملت السلاح فى ابن العرب وبنت العرب ، والانجليز جلاوا عن فلسطين وسلموها لليهود وقاه لعهد قديم ، وجيوش العرب انكسرت بالخيانة والسلاح الفاسد — لكن الله وعد ، ووعد الله حق ، والله لا يخلف الميعاد ، والأولاد يكبرون حتى فى الخيميات ، والأزائب تناسلت وكثر عددها فى بيت المرحوم بنحيت البشارى (من ذكر أسود اللون وأثنى بفضله ، اشترعها حنة ذات يوم بعيد من سوق البندر) ، والضبايع السود طوقها بالبالوجا ، ونبوية بريمة الأب والأم شبت عن الطوق ، ونبوية تنظر لثور الحلوى الأجر اللون — فهى لم تأكله بعد .. ما تزال تحتفظ به .. وإن انكسر أحد قرنيه المشرعين — وتتذكر خالها الغالى بفلسطين الشام .

- ٣ -

عاد الرجال بعد التكة من فلسطين الشام ، هم هنا بمصر يعملون داخل معسكرات الانجليز بمنطقة القتال ، الرجال يكسبون المال بسواعدهم ويعملون الشوق لأهاليهم ، والشوق فى الصلور كأنه نار الله الموقدة ، لكنهم على أمة حال بأرض الوطن ، ومهما طال الأيام فالعودة للأهل واجبة ومن بنت العم أو بنت الخال سيتزوجون ويتناسلون ويحمررون الأرض .

مصطفى له الأمر والنهى فى الأربعين رجلاً :
(رجال مختارون ، غلاظ شداد ، لا يعصون مصطفى ، ويفعلون ما يؤمرون ،
بهم مكر الثعالب ، وخفة القطط ، وشجاعة ابن الوليد ، وحيلة ولين معلوبة ،
ومهارة الحواة فى الغش ولعب الكوتشينة) .

يختار الرجل منهم فهرسته من داخل معسكرات الانجليز ، وتكون الفهرسة دائماً
إما أسترالى وإما هندى أو أفهقى أفضس الأنف ، يغرون الرجال بلعب الورق ،
والقمار كسب وخسارة ، والخمر قهنة القمار ، والخمر تشعل الرأس وتشعل
الرغبة فى الكسب ، وخمر عرق البلح مصرية وذات مفعول قوى وسريع
(مصطفى جاء معه بزجاجة بها سائل سحرى — جاء به من السودان بلد الخبز
والأحذية والأولياء الصالحين — اشتراها من ساحر قادر أيام كان يعمل هناك فى
زمان فالت) ، وقطرة واحدة على برميل خمر تجعل من يشرب كأساً واحدة ينام
نومة أهل الكهف .

وقد نام الجميع ، يصبح المعسكر بغير حراس تحميه ، لا حارس يرى ولا
حارس يسمع ولا حارس يطلق النار . يدخل مصطفى المعسكر وخلفه رجاله .

يحصل الرجال على الجبن الأبيض والجبن الرومى والمرى والشاى والزبد والأقمشة
الصفوية التى تسمى الأجساد من لسعة اليد .

تمتلىء الزنايل ، فيحملها الرجال فوق الظهر المحتمة .
ما من مرة إلا وقتل مصطفى الكابتن الانجليزى الكبير الرتبة .

يصرخ الكابتن الانجليزى — الأكبر رتبة من زميله المقتول — فى الجنود ويلعلم
صوته فى الصباح داخل المعسكر : « إيجبتشن كلفتى آند رايش » .

مخازن مصطفى تحت الأرض ، لا يعرف سرها غيو هو ورجاله ، حتى الجن
تمجز عن الوصول إليها ، بمخازن مصطفى ثروة لا تقدر بذهب أو بفضة .

« أ »

أبناء مصر من كل ملة حملوا السلاح ، حتى رجال بلوكات النظام ، المظاهرات عمت الوادى ، والحكومة المصرية نادى بعدم التعامل مع الانجليزى المعتدى على بر البلاد ، المتعامل مع الانجليزى خائن للأوطان ، الإلقاء واجب والحكومة ستوفر العمل لأبن البلد .

« ب »

اشترى الشيخ الفاضل جرنال المصرى لسان حزب الوفد ، واشترى جريدة الحزب الوطنى « منبر الشرق » لصاحبها « على الغاياتى » كاتب ديوان وطنيتى وصديق محمد فهد : على الغاياتى ومحمد فهد كلاهما حكم عليه الانجليز بالحبس .

« ج »

زعم محمد أحمد الشرقوى — مراسل جرنال الكتلة وجرنال « الوادى » — فى أولاده وأم أولاده : « ألا تكفوا عن الصراخ يا ملاعين ؟ » .

وكان محمد أحمد الشرقوى عائداً لتوه من دار أمين أفندى عبد السميع شقيق صالحة أخت الشيخ الفاضل ، وسمع هناك من الجرامفون الذى يملكه أمين أفندى صوت أم كلثوم وهى تغنى على أسطوانة :

« مصر التى فى خاطرى وفى فمى ، أحبها من كل روحى ودمى ، من منكم يحبها حبى لها ، ويفتديها بالعنز الأكرم » .

دخل محمد أحمد الشرقاوى حجرته ، وأغلق بابها عليه ، وزعم أنه سيكتب مقالاً عنوانه « بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملاقن » ، سيوسل المقال باليهيد لجزنال الوادى ، أن لم تشو الوادى خلال أسبوع فسيوسل المقال إلى جهلة الكتلة ، وسيوقع مقاله بإمضاء « الصبحى المعجوز » .

قال محمد أحمد الشرقاوى لنفسه :

« أجمع شتات أفكارى أولاً ، سأدون بعض أبيات الشعر الماثورة وبعض الكلمات التى صارت مثلاً ، وبعد ذلك أفرغ لكتابة مقالى بالليل لما ينالم الجميع » .

وكتب بخط كوفى جميل :

(بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملاقن) .
(١) بلاوى بلاوى بلاوى لك حى ولقواى .
نشيد غناه سيد درويش لثورة ١٩ ، وهو صالح لكل الثورات وبغضه
أى صوت ، ورائع لما تغنيه الجموع .. لماذا ؟

(٢) لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .
كان مصطفى كامل رجل قانون يحب مدنية فرنسا ، وكانت الدماء
التركية تجري فى عروقه — ولكنه ولد بمصر وشب بمصر وشرب من نيل
مصر .

(٣) لقد ولدنا أمهاتنا أحراراً .
كلمة رد بها خليفة المسلمون عمر بن الخطاب على عمرو بن
الماص حاكم مصر لما اعتلى أين عمرو على نصرانى وقال مفاعزا : أنا
ابن الأكرمين . استعار عراقى كلمة ابن الخطاب ونقها فى وجه
الخدوي . ولم يحبط عراقى من فوق سرجه .

(٤) وطنى لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى .
حتى حياة القصور لا تلهى الشعراء عن حب الوطن .

(٥) والله ما دون الجلاء ويومه ، يوم تسميه الكتانة عيداً

(٦) وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يندق .

صدقت يا ابن مصر .. يا ابن العرب ، وصدق ابن تونس .. ابن
العرب .. لما قال :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة ، فلا بد أن يستجيب القدر ، ولا بد لليل
أن يتجلى ، ولا بد للقيد أن ينكسر » .

القسم الحادى عشر

الذى لا يقدر على منه أحد

- ١ -

بماتان فرعتان حطتا على صدر البنت نبوة ، فرحت بهما البنت فرحاً
شديداً ، واختلت بنفسها ونظرت إلى صدرها وقالت تحدث إليهم :
« مالكما فرعتين ؟! .. مالكما متأهبتين دوماً للانطلاق ؟! »
وكلمت نبوة نفسها :
« هاتان إليهمتان عشتوتان يرمل وجهي ساخن » .
وتشجعت وأمسكت كل علامة بيد .

حزينة رأت إليهمتين على صدر بنت بنتها ، وصحبت ابن الشيخ الفاضل ينادى
بنت بنتها بصوت صار خشنا كمنجل الحاصد تعمل في البرسيم ، فقالت
لنفسها : « الحذر واجب » ، وقالت تطرد الهاجس الخبيث : « الأيام الطويلة
والمعاشر الطويلة جعلت من الولد والبنت أخوين » .

الشيخ الفاضل وأهل بيته ينتظرون لأبنهم القريب دائماً من بنت الحداد ويقولون : « نعم : ترى معها ، لكن ليهم يدرسه ، العلم وظيفة نافعة تدوم ، أما الأرض فتفتت مع الزمن المقبل ، نعم : ستقسم الأرض على الأبناء وأبناء الأبناء .

لا أحد من أهل البلدة يرى في علاقة ابن الشيخ الفاضل بنوبة ما يستحق الكلام فوق المصاطب أو على الفراش بالليل مع الزوجات : « أغ وأخت .. لقد تربيا معا » .

أما الحنادة فتوزر صدر ابنها السعدى — فى الصباح والمساء — على بنت فهيمة : « البنت لأمها » .

قال السعدى مكلماً نفسه : « أنا لا أصدق .. نبوة ذات الشعر الأسود المدهون والمعقود صغيرتين لا يمكن أن تكون كأمها فهيمة ، الأنف الشاخ كيرج الحمام ، والعينان السوداوان ليلة شتاء لا تنفذ فيها سكين ، الرموش الطويلة مزرة ، ما يخيفنى هو الشفة العليا الطالعة لقدام ، لكن من المحال أن تكون نبوة كفهيمة ، نبوة فرس أصيل ، ولن يعطى ظهر الفرس غيرة ، هى بنت خالى وأنا فارسها ، هذه فرسى أنا دون سائر الرجال » .

ما للقاء مبتور بين الولد والبنت ؟! ، فى اللقاء خجل وفى اللقاء ارتباك ، وشعور بخوف مبهم ، وارتفاع بدرجة حرارة الجسمين ، وفى اللقاء أيضاً رغبة فى القرب والملازمة .

قال الولد : « ليت ما فات يعود » .
وقالت البنت : « تلك الطفولة التى مرت ليتها تعود » .

— ٢ —

« ١ »

الريح أتت من محبسها البعيد كالخيل الجامحة ، شالت الأعواد اليابسة من فوق

أسطح البيوت ، وزعت الأوراق الجافة من فروع الشجر ، ولت التراب الناعم من فوق سطح الأرض ، وضربت الوجوه والبيوت بالورق والقش والتراب ، وحطمت الأبواب الواهنة ولت تنف السحب القليلة الرمادية المتباعدة في السماء العالية — فتجمعت السحب وأصبحت أشد دكته .

لما بكثت السماء وسقط الدمع الطاهر على الأرض التي تضج من ظلم البشر للبشر — رقد التراب المهتاج واختفى الغبار من الجو وعم نور وعادت الريح لمعقلها وصارت السماء أشد زرقة ، وخرج الأولاد الصغار يبحثون عن اللقايا من جدران وفصوص وخواتم وما تكشف عنه أرض الجلود ذات السر .

« ب »

رحل الشيخ موسى قطب البلد وحاميا ، رحل من يؤمن ، وقد بكته السماء قبل رحيله بيوم بأمر من الله الذي له ملك السموات والأرض ، ولكل أجل كتاب :

جاء محمد المنشد كعادته ومدح الرسول ، وجاء الرجال كعادهم وأقاموا حلقة الذكر ، وحين وقت خروج الشيخ من خلوته — لكن الشيخ لم يخرج ، ومر الليل بطيئاً ثقيلأ والشيخ لم يعلل بعد بطلته المتوق على المهب العاشق والمهد المشتاق ، وما من حس بحجرة الشيخ بينما نور الفجر يرفع الظلمة عن البيوت والنخيل والشجر ويجعل الشخص يرى وجه رفيقه .

النفوس داخلها الشك ، فتكلم المهيون بهمس ، ثم ارتفع القول وتضارب :

« نكسر الباب » ، « من يجزؤ .. كشف الستر عقابه شديد » ، « سمعته بالأمس ينادى الله حبيبه : خلني ، نادى الله ثلاث مرات بصوت مرتفع سمعته .. بصوت كابد العشق » ، « في الأيام الأخوية كان دائم الحديث عن الرحيل وعن الموت مفرد الأحبة والجماعات » ، « يا ناس .. ربما طال به الوقت وهو هناك .. يطوف بمكة المكرمة » ، « لا .. هنا مكانه .. ونحن حمله الثقيل .. فلنتنظر عودته » .

« يا أيها النهار الطالع كم أنت طويل ، وأنت أيها الليل القادم كم أنت ثقيل ، لا طاقة لنا بك أيها النهار الذي يعقب الليل : يا من حسمت الأمر » .

« هممت عطر الجسد وما هممت عفته » .

« الخشبة طارت طياراً » .

« ونحن ما حملنا الخشبة ، هي التي سبحت في الجو كقمامة مسرعة » .

« آه يا أيها الحفرة السوداء ، وأنت يا أيها التراب المنهال نحن منك وإليك وها هنا الجسد ، أما الروح فقد عادت لحاقتها ، ونحن نعرف قدر الرجال ، ليلة مماته من كل علم سنحيها بالدف والطبل والمزمار وبالحل ستسابق وبالعصى سنلعب وستقيم الأذكار ونطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً » .

أحباب الشيخ — وكل البلد أحبابه — جمعوا المال لينبؤوا الضريح ، تشلوا في أمر النقيب الذي سيتلقى النذور ، البعض يقول إن الشيخ قبل مماته كان قد قرب إليه خليل البياض وكان يهمس له بسوء ، والبعض الآخر يقول إن يوسف سليم الجزار لم يخن الأمانة وقد فضله الشيخ على الجميع لما اختار حجوة من ججرات بيته لتكون خلوته التي يعبد فيها الواحد الأحد .

وحسم النقاش بالآتي :

- (١) البعد عن العدل ولو بشبر واحد لا يعلم عاقبته إلا الله .
- (٢) للمحب والمهد الذي يطلب الشفاعة حق تقهر المؤثر .
- (٣) يقيم خليل البياض في الضريح — حيث دفن جسد الشيخ — ويتلقى النذور .
- (٤) يقيم يوسف سليم في الحجرة — فقد كانت خلوة الشيخ في الحياة — ويتلقى النذور .
- (٥) على يوسف سليم أن لا يستخدم الحجرة في غرض من أغراض الدنيا ، وأن يحترم حرمتها ما دامت تحمل أشياء الولي الراحل .

القسم الثاني عشر

اللقاء بعد طول غياب

- ١ -

رمت الأم بجسدها القليل اللحم في حضن الابن ومرغت رأسها المثقل بما حمل
من هم الأيام في صدر الابن وتشممت ثوبه ، ورأت الشعر الأبيض على فوديه :
« هذا فعلته بك وهنا الأيام يا ولدى .. لكننا بذراعيك قوة رجلين » .

طافت بالمكان روح بحيث البشارى : الأب والزوج ، وطافت بالمكان روح
فهيمة : البنت والأخت ، وقالت الأم : « يا حبيبى .. يا كل الأحبة » ، وعلا بكاء
الإثنين : « هذا مقام الفرح وهذا مقام الحزن » .

- ٢ -

جاء المحبون إلى بيت بحيث البشارى ، فقابلهم مصطفى وقابلتهم حزينة ،
وتقبلا منهم التهنئة بسلامة العودة والعزاء في الراحل والراحلة .

وقام مصطفى العائد بإوجب الراحل والراحلة فأحضر قميهاً تلا من القرآن
العديد من السور ونفحه مالاً ، وزار مصطفى قبر والده وأخته وقرأ فاتحة الكتاب
ورش الماء على قبريهما .

— ٣ —

حكومة الوفد يرت بوعدها ووفرت لكل من كان يعمل بمعسكرات الانجليز
عملاً ، ومصطفى عيّن فراشاً بمدرسة البندر — لكن مصطفى لم يذهب ليستلم
العمل (ربما يكون السبب هو الراتب القليل ، وربما يكون التعفف أو الكهياء عن
العمل المهيّن ، وربما كان المال الخبيء سيظهر بعد حين ، على أية حال مصطفى
لا ينكر قول أحد ولا يقر قول أحد ، والسر كله في جوف البئر حزينة : هذه
العجوز لا تبوح .. ما بان عليها فقر ولا يسر .. تفتح فمها الأهم وكأنها ترمي
بأسنانها في وجه مكلّمها « الخبز في دجاجاتي وحماماتي .. أبيع البيض وأشتري
حاجتي — غيرة لا يعطيه الله — تقصد الحلادة بنت الحناد — وبنت بنتي
نبوية سلمت يدها تصنع من الخيط أفضل طواقي الرأس ») .

— ٤ —

أضمرت حزينة — وقد كثر قول القاتل والقائلة عن المال الخبيء — أن تباشر
ابنها بالسؤال ، وقالت :
« علىّ أن أختار الوقت الحسن .. لما يكون معتدل المزاج » .

— ٥ —

قال مصطفى وكان معتدل المزاج ، وبدأ كلامه بتهقئة عالية :
« آأنت خاتفة يا أم من أن تعولى ابنك في شدته ؟ لا تخافى .. الرجل لا
يغلب .. في رأسي مال كثير » .
قالت حزينة في عجب :

« في رأسك !! مال كثير في رأسك ؟! » .

قال مصطفى ضاحكاً :

« المال أيضا مرمى بالطرقات كالأحجار » .

ردت حزينة وهي تتصنع الفرع :

« أطلب من الله أن يحفظ عقلك من الجنون » .

قال مصطفى يحدث أمه بمجد ووضع يده على كتفها :

« لن أعمل تحت أمر مخلوق .. نعم .. لقد تعبت وفاسيت يا والدي الكثير في

غريتي من أوامر المخاليق .. الأمر مُرّ الطعم .. ومن اليوم سأكون حر نفسي ..

أنت لا تعرفين بشاعة حكم الآدمي الحاكم على الآدمي المحكوم .. لا تخافي ..

سألتقط رزقي من الطرقات كالأنبياء والطير » .

القسم الثالث عشر

يفيض النهر فيغطي الرمال الواسعة — هناك بالير الغربى — بالماء النحاسى ، وينحسر خلفاً الغرين الطيب فوق الرمال ، فيدفن الزراع بذور البطيخ ، وتطلع الأعراش وتفرش سيقانها وأوراقها الخضراء ، ويفتح النوار وتطل الشمة ، ويكبر البطيخ ويستدير بقشرته الخضراء من الخارج — لكنه من الداخل شديد الاحمرار شديد الحلاوة قليل الماء .

تأتى القوارب بالتجار فيسلمون الملاك — لا الزراع — ويشترون المحصول . وتنقل القوارب المحصول من البر الغربى إلى البر الشرقى . وتتوقف القوارب عند المرساة ، ويفرغ الحماليون الحمولة ، ويرمون الأحمال خلف ظهورهم المقوسة ، ويرفعونها من تحت لفوق ويكومونها أكوام أكوام : « تلك أكوام صغيرة وتلك أكوام كبيرة .. هنا بطيخ مليح وهذا بطيخ ملاحته أقل .. وذاك بطيخ أنشَقْ أثناء الرفع والإنزال » .

يقبل صغار التجار على كبار التجار يسلمونهم ، ويدور الكلام ما بين أخذ وردء وزعيق ويفتح الله والله يسهل لك .

وقد تمت الصفقة، يزعم الحوذية فى حميرهم فتتحرك الحمير تجر عربات الكارو

الحملة بالثمار الحلوة ، وتدرج العجلات على الشارع المرصوف ، وهناك ينذر الأقصر تجد الثمار الحلوة شاربها المقدر الذى لا ييخل على المتعة الطيبة الحلال .

كلهم عند المرساة : تجار كبار وتجار صغار وحمالون ونوتية وأصحاب قوارب وأصحاب عربات كارو .
ومصطفى — هنا أيضاً فى نحص أقامه من بوص النرة العالى .

هنا — يصنع مصطفى الشاى والقهوة ويقدمها للشاربين ، والباذنجان المقل بالزيت والبقول النابت المغلى فى ماء والحمص المسلوق للآكلين .

هنا المرساة ، وهنا مصطفى، ونحص مصطفى المغطى بالخيش يحميه من الشمس الحارقة فى الصيف، ويرمى بالظل ويمنع البرد الساقط فى الشتاء .

وهنا ، ذكة خشبية ونحص للجالسين ، وهنا الكوتشينة لمن يريد التسلية البهجة .. ومن أراد لعب القمار فليعب .

ومن هنا : طريقك إلى الأقصر البندر وسوق الثلاثاء ، لا طريق لك إلا من هنا يا ساكن القرى والنجوع — إن كنت راكباً أو كنت سائراً .

القسم الرابع عشر

كل الخيوط تتشابك

- ١ -

« ١ »

قال السعدى : « أبني الزواج من بنت خالي يا أم » .
ردت الحنادة وكأن العقرب لدغتها : « لو تزوجت من بنت فهمية فلن تكون
ابني ، سأذبح خليفك حمامة .. كأنك مت ، وتكون خلقتي كلها من
البنات .. والعوض على الله .

صرخ المحب العنيد : « نبوية بنت خال .. وهي عاري .. وهي دمي ...
ولحمها من لحمي » .

قالت الأم : نبوية بنت فهمية لا بنت الحنادة ، لو عانلت وركبت رأسك
سأحرمك من الإرث » .

رمى الولد بقلوه القاطع : « اقترضى أنها بنت الشيطان — لكنها رغبتى أنا لا
أنت » .

« ٢ »

أشاحت الأم برأسها وأدارت ظهرها للابن غاضبة . وأدار الولد ظهره لأمه .
وانفلت غاضبا للخارج ، وصفق الباب الخشبي خلفه بعنف .

« ب »

قال مصطفى — ابن بجيت البشارى من حزنة وشقيق فهيمة — للسعدى
ابن الحنادة : « انتظر حتى أموت أنا وتموت أمى ثم تقدم لنبوية وتزوجها إن
رضت بك » .

« ج »

العناد والعشق جعللا السعدى يقرر أن لا يعود إلى أمه وأبيه — قال :
« سأبنى عشى بعيدا عن العمران — هناك عند الساقية المهجورة ، سأطلق
لحيتى وشعر رأسى وسأجد سلوكى فى الخمرة والغدرات ، سينطلق الوحش ويكسر
الأبواب وينط الحواط ويحصل على ما يسكت صراخ بطنه ، وفرصتى آتية آتية ..
فى اليوم القريب أو اليوم البعيد ، سأخطف تلك التى أعبدتها وأمضى بها لنعيش
أنا وهى حتى نهاية العمر : هناك مع الضواري . ودونكم ودونى يا أهل هذا البلد :
النهر والرمال والجبل الكبير » .

تحت ظل شجرة التوت القائمة بفروعها الكثيرة هناك عند الساقية
المهجورة — نام السعدى ، وحلم :

« جمعت الفرس ، وألقت من فوق سرجها ابن الشيخ الفاضل ، وجرت
ورمت بسرجها ، وشقت الدروب نافذة العرف ، والعرف تحت الشمس الطالعة له
وهج يعمى البصر .. وكأن العرف من نار ، والخلق تجزى خلف الفرس ، ونبوية
وسط الخلائق مفككة الشعر ، وقد بلغت الفرس الساقية المهجورة وجدت
السعدى الذى نط كالقط واعتلى ظهرها الأملس وقبض على عرفها ، وظل يصفر
لها بفمه حتى استكانت ، ومد السعدى يده لنبوية فملت له نبوية يدها
المرتمة ، ورفعها لفرق وطوقها بساعده ، وشد عرف الفرس ولكرها فى بطنها

بكعب رجله ، وصرخ : هيه .. هاه ، وانطلقت الفرس كالريح : خاضت به
الماء .. وتحطت عقبات الرمل المخادع .. وها هو الجبل الغرى الكبير قاب قوسين
أو أدنى .

- ٢ -

١٠

منع مصطفى بنت أخته من الخدمة في بيت الشيخ الفاضل ، وصرخ في أذن
أمه التى لا تسمع إلا بالصراخ :

« نبوة كريت يا أم .. ويعتقى دين للشيخ الفاضل سارده وأنا قادر على رد
الدين بإذن الله .. وأنا أكسب من عملى والحمد لله فلماذا تعمل نبوة في بيوت
الغير ؟! » .

وقال مصطفى لنفسه وهو يهم بمغادرة البيت :
« لقد نهى السعدى أن البت كريت وصارت عروسة » .
بلهجة الولد الحريص بخ أوامر في وجه نبوة :

« لا تلهى للنهر .. سيأكرى سقاء ، قومى انقعى الفول والحمص ..
وسأرسل من طرى من سيأتى ويأغله » .

جلست نبوة تنحسر على حالها :

« سأظل هنا بهذا البيت حتى يأتى رجل يوافق عليه خالى وجدى فإأخذنى
لبيت أمه ، أما هو فلن يتقدم لخطبى أبداً ، هو السماء وأنا الأرض ولن تنطبق
السماء على الأرض إلا إذا قامت القيامة ، سأظل في مكانى هذا بحسرتى ، أنقع
الفول والحمص وأكنس تراب البيت وأرشه ، وأسمع كلام العجوز ، كلام العجوز
زاد اليوم عن اليوم الذى فات ، ولا أحد في مواجهة العجوز غيرى أنا ألتى أسمع
كل يوم أن الماضى حلو والحاضر مر ، حتى النهر لن أذهب إليه فقد اكثروا

سقاء ، أنا غزالة الصوف وصانعة الطواق ورامية الحب للظفر — هل يحضر ليراني
فأغسل ثوبه ؟! » .

— ٣ —

رحلت شمس الصيف الكبية ، وأقمرت المرساة ، ذهب صغار التجار وكبارهم
والنوتية والحمالون وأصحاب العربات وسائقوا العربات إلى حيث يعلم الله . وتلك
هى شمس الشتاء بوجهها الضاحك وشعرها الأصفر المخلول . وهما هم السباح
قادمون من بلادهم — بلاد الغيوم والمطر والتلج الأبيض ، ليتفرجوا على الأثر
القديم ، وليركبوا العربات تجرها الخيول وليشتروا الطواق الملونة ويلبسوها ، ولتقلهم
قطارات الماء من بر الشرق إلى بر الغرب ، وليعمروا اللوكاندات .

رحلت شمس الصيف بالبطالة وأتت شمس الشتاء بالعمل .

— « هيا إلى اللوكاندة يولود .. وأنت يارجل هيا إلى العمل .. ودعوا البطالة يا
سكان نحب البحارة فقد رحل الصيف .. وأنتم لستم ممن يفلحون الأرض
ولستم بالملك ، فلتلبسوا ملابسكم البيضاء وعماماتكم البيضاء وتمنطقوا
بالأحزمة الخضراء .. منكم سيكون البارمان ومنكم سيكون الجرسون ..
وفيكيم المرمطونات » .

فكر مصطفي وهو يرقب النهر — وكان الرجال والصبيان قد مروا عليه ورموه
بالسلام وكانوا يلبسون ملابسهم البيضاء وعمائمهم البيضاء وقد تمنطقوا بأحزمة
خضراء : « لأنهم يعيشون الصيف في بطالة ويعملون بالشتاء ويحصلون على أجر
ويقشيش كثير ، ولأن الصيف قادم لا محالة بعد الشتاء — فهم مقامرزن » .

وفرك مصطفي ورق الكوتشينة الملون بين راحتيه وزعق في النهر ، ورد عليه
النهر :

« مقامرون .. مقامرون إلى أبد الآبدين » .

وقال لنفسه :

« من يعمل بالليل سيأتي إلى خصي بالنهار .. ومن يعمل بالنهار سيأتي إلى
خصي بالليل » .

حزينة لا ترى إلا السواد يغطي كل شيء ، لقد خف الضوء بعينها التي ترى ،
وقلتُ قدرة الأذن التي تسمع على التقاط الكلام من فم الآخرين حتى لو صرخوا .
ونبوية تخفى بطنها المتنفخة عن عين جدتها الكليلة بالثوب الواسع ، وتتوجع
بالألانات المكتومة؛ فالصرخات العالية قد تسمعها الجلبة .

— لكن لما يتكرر رفض البنت للأكل ، ولما ترفض المعلقة ما بداخلها من طعام
وتربيه من الفم ، لما يتكرر القئ وتقل الرغبة في العمل ويكثر النوم ، فلا بد
أن في الأمر شيء لن يقوت على حزينة المجربة دون أن تعرفه .

أنت آمنة أم بدرة القابلة ، واختلت بنبوية داخل الغرفة ، وخرجت آمنة
وحدها من الغرفة ، وقالت للجلبة توأسيها :

« كان الله في عونك .. الانام مشروخ » .

ضربت حزينة أسنانها الهتاء ، وقالت لنفسها :
« لو كنت أملك عافيتي لقصيت الأمر بنفسى » .
وشدت عكازها وخرجت للطريق تظلع ، لتقل الخير المجمع للابن .

خاتمة

- ١ -

مصطفى الهائج كال نبوية الضربات الموجعة وجعل الوجه الجميل يتورم ، ولم الشعر الذى يحاكى الليالى بكفين نفرت منها العروق . وبقبضتين قويتين رمى بالجسم الذى يبتغيه الرجال على الأرض وجرجر نبوية ، وأشبع بطنها الذى يحمل الحرام رفساً بقدميه ، وتركها — إلى حين : حتى يخفر الحفرة — كوى لحم مهشم العظام ، تنأوه تحت الجدار .

رمى الفأس ، ورفع نبوية ، وأنزلها فى الحفرة ، وأهال التراب على الجسم حتى العنق ، وترك الرأس يطل بينا الشعر يرمى فى التراب . وصرخ مصطفى فى الغيب ، وترجعت حثينة صراخ الأبن :

لا كسرة خبز .. ولا جرعة ماء .. حتى تموت وحتى تبوح بمن فعل .

- ٢ -

نبوية تقاوم العطش الشديد .. حلقها جاف لم يجرع الماء منذ عام — لكنها

لن تنادى لتطلب الماء . ونبوية جائعة (تشتهي ثور الحلوى المكسور القرن بداخل صندوقها الخشبي) . ونبوية تنظر للكوّة العالية بالحائط — تلك التى تأتى بالضوء والبرد للفرقة — وتقول : « ما عدت أحس بالبرد .. وهذا الضوء أهو ضوء الشمس أم ضوء النجوم .. الضوء لا يعينى بقدر ما أريد أن أعرف أهو نائم أم مستيقظ .. كم من الأيام مر على وأنا هنا . يومان أم شهر أم عام ؟ أم أعوام طويلة تلك التى مرت .. وتلك العيون الشامته المظلة من الكوّة تسألنى عن اسمه ولن تغادر الكوّة حتى أنطق باسمه .. أنا لن أنطق لأننى ميتة ميتة لا محالة .. لا بل لأننى لن أبوح باسم حبيبى وإلا فسيقته الخال الهالج .. لماذا لا يقرب منى ذكر الأرنب الكبير هذا؟ يمرر شعره الناعم فوق جلد وجهى ويدفن جسمه الطرى فى شعرى متمرغاً بفروه الناعم . . . »

- ٣ -

خيوط السعدى باب بيت بخيت البشارى بقصبة قدمه بعنف ، وتخطى حزينة القاعدة دون أن يرميها بنظرة من عينيه الحمراوين المشتعلتين كجمرتين — إنه يعرف بفتيته ولن يضل طريقها .

أخرج من بين طيات ثوبه الممزق المنجل القاطعة الحادة الأسنان ، وقبض على لمة الشعر الأسود المغفر المهوش كما يمسك بحزمة برسيم ، وحصد العنق الشاخن ، فمال البرج وطار الحمام وعوى الذئب على مشهد الدم النافر يفرق الثوب وينيرى على التراب كالحيات ، وحمل الرأس بعيون ماتزال حية تلمع ، وهو يعوى ...

- ٤ -

« أ »

كان مصطفى قاعداً يغسل الأطباق والفناجيل والأكواب من رواسب القهوة والبشاي فى جردل به ماء ، وحول مصطفى جلس الرجال يكلمون- ويدخنون

الجوزة ويشربون الشاي والقهوة السوداء بغير سكر ويخلفون على اللعب ،
ومصطفى غافل عن هذا العالم — بإرادته — ويعيد .

« ب »

ظهر الشيطان فجأة بلحيته القذرة المهوشة وشعر رأسه المنفوش ، وبصق
السعدى على وجه مصطفى ، ورمى في الجردل المملوء بالأكواب والفناجيل والماء
القلر برأس الجميلة .

« ج »

الرجال يطوقون مصطفى بصمت مميت ، كفوا عن اللعب المسموع ،
والكلام المسموع ، بينما عيونهم تقول كلاماً ووجوههم تنطق بكلام ، ما لهم لا
يمشون ويغادرون المكان ويبقى مصطفى وحده بهذا المكان حتى نهاية العمر .

صرخ مصطفى في الصمت وفي الرجال وفي كل من يسكن القرية من نسوة
وصبية ويوت ونخيل وحيوان وشجر :

« كلكم يعرف من أنا .. كلكم يعرف من أكون .. كنت صبياً لما سافرت
إلى السودان .. وقفت وحدى ورفعت اليد في وجه الهمس عبد الظاهر وألزمته
الحمد ، عرفت النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ، بالسودان نمت على فراش شيخ
عشيرة . أنا الولد الذى لأزاح ولا جاء نمت على فراشه وهو شيخ عشيرته يأمر
ونهى ويصدر أوامر القتل على ابن آدم ويحرق رقبة ابن آدم بمثل ما يشرب الماء —
لكنه العاجز إذا ما أمر زوجته بالحفاظ على فرجها » .

« هناك منكم من عاشرى بالشام ويعرف أننى تزوجت وأننى عجيزت كشيخ
العشيرة عن حماية فرج زوجتى فطلقتها ، من منكم لا يعرف النساء ، أنا الذى
عرفت تزوجت مرة واحدة ولن أكررها مهما طال لى العمر ، وما فكرت بعد الذى
حدث .. وما فكرت قط ، السعدى ولد ونوبة بنت والحناد خاله ونوبة ليست
بنتى وهى عار السعدى وعارى من بعده ، ضربتها ودفتها في حفرة ومنعت عنها
الطعام والماء لتبوح باسم الفاعل ، لو عرفت اسمه لمزقت جسمه ولو كان ابن

فرعون .. لشربت من دمه وما كان ليصلنى مخلوق .. لكن السعدى قتلها قبل أن تنطق » .

شعر مصطفى أنه يعزى فى خواء ويمشى فى عتمة تحيطه وتمتد أمامه إلى ما شاء الله ، وأنهم قد أسقطوه من حسابهم ومن عداد الرجال .. إنها فرصتهم — هؤلاء رجال هذا الزمان — ليحطموا رأسه المتكبر : لقد أصدروا حكمهم .

وشعر مصطفى كالذبيحة :

« أنا .. أنا .. وبعد هذا العمر الذى مر » .

وطلب من نفسه أن تعطيه ما يريد : شلاً كاملاً عن الكلام والحركة والشوف
يا السمع — ولبتت نفسه ما أراد وأطاعت .

« »

حمل الرجال مصطفى وأرقدوه فوق العربة ، وجر الحمار العربة ، وصبرت
المجلات ثم درجت على الشارع الأسفلتى ، وعرجت عند مقام الشيخ موسى ،
وحزن الحمار وهو يبسط المنحدر الترابى — لكن السائق صرخ فيه وكال له
الضربات الموجهة بفرع الشجرة اليابس بفواصل سبوح جازياً بالحمولة الخفيفة .

« »

الدمع جف فى المحجرين ، والضوء انطفأ فى العينين منذ زمان ، وها أنت
يا حزن بعد مرور الزمان مع الأبن المقعد داخل المكان ، رحل الزوج ورحلت
البت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشامة ، ولا ضوء ولا
نار بموقد ، وما الحاجة للنار والموقد ؟!

« »

ولى الليل بالنجوم ، وجاء النهار بالشمس ، وأطل الأرنب الذكر الكبير الخائف

من باب بيت بجيت البشارى المفتوح ، ثم نطأ للخارج وتبعته الأرائب الكبيرة
والصغيرة تسمى للحشائش تحت كرم النخيل غير المسور — الذى يملكه الشيخ
الفاضل — والواقع خلف بيته ...

تساویر من الماء
والتراب والشمس

الناس بالناس .. ، والناس للناس ، وصاحي الطاعن في
السن في كرب - فبعد موت ابنه الوحيد ماتت أم ابنه صبح اليوم
الأربعاء ، ووقفتي أمام صاحب مكتوف اليدين مرذولة
« إسكالي المودة »

- ٩ -

(عصر يوم بعيد) جاء قاسم من بلدة البعيد على ظهر مركب تحمل الجرار ،
ودخل سوق المدينة وشال كيس بطاطس يزن إردين ورماه على ظهوره يولف بحمله
لفتين ثم حطه على الأرض - وسأل أهل السوق وحكامه : « أي عمل
يا جماعة ؟ » .

(وصبح اليوم) أجبر الموت - في السوق الائمة أشتات الناس ولمائة البلدان -
صاحب البلد المهتم على البكاء بعين مملوءة بالدمع والدم .

(وذات يوم : لاهو بالبعد ولا هو بالقرب) - عاد قاسم إلى السوق بعد
غيبه بعين مصوبة بمنديل لما رفعها لقبه الأسافل بالأعور وناداه الأفاضل : « يا كريم
العين » .

- ٢ -

(ماييكيك يا قاسم ؟ .. كلنا للموت ! ! .. الموت حوالينا) .

كل ناس السوق بالسنة - كأنهم لا يملكون إلا السنة ١١ ، ماقيمة اللسان في يوم بلاء مثل هذا ؟ ، إسكالى المودة أيضا بلسان أوقعه في ضيق ونجاة من مهالك ١١ ، إلا أن اللسان لا يعرف إلا الكلام ، والكلام لا يفك عقدة ولا يرهط عقدة في حال كحال قاسم ، في حال كحال قاسم الفعل واجب .. الفعل فرض : ولا أحد في أمان من مكر الدنيا .

- ٣ -

« قاسم .. يا صاحبي .. تعال ! »

ثلاث كلمات قلها الإسكالى لقاسم بصوت تسمعه كل الخلائق ، وأمسك بيد أخيه وابن زمانه .

- ٤ -

وهما في الطريق إلى خيمة عمالي - لم يتكلم الإسكالى ، أما المنكوب فلم يكف عن البكاء والكلام (الغير القادر اكترى الفسأل الذى نزع القميص عن البدن وصب الماء على البدن ولف البدن العريان بالكفن ، الغير القادر شرى قماش الكفن ودفع أجر الخشبة وأجر الحفر ، والذى كانت تمشى في النور على الأرض راقدة الآن في الظلمات يبعثن الأرض بمقابر الصدقة) .

سقت نفسك إلى مأزق ياولد ، فأنت مفلس ، لكنك لالين
ولاشين - مادامت الحمرة مترفع الحزن عن نفس
الصاحب ، ولقاسم بلديات يكسبون ويشربون ، لو كانوا
هناك بالخمارة - سينادون « هات خمرة يا مخالي لقاسم وا لإسكافي »
ولى هذا نخباتى من كل ضيق .
« اسكافي المودة »

- ● -

مخارة مخالي خالية ، ففى هذا الوقت من أوقات النهار ينشغل روادها من ناس
السوق عن الحمرة بأمور العيش .

- ٦ -

ستظل يد الإسكافي مدموسة فى جيبه : تبحث بالوهم وتخلق الوهم - ولن
يخرجها من جيبه إلا بعد ما يبلع مخالي الطعم .

- ٧ -

راح مخالي بالأكواب الفارغة وجاء بالأكواب مملوءة ، وحاور الإسكافي مخالي
بكلمتين طيبتين « ثم عبس ورسم الحزن وجرع كوبه المرة بقرص ، وطلب من

غالى حموة له ولقاسم ، وأشار الإسكافي إلى المصيبة التي حلت بقاسم صبح
اليوم .

قال الحمار اليوناني « كلنا من التراب وكلنا للتراب » .
وقال المسيحي اليوناني وعينه على قاسم « الصبر حلو والله كبير » .

- ٨ -

نفخ قاسم: « خرج الولد من الدنيا قبلنا - وكنا نتمنى أن نخرج من الدنيا
قبله .. وخرجت أم الولد من الدنيا قبل - وكنت أتمنى أن أخرج من الدنيا
قبلها » .

وزعم الاسكافي « حموة ياغثال » .
وقالت الجدود لقاسم « الملاك بحموة .. يجرح البدن ويستل الروح » .

وقال السلف لقاسم: « تبقى الروح معلقة مجروحة بجروح البدن حتى يتصدق
أهل الميت على الروح بسورتين من كتاب الله » .

وقال قاسم لقاسم: « أنت غير نافع .. الفقير بحاجة » ،

وقال قاسم للإسكافي: « لا مال معي أدفعه للشيخ ليقرأ القرآن على روح
المرحومة » .

قال الإسكافي: « لا تطلب قراءة القرآن بأجسادهم بقاسم .. كلهم يطلبون
الأجر وأنت لا تملك القاديين .. حاول الفقر بالحيلة » .

وقال الإسكافي « بالسوق أجهزة تدور فتلف أشرطة بمجم الكف وتتكلم ..
ومنها نسمع الأغاني والحكايات، ومنها أيضا نسمع القرآن بالإنجاء » .

قال قاسم : « لن أطلب من مخلوق جهالة .. أقدر على الحزن .. سأحزن حتى يأخذني الموت .. اطلب لي محبة » .

أشرق وجه الإسكافي ثم عبس ونادى مخالي :

« هات لقاسم يا مخالي .. ولف لي زجاجة في الورق » .

« اشرب واشرب ، سأحضر أنا الجهاز . لن أعيب ، لا تطلق بالقاسم
 ولكن بخير » .
 « إسكافي المودة »

- ٩ -

بين نور وظلام وعلى أرض موحلة طالمة نازلة وبعد مشقة ؛ بلغ الإسكافي
 نغم رجب جامع الحرق وناداه وجمع رده فحمد الله الموفق . جلسا متقابلين على
 كؤم من الحرق . ورجب رجب بالإسكافي - وقال : « أعمل شاي ؟ » . ورد
 الإسكافي : « لا .. لشرب حمرة » وعزى الزجاجاة من الورق ووضعها بينه وبين
 رجب وطلب من رجب مسامرا ، وبالمسامر نزع السداده وألصق فم الزجاجاة
 بأنفه وشم وقال : « حمرة طيبة » . وطلب من رجب كويين فأحضرهما . وصب
 الإسكافي السائل الأسود الطيب في الكويين وشرب كوييه على مهل وقال : « حمرة
 طيبة » . قال رجب : « حمرة طيبة .. هذا حق » . وقال الإسكافي : « أصبح اليوم
 ماتت زوجة قاسم » وقال رجب : « والله ما سمعت الخبر إلا منك » . قال
 الإسكافي : « المسكين كالبيت الذي هلكته دبابة .. لولاي لقطه الحزن » . قال
 رجب : « مسكين قاسم فقد ابنه وأم ابنه وقد نور عين ومع العمر فقد
 عافيه » . قال الإسكافي : « هذا حق .. قاسم وحيد .. والوحدة مرة وصعبة
 والناس بالناس والخمرة تبعد الوحدة لهذا دعوته إلى محبرة محال » .. وهو الآن
 هناك يشرب على حساني .. سأعود إلى قاسم فقد يفعل المسكين في نفسه شيئا ،
 فالخمرة تريخ الحزن في حين وتحلب الحزن في حين إلا أن كلام الله وحده يلم

الأحزان من النفوس .. أنت تملك جهاز كهراء يارجب ؟ رد رجب : « نعم عندى .. أحضرته من ليبيا لما سافرت من علمين .. لكن لاكمهنا فى بيتى .. جهازى يعمل بحجارة بطلانة .. لكنه الآن بغير حجارة بطلانة .. هات حجارة بطلانة وتعال مع قاسم وسيعمل الجهاز .. لكن انتظر .. كل الأشرطة التى عندى أشرطة تغنى الأخنيات ولاتقرأ القرآن » . قال الإسكافى : « الغناء أيضا يدفع الحزن .. هات الجهاز » . واحتضن الاسكافى الجهاز - وقال لرجب : انتظر ساعة يارجب ثم تعال الى حجرة عمالى ، سأل رجب - وبان قلبه : « ولماذا لاتحضر أنت وقاسم الى هنا ؟ » رد الإسكافى : « يارجب تعلم من الدنيا .. هل ينتقل الحزن الى بيت الفرحان » قال رجب بخوف : « أذهب معك الآن » . قال الإسكافى : « قد يظن العاجز أنك صاحب مكومة فيرداد حزنه » . وصب من الزجاجه فى كوب رجب وقال : هذه الزجاجه لك يارجب فأنا سأشرب هناك الكثير . ودس يده فى جيبه وسأل رجب مستكبرا وبده تلف فى جيبه : « هل تريد ملا يارجب ؟ .. هل تبغى الضمان الذى يحفظ لك حقك ؟ » تلجلج رجب وأحس بالاهانة ودافع عن نفسه ونفى تهمة النصب عن الإسكافى - وقال : « فهمتى غلط يابن العم .. أنا قد أعجبك فى المواقف .. لكنى رأيت الموت .. قطعت الأسلاك بأسناني وهربت من حلود مصر الى حلود ليبيا .. تسليخ جلدى وأنا أزحف على الرمل الساخن ونفدت بروحى من رصاص القناصة النهايين قطاع الطرق أولاد على بمحجرة من الله .. ووقع قلبى لما رأيت أولاد العرب فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لأقول لك غير مارأيت .. كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سأتى بعد ساعة » .

العرب فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لأقول لك غير مارأيت : كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سأتى بعد ساعة » .

مخالى .. ياساكن اليت العالى .. فى محارتك كهرياء
.. عخذ الجهاز وأسمعا غناء المفتين أبناء أيا منا ..
واسقنا من محرتك السوداء لنسى سواد أيا منا .
(إسكافى المودة)

- ١٥ -

عودة الأسكافى إلى الخمارة أعادت الأمان الى نفس قاسم ، ونفس صافية
قطرهما الخمرة - باح قاسم للأسكافى بسر لم يبع به للراحة شريكة عمره :
« النحل ابن النحل ماسح النمل دعانى إلى ولجة فطلوعته وذهبت معه ، فى البناء
المخصص للعلج كان تلاميذه يكتبون ويطبخون ويهاجمون الحكومة ويتناقشون بملو
الحس ، فدخلنى رعب وقلت ليكدة : « لين الطعام يلاين النحل » ، قال « فى
أوقات الأكل يأكلون وتأكل منهم » ، « كان النحل ابن النحل يتقل بينهم وكأنهم
أبناء عمه ويلمع أحذيتهم ويلم المال ، وأنا كنت آكل فقط لما يأكلون ، وجاء
الوقت الذى حاصرنا فيه البوليس المسلح ، واندونا بمكبرات الصوت ، ثم هاجمونا
لما تنطرسنا فى الرود ، فسالت دموع وسالت دماء وتكسرت ضلوع وأصابنى
البارود فى عنى - إلا أنى زغت ولاأعرف كيف ، ونصحنى بكدة الكلب يعلم
! الذهاب إلى المستشفى لأن المستشفى حكومة تبلغ أمر كل صاحب علة فى زمن
القتال لعسكر الحكومة - وفى هذا سجنى ، وعملت بنصيحة ابن الكلب
! وفقدت عنى » .

وباح الاسكافى بسر يكتمه - قال « بمعلق علة موجة تجعلنى لأرتاح إلا
بالحمام أو فى الخلاء أو وأنا وحيدى » وضحك الإثنين .. ضحكا يدموع .. فيها
هما فى الحياة .. هنا فى حمارة غزالى قاعلان يشريان .

- ٩١ -

فات وقت طويل وهما يميان حمرة غزالى السوءاء ونشدان الأتواء أو الحريق. لما
التقت عين قاسم يمينى الاسكافى رمتها بكلام وزاغت خجلة - تذكر الاسكافى
أنه كقاسم لم تدخل معدته اليوم لقمة ، ونادى غزالى « بعث لك الجهاز .. فيما
بعد نتفاهم .. أعرف حسابى وتعرف حسابك .. هات الأخضر .. طلع من
جيبك وهذ وشغل » . لم يندعش الخميل اليونانى بل فرح وأغفى الحنجر فرحه
وكذلك الإسكافى غمره سرور أخفاه وقبض على الجنبات الورقية - وقال :
« قليل » . وقال غزالى : « الجهاز قديم » . وقال الإسكافى : « يهوضنى رب
المسلمين يا كافر » وابتسم . رد غزالى مبتسما : « أنا نصرانى مؤمن كفرت لما
عشت معكم يامسلمين » .

- ٩٢ -

دخل رجب حمارة غزالى - فى وقت تهدمت فيه كل الحوائط : لحمة مشوية
ومحرة وألفة جمعت أبناء بحر مصر واليونان ، روى رجب نفسه فى البحر وعلم ،
وضرب باليدين وعب بالقم حتى انتفخت بطنه وثقلت جفونه ، والبصر فى الرأس
الثقيل يبحث عن شط ، والصوت البعيد للمغنية البعيدة من الجهاز البعيد يأتى
وهروح : ثم عم صمت .

غدا سيجارة .. جهازك نسيناه البارحة بالخمارة .. لا تخف
يارجب .. الجهاز موجود والخمارة موجودة ومخالي موجود
.. الليلة نضال .. تعالى نأكل لقمة وطعمية سخنة ..
تعالى نغلى ..
(إسكافى المودة)

- ١١٣ -

بعد ما شربوا من محرة مخالي السوداء - حتى آخر مليم في جيب الإسكافى -
وبان لهم حرص مخالي وثقده عن مجلسهم وتجاهله لأصواتهم المنادية وتصميمه على
رمى النار بالنزت ، مد الثلاثة الأيدي فتشابكت ، وأقسموا بالحى والميت والملح
والخبز والخمرة - أن يعيشوا من اليوم حتى الممات أعوة وعصا واحدة في مواجهة
الغبر والعدوان .

حكى الإسكافى لرجب مدار بالأمس من خلف ظهر رجب وامتعض وجهه
رجب ثم تذكر القسم فكلّم نفسه بصوت مرتفع : « محنت .. من البداية
خفت .. على أية حال نحن أخوة .. لكننى واجهت الموت وخرجت من حلق
الموت بجهازى » . رد الإسكافى : « أنت الآن يارجب غير قادر على الحصول على
جهاز .. وغير قادر على السفر .. الطريق إلى كل بلدان العرب مسدود ومحظور
وتقف على حدوده جيوش مصرية .. والإسكافى فى نظرك نصاب كبير .. يارجل
لا تخف .. جهازك ستأخذه الآن وتلمه بيدك » . قاطع رجب الإسكافى : « لم

أقل الإسكافي نصاب .. حاشا لله .. لكن كيف سأخذ جهازى وأنت بهته
مخالى ؟ . قال قاسم : « الإسكافي لما يقول يفعل .. أنا خبيرته » أكمل
الإسكافي « إمسك بثوبى يارجب وأصرخ : حرامى سرق جهازى » . حاول
رجب مقاطعة الإسكافي فأسكتته الإسكافي بيد مرفوعة وكف مبسطة - وقال
« دعنى أكمل كلامى .. أفعل ما أقول لك وامنع ابن أى امرأة من العلوان على
بدنى إمنع أنت وقاسم كل يد تطمع فى الأجر من الله لما ترض عظام الحرامى » .
قال رجب : « لأفعل أكثر من الإمساك بك والصراخ : حرامى سرق جهازى ثم
أحصل بعدها على جهازى ! » رد الإسكافي : « نعم .. هيا ولا تضع
الوقت .. مخالى لو أراد شراء ألف جهاز لاشتره .. أما أنت يارجب فلا وألف
لا » .

- ١٤ -

صرخ قاسم صرخة الحيوان المجرور : « لاتلمسوا جسمه » . وصرخ رجب :
« لاتلمسوه .. أنا لأعوز من الإسكافي غير جهازى » . وصرخ مخالى : « هاتوا
العسكرى ليمسك حرامى بمخالة مخالى » . وصرخ الإسكافي : « تمهل يا مخالى
ولاتناد العسكرى .. أنا سرت جهاز رجب وأنت يا مخالى دفعت المال فى جهاز
مسروق .. أنت شريكى فى التهمة يا مخالى .. لو جاء العسكرى سيجزى من
قفائى ويحرك من قفاك لأنك تشتري مسروقات .. ياناس نادوا الحكومة لى ومخالى
والسيف الأسود يقطع رقبة الأبيض » . وتمالت أصوات رواد محلة مخالى :
« القانون قانون .. القانون لا يرحم .. القانون صريح .. القانون فوق كل الناس ..
القانون سيف على رقبة الكل .. الحكومة بالقانون .. والقانون حكومة والحكومة
قانون .. إرضخ يا مخالى .. إعطى الجهاز لرجب يا مخالى .. إقبل كلامنا يا مخالى
ومالك عند الإسكافي ورجب صاحب حق » . قال مخالى « رجب سيأخذ جهازه
ومالى عند الإسكافي أخذه من الإسكافي » . قال الإسكافي « إعطى رجب
جهازه ومالك عندى » . قال مخالى « خذ جهازك يارجب وهات فلوسى
بالإسكافي » . رد الإسكافي « أنا مفلس يا مخالى والمفلس غلب الحكومة ..
والحرامى يخالف الحكومة كذا شريك الحرامى يخاف من الحكومة .. اخش يا مخالى
يا شريكى وابعد عن شرى وشر حكومتى » . قال ناس الخمارة « ابعد عن الشر
وغنن له يا مخالى » . قال « ومخرقى .. شربوا مخرقى ولم يدفعوا » . قال الإسكافي :

« قدمت لنا حمرة مفشوشة خمرت معلتنا » . رد غالى : « أنت إسكافى لاموظف
صحة » . قال الإسكافى : « جعلتنا نشرب لأننا لصوص نبيع مانسرق » .

قال اليونانى : « بينى وبينك ريتا .. بينى وبينك حد لاتدخل محارقي » .

رد الاسكافى: « أحضر بمالى وأشرب بمالى » . رد غالى : « ياناس .. الاسكافى
يشرب وغيو يدفع » . رد الاسكافى : « أنا أشرب وأصحابى يدفعون .. هم
أصحابى ياغالى .. انتظر ياغالى .. لاتقلب الأمور .. أنا أشرب حمرة خمر ريت لى
العفن فى معدى وخمرتها وأصحابى يدفعون لك أنت ولايدفعون لى » . قال غالى:
« وجهك نتن لاتدخل محارقي .. لاندخل الاسكافى محارقي ياناس » . صرخ
الناس فى الاسكافى : « لاتدخل حمارة غالى ياإسكافى .. لاتدخل .. هذا حق ..
العدل حلو .. وهناك بالبلد ألف حمارة » .

ضربك ضربة يا مغالى فضرعتى ضربتين ، غلبتى يا ابن الكلب
« إسكالى المودة »

- ١٥ -

جلس الاسكالى على حائط متهدم بنته الحكومة من سنين أيام الحرب مع
اسرائيل - وكلم مغالى الغائب :

« دنيا بلا محبة لاتسمى دنيا يا ابن الكافرة .. وأنا لايطب لي فى الدنيا عيش
بغير محرم .. جالونى يا يونانى يا شعوان يا شعواجا يا ذيل الكلب يا آكل لحم
الخنزير ؟ .. نسيت السنوات يا مغالى .. لا وفاء فى بلادكم ولا لكم صاحب ولا
عندكم صاحب .. سأمزق جلدك وأفرى بدنك وألوك عرضك وأقول مغالى لاإنام
مع زوجته ووزوجته تام مع الغير من شيان بلادها .. لكن لا .. هذا كلام يهد
حبل أولاد العرب ولايحرك شعرة فى رأس الخواجات » .

بأس الاسكالى من الكلام مع مغالى الغائب فكلم نفسه الغائبة أيضا :
« تنقشع الليالى والنهارات وتغور وأغور أنا بعد عمى الشقى إلى حفرة مظلمة
وتأكلنى الديدان وسيل من فمى وأنفى وأذنى صديد وقبح ثم يحضر لإسرائيل
: وميكائيل ويهد كل منهما مرزبة ويشبعان الإسكالى ضربا لأنه شرب الخمر الحرام
وفعل الإثم وخالف أمر ربه .

« هنا عاد الإسكافي الخائف من يوم الآخرة إلى دنياه فلم يجد غير أم البنات مبتورة الثديين تلك التي تنام من الغروب للضحى وأطفالها الذكور يموتون - فهاج قلبه الجسور وركل الهواء وجمع صراخ أم بناته فلم يهتم مادام الناس لا يسمعون صراخها وماداموا يرونه على الحائط المهدم وحده يدبر أمره بمفرده ، فلا صاحب للفقر مثله في بلد مثل هذا . من أجل أصحابي فعلت ما فعلت ولم يسأل عني أحد .. وهم هناك بخمارة مخالي وكأني ما كنت يوماً بينهم .. وكأنهم ما عرفوني في السوق والطريق والخمارة وفيها محباً لهم وللخمرة .. تلك طباع أولاد آدم بمصر في زمن كزمننا يأكل فيه الأخ لحم أخيه ويبيع لحم بنته التي تحاكي القمرة لعجوز هالك لا ينط قناة .. ملعون أبوك يلزمن وملعون أبوك يأناس وملعون كل صاحب يتخل عن صاحبه في يوم ضيق .. ماذا تريدون مني ؟ أقعد وسط بناتي وأحشر لحمي في لحمهم وعلى نور لمبة جاز أعارك الفأر القارض وأفحص البرغوثنة مصاصة الدم ؟ أم أقعد في السوق تحت الشمس أنتف شعراً بطني وألم القمل من ثوبي بينما مخالي يتمخبطر بخمارته وعلى رأسه ريشة ! ! » .

ربطك في يدي ياغثالى ، السنجارة سلعة والخمرة سلعة ،
البقال بائع وأنت ياغثالى بائع ، ومن لا يبيع لمن يهد أن
يشترى - حتى لو كان إسكافيا - يدخل السجن ويدفع المال
غرامة ، والحكومة صاحبة ولها رجال في كل مكان ، اسمعى
ياغثالى ولن ياغثالى أسد بلوم لما تخالف قانون حكومتنا المصرية
« إسكافى المودة »

- ٩٦ -

كشر الإسكافى وزام لما لقي زوج الميعة بمخص رجب : « عشت معى يومين
ياقاسم .. كنا لانفترق .. وأنت اليوم بيت رجب .. أنت تخسبى ياقاسم .. لم
تسأل عنى يلوأطى ؟ » . دافع قاسم عن حق الصديق المعاتب وأمسك بثوب
الحبب الفضبان وحلف : « أنا ورجب رحنا السوق وفششنا كل ركن فلم نجهلك ..
أين كنت ؟ » . صرخ الإسكافى ونفض يد قاسم عن ثوبه : « كنت بجهنم ..
لرفع يلك عن ثوبى .. أنت كذاب وضلالى » . حلف قاسم بالله والنسب والكعبة
إنه صادق ، وطلب من الإسكافى أن يقعد ، وسأله . « أين كنت ؟ » لم يقعد
الإسكافى وسأل : « أين رجب ؟ » . قال قاسم « راج يصطاد لناكل » . قال
الإسكافى : « راج يسرق الطير من بيوت الحريم الغافلات » ، وقال الإسكافى :
« لحم الطير المسروق حرام » . قال قاسم بحسرة « لن تقعد ولن تأكل معنا
ياإسكافى ! » . رد الإسكافى « سأكل .. لم لاأكل : ؟ » .. رنا سيجاسينى على
ذنوبى ولن يجاسينى على ذنوب رجب » . قال قاسم : « ستقعد ياإسكافى ..

أقعد يا صاحبي وقل لي أين كنت . قال الإسكافي بقرف « كنت وحدي .. كنت مع نفسي .. قعدت على حائط أمام باب بيت أم بالوظة وكلمت نفسي ونبحت كالكلب » . شد قاسم (الإسكافي ملك في اللعب على الحريم .. معد على الجدار أمام بيت أم بالوظة ورفع حسه حتى تصحى نائمة النهار ورقاصة الليل وتفتح الباب وتناديه : أدخل الإسكافي) ، وقال قاسم للإسكافي : « الرقص يظن عريانه وصورة مكشوفة حرام » . رد الإسكافي « الرقص حرام والكلام عن أم بالوظة بكلام فيه غمز ولز حرام يا قاسم » . فسأله قاسم « ولكنك في حياتك لم تخرج من السوق ؟ ! لِمَ قعدت على الحجر أمام بيت أم بالوظة ؟ ! » .

قال الاسكافي « يا قاسم اسكت .. حيلي مهتود والزنا حرام .. من زمان لم أخرج .. الشقيان مثل متعته خروج البول التسخن من قضيبه .. واليوم كلمت الحيطان وكلمت الهواء وكلمت نفسي وقلبت الكون .. كل يوم يمر على ابن آدم يعلمه حاجب .. الأرض ظلومة يا قاسم .. ظلمتنا وظلمت معنا البطل والحمار والكلب والظفر .. حتى الظفر في الدنيا مقسوم يا قاسم .. طير مشد في السماء وطير على الأرض يمسك ويذبح .. وهكذا حالنا .. العالي في العالي يرانا من شبابه دود الأرض فوق التراب - بالقرب من جامع عمرو - في عراك مع الكلب والبطل والفأر - والحمل والقطعة والحصان والحشرة الضارة وحولنا القبور مفتوحة بشواهد .. وفي الأبيض كل الألوان يا قاسم .. والأسود هو الأسود والدنيا غالب ومغلوب .. الدنيا مشطورة يا قاسم .. الكبير مع الكبير والصغير مع الصغير في لعبة الغالب والمغلوب .. والمال يشتري الأرض وذم الأعيان وأبناء صهيون أغنى أغنياء الأرض .. والغني لما بعض يد صاحبه تقوم القيامة ويخمن الغلبان فيهلوس ويرى مثل اليهودي ويعرفه من وجهه ويكلمه ويعرف أن أيام السلامة ستين حرب .. فالجرب يا قاسم بعلامة، وصاحب المال بخير دين وبغير وطن وإن تكلم بالدين وملك الأوطان بماله .. لو واجه بذلك صيف العلم وصيف علم فات أو واجه بذلك الشتاء والشتاء - فاعلم يا قاسم أنك في حرب ..

وفي زمن الحرب بنى شلتوت الحيطان أمام بيوت الناس ومات شلتوت ميتة البطل المجوز بينما الحيطان التي لم تعرف الحرب وعرفت بول الكلاب قائمة تشهد سنين السلام .. ومن مات أكله الدود ، ومن سيموت سيأكله الدود ، والفاعل الغلبان على الأرض فساء في ربح أو بدن جائع يأكل حتى أولاده : قاطعه قاسم : « لم غاب رجب ؟ أخاف على رجب من الوقوع في يد من لا يرحم » . قال الإسكافي : « نعم .. رجب تأخر .. وأنا لأخاف على رجب فهو قرموط

سمك لايمسك في الماء .. قال قاسم : « لو وقع رجب في يد الحكومة سيحبس .. والحكومة قد تَأْتِي الى مكان رجب وتفتش قفصنا وترميننا في السجن » .

قال الإسكافي : « أنا أكره السجن والأخاف السجن .. كنت أقول لك إن الجوعان يأكل أولاده .. وهذا حق .. فأنا فكرت اليوم في بناتي وأم بناتي وقلت للإسكافي أنت سجان بالإسكافي .. أَجْلَسْتُ أم بناتك في جحور الحيات وحكمت عليهن بالحرمين ، وخرجت لنور النهار والسوق ومن السوق هربت ياغاطل إلى خمارة غطالي وفي خمارة غطالي هربت من حالك . إلا أنك في ختام كل يوم تقع في عين الحفرة التي حفرها الغالب للمغلوب » .

- ١٧ -

قال قاسم « الحرام مُر » ، صرخ رجب « قم يا قاسم وتقيأ ما أكلته » . رد قاسم « لم أقصد أن أضرح » . وقال الإسكافي « البطة كبيرة العمر » .

قال رجب : « لكن لحمها كثير وطيب » . رد الإسكافي : « هذا حق » ، وتذكر الإسكافي ماجرى له مع غطالي بخمارة غطالي وقال لصاحبيه « تعالوا نلعب لعبة » . قال قاسم « سيجه نزعها على التراب وننقل الحجر .. لم يغلبني في حياتي مخلوق » . وقال رجب « عندي كوتشينه .. نلعب الورق » . قال الإسكافي « لا .. نلعب مع غطالي ونلعب على غطالي في الخمارة ونشوق خمارة » . وسأله الصاحبان : « كيف ؟ » . قال الإسكافي « يذهب رجب لغطالي ويهلب ثوب الناصح ويقول : « حاذر يا غطالي .. رأيت اليوم الإسكافي مع خبث .. الإسكافي صديق الخبثين يا غطالي .. سيحضر إلى الخمارة ويطلب خمارة .. لو إمتعت عن البيع يا غطالي ستفترمك الحكومة المال وستدفعه ، وبعد ذلك يسوق خبث الحكومة إلى السجن محطم الضلوع » (ويقول غطالي : لا مال مع الإسكافي) (فيرد رجب : الحكومة تعطى الخبثين المال .. والخبثين يعطون المال لأصحابهم .. ويعني رأيت الإسكافي يقبض) . زعق قاسم « الخبث يضر الناس وصاحب الخبث يضر أصحابه .. وضرر الأشخاص حرام » . قال الإسكافي : « أسبكت يا قاسم لننظر غطالي منلعب لنضر المصراين بخمارة فسدانة » . سأل رجب : « كيف

بالإسكافي ؟ قال لي يا عارف ؟ . قال الإسكافي : « غالى يشكر رجب على نصيحته ويوزع عليه بخمرة فيشرب رجب الخمرة ، ويدخل الإسكافي وقاسم فيهب رجب كاللأسود ويترحب بالإسكافي وقاسم ويجلسهما على طاولته ويقسم بأغلظ الإيمان أن يشريا الخمرة ، يقول رجب : الضيف لا يندفع سأدفع أنا الحساب - ويتكلم رجب بصوت مرتفع فتهرب غالى الخائف وهو يقول : الإسكافي ضيفي .. كلكم ضيفي .. اشربوا على حساني .. تحركتم على حساب غالى » .

الدنيا بنت الحيلة ، ومثل إن لم يتحايَل على المروق من
عزم الإبرة مات ميتة الكلب الجروان
(إسكافي المودة)

- ١٨ -

لما عمل رجب المضمور بتعاليم الإسكافي ، وقرض وضغط على بطنه بركبته
ولعب بإصبعه في حلقه : قاء وجهر قاسم بالندم - وقال « عواقب الشر شر ..
ليتنا ما فعلنا الباطل » . وريت الإسكافي على ظهر رجب وأمره بالرقاد فوق
الخرق - وقال « أنت بخير يا رجب .. ستكون بخير » . وأن رجب :
« مصابريني .. في بطني سكين » . وقال قاسم « ما فعلناه حرام .. لولا الحرام لما
توجع رجب » . شخط الإسكافي في قاسم : « أنا وأنت شرينا .. هل تشكو من
وجع يا حمار ؟ .. هل تحس بسكين في بطنك » . شخط قاسم في الإسكافي
« لو مات رجب سأكرهك لأنك قتلته بلعة حرام » . صرخ رجب وهو يمانى :
« لن أموت يا قاسم .. لماذا أموت ؟ .. أنا تعبان .. كل مافي الأمر أنى تعبان ..
الحمرة تعينى لأنى أحب الحشيش » . قال الإسكافي : « مغالى يونانى وليس من
ديننا .. وأنت يا قاسم لا تميز رأسك من رجلك .. وعينك دوما على الأرض » .
دافع قاسم عن نفسه : « ملعون جد جد مغالى ألف مرة .. رجب صاحى وأنا
لا أبعد له التعب .. وأنت تبتغى المراك بالإسكافي المودة .. وعينى دوما على الأرض
لأن كل واحد يضع منه شيء .. كل الناس تضيع منهم أشياء .. وهناك ناس
تضيع منهم أشياء غالية .. ذات يوم سأجد أنا الغالى مرميا على الأرض .. هذا
أمل ومنأى .. لماذا تعترض بالإسكافي الكلب ؟ .. أنت لا تحب الخير

لصاحبك . قال الإسكافي : « أنت سكران .. سكرتك أفضل .. أسكت يا حمار » . قال قاسم « لا تشتم .. أنا لأسكر من بحر حمرة .. وأنت لا تبغى لي الخمر .. أنت تكرمنى لأنى فى يوم سأجد الغلال وأصبح فى خير وأبص عليك من فوق يا واطى » . قال الإسكافي : « لو وجدت أى شىء ياقاسم سأقطع يمينى .. أسكت يا سكران .. أنت مخوف .. أسكت أحسن لك » .

قال قاسم « أسكت أنت .. أنا لأأريد المراك معك » قال الإسكافي : « أخاف عليك من العريات الجارية .. انظر لقدام ولا تنظر لتحت حتى لا تدوسك العجلات وتمجن لحمك » صرخ قاسم : « حتى لأجد أى شىء .. لا تصحنى .. تخاف أن أجد الغلال وأقعد فى العالى .. أنت لا تصلح رفيق طريق .. سلام عليكم يارجب .. أراك بخير يارجب .. نلتقى الصبح إن شاء ربنا » .

- ١٩ -

صداق الخمرة السوداء يفلق الرأس ، والاسكافي مفلوق الرأس ولا علاج لصداق الخمرة إلا النوم ، لكن صاحب جامع الخرق فى ضيق يعانى من وجع البطن ويحاجة لمون ، وبعد زوبعة خلقها قاسم ورجل - لم يبق لرجب غير الاسكافي ، لو نام رجب سينام الاسكافي ويصبحان فى حال أفضل من الحال ، والخمور عيل والعيال ينامون على سماع الحكايات ، إلا أن الاسكافي نسي ما حكته له أم أمه من حكايات فى السنين البعيدة ، والعيال لا يميزون بين كلام الحكايات وكلام الدنيا والاسكافي بحياته الطويلة قوال .

وقد الاسكافي على كوم الخرق بجوار رجب - وقال :

لم تبصر عيني أسفل ولا أخط منك يا زعتر .. لا يفرئك غناه يارجب ، فهو تين شحيح بطنه كلها قبيح .. طلع من فوق لتحت على قفا امرأة تحب اللثم والضم .. امرأة مصت عافية رجلين وعندها من الأولاد ستة لكنها متعلمة عقلها يلعب ببليدين .. كلبة ممدودة اللسان حركت زعتر كما تحرك الخاقم فى بنصرها .. قالت له : « لف على البيوت يانثييط وهلت لى صفار المدارس أعلمهم من

علمى بالأجر ليسروا فى سكة التعليم الطويلة .. كيف غافلنا ابن النجسة وتزوج من تلك التى نناديها بعد مرور السنين بالسبت الناطقة ! ؟ فزواج المنافع ممكن زعتر من شراء الأرض بالملايم ليكسب الجنيئات .. من مال غيو وجهد غيو أقام العمارتين بطوايق وسراديق وأززار .. والأب صار يمسك بيد ولده التلميذ بمدارس الحكومة ويقوده ليتعلم بمدارس زعتر .. والمدرس بمدارس زعتر هو نفس المدرس بمدارس الحكومة .. المنفعة يارجب تخلق الطمع والطمع يخرب البلاد لما يمشى فوق برها ألف وسخ مثل زعتر .. والمدرس الطماع يطلب المرتين ليأخذ يمينه من الحكومة وشماله من زعتر .. وزعتر يدفع الملايم لمن يمتحن التلميذ فينجح التلميذ الحفيان ويكسب زعتر الجنيئات والسمعة الحسنة ، ويقول آباء التلاميذ: مدارس زعتر خير من مدارس الحكومة .. أما صاحبي المتعلم الفاهم فقد صارحنى بأن النصاب ابن الهرمة لم يعلق لافتة المدارس على العمارتين لأنه لو علق اللافتة سيكتب عليها: تحفيظ قرآن .. وبذلك ينكشف أمره .. العفريت دفع المال للحكومة وحصل على تصريح بتحفيظ القرآن واستأجر الفقيه العاطل عديم الضمير ابن أنيسة: وفى أول كل شهر يروح ابن أنيسة ويقبض الحسنة من زعتر .. أما زعتر فيقبض آخر العام من مال أوقاف المسلمين المعونة المالية الكبيرة ومع ذلك لا يمس بشيء قط .. يمس الماء عن المياى ويمنع الماء عن أبناء الناس وكلنا يمنعهم من دخول المراحيض .. ومن يومين رأيت التلاميذ يارجب يشربون من مقهى عش الليل وصاحب عش الليل يطارد قبيحهم ويقرص فخذ مليحهم .. هذا هو زعتر يارجب يأخذ ولا يدفع وأخاف أن تقوم من النوم ذات يوم فتجده ملك البلد حتى تشرب أنا وأنت المر من ..

وجمع الاسكافى ديب أقدام فلأخله شك أن الدييب فى رأسه ففرك رأسه براحتيه وأغمض عينيه وفتحها ليجد ابن آدم من لحم ودم ينادى ساكن الخُص باسمه ، هنا هو الاسكافى صاحبه المتعب التام يهنف الخائف المشوق لجلاء كل غامض ، قم يارجب .. قم .. الرجل يناديك أنت لا أنا ..

حال بتاني الميوسات أفضل من حالي ، أما أنا فلا أب
ولا أم : غزالة في البر .. شاردة .. يطاردها دوما صياد

« إسكالي المودة »

- ٢٥ -

قال رجب « المكان مكانك .. أهلا بك يا فتح الله » - وغلبه النوم فنام .

هو فتح الله - وقال له « سحك في بحر » .

رد رجب « سحك في نيل » - وغلبه النوم فنام .

هو فتح الله « لوئت البيض ؟ » - وقرصه في جنبه حتى لايعاود النوم .

رد رجب « لاأأكل السليمة .. لونه أنت » .

قال فتح الله « واحدة مكسورة .. وواحدة في القرن .. وواحدة في جيبى » .

قال رجب « سلامة لك .. اسحب الشبكة » .

وغلب النوم رجب فنام . وبش فتح الله في وجه الاسكافي ومد يده بالسلام .

وقال « أهلا بك .. أنا صاحب لرجب » . مد الإسكافي يده وصافح فتح الله وقال : « .. وأنا صاحب لرجب أهلا بك » . وسأل الإسكافي فتح الله : ولّى الخوف وبقي العجب يا صاحب رجب ؟ » فرقع فتح الله ضحكة وقال : « لأعليك يارجل ولا خوف ولا عجب .. كلمه بلغة أهل الحرقه » . قال الإسكافي : « أنا كنت فى يوم صاحب حرقه .. لكنى لم أفهم كلامك مع رجب » . سأله فتح الله : « هل عملت بالفن ؟ .. هل أنت فنان ؟ » . أجاب الإسكافي « لا .. كلنا رجب لم يعمل بالفن ! ! » . ضحك فتح الله وبخبط الإسكافي على فخذه « لم تفهم قصدى .. أنا ألعب باليدى وأزورغ بالقدمين .. أنا خطاف .. وضحك الإسكافي وقال : « سراق ونهاب .. يارجل نشفت الدم فى عروق .. ركبى الخوف لما رأيته .. فسر لى كلامك الممغر مع رجب » . قال فتح الله : « سألك الأمان - فقال الدار أمان ولا أحد معنا ، قلت له هنا رجل - فقال لى صاحب بعين وصاحب بعين وقد فارقانى ، ولما قرصته أفاق وراك - وقال إنك صاحب عزيز أمين على السر وأنت غزالة البر الشاردة ... أما الباقى من كلامى فسأفوه لك بالإسكافي لما آكل من عيشك وتأكل من عيشى .. معى حشيش .. ألف لك سيجارة مخلوطة » . رد الإسكافي : « أنا أحب الحمرة .. هات سيجارة ولا تخلطها ولو كان معك حمرة سأشرب » . قال فتح الله : « أنا لأأشرب الحمرة » الأدمى منا لو شرب الخمر يكر كلامه ويغف عقله ويتعارض أفعاله وتهتز يديه » . رد الإسكافي : « أنت لم تجربها .. ومقاتته لم يتحدث لى » . قال فتح الله : « بينى وبينك .. أصابع اليد الواحله غير متساوية والناس مختلفون فى الشكل والمزاج .. والحمرة محرمة بأمر الله وكلام النى .. أما الحشيش فمكروه والمشايخ وأهل الطرق يشربونه .. والحشيش يجعل النور نورين والخوف مخوفين . ومن هنا فالخشاخ حريص على الدوام يرى موضع قدمه » . واشتبهك الإسكافي الضرب للجدال مع فتح الله فى نقاش - وقال إن الحمرة حرام لكنها لا تضر إلا شاربها أما اللص فضر الغير لما يسرقهم . وأقسم فتح الله « فى حياتى لم أسرق من محتاج » . لعن الإسكافي عرق اللسان واعتذر لفتح الله بكلام لطيف وجامله : « أنت رجل والرجال فى أيامنا قلّة .. وأنا لم أقصّك بقولى .. ليس من طبعى الغمز واللمز .. كنت أقصد بكلامى صاحبنا الرائد .. رجب صاحبى وصاحبك ، لكنه يسرق طير الأرملة ويختر حفرة ويدس النهش ويؤدم الحفرة بالتراب فيخفى فعلته المشينة ، ولما يسمع صراخ المحتاجة وتندبها لاتندم له عين » . وتقبل فتح الله عذر الإسكافي ووجد العذر لرجب . كما وجد الإسكافي الحل الشافى والإجابة الوافية :

رجب عاص لاجرم ..
والحتاج معذور إن سرق ..
هناك لص كبير ولص صغير ..
وأكبر اللصوص هم حكام أى بلد فيها لصوص ..
وسرقة حياة الناس هى أكبر السرقات ..

وقال فتح الله إنه يشرب البيرة أحيانا ، فالبيرة تغسل البطن وتنظف المصارين وتدر البول وتفتت الحصوة فتسلم الكلية . وقال الإسكافي : « أنت تتكلم بالحكمة .. وصداقة رجل مثلك كنز لا يفنى .. والناس أحرار فيما يجربون ومايكروهون .. والمعدل غائب إن احتاج الإنسان أشياء موفورة وعجز عن نيلها .. ومن سرق وهو محتاج لاحتساب عليه .. أما السجون فمملوءة بالمظالم .

- ٢٩ -

فرط فتح الله دخان سيجارة وخلطها بالحشيش ولقها من جديد وأشعلها وقدمها للإسكافي المحب للخمرة - وقال : « جرب وميز وفاضل بين المعتين وقل لى رأبك ؟ » وقال : « سأبقى بينكم ثلاثة أيام وبعدها سأرحل » . قال الإسكافي « هكذا سريعا .. سنشعر بالوحشة لنياياك .. الأيام الحلوة تمر بسرعة والأيام المرة تمر ثقيلة وبطيرة .. متى نراك ؟ » . قال فتح الله فى اليوم الرابع أعود وأبقى بينكم ثلاثة أيام ثم أرحل .. والباقي عند علام الغيوب » . قال الإسكافي - وقد دوخه الخنزير وضاعف من إحساسه بضعف قواه « عجب أمرك يا فتح الله .. فسرى قولك ؟ » . قال فتح الله : « أغيب عن مكان الفعل ثلاثة أيام ثم أعود إليه وأفعل فعلتى بخفة وأتحرك بسرعة فأنتقل إلى مكان ثالث أتخلص فيه مما سرقت بالبيع ثم أعود إليكم بخمس رجب وأعيش معكم ثلاثة أيام وأعود إلى مكان الفعل بعدما يؤخذ بمحيمتى نكرة سرق مرة وتاب عن السرقة .. ومن غنائمى يرتشى الخبز فينخرس لسانه ، وأعيش أنا أيامى فى بمبوحة حتى أفلس .. فأهتبل فرصة أخرى وأكرر الفعل .. وهكذا تسير أيامى » . قال الإسكافي وقبض يمينه على جنبه يسكت الوجع : « مستركنا يا فتح الله لتسرق .. ولهذا أتيت إلى مكان رجب تبغى الأمان وبقيت معنا ثلاثة أيام لتورطنا فى حيك » . قال فتح الله : « لاختيار لى .. هذا نصيبى من الدنيا .. هذا نصيبى من الدنيا » . قال الإسكافي : « يا ابن آدم يا عجب يا ذهب ترمى روحك فى الخطر ثم تندب : لاختيار لى فيما أفعل » . قال

فتح الله : « لو توقفت عن السرقة يا صاحبي فلن أجد المال لأقدمه رشوة للمخبر حتى أشتري سكوتك فلا أقع في المخطور وأساق إلى الحبس مع جماعة المشبهين ليقرأ الضابط أفعالي القديمة من ملفي القديم ويدينني بجرمي الأول القديم عن جرم جديد لم أرتكبه .. هل تهدني بالإسكافي المودة لعبة في يد الضابط والقاضي والمخبر ؟ » .

قال الإسكافي « حاشا لله .. لكنك صاحب .. وأنا أخاف عليك من ضرر أكيد » . قال فتح الله : « من سرق مرة ووقع في يد الحكومة فهو سارق .. ومن سرق ألف مرة ولم يقع في يد الحكومة فهو شريف » . قال الإسكافي الواقع تحت تأثير المخدر - وقد تساوى عنده الوجد والعافية والشر والسلامة : « منك نتعلم يا فتح الله .. قل المنهد واروني أنا المطشان .. قل لأعرف أكثر » . قال فتح الله : « ومن سرق مرة ووقع في يد الحكومة واعترف بما فعل تحت بطش الحكومة عاش في السجن مهانا يحلم هذا وذاك وربما نام على بطنه وصار امرأة .. ولو فكر في التوبة طلبا للأمان فسيتحول إلى خرقه حين لا يجد المال ليدفعه للمخبرين وسيكفر حتى الممات عن جرائم الغير .. أرى أول من ظلمني .. كنت أعرق وأبيع جهدي للظلمة نظير مال قليل .. وكان أرى يأخذ مني المال وهكذا فعل مع أخى الكبير من قبل فهرب وهربت أنا مقلدا أخى الكبير ، واحتميت به فسرق جهدي يومى وظلمنى كما ظلمنى أرى ، فهربت من سلطة أخى وعشت حياة الصبية المشردة ، وساق لى الله المعلم فظلمنى فن السرقة .. ومن يومها وأنا أسرق .. دخلت مرة ورأيت السارق الظالم العزيز ورأيت السارق المظلوم المهان .. من يقبل الظلم يعيش الظلم طول العمر .. ومن يرفض الظلم يفوز من الطريق بمحنة المخامرة وقد يحصل على لقب أفندى أو بك أو باشا أو وزير أو رأس بلد .. هل فهمتني بالإسكافي ؟ » قال الإسكافي : « فهمتك .. ففى بلدنا المأمور وعبد المأمور وعبد عبد المأمور .. إن عدت من غزوتك سالما .. هات معك للإسكافي زجاجة خمر » . قال فتح الله « لك منى زجاجة مسلوذة العنق ملفوفة في ورق » . قال الإسكافي « سأنتظرك .. لا تخلف الوعد .. ولا تكن كالغراب » . قال فتح الله : « تشبهني بالغراب بالإسكافي ؟ » . قال الإسكافي : « لا .. ولكن للغراب مع الديك حكاية مشهورة » . قال فتح الله : « وما حكاية الديك مع الغراب ؟ » . قال الإسكافي : « في الزمان البعيد كان الديك يطير وكان الغراب لا يطير ، ذهب الإنسان إلى حانة وشربا ، فلما فرغ الشراب طلب الغراب من الديك أن يعيه جناحيه ليحضر خمره ، وطار الغراب بأجنحة الديك ولم يرجع حتى يومنا هذا .

بينما القديك المغفل يصبح كلما رأى الضوء وينادى الغراب : هات الخمرة وهات
جناحي لأطير ولا تمرضني للذبح يا أسود الطير « قال فتح الله : « أنا لا أخلف
الوعد .. لكن الطرق مخوفة بالخطر ومجدرة بالخفر .. تذكرني بالخير بالإسكافي
المودة واطلب لى السلامة » .

وعدتني بالخمرة يفتح الله . فقال وهات الخمرة فقال وعد
جناحك ورد إلى جناحي لأطير . ولا علي أن عمت مرة -
فمن يوم ولدتني أمي وأنا أفقد من مصيبة لألق في مصيبة

إسكافي المودة

- ٧٧ -

ثلاثة أيام قضاهما فتح الله بحُص رجب مع الإسكافي وقاسم ، وبمال فتح الله
القليل أكل الأربعة الأكل الطيب ودخنوا السجائر الخالصة والسجائر المخلوطة
بالحشيش وشربوا الشاي واستمعوا لغناء المخبين والمغنيات من جهاز رجب لما اشترؤا
من مال فتح الله حجارة بعلرية ، ولما فارقهم فتح الله على وعد باللقاء بعد يوم -
ودَّعوه آخر وداع وتحنوا له السلامة في خطواته ، وبعد رحيله مدحوه ، وقالوا إن
الغائب كان لطيف المعشر طيب الطبع حلو اللسان أمثاله في أيامنا المظلمة نادرة ،
وأقسموا ان فتح الله « الأخ الرابع والصاحب الرابع . وسو في حفرة عمقها ميل »
وأقسموا إنهم لن يستخدموا علبه الثقاب المملوءة بأعواد الخشب ، ستظل كما هي
ولن تمس إلا إذا حضر فتح الله سالما من غزوته - فهل يعقل أن نفرط في رمز تركه
لنا الغائب ليذكرنا به - مجرد أننا نهد أن ننخر به أسناننا التي أكلها السوس عقب
كل أكلة ، ومدحوا موقع نُحصر رجب المعمول من عيدان الغاب الزمية على حائط
سور مقابر اليهود المهجور ، وتذكروا حكاية عبد الناصر مع الباشا اليهودي باني
المقبرة فتنابوا سرد قصتها :

في عام ١٩٥٦ هاجمت دولة الانجليز وفرنسا وإسرائيل مصر المحروسة أيام حكم عبد الناصر . وكان عبد الناصر قد خطب خطبة عيمدان في الاسكندرية أمم فيها قناة السويس .. وأثناء الحرب حاصر رجال عبد الناصر يهود مصر في بيوتهم ومن خافوا من غدره رموه في السجن .. وبعدما انتهت الحرب رحل يهود مصر من مصر ، وأمم عبد الناصر أملاكهم كما أمم أملاك الأجانب جملة .. وبالدبابة التي حاربت شق الجنود بطن الجبل وأقاموا الشارع الموصل للمطار وسماه عبد الناصر « شارع صلاح سالم » . وصلاح سالم زميل عبد الناصر في حياته العسكرية ، وقد مات . والغاية من الكلام : أن الدبابة قسمت مقابر اليهود قسمين - القبور في ناحية والحديقة في ناحية .. وبني عبد الناصر مكان الحديقة الواسعة مدرستين ومسكن شعبية ومستشفى وملاعب للكرة ... ومرت الأيام وامتدت يد أهل عزبة أبو قرن ونهت كل ثمن في مقبرة الباشا ونزعوا الرخام وباعوه لأصحاب الذكاكين بالقروش ، وطفحوا البيوت كما طفحت المجارى وأحاطت بالمساكن الشعبية ونحزت محيطاتها وأغرقت قبر الباشا وسائر مقابر اليهود التي تخدمت أحجارها .

كما تخدمت شرفات المساكن الشعبية لأن مقاول البناء لص لا ضمير له خلط الأسمت بالتراب لا بالرمل، بينما عبد الناصر انتقل من دار الباطل إلى دار الحق، ولم يشهد معنا أيام السلام مع دولة اليهود، وهذا ما أغضب منا دول العرب فخاصمتنا وصبت حكومتنا في الراديوهات .

وأحسن الثلاثة بالذنب لأنهم لم يفيضوا في تعداد محاسن رابعهم الغائب - فتذكروا أقواله وقللوا أفعاله وظلوا ساهرين حتى قطع الأبيض بالسيف رقبة الأسود وأذن ديك الفجر للفجر ، فرأى كل منهم وجه صاحبه . ومموا ديب أقدام الحرس المسلح الطواف على تراب الدروب يبتعد - وقالت لهم امرأة من قلب الصندوق المتكلم « وآلآن تشلو مغية الجبل : عائدون .. عائدون .. إننا لعائدون .. » .

كنا أربعة .. ولم نعد أربعة .. وفي الذي جرى قرلان
وجرم له دافع وجون حاصد .. وفي الذي جرى أسوأ ختام.

« إسكالي المودة »

- ٢٣ -

عاد رابعهم سالماً موفقاً - والمال مسرق ومضاعف . ير الولى بوعده وجاء بزجاجة
الخمر على شكل قربة من جلد أرنب البيت وحجم قربه من جلد أرنب البيت ،
بغير رأس ، مسلوذة العنق بقلينة ، ملفوفة الجسد في ورق ناعم يشف عن ماء
الحيلة الجازي في الجسم ، ورق له لما يلمس صوت الطير على الشجر يسبح بحمد
شمس الشروق وخمس الغروب . ويهيمه - سلمت يمينه - صب غاسلة المومع في
الأكواب ، وقال هو المحب للمخدر : « من أجل أغوة الرجال سأشرب كوفي ولن
أقنى » .. وقال رجب : « وأنا مثلك يا فتى الله .. والاسكافي وقاسم يعرفان
ما فعلته العلوة في المرتين » . وقال قاسم « قسمنا الخمر وليجمعنا الحشيش
سلطان السلاطين » . وطرح الاسكافي أكل اللحمة المشوية حتى ينتصب العمود
المائل ويقوى على الشرب والتدخين . رحبت الجماعة بأكل اللحمة وحمدت الله
على وجود المال محقق الرغبات . وغادروهم قاسم إلى شواء شهير لقيه سكان غرطة
أبو السمود بالحلو الطيب ، فهو يدعك لحمته قبل شها بمخلطة من البصل والفلفل
والثوم والملح ليكسبها الطعم الطيب والرائحة الطيبة . حط الاسكافي زجاجة الخمر
على حجره ولطفها بمجمل الكلام « أنت أم لمن لا أم له ، وأنت لمن لا أخت
له ، وأنت الأب والبنين والأهل وستين التيل وعمر التخيل .. وأنت دم الطهر
المرفوف المذهبوح » .

وفرك فصح الله الدخان وخلطه بالحشيش ولف السجائر وكومها . والثلاثة ينتظرون إلى المتعة الدانية، يعيرون الرغبة المقيدة بمحضور رابعهم قاسم كريم العين .

- ٢٤ -

والصندوق المتكلم بغم الحجر المشحون بالكهرباء - سب بلسان عربي، العروبة المتعطشة للدم المصري والاسرائيلي، والمطالبة بالحرب، والتي تهاجم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية التي وقعها باسم الله ومحمد الله الثلاثة الكبار كارتر والسادات وييجين في كامب ديفيد . ووعد الرئيس شعب مصر الطيب بالرخاء ورفع العناء إذا ما حل السلام بين جيران اليوم وأعداء الأمس .

ورمى رؤساء العرب وملوك العرب وكبير فلسطين المخاربة باتباع تعاليم موسكو الحمراء الخاقنة .. وأنهم رفعوا أيام الحرب سعر البترول، وقذفهم بالعيب وطالبهم بالسير خلفه في مسيرة السلام التي يقودها كارتر رئيس أمريكا وصاحب مشروع كارتر للتعمير والبناء بقروض أمريكية في ظل سلام دائم وشامل وكامل في الشرق الأوسط. وصفت الجماهير للسادات وغنت مغنية للسلام والأمن والأمان ودولة العلم والايمان والأسرة المصرية الواحدة بفقيرها وغنيها .. ولعنت الحقد والحاقدين دعاة هدم البيوت ونصحتهم بالحلب معمر البيوت وطارح الخير والبركة في ربوع مصر قلب العروبة وسيدة العالمين .. وصفت الجماهير للمغنية، وطالبهم المذيع المصري بتحريك مؤشر الراديو والبحث عن الموجة الجديدة - ففعلوا . وخطب فيهم عبد الناصر رفيق الميتين - فركبهم رعب وأطبقوا بكفهم على فمه وأجبروه على الخمس - فهمس : ماأخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة .. وهنا فارق بين السلام والاستسلام . وصفت الجماهير لعبد الناصر وهو بين الأموات ! ! وغنى المغنى ولايمك ياناس من الأمريكان ياناس خلفك أشجع رجال . وصفت الجماهير للمغنى وهو بين الأموات ! ! . وقال المذيع إن بغداد هي صوت العروبة . وركبوا الموج وراح بهم الموج وجاء في الأزمنة والأمكنة فسمعوا صوت دمشق وصوت السعودية وصوت الرصاص وركض الأقدام وديب أحذية الجند المسلح وصراخ النسوة ورزق أجراس الكنائس وأذان المؤذنين وشتائم الأخوة أبناء البلدان تأتي وتروح « يأكلة الفول .. يأكلة الفول ياخوان » حمدوا الله رب العالمين أنهم طلقوا .

ولما رأوا كريم العين يحمل اللّفة حمدوا الله رب العالمين ثانية ، وتحافظوا اللحم ونزعوا الورق والعظم عن اللحم وأكلوا بسم الله الرحمن الرحيم ، ودار الشراب فشرب اثنان ، ودارت السجائر فشرب الأربعة ، وبعينين منفلقتين رأى قاسم الثور يناطح الثور ويغرس قرنيه في بطن ابن جنسه ويدور في المكان ليعجن بمخافوه عنوة وقطة ودجاجة ، ورأى أم ابنة صارخة والابن ياكيا مملود اليدين ، وسب قاسم الحشيش غالت الملوصات ممسا ، ولعن أكلة اللحم التي لا ترد جوع العمر ووهن الجسد . ومعهم يضحكون على نكتة - فقال قاسم « مليحة » وطالبهم بتديد فوزرة قديمة لا يعرفها إلا سكان صعيد مصر تقول : « ملزنا لز ملزكم بقدر ملزكم يلز ملزنا زى ماملزنا لز ملزكم »

على صوت المغنيات والمغنين والخطباء والزعماء والطير والريح وأقدام المارة وأحذية الحرس المسلح وجدال الممثلين ودق الموسيقى - كانوا يشربون ويشنون ويلقون النكات ويتصلون عن مواطن الزلل والمصاعب التي يعاقب عليها الحكام رعائهم . اتفقوا على أن نجح أى مرشح فى انتخابات مجلس الشعب الجديدة لن يغير من مصيهم إلى أحسن كما أنه لن يهبط بهم من أسفل الدرك إلى ديك أسفل ، كان مايشغلهم هو - إلى من سيذهب القماش المكتوب عليه : انتخبوا السيارة أو الشمسية أو المفتاح - من سيأخذ قماش اللافتة المعلقة على منحصر رجب - قال رجب : أنا أحق بالقفل والشمسية والمفتاح وكلنا النخلة . ورد عليه الثلاثة : نعم أنت الأحق . وقال رجب : لو حاول أحد من سكان القبور سرقة اللافتة فسأقطع يده وعليكم معلونتي . قالوا له : ستعولنك نحن أخوة . قال رجب : ألا يكنهم سرقة أكفان الموتى : فسألوه : من من سكان القبور يسرق أكفان الموتى . قال رجب : كل سكان المقابر يسرقون أكفان الموتى . قال قاسم : سرقة أكفان الموتى حرام ، وسأل قاسم وهل يسرقون أكفان النسوة ؟ رد رجب : هم يسرقون أكفان الذكور والنساء ويمتصون عن سرقة أكفان الأطفال ، فهم يظنون أن من يسرق كفن الطفل لا يفارق القبر الضيق المظلم حتى يأتيه الموت بعد عذاب الجوع والعطش . قال قاسم : « هذا صحيح » .

قال رجب : « لاهذا الكلام باطل - ولكنهم يسرقون أكفان الكبار نكتة القماش ويمتصون عن سرقة أكفان الصغار لقلعة حجم القماش .. وذات يوم

خالفتهم وغافلتهم وسرقت كفن طفل رضيع وصنعت لنفسى غنّة أرفع عليها رأسى لما أنام . قام قاسم وقال : « سأمضى إلى المقابر .. لقد سرقوا كفن زوجتى ولم ابني وهى فى قبورها عارية وعلى أن أسترها » صرخوا فيه : أنت سكران .. أنت مسطول . وأمسكوا به قلوبهم وأقلت من قبضتهم وجرى فجروا خلفه وسدوا عليه الدروب القريبة الموصلة للمقابر ، فلجأ إلى شارع عمرو وهناك رمته العربة تحت أقدامهم كتلة من اللحم والدم فرفضوه وندادوا العربة التى حملته إلى المستشفى رقم (١) . وقال لهم الأطباء صغار السن : « سنفعل ما بمقدورنا لنوقف نزيف الدم ولكن مصابكم يحتاج إلى الدم الذى فقدته وليس عندنا بالمستشفى الدم اللازم . قالوا : دما دمه .. قاسم منا . وقال أحد الأطباء صغار السن : دعوى أعان دمكم فالدم صنوف .. فقد نعر على فصيلة من دم أحدكم تفيد صاحبكم فحمد الثلاثة الله ومروا بالاختبار . وقال الأطباء صغار السن مشقة الله فوق مشيتكم ومشيتنا فتركوا على الله وانقلوا مصابكم إلى مستشفى رقم (٢) .

بعضوا عن سائق خير يقل أن يحمل كتلة من اللحم والدم فعاروا عليه بعد وقت وجهد ، بينما قاسم مغلق الفم يكلمهم بهيونه التى غيا فيها النور : « لا أبني ترك حياة أتم فيها حتى لو عشت شقيا » . ولى المستشفى رقم (٢) قاهلوا الطبيب الذى قال لهم بعد ما رأى حال قاسم وعانين بدنه بالآت من عنده : « صاحبكم فى مرحلة خطيرة فمقدار الدم الذى نزفه بلغ اللتر ونصف اللتر وما عندنا من الدم لايكفى .. سأحقنه بنصف لتر من الدم وعليكم احضار لتر من الدم من المستشفى رقم (٣) فإن لم تجدوا فعليكم شراء الدم من بنوك الدم » . ردوا : « المال معنا وتفاوضوا فيمن يذهب وفيمن يقعد مع المهرض » . فنهزم الطبيب : « لو مرت ساعتان على صاحبكم وهو فى حالته تلك فسيستوقف عمل الكليتين وبعد ذلك ينتهى كل شئ إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد أو فى يومه الرابع أو السابع » . قال الإسكافى للسائق « لاتقف لإشارة ولا تأبه لأوامر شرطة المرور فصاحبى فى خطر » . ورد السائق الطاعن فى السن على الإسكافى : قالوا فى الأمثال فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة « سلامتى وسلامتك على الأكل » راح الإسكافى يكلم نفسه بعدما يأس من سائق العربة - قال الإسكافى : « أنا محتمل راغب فى العيش أحب الحمية .. ورجب قد مكشوف العورة .. وفتح الله خطاف بقلب شديد نال من الحياة أكثر مما نلنا .. أما أنت باقاسم فشقى فقدت الولد والزوجة وعافية البدن ونور عين ونصيبك من الدنيا قليل فليمنحك

الله عمرا طويلا ويساعدنا في توصيل السعادة إلى قلبك الحزين .. نحن الأربعة
عصابة نخشى الحكومات وها نحن في يوم البلاء هنا نخوض معركة مع الموت من
أجل حياة رابعنا ؛ بقلوب لا تخاف الحكومات وتدخل بيوتها المسماة
مستشفيات » .

وها هم الثلاثة يجلسون حول المحقق ويحدثون على سؤاله عن اسم قاسم
بالكامل - فقالوا « لانعرف » وعن سؤاله عن الزمن : « لانعرف » لسنا من
حَمَلَةِ الساعات ، وعن رقم العربة : « لانعرف فنحن لانقرأ » ولما سألهم عن
المكان ردوا : « نعرف » هنا بخريطة أبو السعود بشارع عمرو بن العاص قرب
الشجرة التي تظل الجالسين على مقهى السلام .. وبالتحديد بين الشجرة وعامود
النور الحكومي رمت العربة قاسم كومة من اللحم والدم والعظم والظهر المقسم .

وأتاهم الطبيب وقال لهم وللمحقق : مات . فسكت الثلاثة ثم تطلعوا إلى
بعضهم وإلى وجه المحقق والطبيب . وعندما وقعوا على أوراق المحقق بأصابعهم
غادروا المكان . فالمستشفى الحكومي إذا ما حل الموت بالحي قامت بواجبها نحوه
أفضل ألف مرة من أحياء كالإسكافي ورجب وفتح الله .

الحقائق القديمة
صالحه لإشارة
الدهشة

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

حين رأى — وقد انهكه السير الطويل ، وكان يصعد من الأسفل إلى الأعلى (المطعم الفاخر بواجهات من زجاج ، والرجل السمين القصير وصاحبه التي تلبس بالطلو من فرو الدب — يأكلان : عجلا مشويا وديكا روميا وطاووسا محشيا وحروتا مقليا بعد أن شربا من جيد الخمر تسع زجاجات .. وأمامهما تورتة الحلوى على شكل شاحنة ومحجم شاحنة)

صرخ — هو الجائع الحافي العارى — صرخته الأخيرة ولزقي في حضن أمه الأرض ليستريح — عليه سلام الله .

أما الشارع — فهو مفخرة المدينة : الأشجار التي تظلل جانبيه شاذها يد فنان ملهم مشرق الطلعة ، تصدرت صورته غلاف مجلدين متشترين هذا العام ، كلمته عند الصفوة مسموعة يهتف بها في أى وقت من أوقات اليوم فظفر الطيور المبرقشة مفتتلة بالمطر وتمط بالصالبونات وحجرات النوم ، لقد صمم بنفسه الجهاز تحفة فريدة لنفسه — منه يتكلم ومنه يسمع : كانت يد الجهاز المرفوعة من العاج بكف مبسوطة مثقوبة وأصابع متفرجة .

هنا — بالعالم — عربات على شاكلة الأوز والبط والنعام والفنور والطباء ، لكنها لا تدرج على أرض الشارع في هذا الوقت من الليل .

وهنا — بالعالم — الرجل الخمور العائد إلى بيته ماشيا على يديه وقدميه ، لما يصطلم بكومة اللحم — سيقف ، وينادى الدركى المكلف بحراسة المكان — ويخطبه مخاطبة من لم يلقى قطرة من حمر المرق الحلوقة .

يقول الخمور الذى لم يمد مخمورا — للدركى :

« من أى قبة آتى ؟ ، من أى المدين جاء ؟ ، ده : من الأسلم لى ولبن هم مثلى — وضع السؤال هكنا : من أى قبة دس علينا ؟ .. أى مدين العالم تلك التى تدس لنا ؟ عجيبة والله : وهل من جائع فى ربوع وادينا الخصيب !! .. هل من عراة فى بلادى وما أنت ترائى يا سيدى الدركى متعتلا .. وما أنا أراك كذلك .. وكلنا متعتلون ، وسيد إقطينا السعيد عادل .. وفى صحيفة اليوم صورة له : يحمل ميزان العدل يمينه — سلمت يمينه — ويسراه — سلمت يسراه — يلوح لنا نحن جموع شعبه الرقيق الأئى الخالد : باسمنا بقبضة من عيدان القمح والسمسسم والقرطم الأبيض ، سأجعلك تراه يا سيدى الدركى ، لكن دعنى أقتش فى جيوبى الكثيرة عن صحيفة هذا اليوم ، أمهلنى من فضلك ، مهلا أرجوك ما من شك أن صحيفة اليوم كانت معى ، وما من شك أن اليوم هو اليوم ، اللعنة على وعلى أُمى التى أنجبت غائباً — لقد فقدت صحيفة هذا اليوم ، سيدى : عفا — أحيانا ينسى الإنسان منا حاضرو الطيب فيرتد للماضى الكهه .. حين ذاك يشمر بالجوع مهلكاً فيأكل كما الجريدة ، لكن : أياكل للإنسان الصحف ؟! ، عفا سيدى : هل يتحول الإنسان إلى جريدة ؟ ، لقد كانت الأخبار السعيدة كلها هناك بالصحيفة يا سيدى ، آه : ما من خير سعيد برأسى الآن .. ما من خير سعيد ، يلى من تمس سوء الحظ — لقد كانت الأخبار السعيدة كثيرة بالصحيفة .. وجدنى لأئى كان صادقاً وعلى حق لما قال لأئى — قبل أن يموت أبى : لئى دون بقية إخوتى سوء الطالع » .

وأشار الخمور إلى كومة اللحم — وقال بغضب :

« لقد أقتدى هذا المأفون صوابى »

ومضى يبكى مردداً :

« يا الله .. لقد نسيت كل الأخبار المفرحة .. بينا الآدمي — الآدمي الذي يظلمه الغمام أحياناً — يتحول إلى جرادة !! »

تجاهل الدركى الخمور ، وتقدم من الرجل كومة اللحم ونخسه مرة بكشف يندقيه ومرة بسن جزمته ونفضه مرأت ومرأت وحلول شده لفوق — يديه المبرتين — فلم يفلح في إقامته ، حين ذاك ارتد عقل الدركى إلى الحقائق القديمة — فسار نحو الخمور وأمسكه من كتفه وجو جرا وقال له :

« افتح عينيك على اتساعهما يا ابن الضاليت ولا تحول خداعي — وقل لي : ماذا ترى ؟ »

« هذا حجر .. لكنه كبير .. ما هو إلا تنوء قبيح بشارعنا الجميل الجميل ؟! »
هذا ما قاله الخمور للدركى .

قال الدركى للمخمور :

« في قولك الأول إقلاق لي . وفي قولك الثاني إقلاق لي .. والأمر في حقيقته جد مقلق — لكن هل تشك في فطنتي وقدرتي — أنا الدركى — في الوصول إلى الحل الأنسب ؟ »

قال الخمور إنه لا يشك في قدرات الدركى — أما هو فمصاب بحالة لا يمكنه أن يسميها ولا ذنب للدركى فيها : لذا فهو مطالب بمحض اختياره الحر لتبوير مقاصده النبيلة بالطريقة التي يراها الدركى .

قال الدركى :

« لا عليك .. إعطني لسانك وسر في طهيقك سمينا »
وقال الدركى لنفسه :

« أما أنا — رب البيت المكون من بتين وولد وزوجة — ففأنتي الوقت أقضيه بمفردى مفكر فيما يجب علي عمله أمام هذا الخطب الجلل الذي يعضني وحدي : أنا الضمير الساهر الحاروس لكل النيام .. أنا الدركى الحي اليقظ لكل أولئك الموتى وألصيح أولئك الموتى » .

ولما كان الخمور ما يزال بالمكان — نهو الدركى فمضى لخال سيبله ، وفكر في أن يفتي هو الخمور أغنية سعيدة — ففشل ، وتذكر أنه اسلم لسانه للدركى ، فعاد يفكر في أغنية حزينة — ولما فشل تذكر أنه خمور ، وكان قد قطع مشواراً قربه من داره — فتذكر أنه ترك لسانه للدركى ، وعاطب نفسه « غداً ألقاه وأسترد لسانى » .

« أية مصائب تلك التى لحقت بى أنا الدركى دون سائر البشر ، ماذا أفعل ؟ ، ياله من تدمير محكم من شيطان لعين ، آه : لأستعن برأى زميلى الدركى ، آه : ومن لى أنا الدركى — غير زميلى الدركى ، وهل لنا نحن رجال الدرك — بعد الزمن الذى أساء إلينا — غير إخواننا رجال الدرك ؟ »
— هذا مقالته الدركى لنفسه .

ولما بلغ الدركى صاحبه الدركى — حكى له الأمر ، وتشاور الصاحبان ، وقد قررا قرارهما على أن الأحجار بالطرقات تفارق اختصاصهما — وتصير إلى اختصاص رجال بلدية الإقليم .

هبطت السكينة بأجنحتها البيضاء على قلب الدركى ، وقال الحمد لله والله الشكر ، وخطط وصق ، وأشعل لصاحبه الدركى سيجارة — ولنفسه سيجارة ، وأسند كتفه المكسوة على جذع شجرة تنفث رائحة طيبة : ومضى يطرد الدخان بفمه مرة .. ويمتنحوه الأيمن مرة .. ويمتنحوه الأيسر مرة .. ومرة بفمه ويمتنحوه .. ومرة ويمتنحوه دون فمه ، واستعاد ذكرى قديمة لحقيقة قديمة — سمعها من عمته العجوز : فكان لها الفضل في أن يصير دركيا .

وحكى لصاحبه :

« يقولون إن الدركى رأى وهو في تجواله رجلا ، فما كان من الرجل الذى رأى أن الدركى رآه إلا أن ولج فراراً ، هكذا لم يجد الدركى مفراً من الجرى خلفه ، كان الرجل ينزع أعضائه جسمه عضواً وهرمى بها على قارعة الطريق — حتى يكف الدركى عن ملاحظته ، وفي النهاية لم يجد الرجل مخرجاً — غير أن يستقيم على ساقيه ويتحول إلى شجرة »

— وسأل الدركى صاحبه الدركى عما يراه في تلك الرواية . فأجاب الدركى صاحبه الدركى :

« هناك أمور في دنيانا — لو أعملنا فيها العقل العاجز عن إدراك حكمة
الإله : لما تابنا غير الجنون ، يبقى أن — نحمد لله نعمة أننا درك طواف .. ولسنا
من هذا الصنف من البشر — المولع بالتحول إلى أشجار أو إلى أحجار !! »

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بلغ المخمور داره ، في وقت كانت الديكة فيه تهلل من فوق أسطح الدور
للفجر الطالع، بينما المؤذنون ينادون المسلم التام « الصلاة خير من النوم الصلاة
خير من النوم » .. ظل المخمور يطرق الباب طرقات متواصلاً ، ولما لم يفتح الباب
أحد ، قعد على الأرض وأهال التراب على رأسه ومضى يبكي، وهو يندب الزمان
واليوم وزوجة بشير ثديين تمام من الغروب للضحى وتنجب كل عام وأطفالها الذكور
يموتون .

على جليلة جد عظيمة ، أفاق الدركى من كابوس ثقيل ، فحمد الله وشكر
فضله ، وتطلع حوله ، ورأى النور يهزم الظلمة فخمن الوقت « بما تكون نوبة
ليلى تلك الباردة قد انقضت — وعما قليل أصبح في دارى حيث الدفء فقها
الزوجة والفرش والغطاء والحطاب » ، وتذكر صانع الجليلة — فلحنه وسب له الأم
والأب والجدود ، وتوجه نحوه — مهتماً إليه بصوته ، يضرب الأرض بخطوات
ثقال ، ويصيح بصوت تمخلع له القلوب والأكياد من هناك ؟ « يرى الجردان تفر
هاربة إلى الشقوق — فيبتسم ، ويرى الدعر وقد أصاب الزواحف وسائر الهوام —
فيبتسم ، وتذكر صانع الجليلة — فيكشر .

لم يكن المخمور غراً : فللدركى خطو تميزه كل أذن — ناهيك بالصيحة ، كما

أن الآدمي المسلم لا يروح الخمار بمفرده — وإنما يروح إليها بمصحبة شيطان كبير أو صغير : لكنه على أية حال شيطان واسع الحيل قادر على هزيمة خمسة من رجال الدرك (وهكذا استعان الخمور — الذي لم يكن غراً — بشيطانه، فتحول إلى خروف) .

• • •

وهكذا فك الدركى عينيه بقبضته وطرد النعم ومسح تكشيره — وقال : « يا بصرى آنت اليوم حديد ؟ .. أهذا خروف لا صاحب له ؟ » وضرب جيبته بخاتم فى بنصو — وقال : « نعم وألف نعم : هذا خروف لا صاحب له .. والسارق الملعون من الحاكم والمحكومين فر بخوفه » .

هكذا اغنى الدركى ، وهكذا فك رباط جزمته ، وهكذا صنع من رباط جزمته مقوداً ربط به رقبة الخروف ، وهكذا خلع الدركى جواره الصوتى وكسم فم الخروف .

• • •

بطول الطريق المبد بالحجر الأسود الكبير كان الدركى مبتسماً ، يتلقى الهبات شاكراً ، ويسمع عبارات المدح والثناء — فيه أولاً وفى الخروف من بعده — فيهر رأسه ويرد التحية بأحسن منها : للطر والحيوان والبشر — وكافة مخلوقات الله على الأرض .

هللت زوجة الدركى فرحة بزوجها الدركى ، وشع وجهها بنور غامر أضاء المكان وجعل النهار نهلين — وهى تمر راحتها فى فرو الخروف الناعم ، ودريكت الفرحانة بقدميها فوق خلخالها القضى ، حين ذلك اشتد حنينها للغناء فغنت :

« لو لم يكن زوجى دركياً — لما كان يبتى غرفة وفسحة ، سرى من عند الحاج كساب ودولابى بمرايا ، جرارى مملوءة بالزيت والدقيق والسمن والتسل ، مصباحنا له نور وهاج وشياكى بشيش وستلة مخزومة ، تنورنا دوماً والى وعندنا مشجب ، وها نحن اليوم نملك خروفاً بفرو بنى وغرة يبيضاء فوق الجبين » .

وترجمت زوجة الدركي على أمها بالكمة الكرشة التي سعت لتزويجها من دركي فأفلحت ، وما هي زوجة الدركي : تعد الله بنذر مقداره طستين من الكسكسي وتوزعها على فقراء المسلمين بالحنى والحنى الجبلور — ليرحم الله أمها ويدخلها جنات النعيم ، ورطلا من دهن الحروف لو منحها الله الصبي أو الصبية لينمحي الكدر الذي تراه في المرأة ظلاً أزرق يتأوج فوق صفحة الوجه النور بالصحة والعافية .

ورفعت زوجة الدركي ذراعين بطرولة الزبد ولون الزبد حلتها بالأسلور ضارعة لرب جميل يعشق الجمال : « يارب مر علم وتلاه علم ونصف علم ولم أنجب — وقلبي الضعيف لا يحتمل الضرة » ، وتقطعت : « يقولون إن الدنيا لا تكتمل مخلوق » ، ودست في فمها لبانة ، وصبت على الفول زيتاً ورشت الملح والتوابل وعصرت ليمونة ، وكسرت بصلتين ، ومن حلة النحاس الأبيض أخلعت رأس فجل وحزمة جرجير ولفته ، ومن التور الوالع أخرجت الرغفان تنس وتبخر .

أكل الدركي طعامه كله ، ودس يده في جيبه وأخرجها قابضة على لقمة كفاة ولقمة بسبوسة دسهما في فمه ، بعد ذاك تمشأ ، ويخط بطنه يطن كفه خيطتين ، وشرب سطلين من الماء وسطلين من اللبن الخامض ، وشرب كوباً من الشاي ، وقال لزوجته قبليني — فقبلته ، وكان راغباً في أحلام سعيدة فقام وصعد سريره ونام من فوره .

تروح زوجة الدركي وتجيء ، تقدم للحروف الماء فلا يشربه ، وتمتد له الوسيم الأخضر الطارح يديها المفسولتين بهما بونة معطوق فلا يأكل ، هذا ما يجعلها تروح وتجيء ، كما أن شخير زوجها — وإن كانت قد اعتادت عليه — لا يريحها الآن .

هذا بيتا المخمور لا يكف عن لوم نفسه « لماذا طلبت من شيطاني القادر أن

يحاولنى إلى خروف ؟ لماذا لم أطلب من شيطانى أن يحاولنى إلى عصفور ، أو إلى أم قويق ١١٩ ، كما أن تأثير الحمرة لابد وأن يزول فيفارقنى شيطانى ١١ ، أى — عما قليل سيفارقنى شيطانى فماذا أفعل ؟ ماذا أفعل يا الله ؟ .

(وآه — ما إن ذكر اسم الله حتى فارقه شيطانه وهرب وهكذا بعد أن كان خروفاً فى مأزق سهل وجد نفسه آدمياً فى مأزق صعب) .

• • •

ظهر زوجة الدركى للخروف، لما أدارت نحو الوجه وجلبت مكان الخروف رجلاً . بعقل عاقلة تليق زوجة للدركى أدركت : أنها لو صرخت فسيجتمع الجيران ومنهم الحاقد والحاسد .. ويصحح الزوج .. وهذا الرجل غريب .. والفضيحة قد تؤدي إلى طلاق .. حين ذاك قد لا يشفع لها جسد البض الطرى الأبيض . « هذا رجل . وهى أنثى عاقلة تشهى رفسة القدم فى بطنها » .

(هكذا فكرت بنت حواء وديرث ونالت مبتغاهاء وفتحت باب البيت نصف فتحة وتطلعت بمنة وهسرة، وفى الحين المناسب والوقت المحسوب دفعت بنت بالمة الكرشة بالرجل إلى الخارج ودست نفسها فى حضن بعلمها النائم) .

• • •

لم يعد الرجل المغمور مغموراً ، وما هو يهرول فى الطرقات يلوى على أشياء وأشياء ، مكلمها نفسه المرتعشة خوفاً وغيظاً وعجباً : « أنا هو أنا ؟ . لا ريب أننى أنا إسكالى المودة .. أنا الساكن بدرب الصفا : ما من رغبة فى اليوم للعمل بعد ما رأيت من أحداث وخطوب طوال الباردة واليوم .. مزاجى غير معتدل .. ولن يعتدل مزاجى إن لم أعاقب مبتورة الثديين تلك التى جرت على المصائب بعشقها للنوم .. من لى بزجاجة من عرق البلح الكلىوى » .

• • •

بعد أن كال إسكافي المودة لزوجته اللكمات والصفعات والرفسات ، جرها من شعرها — وكان طويلاً أسود — فلمعت الفكرة في رأسه كبرق في ليلة مظلمة ، أمسك بمقص الجرح المظلم وجز الشعر وصوّ في منديل وخطب الباب لاعتناً الجلود الأسافل لمبتورة الثديين .

باع الشعر لحلاق النساء وسبه في سو لأنه لص وابن لص وهو يعرف أمه الخياطة وكان اسمها « نانا » وقد ماتت وهي يتيماً بالنار لأنها كانت تسرق القماش ومنها تعلم أنها حلاق النساء السريعة .

بصق على الأرض بصقتين كبيرتين : واحدة على نانا وواحدة على ذلك الطعس الذى لا يحجل من تسمية نفسه « ابن نانا » .

قصده الخمارة ووجدتها مكتظة ، رغبة في الحيلة وطلباً للأمان المفقود وبعد الذى شاف في يومين متعاقبين — عقد لسانه ثلاث عقد ، وجلس يشرب .

شرب وشرب وشرب ونفسه ما تزال في الشرب راغبة ، فشرب وشرب وشرب حتى رأى جواره حمراً بيذعة ورأى الساقى قطاراً بمدحجة بصفر ومشى على قضبان .

« رغبت مثلك في النوم .. وكان الباب مفتوحاً ولا يزال .. وما أنا أرى الحبل ولا أراه » — ذلك كان قول زوجة الدركى للدركى ، وذلك أيضاً قولها :

« يا ذنبى العظيم أنا التى ما رددت الباب »
وبكت فسال دمعها الغالى وجرح خديها ، وأكملت :

« ثم إنى اليوم فرحة بها هو جسدنى يرقص والجمرة تلمسنى ضع يدك هنا ..
لا .. هنا أَلَمْ يرفسك بقدمه » — وهذا ما قالته أيضاً زوجة الدركى للدركى .

وهو من ذاك فى هم ومن هذا فى سرور ، ثم إن الخروف لابد قد عاد لأهله
وربما عاد لنفس البيت الذى شافه أمله بالأمس .

نفس الدركى المخمور « لماذا أنت هنا ؟ » . فك المخمور العقدة الأولى من
لسانه ومضى بفك عقدة لسانه الثانية . إلا أن الدركى عاجله « وتدس الأفيون فى
فمك أيضاً !! » . أجاب المخمور بعد أن فك عقدة لسانه الثالثة « لا والله ..
هذا لسانى .. وتلك دارى » . قال الدركى لنفسه الشكاكة التى ورثها من الأزمنة
« هو سارق الخروف عاد يحرم بمكان الجريمة — كما خيرتنا الحقيقة الخالدة بحق » ،
وقال للمخمور : « أطرق الباب ودعنا نرى » .

علم المخمور أنه وقع فى شر أعمال مبتورة التدين التى تنام من الغروب
للضحى ، وطلب العون من شيطانه كى يلهمه حيلة — إلا أن شيطانه القادر
تخلى عنه وهرب عندما تلفظ بكلمة الله فى قوله « لا والله .. هذا لسانى وتلك
دارى » .

ما من حيلة إذن .. ما من مفر .. ما من مغيث .. والسجن مظلم ورطب
تسمل فيه العيون وتخلع الأظافر وتفارق القلوب الصنور .. والقيد فى اليدين
والقدمين والرقبة .. والخروف له فرو بنى وعلى جبهته غرة بيضاء .. ومبتورة التدين
طالق .. طالق بالثلاث .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

« حمارة مغالى اليوم مكتظة : كل الطلوات مشغولة ، أعرف الكل والكل

يعرفنى : الكل هنا يعرف الكل — لماذا أفضل أنا محمرة مخالى ؟

هكذا مخاطب الاسكافي نفسه التى تميش — الآن — بحب غامر لكل من
بالمكان ، لقد قضى بالخضر أسبوعاً ، مسح المكان بعينه ونادى الجميع بصوت
طروب :

« من منكم يرغب فى أن أشاركه اليوم طاولة ؟ آه ، لا ، ها هو العرجى الفار
من محمرة مخالى يعود — أخيراً — إلى محمرة مخالى ، ها أنت ، ها أنا أراك أيها
العرجى الجاحد » .

وبمشقة شق له طريقاً بين الطاولات والأرجل الممتدة — حتى بلغ صاحبه
العرجى ، سلم عليه العرجى وهو قاعد : وهذا يحزنه قليلاً — إلا أنه جلس ، ورد
على نكتة حلاقى النساء الحارقة ببسمة ماسخة ، ومضى يكلم صاحبه العرجى
الذى يلوح أنه أفرط فى الشرب :

« طيب أن نلتقى ، لكن أين كنت طوال هذه الفترة ؟ ، لا عليك ،
ستخبرنى فيما بعد ، نعم ستخبرنى فحين صديقان ، لقد اخترقنا صديقين ، نعم
ها أنا أتذكر : لقد اخترقنا صديقين .

وطلب من مخالى كوباً فارغة ، وقال لمخالى — لما جاء بالكوب الفارغة :

« طيب نهار مخالى يا مخالى ، لقد قضيت بالخضر أسبوعاً يا مخالى ، آه لو لم
يكن سجل أياى أبيض يا مخالى لمضواى إلى السجن ، آه يا مخالى لو لم يكن
الرجل رحيماً لكنت الآن بالسجن — أنا الاسكافي الطيب صاحب السجل
النظيف يا مخالى » .

وصب لنفسه كوباً من زجاجة صاحبه العرجى وشربه دفعة واحدة ، ومضى
يصب كوباً آخر — بينما العرجى ينظر له بعينين دهشتين احمرتا من الخمر ،
ومخالى لا يزال واقفاً ، قال لصاحبه العرجى :

« لقد اخترقنا صديقين ، لما اخترقنا كنا صديقين ، لذلك تذكر فأتانا ما زلت

متذكراً ، وجرع كأسه دفعة واحدة ، ومسح بكم جلبابه الخمرة التي جرت من شذيقه على ذقنه ، وخطاب غزالى وخطاب صاحبه العريحي :

« فيما بعد يا غزالى ، فيما بعد ، هات طبق خيبار مختل يا غزالى » ، « لقد كان أسبوعاً عجبياً يا صاحبي : كل يوم بليق ونهار ، لكن الحمد لله : ها أنا هنا وها أنت يا صاحبي تعود بعد غيبة طويلة لخمرة غزالى ، ها أنت تعود لنا ، وها أنت تحاول التذكر ، اللعنة على الخمرة : هي التي تعوقك عن التذكر — ولكنك ستزومها وتتذكر ، حاول يا صاحبي — وها أنا من جانبي أعلونك ، لكن دعني أصيب لنفسى كأساً ، ها أنت تهتسم — لا شك أنك تذكرت صاحبك الاسكافى الملقب باسكافى المودة » .

صرخ الآخر — بعد أن حاول القيام ولم يفلح فمد يداً للاسكافى — وقد تهلل وجهه :

« نعم أنت الاسكافى ، إسكافى المودة : أليس كذلك ؟ اللعنة على الخمرة — ولكنك علوتني ، آخ : ياله من صلداع ، لقد تقيأت قبل مجيئك يا صاحبي ، نعم. لقد تقيأت ، أعشى أن تكون الخمرة مغشوشة ، كن صادقاً معي يا صاحبي : هل يغش غزالى الخمرة ؟ »

جاء غزالى بطبق الخيبار المختل ، وجمع كلام العريحي فقال إنه لا يغش الخمرة ، وقال إن كل الخملات تغش الخمرة ما عدا خمرة غزالى . صدق الاسكافى على قول غزالى وردد : « الكل يغش الخمرة هذه الأيام — ماعدا غزالى » ، وطلب من غزالى طبق ترمس وطبق فول سودانى ، وصب لنفسه كأساً من زجاجة صاحبه العريحي ، وطلب من صاحبه العريحي أن يتكلم . قال العريحي بعد أن ذهب غزالى :

« كلهم يغشون الخمرة يا صاحبي ، معلق تحترق ، آه ، دعني أتذكر : أنت اسكافى المودة ، الصلداع يأكل رأسى ، وأنت يا صاحبي قضيت بالخمر أسبوعاً ، لا شك أنهم ضروك ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبي حتى لا أبكى ، آه ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبي ، لا تجعلنى أبكى يا صاحبي » قال الاسكافى :

« لم أكن بالسجن يا صاحبي ، كنت بالخفر ، قضيت أسبوعاً كاملاً ، لكن أين كنت أنت ؟ لماذا غبت كل هذه الفتوة عن محلة غالي ؟ لماذا غبت عنا ؟ »
قال العريحي :

« فيما بعد ، سأقول لك فيما بعد فنحن صديقان ، لكن خيرتي أنت : ما الذي صنعه بك في السجن ؟
رد الاسكافي :

« آه — لم أكن بالسجن ، كنت بالخفر ، وكان الرجل رحيماً ، وكان مسجلي نظيفاً أبيض ، ثم إن الأمر كله لم يكن كبيراً — لقد صنعت ضجة قليلة بشارع هادي ، كنت سكران ، وه ؟ ألن معي الخمرة : إنها سبب كل بلاء ، لم يكن الأمر كبيراً — فقط أفلقت بعض النيام فمضى لي البركي للمخفر ، لكن أين كنت أنت يا صاحبي ؟ » .

قال العريحي لنفسه : « كلهم يفكرون ، لا أحد يقول الحق ، لقد ضربه » ، وقال للاسكافي : « الخمرة مغشوشة ، رأسي تحترق والخمرة تأكل معدتي ، صدقتي لم أشرب الخمرة قط طوال الفتوة التي غبتها عنكم ، أنجيت زوجتي ولدا ذكرا ، وكل الذكور الذين تنجبهم زوجتي يموتون ، لي منها سبع بنات لا يمتن — لكن ذكورها يموتون ، جارتنا جارة الخير قالت لزوجتي إنها لو ربت كلباً صغيراً مع الولد فلن يموت الولد ، وما أنا يا صاحبي أعول سبع بنات لا يمتن وولداً وكتبت لكى لا يموت الولد ، لا شك أن همي زاد وأن مسؤولية تربية سبع بنات وولد وكلب مهمة شاقة ، ولا شك أنك توافقني أن مسؤولية كانت كبيرة — وهذا ما جعلني لا أحضر إلى محلة غالي ، ولما مات الكلب ظهر اليحم أتيت إلى محلة غالي ، هل أخاف على الولد يا صاحبي ؟ كن صادقاً معي يا صاحبي : « هل يموت الولد بعد أن مات الكلب ؟ » .

رد الاسكافي :

« لا يا صاحبي ، لن يموت الولد ، لن يموت : صدقتي — لقد قلتي الكلب الولد ، لقد كبر ابنك ولم يعد بحاجة للكلب فمات الكلب ، لقد كبر ابنك : ليس كذلك ؟ »
قال العريحي :

« نعم : لقد كبر — عمو الريح ثلاثة شهور ونصف » .
قال الاسكافي :

« ثلاثة شهور ونصف !! — نعم لقد صار كبيراً ، لا تغف يا صاحبي ، لقد صار ابنك كبيراً »

زقن العرجي على غلال طالباً لصاحبه الاسكافي نصف زجاجة حمرة ، وقال لصاحبه الاسكافي : أنت صديق حقيقي بعد الذي فات ، وقال له إنه سيوصله إلى بيته بعد أن يفرغ من شرب نصف زجاجة الحمرة ، وأنه سيرب معه كوباً واحدة في صحة ابنه الذي لن يموت لأنه كبير ، وبعد أن يوصل الاسكافي إلى بيته سيمضي هو فوزاً إلى بيته ليرى ابنه ، وقال إنه حزين قليلاً لأن باعة البسبوسة كلهم ناموا الآن — ولألا لأخذ معه لقمة بسبوسة لأم ابنه .

صرخ العرجي :

« حماري — أين حماري ؟ لقد سرقوا حماري ، السفلة الكلاب » .

قعد العرجي على الأرض يبكي ويلطم خديه ، بينما كان الاسكافي يصهر ذهنه عصراً شديداً — ثم صرخ :

« قم يا صاحبي ، قم ، غداً سأتيك بمحرك ، غداً وهذا وعد حر ، غداً سيأتيك إسكافي المودة بمحرك ، أنا أعرف كل سراق الحمير ، عيسى حرامي الحمير هو الذي سرق محرك ، لقد كان عيسى النذل معنا بمخلصة غشاً لكنه ذهب بالحمير ، سأعلمك يا عيسى أنا إسكافي المودة ما لم تعلمه لك الأيام ، غداً سأتيك بنخب الظهر أيها الواطي وأخذ منك الحمير وأرذه لصاحبي ، يا لك من نذل يا عيسى — وهل يسرق صاحب إسكافي المودة !! »

وخطب صاحبه :

« قم يا صاحبي ، قم ، واحمد الله أن العربة نفسها لم تسرق »

قلم العرجي وخطب صاحبه الاسكافي :

« الحمد لله أنه لم يسرق العربة ، ولكذك قلت إنك ستأتيني بمحمري ، لقد قلت لنفسى بمجرد أن شفتك إنك صليتي » .
قال إسكافي المودة :

« قلت لك إن عيسى يسرق الخمر فقط ولا يسرق العربات ، سأتيك بمشارك
غدا من عيسى وسأعلم عيسى أن لحم إسكافي المودة لا يؤكل وكلنا لحم أصدقاء
إسكافي المودة ، لكن ما الذى سنصنعه الآن بالعربة ؟ ، قل لى : ما الذى
سنصنعه بهذه العربة وقد سرق عيسى النلل الخمر ؟ ، لا ، لا تقل لى أنت —
ودعنى أفكر »

قال العريحي :

« لو تركت العربة لسرقها عيسى »

رد عليه الاسكافي ضحراً :

« قلت لك إن عيسى يسرق الخمر ولا يسرق العربات »

قال العريحي :

« لكننى لو تركت العربة فسيسرقون العربة » .

قال الاسكافي :

« نعم — لو تركت العربة فسيسرقون العربة »

قال العريحي :

« غدا يا صاحى ستأتيني بالخمر من عيسى — أما أمر العربة فيجب أن
تفكر فيه معا »

رد الاسكافي :

« الخمر سأتيك به غدا من عيسى الجبان ، أما العربة — أى ، دعنى أفكر »

رد العريحي :

« سأتركك تفكر يا صاحى ، يجب أن تفكر من أجلى يا صاحى ، منذ
رأيتك قلت لنفسى : هذا صديق يعتمد عليه ، هل فكرت يا صديقى من أجل
صديقك المسكين سائق عربة الكارو ؟ »

قال الاسكافي مهلاً :

« نعم فكرت ، لقد فكرت من أجلك — ستجر أنت العربة بهلا من الخمر
وأركب أنا العربة ، ولما يصيبك التعب ستقول لى تعبت فأهبط انا وأجر العربة
وتركب أنت العربة ، وحين أتعب أنا من جر العربة سأقول لك تعبت فهبط أنت
من العربة لتجر العربة وأركب أنا العربة ، ستوصلنى إلى بيتى ضمن صديقان — ثم
تعود إلى بيتك لترى ابنك الذى لن يموت » .

رد العريحي مهلاً :

« ياها من فكة ، يا لك من مفكر ، يا لى من محظوظ ، لقد كسبت اليوم

صديقاً مفكراً سيأتيني غداً بجماري الذي سرقه عيسى — بينما لن يموت ابني كنا
لن يسرق اللصوص عرثتي .

قال الاسكافي الزاكب فوق العربة لصديقه الذي يمر العربة :

« ستقطع الشارع المستقيم هنا حتى نهايته ونخرج يميناً ونمضي حتى نهاية
الشارع الآخر ثم نخرج يساراً وندخل درياً — بعد منتصف هذا الدرب واسمه
الصفا بيتي يا صاحبي ، إنه درب ضيق وموحل ، وهذا ما يجعلني في قرف من
الدرب وسكان الدرب يا صاحبي ، لهذا أتدرد يوماً على حمارة غثلى ، كل سكان
درب الصفا قفرون وسراق وشتامون وجهلة أيضاً : يرمون بكل ما هو قدر وما هم
في غنى عنه من حاجاتهم القذرة للدرب حتى حولوه إلى مزبلة — وقد تكون المزبلة
أفضل من دربهم الذي يسمونه بالصفا ، سأترك هذا الدرب إلى درب المودة في
القريب العاجل — لهذا سميت نفسي باسكافي المودة ، سأنتقل بمشيئة الله إلى
درب المودة حين تأتى الفرصة ولن أندم وستزورني أنت هناك فنحن صديقان ،
النهار هنا بدرب الصفا جحيم لا تطيقه الشياطين فما بالك لي ، بالنهار ترى
الأطفال يسدون الدرب ، ولا عمل للرجال هنا إلا العمل والأكل والنوم مع النسوة
ولنجاب الأطفال ، لاشك أنهم يومياً سيسدون الدرب — لكنني لن أكون هنا ،
أف .. لا تدعني أتكلم عنهم يا صاحبي فأنا منهم ومن دربهم في قرف شديد :
كلاب وذبذب وأكرام سباح ووحول وأطفال عفايت ونساء شتامات ورجال
يسرقون كل شيء وأى شيء حتى الكحل من عيون الحريم .

سأله العريحي الذي يمر العربة واهلث :

ما من شك أن عيسى الذي سرق حملي مني ؟

أجابه الاسكافي :

« لا — عيسى لا يسكن هنا ، عيسى يسكن بدرب المودة لكنني قادر على
شككه فاسكافي المودة لا يؤكل لحمه ككفه ، لا عليك — سأكلمك يا صاحبي
عن رجال البلدية .. فهذا أنت ترى الحفر والنقر بهذا الشارع المحترم ، رجال البلدية
هؤلاء لا ضمير لهم ولا خلق عندهم مع أنهم يحصلون من الحكومة على رواتب ،
أنا في عجب من أمر الحكومة تلك التي تمنح رجال البلدية رواتب محترمة .. دعنا

يا صديقي من سيوتهم فالقلب مليء ، انعطف يمينا يا صاحبي ، انعطف يمينا
وادع معي أن يحرق الله عمال البلدية .

توقف العريحي ليستريح ، وطلب من الله أن يحرق عمال البلدية ، وما لبث أن
سحب العربة بصاحبه الاسكافي — الذي كان يغنى أغنية قديمة تثير الشجن :
عن ريح ، يقال إنها هبت في زمان قديم — ويقال إنها ستهب في زمان مقبل .

وفجأة توقف الاسكافي عن الغناء ولما استفسر منه صاحبه العريحي عن
السبب — قال له الاسكافي : « لا عليك دعني أفكر » ، وفكر الاسكافي في
الخمر التي زينت له الدنيا فجعلته يغنى ناسيا أن للصوت بالليل زينا يجلب رجال
الدرك : وهذا ما تفعله الخمر الملعونة بصاحبها — ومن قال إن الخمر أسّ البلاء
فقد صدق والحيلة واجبة والخمر مطلوب والناس نيام والاسكافي لا يعيش في
الدنيا بمفرده — فهناك حمارة محال والشوارع والبيوت والحارات والدروب والمعالمات
والعربات وأعمدة النور ورجال الدرك والسجون والخفافر والليل والنهار والأنهار وعيسى
ورجال البلدية .. أما الفلاحون فهم هناك بعينا في القرى : وهذا من حمد الله —
ولا لئلا نلصق العالم جحيماً لا يحتمل ، ولئلا نلصق في الحيلة والخمر الواجين قال
لصاحبه العريحي : « قف » ، وهبط وقال لصاحبه : « أخرج لسانك . لا
تخف ، سأعقده لك يا صاحبي ثلاث عقد حتى لا تتعرض لمكروه تعرضت أنا
له وكلفني أسبوعاً بالخففر » .

صرخ العريحي فرعاً :

« أعقد لسانك أنت أولاً ثلاث عقد حتى لا تتعرض لما تعرضت له قديماً » .

رد عليه الاسكافي : لا تدعنا نشتر فنحن صديقان ، وغلى أمة حال هالك
لساني أنا فاعقده ، يالك من أحق ظننت بصاحبك الظن السيء بينا العالم يدير
لي ولك »

ومد الاسكافي لسانه بعد أن نبه صاحبه العريحي :
« ثلاث عقد ، آه .. ثلاث عقد — واجعلها متينة ، واجعلها متينة يا
صاحبي » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

ما من مخلوق قصد البيع إسكافى المودة ، والسوق توشك أن تنفض ، إذن ليخاطب إسكافى المودة ذلك المخلوق الذى لم يحضر فقد يحضر .

« دعنى أرجوك .. ستأخذ مركوباً جديداً .. مركوبك هذا القديم ستأخذ بدلاً منه مركوباً جديداً .. لا تسألنى كيف ؟ . إسكافى المودة يتقن عمله يا سيد .. دعنى من فضلك » ..

زعم الخياط : « لن أدفع مليماً يابليل .. ترزى الخفة لا عبيط ولا أهبل .. أنا لا أطفحها قهوة بالجازز وأدفع .
صرخ بلبل صبي مقهى عش البلبل :
« ستدفع .. أنا خاسر دينى إن لم تدفع »

هب إسكافى المودة وحشر نفسه بين الخصمين حكما ، وصرخ لاعتاً الشيطان الذى يفسد ما بين الأحرار ، ورشف من فنجان القهوة الذى يقال أنه بالجازز رشفتين ، وقال لبلبل صبي مقهى عش البلبل :
« إذهب لحال سيهلك يا بلبل .. سأدفع أنا ثمن القهوة . إختبر الشيطان يا بلبل » .

وقال لخياط الخفة :

« هل يرضيك أن يلثم حولنا الخبيث والطيب ؟ هل يرضيك أن نصير فريجة لكل من بالسوق ؟ » قهقهة على حساى .. سأدفع أنا يارجل » .

وهذا ما قاله إسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل :

« ولولاي .. لولا أنا - لو لم أكن موجوداً ، وهذا من حمد الله .. لسال الدم كما يسيل الماء . بالقهوة جاز .. نعم بالقهوة جاز يا رجل .. من أجلك أنت شربت أنا القهوة بالجاز . وما بعطني متفخة .. لماذا أشرب أنا القهوة بالجاز ؟! من أجل عينيك — والله وحتى لا يسيل الدم كما يسيل الماء .. وبابل هذا أمام الحكومة مجرد صبي بمقهى عش البلبل .. أنت وحلك المسعول أمام الحكومة عن الدم الذى كان سيجرى يا معلم .. ولولاي لتجمع السوق الفضولى بمشى جنازة يشبع فيها لعلماً .. وأنا أعلم الناس بما تحمل السنة الناس من سنم ولولاي يجرى عبيد وقال لهد :

« عش البلبل تسقينا القهوة بالجاز ، خيرى بالله : اية محسولة كنت ستخسرهما أنت لو لم أكن أنا ؟ والحكومة كما تعلم هى الحكومة وبعاني كما ترى متفخة ؟! » .

وهذا ما قاله اسكافى المودة لترزى الخفة :

« يارجل لقد خدعتك طعم البن المحروق فظننت أن بالين جازاً .. ولولاي لسال الدم كما يسيل الماء فى النهر، والحكومة كانت ستأتى وتصبح أمام جمع السوق عيق .. وأنت كنت ستكون سبياً فى غراب بيت الرجل الذى ما أساء إليك — الرجل الذى يصلح دواء للجروح .. فيما قلت يارجل ما يجعل بضاعة الرجل تبور ولولاي لالتفت الناس وللحكومة عين ترانا لما غطىء .. سامضى للرجل وأطيب خاطو » .

وهكلنا عاد اسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل الذى قابله مرحباً وطلب له فوجان قهوة يمنية بغير سكر ، وقال المعلم :

أنا لا أنكر أفضال الرجال الخفيين الكرام الساعين بين الناس بالمعروف .
ورد لإسكافى المودة :

« لا عليك .. كلنا لبعض .. ولولاي لعاب صبيك بلبل فى الرجل والرجل طيب وما أساء لأحد وهو كما تعلم يصلح للجرح مرهما .. طيب خاطو من أجل إن لم يكن من أجل نفسك .. ستجمع ثلاثتنا بمخلوطة غثالى الليلة .. وهل غير الخمر تمحو السواد الذى علق بالنفوس .. إن لم توجه اليه الدعوة أنت لدعوته أنا .. وما أنا أيضاً أدعوك .. دعنى أدعو الرجل يارجل .. دعنى » .

قال تزي الحفة لاسكافى المودة :

« لقد أهنت صبيه .. نعم .. وكنت سأعرب بيت الرجل بينا هو يصلحنى
ويدعونى للشراب بخمارة صاحبها يونانى .. والله إنه لرجل كريم على خلقى فى زمان
كلب ، أما أنت .. آه .. كيف أصفك ؟! لولاك لجرى الدم كما يجرى الماء
ولصرت أنا فرجة لكل من بالسوق ولأنت الحكومة فللحكومة أذن تسمع وعيون
تشوف وتفتش عنا حين نغطىء ولها يد باطشة لما تعاقب .. سأذهب بنفسى
للرجل وأدعوه ليشرب على حسانى .. وها أنا بدورى أدعوك أنت يا أيها الاسكافى
الطاهر الخطوة » .

وقال له الاسكافى :

« لا عليك .. كلنا واحد يارجل .. لا فرق يارجل .. سغفلت دكانتك وغضى
معا إليه ونصحبه إلى حمارة غالى .. ولتعدنى يا أخى كما وعدنى هو أن لا تحدث
فى الأمر الذى حدث .. نعم فعين تصفو النفس بعد الذى حدث نكدرها نحن
بالكلام عن الذى حدث .. بحق علم أكبرك أنا به لا تحدثه فى الذى حدث حتى
لا تحرك ضفينة رققت » .

شد الخياط على يد المعلم بيديه الإثنتين ، وكلنا فعل المعلم . ومنع الخجل
الصون من أن تلتقى ، فقللمعلم خجلان من الخياط والخياط خجلان من المعلم شحط
المعلم فى بلبل لينادى تاكس . وقال الخياط : « نعم نركب تاكس » . وقال
الاسكافى لنفسه : نعم تاكس : هكلنا تدنو المسافات التى تباعد بيننا وبين حمارة
غالى . وأصر المعلم على أن يركب الخياط قبل المعلم . وأصر الخياط أيضا أن يركب
المعلم قبله . وقال الاسكافى لنفسه وهو يدفئ نفسه فى التاكسى : أف منها تلك
الجماملات التى تباعد بيننا وبين الحمرة — إلآم أن التاكسى قاطع المسافات سيقال
من كم الكلام بين الرجلين وهذا طيب .. وأنا لا بد وأن أظل قائما بين الإثنتين حتى
يبقى الخيط قائما ، كما أن الحيلة بنت الدنيا علمتنا أن لكل مقام مقال ، بش
فى وجههما وقال :

« لماذا كان البطيخ ثمرة صيفية ؟ .. يا الله .. أنتظر يا بن آدم : ها هو الفلاح

يفتن البلور في بطن الأرض وهو لا يكاد يميز بين البكرة والبثرة .. وها نحن نرى
 العجب : فهذه بطيخة مستديرة وتلك بيضوية .. خمس وشليان وبلاك وبلدى ..
 ما من مخلوق قادر على اكتشاف السر العظيم : لو راهن الآدمى منا على البطيخة
 وقال حمراء لخسر وربما كسب .. نعم إن لم تشق البطيخة إلى نصفين لما عرفت إن
 كانت حمراء أم بيضاء أم بين بين وقد تكون متليفة .. كما أن البشر معدن ..
 هكنا نحن .. نعم منا الذهب والفضة وفينا النحاس والصفير أيضاً .. إن لم تخبر
 الرجل فلن تعرفه .. لقد خلق الله العالم في أسبوع واستراح .. أما الآدمى منا فلن
 يستريح قط .. تمش في الدنيا ولتنظر وتتصجب .. ونشقى إن كنا من الأشقياء
 ونسعد إن كنا من السعداء .. المال زينة الدنيا وكذا البنون والصحة أيضاً !! لكن
 يوم خلق الله العالم لم يكن هناك أطباء ولما خلق الله الأمراض خلق الأطباء !! ..
 أيهما الأول : الأمراض أم الأطباء ؟ لا لأحد يعلم حتى يومنا هذا .. ياله من عالم
 غريب عجيب كله سر .. هنا حمارة غالى .. قف يأسطنى .. قف » .

إختار الاسكافي أقرب طلولة لهاب الحمارة — حتى يراه كل داخل للحمارة
 وهو به كل خارج من الحمارة .. الكل هنا يعرفه وهو يعرف الكل .. ومن كم
 اتبعها بسكير شأنه في نظر الرجلين ، وزعق في غالى — وضابقه إن جاء غالى ابن
 الكلب بطولاً :

« هنا ضيفى يا غالى وذاك ضيفى يا غالى، وكلاهما له في دنيا الرجال الصيت
 والسمعة .. هيلاه الله يا غالى .. زجاجة كاملة من جيد الخمر يا غالى وأكثر من
 أطباق الخيفار المختل والتمرس والفول السوداني والحمص والفول النبات يا غالى .

وقال :

« وجردل تلج يا غالى »

ونظر إلى ضيفه :

« زوصدا ؟ »

وزعق :

« وصودا يا غالى »

كما يفعل السادة — رفعوا أياديهم لفوق ممسكة بالأكواب مملوءة للحواف .
وتنادوا : في صحتنا نحن خيـار الناس وأنقى المعدن وأفضل الرجال » . وقرعوا
الأكواب قرناً الزجاج وسالت الخمر الصفراء صفراء . وجرعوا الأكواب تلو
الأكواب . وقال الاسكافي نكتة فاحشة روى بعدها الخياط نادرة فاحشة
وضحك المعلم ضحكة فاحشة ورمى قلبه بالين من فضة نقية على بلاط
المكان . وتحدثوا عن دنيا السوق :

« آه .. آخ .. آى .. ما الذى أفسد دنيا السوق .. كأننا نسعى بخطوات
سريعة نحو الآخرة .. الغلاء الأزرق بيننا يحجل والغلاء الأسود في وجهنا ينيح
والغلاء الأبيض كاره يمسك المنجل بيد — بيننا الأخلاق تسوء والشجار يوتئ
والعربات تأتى للسوق تجرها البغال الغبية لتأخذ الخضار والفاكهة .. البوابون
سادة بملابس بيضاء والقوادون يتاجرون في بنات الناس أمام عيون الكل .. وفى
الغرف المفروشة أولاد عرب مثلنا لكنهم سعداء يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية
ويهتمون للجمع مشوية ومقلية وطازجة من عجيـزة غلام ويطيبون رائحة أفواههم
بشراب الهمسكى والنقل المقشرة وهنامون حتى مع عجائز الغسالات .. يلرب لماذا
بنت بائمة الكرشة تصبغ شفيتها بالأحمر — وهى لم تبلغ بعد عامها الرابع
عشر ؟! وبنت الفران تلبس الثوب القصير بورد والحذاء بكعب عالٍ بتجويفه
جرس ؟! وبنت بائمة الفجل من شلرب الكحل تلون جفنها بالاخضر تارة
وبالأحمر تارة وبالأزرق تارة أخرى ويدها شنطة بها كل الألوان — بيننا كانت
بالأمس حافلة القنعمين محوكة الثوب ؟! »

صرخ إسكافي المودة :

« دعونا .. نشرب .. نحن في آخر الزمان »

وزعق خياط الحقة :

« آه .. لنشرب .. إنه آخر الزمان »

وبصق المعلم بصقة كبيرة :

« لنشرب .. ولنطلب الشر لبناتنا ولنسب آخر الزمان حتى يرحمنا الله »

سحسار الشقق دخل باسماء ورد الت دون أن يعزمو عليه بالجلوس جلس ومال
على أذن إسكافى المودة وهمس : « كن نصيرى ولك فى الخير نصيب » ، وقال
السحسار للمعلم :

« العمارة المواجهة لمقهك .. العمارة الصفراء ذات البلكون والأدوار الأربعة ..
صاحبها حاج يضى بيعها .. له — وهكذا أراد الله — ثلاث شققات
متزوجات : هن شركاء للحاج والحاج يريد أن يستريح منهن ومن أزواجهن .. وأنت
باصحاب عش البلبل تملك المال والعقار كما تعلم له فى وقتنا هذا ربح مضمون :
مال لا يؤمم وشقق مفروشة تم يرضا المالك والمستأجر تحت عين القانون الذى
يعجز عن أن يمد يده .. لا تسألنى كيف والعمارة مسكونة .. أقول لك اشتر
العمارة أولا واجعل من إسكافى المودة بابا لها : يقطع الماء عن السكان لمدة يوم
ويعيد لمدة يوم وسأل الداخل والخارج من أين وإلى أين ؟ .. وتدفغ أنت يا معلم
خلوا لأحد سكان العمارة وتسكن فى الشقة بدلا منه .. لا تسألنى بعد كيف
يفادر من يسكن مسكنا مسكنه .. إلى الشارع .. لا .. هذا الفعل لا تفعله
نحن ءفصحن لسننا من هؤلاء الذين يهب دوما خلفهم غبار .. فى البداية نحاسب
السكان كما يفعل الملاك إسرائيل .. ثم تتوجع فى مجالسك مع صبيحتك من أولاد
السكان الملاعين .. فهم دوما يذبون فوق رأسك ويقلقون الأرض تحت أقدام
العمارة .. وصيبة مقهك لهم ككوة من الصحاب لو دفعت لهم مالا وعرفتهم
بوجوه السكان سيقتلونيهم بالطوب ويعقلون نسوتهم ويخيفون أطفالهم .. بعد شهر
أو شهرين وربما نصف شهر ستحصل يا معلم على شقة خالية من السكان
نفرشها فرشنا عاديا ونؤجرها للتلاميذ ولما يأتى الصيف تؤجرها لإخوة لنا عرب
عندهم مال .. لا تسألنى كيف نطرد التلاميذ ؟ .. سنترك لهم الحبل على الغارب
فى البداية .. فإذا بالسكان الثلاثة يصبحون عشوة لكل منهم صاحبة بصر قصير
ويتطلون ضيق .. وهم كالتحل طنانين يحشرون أنوفهم فى كل أمر .. وهذا يجعل
الحكومة تعاديهم .. وهم كما تقول عنهم الجرائد يشعلون النار غايتهم الفوضى ..
وما علينا إلا أن نقول فهم نفس القول » .

قال إسكافى المودة :
« لكنى من أمر الحكومة فى عجب فهى التى تبني المدارس وتقيم الجامعات
وترسل الطلاب فى رحلات »
صرخ الخياط :

« يا إخواني أنتم تتكلمون في السياسة .. وهذا يجعلني قلقا »
ورد المعلم :

« نعم أتينا لنشرب وها نحن نتكلم في السياسة، وهنا سوق والسوق جامعة »
وقال إسكافي المودة :

« نحن في حمارة لافي سوق وهذا ما يجعلني مطمئنا »

قام الخياط يترنح وقال إنه غير مطمئن ، وتعر في طولة مجاورة فسقطت الزجاجات والأكواب وساد هرج ، وشتم أحد الجالسین على الطولة الخياط . فقام المعلم يرد الإهانة عن صاحبه — لكن الاسكافي والسمسار منعه ، ونظر الخياط للذى شتمه وتقيأ في وجهه . وانشغل زملاء الآخر بتنظيفه ، وصرخ غالى في غالى : « هذا ما لم يحدث قط في حمارة غالى » ، وقال المعلم للسمسار : « سأطرد الساكن ولن أدفع مليما واحدا ولا يهمنى أن يذهب إلى الشارع أو يذهب إلى جهنم » . وافق الاسكافي على قول المعلم ، وصرخ السمسار : عمولتى إذن .. عمولتى يامعلم » . وبكى الخياط متوجعا : أنا لم أسكر .. بحر من الحمرة لا يسكرنى .. لكنى في قرف من هذه الدنيا .. في السوق شربت القهوة بالجاز وجاء بلبل يطالبنى بشنن القهوة .. وها أنا أقول لكم من هو بلبل .. بلبل هذا صبي يقهى عش الليل .. وقد سمي صاحب المقهى الذى يعاشر صبيه مقهاه بعش الليل .. انتفض المعلم واقفا ونزع كثيرا لكنى يفلت من قبضة الجمع ويحطم عظام الخياط، بينا الخياط القدر اللسان لا يكف عن ثرثرته المهلكة : ثم إلى لن أمشى من هنا منتفخ البطن .. هذه الحمرة التى يبيعها غالى ليست حمرة .. إنها جاز .. جاز صريح .. كما أن هذه ليست حمارة إنما هى مكان يتكلم فيه الناس .. لقد جله إلى هنا إسكافي المودة والمعلم ليشردا أولادى ويغربا بيتى ويسمعانى كلاماً في السياسة »

« إلى هذا الحد وصلت الأمور »

هذا ما قاله إسكافي المودة لنفسه التى تنتفض كدجاجة ذبحت بسكينه مظلومة ، وانسل من قبضة الجمع كتعلب ، ومضى يركض كبغلة ، وسمع وقع

الأقدام الساعية في طلبه ، لقد كان بفضة فليكن غزالة — لكن ها هو يسمع وقع
 حوافر الخيل على الحجر وينبع الكلاب التي تبتغيه ، تخفف من حملة الثقل وتقياً
 كل ما أكل وما شرب ، لكنهم جادون في السعى خلفه ، عليه إذن أن يحدد
 قصده : دربا محتا من حجر — الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان سباجه ..
 والضوء الواهن بعيد تلعب به ربح خفيفة وتخفقه ظلمة : وهي هناك مازال راقنة
 تحت الضوء والظل والنخلة بجبتها ذات الجرم المائل بالتتن تحت إبطها ، ناداها :
 « انفضخي المصباح يا أم واستهني بالعممة وليل شعرك .. ها أنا قد تخلصت من أقال
 يا أم .. آه يا أم .. ها أنا قادم خفيفا كروح !! آه يا أم .. يا أم ..

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

(أ)

- تسألني كيف عرفت ؟ .. وقى وقى .. نعم أنت تعمل بالديوان العام ..
 ولك بنت اسمها أنصاف .
- صفاء .. ابنة وحيدة اسمها صفاء .. عجل أرجوك .. لكن : كيف
 عرفت ؟

— يا سيدى أنت معنا بالسوق وإسكافى المودة يعرف كل من السوق وتطلق هذا
 ستأخذه من يدى جديداً .. أنا كنت هنا قبل أن يكون السوق .. كنت
 صبياً طائشا عاش حيلة مع أب عرج بعضا أخافه .. وأمى التي أحبا كانت
 مغلوقة على أمرها تبيكى لما تُعامل معاملة حسنة .. من قهتي بالصعيد البعيد
 ركبت سطح القطار الذى يحمل الفحم .. أنا أخاف الجنيد ويد المليون والمقص
 والكابوس — هكلا خلقنى الله : وهذا السوق كان نائيا .. وكان حديقة ورد
 لملك واحد مات — فبنى ورثته تلك البيوت التي تراها .. ذلك بيننا كانت
 المسافة بيننا وبين العمران نصف ساعة بالقدم أمشيها وهناك أبحث عن غرقى كما
 الرسل وأعود لما يدخل الليل : أشرب الشاي وأشرب الحشيش وحمرة العسل
 الأسود من جرة وأمس جرة الطوب وأرى للورد عيوننا كعيون الحيوانات ..
 وكان لى ضحباب يشعرون بغياى لما أغيب : خضر بيندية وساق ورد وجامع

قماعة — وفي يوم فقدنا صاحبنا جامع القمامة .. فقدناه كلية . لقد أصبح غنياً — لكنه الآن تحت التراب يأكله الدود — فيما بعد عرفنا أنه كان عينا لجماعة تسرق البيوت .

— أسألك كيف عرفت مكان عملي واسم ابنتي ؟
— يا سيدى أنا أعرف الكل هنا والكل هنا يعرفنى — إلا أنهم ينكرون .. فذلك العمارة التى تراها قبالتك لابن صاحبى الزبال وهو مغاول بناء يملك عربتين للنقل وعماليتين وزوجة جميلة بيضاء تحونه مع سائق عربته الجيب . تحونه .. لماذا وهو الغنى ؟ .. لاشك أنه يقضى كل حاجاتها ؟!
— أسكت يا سيدى .. أنت لا تعرف النسوة .. أنا أعرف .. إسكافى المودة يعرف : الظالم كان يعرف أنها تحب السائق إلا انه دفع المال وتزوجها .. وهى أيضا كالت له بنفس المكياج .. أغرته بالكلام اللين حتى دفع المال فى العربة الجيب والسائق — الآن : التيس يعرف أنها تحونه مع السائق .. اصمت يا سيدى سترك الله وستر زوجتك وابنتك وبارك لك فى مال تعطيه لك الحكمة كل شهر : خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات — أليس هذا راتبك يا سيدى ؟

— أنت تعرف راتبى وتعرف مكان عملي واسم ابنتى .. كيف ؟
— وأنت رجل طيب ياسيدى وزوجتك حسنة السمعة .. والكل هنا يتكلم عنكما بالطيب
— يتكلمون ؟!
— بالطيب ياسيدى
— لكن لماذا ؟ .. لماذا يتكلمون ؟ .. وتقول الكل يتكلم ؟!
— أنت يا سيدى عشت بيننا سبع سنوات ولكنك لا تعرف أهل السوق .. هم يتكلمون عن الكل : وتلك آفة يعطل بها الخالق مخلوقاته كلما اقترب آخر الزمان ..
— الآن : أنا من أمرى على عجل .. سنلتقى فيما بعد .. نعم سنلتقى
— دعنا نلتقى يا سيدى .. بالله عليك دعنا نلتقى مرة ثانية .. لما أنهى عملي أذهب أنا إسكافى المودة إلى محارة مخالي وتلك عاذق : إنها قرية من هنا .. وهى على يمينك لما تبلغ نهاية الشارع .. دوما يطوب لى الكلام وأنا أشرب وتلك عاذق يا سيدى.

(ب)

- سبقتك يا سيدى وشربت .. شربت كثيرا — لكنى كنت بانتظارك .
— سأدفع أنا كل ما معى من مال .. لقد كنت بانتظارك
— سأدفع أنا .. أنا الذى سيدفع .. لا عليك .. وأنت حدثى بما يقولون
— يقولون عنك وعنى .. من الذى سلم من لسانهم .. لكن بحق رسول الله
— اشرب معى .. كن صاحبا لى يا سيدى واشرب ..
— أنا لا أشرب .. كبدى تالف .. وأنت كلمنى عنهم .. لا .. لا ..
— كلمنى عما يقولونه عنى .
— يقولون إنك تأخذ من الحكومة خمس وورقات كل ورقة بمئة جنيهات ..
— وإنك تجلس فى العمل هكذا : على كرسى وتضع ساقاً على ساق ..
— ثم ماذا ؟
— وإنك تزوجت بأمر ابنتك عن حب .. جعلها تهرج أهلها من أجلك ..
— وإنكما أنجبتي البنت بعد أربع سنوات من الزواج ..
— زوجتى أسقطت حملها الأول والثانى .. هل قالوا هذا ؟
— لا يا سيدى .. لكنى أصدقك
— وهم ألا يصدقون ؟
— لا ياسيدى .. إنهم لا يصدقون إلا انفسهم
— لكن هذا حدث
— أنا أصدقك يا سيدى
— أنا لا أتكلم عنك انت .. أنا أتكلم عنهم
— دعك منهم يا سيدى واشرب .. نار الخمرة التى احترق أنا بها أهون من نار
— سيحترقون بها هم لأنهم لا يتركون الإنسان منا فى حاله ..
— وتلك النار التى أشعلوها بصدرى .. لقد أفسدوا حياتى أياها الأسكالى ..
— لقد فسدت حياتى اليوم .. اليوم فسدت حياتى وإلى الأبد . أنا رجل أمشى
— فى حالى وأطلب من الله الستر ومن الحوايط أن تلتابتنى .. أنا وزوجتى ما
— تكلمنا عن أحد .. وابنتى سأمنعها من غد من اللعب مع أى طفل من
— أبناء هؤلاء الذين أفسدوا حياتى .. ثم إني طيب كما ترى .. لماذا ؟ لو
— كنت أملك مالا لدفعته مقدما لمسكن أو خلوا لمسكن آخر ولمجرت
— مسكنى هذا الذى يقع بمكان هم فيه .. لكنى لا أملك مالا وهذا ما
— يعذبنى .. ها أنا مشطور القلب ومشطور العقل أمامك .. ومرتبى لا

يكفينى لكنى لا أبوح .. لو كنت أعرف منذ البداية ما سكنت هنا ..
الآن أنا لا أملك مالا .. كان ذلك منذ البداية .. نعم كان ذلك بإمكانى
فى البداية أما الآن فلا ..

— إاشرب يا سيدى ولا تجملى أبكى
— لقد غرروا فى وقد كان بإمكانى فى البداية .. أزمة المساكن أمر تعرفه ..
لقد صمموا حياكى وإلى الأبد
— ها أنت تجملى أبكى يا سيدى

— زوجتى تلك التى تتكلمون عنها مريضة منذ سنوات وهى تمالذ لتعمل
عمل البيت .. وأنا كبى تالف .. لينتقم الله ها ولى منهم .

— لمن أتوقف .. لا توقنى يا سيدى ملدمت قهمنى .. دعنى أبكى يا
سيدى بلا انقطاع كما كانت تفعل أُمى .. أنا الذى أشعلت بكلماتى
النار .. بينما أنت لا تعرضى يا سيدى .. تأكد يا سيدى إن إنسكافى المودة
صاحب ضمير .

— وأنا أكنت صاحب ضمير ؟ .. الراتب الذى أحصل عليه من الحكومة
وتظرون له أنتم فى السوق بعين مستهية .. حصلت عليه أنا بعد جهاد
طويل : كنت صغيروا لما مات أبى فتزوجت أُمى من عمى الماكر العجوز
حتى لا تتعرض لقول وهى الزملة الشابة :. أصرت أن أتعلم فباع
حليها .. ومن الصمغ وحجر الكحل كانت تصنع لى حبر الكتابة ..
وقضيت أنا السنوات ساهرا — تحت لمبة جاز : ست سنوات ثم ست
سنوات — أقرأ الكتب وأحفظ ما فى الكتب .. وهى صارت عجوزا ..
توظفت بعد عامين .. وبعد عامين تزوجت .. ربع راتى كان يشتري ما
أشتهيه اليوم يراتى كله .. قيمة الجنيه كما تعلم ثقل وتقل أمام عيون الجميع
والسلفة أمام كل العيون يرتفع سعرها والرجال أراهم وتراهم يتاجرون فى
أعراض بناتهم . هل تكلمت أنا فى حق أحد ؟ ..

مرتى أدفع منه إيجار البيت والنور والماء والمواصلات والطعام لى
ولزوجتى وابنتى ودواء لى ولزوجتى .. لا شىء يبقى .. لا شىء . افترض
أننى مت وكذلك زوجتى ماتت : ما الذى ستفعله ابنتى فى هذا العالم
الذى تعرفه وأعرفه ؟ .. ماذا ستفعل الصغيرة فى عالم هم فيه ؟ .. أى
مصور ينتظرها ؟

سیدی کان عليك أن تتروق .. لماذا لم تتروق بی یاسیدی ؟ .. أنا لا أقرأ
لكنك لا تقدر على تمنی من الاستمرار فی البكاء .. نعم أنا الذی قلبت
الكامن فی نفسك وحزمت الرائد وها أنت أمامی شقیا تدفعنی للبكاء ..
لا تقل یا سیدی إن إسكافی المودة مولع بالخمرة غرر بك لتجضر إلى
مخارة مخالی لیشرّب هو .. لا تجعلی أنظر لنفسی كالذی أفسدته الخمر ..
أنا أيضا كان يجب أن أتروق بك .. على الأدمی منا أن يتروق بصاحبه
الأدمی الطاحونة یا سیدی بحجر ثقيل .. یا لها من طاحونة یا سیدی ..
زوجی نكبة عوراء تنام من الغروب للضحی .. إسكافی المودة لم يعرف
الأثنی قط .. من یملك یشتري یا سیدی .. كل من تعرفت کثر على
شاكتی : خیالات من قش .. عشت حيلة القرد المكشوف العورة ..
طعمنی تافه ورنیص بلا طعام .. ما یل العطر جللی قط وهذا ثوبی
والشتاء بأستان .. كان الحکم أن أموت .. نعم یاسیدی كان على
إسكافی المودة أن يموت منذ زمن بعيد .
إلا انی دافعت عن نفسی بقدر ما استطعت .. كرهت الشتاء وقلت
سیأتی الصیف فلما جاء الصیف : كرهت الصیف وقلت سیأتی شتاء ..
واجهت الموت مرارا .. كنت أقول : أنا غيلة بشیر وتلك ریح إخن لها یا
إسكافی المودة .. إخن .. ودعها تمر .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

كان إسكافی المودة قد شرب فی مخارة مخالی لترین من الکحول وأكل طیقین
من كبید الحیوان وقلب الحیوان ولسان الحیوان — هكذا تصفو الدنيا أحيانا
وتصالح خصومها أبناء الله المحرومين ، لقد أصلح الیوم ثلاث نعال ، نعل أفندی
مدرس ونعل أفندی بالندیان العام — وهذا الأفندی الغربی القلیل الکلام الذی
إذا تكلم سأل بلسان حلو : جاء هو القادر لیشتري الکلام من أهله ، وطلب
من أرباب الحرف دق حنوتین من الحديد فی کیمی نعله الجدید ، ومضى یשמع
السیجارة تلو السیجارة تلو السیجارة ، كأنه عثمان باشا الجمیل (وهك كل
الکلام الذی باعه اسكافی المودة لقاء لترین من الکحول وطیقین من كبید وقلب
ولسان الحیوان)

— صاحبة العمارة سيدة كانت تعمل راقصة في كباريه . ذات ليل بعيد . وكانت تركب التاكسى : نحت بعين المجربة عربة لها شهر — تبعها — يسوقها شاب من بلد عرق جاء مصر يطلب متعة ، قالت هى الخيبة بهذا الصنف من الرجال لسائق التاكسى (اسرع) ومرت للخلف نظرة لثرى السيارة تسرع خلفها ونظرت لقدام لتبتسم — لكنها رأت الشجرة الضخمة فأغمى عليها ولا أفقت وجدت نفسها فى المستشفى بساق أقصر من ساق فأغمى عليها ولا أتوها بمراة ورأت وجهها الجميل جميلا خرجت من المستشفى لتعمل بائنة تذاكر بنفس الكباريه ، من يومها صانت فرجها خوفا من عقاب الله — لكنها كانت تستغفر الله وتقبل الفعل دوما باهتسامة وبكلمة رخوة مع طلاب التذاكر لقاء قروش قليلة يتركونها لها ، بفعل السنوات وبفضل المأساة ولأن الله رحيم ولأن الله وقاب صار القرش جنبها والجنبه جنين والقليل كثير ...

— وهكذا اشترت الأرض بألف دفعتها ونصف ألف تدفعها على عامين ، انتظرت عامين وباعت الأرض بألفين وبتت العمارة طابقا فوق طابق وفوق الطابق طابق وطابق ، كل طابق بخمس شقق ، ثم باعت العمارة لتاجر حديد وأخشاب وكسبت آلاف الجنيهات وانتقلت بمالها لمكان آخر تبنى فوقه عمارة تبيعها وتكسب آلاف الجنيهات وتنتقل لمكان آخر لتبنى عمارة ... سيدة دائمة التنقل لتفضل لصوص المال ...

— أما تاجر الحديد والأخشاب . وقد صار أيضا تاجر طوب وإسمنت — فقد بنى التسع طوابق الجديدة ودهنها باللون الأزرق وفرش كل شقق العمارة وأجرها مفروشة — ما عدا الطابق الأرضى فقد باعه لأصحاب عجلات تبيع الأحذية والملابس المستوردة ولعب الأطفال والفراخ المشوية وشرايح الشاورما والسيجارة الكنت والبيوة وعلب الطعام .

— ساكن الشقة (١) (وهى حجرة واحدة وصالة) والملاصقة لحجرة البواب : شاب من صعيد مصر البعيد يمشى بمجدافين كالقارب فى بحر ، متزوج من مدرسة طويلة القامة تمشى فى عصية ويقول عنها زوجها إنها تخاف الناس ، أما هى فتقول إن زوجها الذى يكتب القصص ويبيعها — خيالى ، إذا فارق بيته فاعلم أنه سيحرب البيوة من الكشك الحشيشى ، بعد نجاحتين يولوس ويعود إلى بيته صارخا فى زوجته وهسب رجلا — تقول

زوجته إن اسمه الأمهكى : هكذا يقول الباب — صاحب الكشك الحششى اسمه فخرى ، فخرى رباح — وهو نصرانى وهو أيضا صاحب الحمار والعربة .

— الولد محمود اللقيط يظن أن فخرى النصرانى الذى رماه والده ويناديه هو المسلم (يا أبنى) ويقول الولد محمود للجميع إن الحمار صديقه وإن الحمار أدخل من كلبة فخرى وأخلص حتى من ابن آدم .

— الشقة (٢) تسكنها ثلاث راقصات يعملن بكبله فى المرم اسمه البجمة .
— الشقة (٣) تسكنها مغنية بكبله فى المرم كانت متزوجة من لى وهى الآن متزوجة من بحرانى .

— وفى الشقة (٤) خمسة من الفلسطينيين الطلاب بجامعة ومعاهد مصر .
— ستبقى الشقة الخامسة بالدور الثانى يسكنها طالب فلسطينى وعاملته .

— بالدور الثالث : مكاتب سفر لليبيا والسعودية ومكاتب سفر لكافة البلدان العربية — هكذا تدل المتعلم عن المتعلم لما يقرأ الالة فوق كل باب .. وهناك من يلد الأمن لما يسأل : شاب بشعر طويل مدحون وبذلة محبوكة وكرافت بفروخ من ثيابه عطر ويتدل من جيبه مندبل أحمر كبير .

— بالدور الرابع : تاجر عطور كبير السن يزور مسكنه بالليل المتأخر مع جماعة من أصحابه الرجال والسيدات .

وتقصون وتتهم الجميل فى شرب وضحك وأكل ومداخية ولعب ، ومعاين بوليس أعزب اسمه سعيد وضابط كبير بالجيش أعزب أيضا ، ومصرية مع كهنى رغم ماله الكثير فهو جم الأدب . وفى شقة أخرى يسكن لى مع زوجته المصرية .

— بالدور الخامس : يسكن سمودى عجوز مع مصرية شابة . وهناك شقة يسكنها مغنى بكبله متزوج من زميلته الراقصة ولهما صديق من قطر يدعى على زياتها ..

— مر شتاء أمطر الثلج والأحجار ومر على شتاء أصفر بأسنان ومر شتاء يصفع القفا بالأقلام ، ومر على الصيف والصيف والصيف — هكذا مضت السنوات .. رأيت الماكينات وهي من حديد تتوقف والسيارات تنهشم والورق يتساقط ، بينما أنا الآدمي مازلت أحياء ، لم أفقد إلا شباهي (بطر) .

— جمهرة الناس لم أرها ، سمعت فقط صياحهم : كان كالحبال المضفورة من الليف ، تعجز أن تميز الصوت من الصوت ، كانوا يصرخون من ارتفاع ثمن اللحم والبيض وندرة الشاي والزيت ، وكنت حريصا من جانبي أنا المحب للكلام فلم أر الجمهرة ولا النار ولا الزجاج المحطم ولا العربة المقلوبة .

— يا سيدى الأفندى ، نسيت ، أمى : لا أعلم إن كانت حبة أم ميتة ، أما أنى فقد مات — هنا ما سمعته ، أمى أمتنى لو أراها مرة ، لا شك أنتى سأبكي ، نعم لابد أن أبكي فى حضنها فقط على أن أبكى ، كل ما أطلبه من الله خالق المسافات أن أراها ، ويفرض أنها ماتت فאלله هو الذى يميت الإنسان منا وهو القادر على أن يجعل الأم تعود إلى الحياة لأن ابنها يريد أن يراها وهي باليقين تريد أن تراه .

— أنا أشرب الخمر والخمر تأكل كبلى وأنا أحب كبى الحيوان والسيارات تأكل الناس كما تتأكل الحيوانات ، الناس والدنيا عذاب بغير مال وعذاب بالمرض والمال وبالمال تشتري الطاقة بمعنى هاتين رأيت الطائرة تحرق السيارة والبيت والأم والولد واليهود يا سيدى صار لهم وطن يبيع اللحم والخضار فى علبه والفلسطينى الذى لا يملك الأرض لم يبيع الأرض بينما الفلسطينى الذى يملك الأرض باع الأرض — ذلك ما يجعلنا نعيش سنين الحرب ولكن الناس طبقات فوق طبقات فوق طبقات : ذلك يشرب لأن معه مالا .. وهذا يشرب وليس معه مال .. والذى يشرب لأنه لا يملك مالا .. وذلك الذى لا يشرب لأنه لا يملك مالا وهناك من لا يشرب ومعه مال ، ناس تحب أكل لحم الحيوانات وناس تأكل لحم الناس وناس لا تأكل لحم الناس ولا لحم الحيوانات — تلك هى الدنيا يا سيدى الأفندى : حلم كالحقيقة وحقيقة كالحلم والدنيا كابوس ايضا ..

— رأيت الحلم من عامين ولازلت أذكره وكأنه حدث الليلة ، كنت قد شربت بخمار غالى ولم يكن معى مال ، وجدت بيتى على الطويلة أسمى فطوقت الباب وأنا أعلم أن النكدة العواء المحبة للنوم لن تفتح الباب حتى لو أقمت أنا رب البيت أمام البيت جنازة ، ودائما كان الشرطى يصحو من نومه فيمسك بى ويشد جلبابى من القفا ويجرحنى ، وهناك فى بيت الشرطة وجدت ذلك الأدمى وكان رحيمًا ، قال لى : (قُمْ) وكنت راكما على ركبتي ، ساعدنى وأجلسنى على كرسى وش فى وجهى وقدم لى سيجارة أشعلها لى بقلاحة ، وأدخلنى حجرة ساخنة فشمرت باليد ، وأدخلنى حجرة باردة فشمرت بالحر ، وأدخلنى حجرة قلت لا أشعر بحر ولا برد ، قال (البس) — وذلك بعد حمام طيب — وكان الثوب أبيض نظيفا فلبسته ، ودخلت الحجرة الساخنة فلم أشعر ببرد ، ودخلت الحجرة الباردة فلم أشعر بحر ، قال الرجل الطيب — وكنت سميذا داخل دولاب من الزجاج به عيون — (انظر) ، نظرت من عين فرأيت النور فى البحر ورأيت كل من اقترب من البحر احترق ، مر الوقت بظلام ونور وظلام ونور وأنا داخل الدولاب سعيد ، وسمعت صوت الرجل يقول لى (انظر) ، ومن طاقة أسفل الدولاب نظرت ورأيت بعينى هاتين كرم المال يحترق ، ورأيت الشوارع تقطعها الشوارع — وقد خبت النار — ورأيت الحطائق والعربات والقطارات وكل النسوة ، فتحت الطاقة ونفذت بحسمى ولم يعترضنى أحد ، سرت من شارع لشارع حتى وجلتلى أنا اسكافى المودة أقف أمام بيتى وهدى تدق الباب ، بينا النكدة العواء لم تفتح — هذا ما علمتنى إياه السنين وهكذا يا سيدى الأفتدى وجدت الشرطى الذى يصحو من نومه فأمسك بجلبابى من القفا وقادنى الى الخفر لأنظف مرابط الخيل ، وفى كل مرة يامسدى الأفتدى أقول لنفسى (سيكرر الحلم .. نعم لإبد وأن يتكرر الحلم) ، وقت ذلك لا أصبح إسكافيا وقد أصبح إسكافيا ، لكن الاختيار — بعد العمر الذى مر — صعب ، وبفى الموت : هذا كل ما أخشاه ..

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بمعينين بلا رموش — نظر إسكافى المودة إلى خمس طالمة تضحك على سماء عالية صافية الزرقاء ، وقال :

« هذا يوم يحلو فيه الشراب — لكن كيف ؟ » .

وقال :

« حين تميل الشمس يميل الظل ويرقد هناك — بجوار باعة الجريد والليمون والفجل والكرات والبصل الأخضر ، وقت ذاك — يكون مخالي وحيدا ، المعجوز المشاكس لن يشاكس — فهو فرد وأجنبي وأنا ابن البلد .. والأجنبي بطبعه خواف » .

« هات كأسا يا مخالي — ودعنى أفكر » .

« صب الكأس على الكأس — ودعنى أفكر يا مخالي » .

« آه يا مخالي .. لو تخلل الحس عني لوحت .. آه لو رحت يا مخالي .. هات كأسا ودعنا نجرب » .

وقال إسكافى المودة لنفسه — بعد أن شرب كأسه السابعة :

« فى الكأس السابعة — وتلك عادى — تصفو دماغى وأفكر ، وهأ أنا —

يارب السموات — أفكر » .

وقام صارخا :

« يا الله .. إنها الأبدية » .

(أ)

« يا تاجر أنت تاجر .. والتجارة والكسب حلال .. هكنا علمنا الله ، دس السلعة خلف الرفوف — سيندر وجود السلعة بالسوق ويرتفع سعرها ، بعد أسبوع أو أسبوعين إظهار السلعة — ويغ بالسعر الذى يروق لك .. هكنا يكثر ويحك ، لكن لا ترفع الحد حتى لا يرفع المشتري صوته .. حاذر .. ضجر الناس يجر فى أعقابهم الأذى » .

— ب —

« صاحى من ذوى الشأن .. قابلته بالأمس فى محلة مخالي .. قال لى — هو الذى يلبس الحلة ويعمل بدموان الحكومة : إسمع يا إسكافى المودة .. سيرتفع ثمن علبة الدخان ولن ينخفض ثمن البيض واللحمة ، قلت لنفسى : عما قليل سيمسح البقالون — فهم دوما يسمعون ويحقنون العلبة ولا يظهرونها إلا فى وقت عسوب ، قلت لنفسى — وهأ أنا أملك : كيف يكون ذلك ؟ .. لم يكسب

البقالون دوما ؟ . إلخ .. بينما صاحبي الموزع يحضر الدخان من الفابريكة على
بسكليت ويوزعه على البقالين ولا ينوبه غير الورم الذي أراه يساقه وقدميه ؟! ..
هه .. ملعونة هي البسكليت وملعون من اخترعها .. لكن لم يكسب البقالون ولا
تكسب أنت ؟ .. هه .. لم لا تحفظ أنت بالدخان وتكسب ؟! .. هه .. قل
للبقال ؟! حقل كذا علبة .. هذا ثمنها وذاك ومحا .. ولك منى فوق الربح هنا
القرش .. هكذا يا أخى يسكت البقالون .

(ج)

« تعالوا يا اخوتي وهشوا الغضب .. تعالوا نلم الكلام .. دعوا الدولاب يدور
فالدولاب يا اخوتي لابد أن يدور .. وهناك فرصة لو اغتتمها الإنسان منا للدار
الدولاب باتجاهه ورعى في حجوه » .

(د)

« كن عادلا يا حضرة الموزع واقنع بالقسمة — فذلك شريعة الله » .

(هـ)

« وأنت يا صاحب دكانة الأمانة والعين الرقواء — عليك أن تعلم أن الموظفين
ينازعون الحكومات في الحقوق المملومة .. تساهل يا أخى تساهل .. خذ نصف
حقل وانظر حولك بعين الشاطر : أولاد آدم العاصون هناك على حدود الدنيا ..
وهم دوما قادرون على اختراق نسل الحكومات وكسر الحدود .. وهم كما تعرف
وأعرف — قناصة وقراء أثر ومهرون .. لا تجزع .. لا عليك من أمر المخدر ..
لكنهم يتربون مع المخدر علبة الدخان الإفريقية — وهذا يعنك .. لو دفعت القليل
للفرد منهم للدلق زنبيله في حجرك .. وذاك خير من دفع الكثير لجمرك
الحكومات .. وهكذا تصبح أنت التاجر الحر في بضاعتك : تباع وتكسب أمام
عين الحكومة كما لو كنت الذى دفع الكثير لجمرك الحكومة .

زعم إسكافي المودة في وجه مخالى :

« وحت يا مخالى .. وحت ، كان وجهك وجه خير يا مخالى ... خذ ثمن ما شربت يا مخالى واتركنى أضحك .. وعلبة السجائر تلك لأجلك يا مخالى .. والآن دعنى أشرب وأضحك يا مخالى » .

وقال إسكافي المودة لنفسه :

« ياه .. يا لها من لعبة .. من يصدق أن السوق الذى يحكم الدنيا لعبة ؟! .. وأنا شاركت في اللعبة وحت .. ببساطة — أنا أشارك الآن في حكم الدنيا من مكاني هذا بخمارة مخالى » .

وقال إسكافي المودى الصاحى لإسكافي المودة الشارب :

« ها هم يشاركوننى طاولتى — بعدما اكتظت الحانة ، علّ أن أتقبل الأمر الواقع — رغم أنى أفضل أن أكون بمفردى : لولا هذا الشعور ، آه منه : هذا الشعور الغريب الجديد .. وهل يعقل هذا : أنا الذى هو أنا أهبط السلم عازيا إلى قنطرة سوداء — بينا أنا هنا على الطاولة وها هم حولى يشربون ويتكلمون .. آه .. لم لا أنصت لكلامهم ؟ .. سأقفل — فقد بولى ذلك الشعور الذى لا أعرف من أين جاء .. نعم : من الخير لى أن أنصت لكلامهم » .

« لجملة الناس ترانا نحن جنود الإطفاء كأننا نفر من العامة لا صلة لنا بطائفة الجند ، بينا أنا — بمخروط ماء واجهت الأحجار والعمال والطلاب وهدمت بينا ، كل ذلك ثم باتفاق ، البيت ملتصق بالسرايا ، والبيت مملوك لصاحب السرايا ، لما تشب النار فى مطبخ السرايا سأذهب أنا بمخروطى لإخماد النار بالماء ولهدم البيت بالماء ، قدر من الماء على النار بالمطبخ وقدر من الماء على البيت القديم ، بعد شهر تصدع البيت القديم فهرب السكان — وحصل صاحب السرايا على الأرض الفضاء التى أقام فوقها بعمارة تطول السماء ، لكن اللعين خدعنى — أجزئى حجرة بالسطح لا يصلها الماء » .

« كنا قد اتفقتنا أنا وأهلها الفقراء على قراءة الفاتحة ، وكانت هى السمراء ذات العجيزتين والضعفائر — من أيدها زوجة لى وأما لأولادى ، كانوا فقراء وكنت صاحب حرفة ، زرتهم فى خُصْبهم وقلت : نقرأ الفاتحة . قالوا : نقرأ بسم الله . فى تلك اللحظة دق الباب — لقد عاد قريب العائلة المسافر . رحبوا به ونسوفى .

قلت : لا يهيم هذا حق لكل غالب عائد . وقال هو — إن البنت لما سافر كانت صغيرة .. وما هو يراها — بعد أن عاد — كبيرة وجميلة ، وقلم . فقلت أنا لنفسي : هذا خير . وقال هو : لن أتأخر . فقلت أنا لنفسي : اصبري يا نفسي ، وقلت لهم : نقرأ الفتحة . قالوا : لا .. حتى يحضر قريبنا . عاد صاحبنا ويده لفة بها أرغفة وجبن وبيض وبلح . أكلوا وما أكلت ، وكلموه وما كلموني . شعرت بنفسي غريبة بينهم . ولما أعطى البنت أمامي ريالين من فضة السعودية — وقال لها : اصنعي لأذنك قرطين . قلت أنا لنفسي : قم يا ولد بما تبقى من روحك ولا تجعل الغير يركب كنفك .. وما أنا صاحب الحرفة أمامكم يا إخوتي تنهضني الحسرة ، لكني عزمت على الرحيل — في القريب إن شاء الله — إلى بلد عربي به يتروى حتى لا أعيش عمري قصير اليد .

« قال لي الميجور : تعال ، ميزني من صبرى العريان الذى يملوه شعر ، واختارني من بين كل رجال الكامب . وأمام فيلا بها شجر وورد ونافورة وحوض ماء به سمك ملون — وقفت المرة . وبقيت بالفيلا لا أبارحها شهرين ونصف شهر ، أكل وأشرب وأفعل وأسمع الموسيقى التى يرقص عليها الميجور ، حتى جاء يوم قلت فيه للميجور : يا ميجور أنا نجار ويجب أن أعمل بالنجارة يا ميجور . قال لي الميجور : وأنت هنا تجعلنى أشعر بالسعادة يا فتحي .. أنت تعمل يا فتحي .. قلت : اليد العاطلة نجسة يا ميجور .. والحرفة تطلق من يطلّقها . قال لي الميجور : مالى تحت أمرك يا فتحي .. مد يدك وخذ من المال ما تريد ، فقلت — وليتني ما قلت : لكن الدنيا حولنا ياميجور . قال الميجور : هيا بنا يا فتحي .. هيا نخرج للدنيا . وفي البار مد الميجور يده بشلن للمرأة المتسولة . والمرأة المتسولة — التى قتل الألمان ابنها المجند في الجيش الإنجليزي — ذمعت الميجور أمامى ، وأنا أنظر ولا أفعل شيئا .. ومن يومها وأنا أنظر ولا أفعل شيئا غير أنى — من يومها — اتجنب المجند وذاكرتي وكل المتسولة . »

وقال إسكافى المودة لنفسه — بعد ان سمع : يالنا من اطفال كبار وقال لنفسه المحمورة : لقد فرحت أنا الطفل الكبير باللعبة فلعبت وكسبت وأشعلت النار بمود ليحترق غوى .. لكنني لست . سافلا .. لكنني كالعادة كنت أبحث عن محارة مخالى لأنى احب الخمر أنا المفلس .. وسأحاسب نفسي على سوء فعلى .

- ضم القبضة واشهر السبابة .
- كالعادة ؟
- نعم كالعادة .. بهذا تكون قد صنعت مسدسك المميت .
- تلك أيضا عادتك .
- لو كنت أملك لاشتريت .
- وكالعادة .. أجلس أنا هنا ويدي المسدس .
- نعم .. وأجلس أنا هناك مرفوع اليدين .
- وأفرقع أنا أصيحا وأقول : رصاصة تخترق الرأس .
- سيمختفي غمالي خلف البار ويهرب الكل من البار إلا أنا .
- وكذا أنت .. لأطلق أنا رصاصة تنفذ في القلب .
- وأعلم أنا هنا — أن الجسد قد سقط .
- وقال اسكافي المودة الخمور لاسكافي المودة الخمور :
- « وكالعادة .. يأتي الشرطي ويمسك بقفاي ويجرني إلى الخفر القريب
- لأنظف مرايا الخيل » .

في حديث صحفي أجراه سمير غريب مع يحيى الطاهر عبد الله ، في
مجلة : « المستقبل العربى » . يقول يحيى

« أنا وضعت في المجموعة الأولى حيرتى في البحث عن شكل ولغة
ورؤية .. همى كإنسان ووجدى .. كرجل منبر بالثورة ويريد أن يخطب
بمنهجها .. حيرتى كاملة وموجودة في هذه المجموعة .. لم تتحقق « القصة » في
هذه المجموعة إلا في قصتى « الرشم » و « جبل الشاى الأخضر » .

ويضيف يحيى :

« كانت الضغوط على عالية ، ومن حقى أن أقول نفسى ، فكتبت
« الكابوس الأسود » و « خمسون » .. فى « الكابوس » . أنا ذلك المطارد
المطروء من الطبيعة .. من البشر .. العدمى فى مواجهة الأشياء لأنه يرفض أن
يتشأ . أنا ليس لى تأثير ولن يكون » .

وعن إحساسه عما قد قدمه يقول يحيى :

- « أنا كاتب حققت لنفسى فرحى الخاص بما كتبت وكفينى هذا »
- « فرحى النهائى والعرس الأخير هو الثورة وتحريك الشعب الراقدة »

ويضيف يحيى الطاهر عن تجاربه :

« أنا ابن القهية وسأظل . فتجربتي تكاد تكون كلها في القهية ..
والقهية حياة قائمة هي « الكرنك في الأقصر » أي « طيبة القديسة » وأرى أن
ما وقع على الوطن وقع عليها . وهي قهية منسية منفيه كما أنا منفي ومنسى ..
كما أنها أيضا قهية في مواجهة عالم عصري .. إذن عندما أبعد عن قهيتي أشتى
إليها في المدينة وأبحث عن أهل وأقربائي وناسي الدين يعيشون معي . وأنا
لا أحيأ إلا في عالمها السفلى .. فحين ألقى بهم نلتقي « كصميدة » وكأبناء
« كرنك » ولحميا معا ألنا المصري ، ولجيتنا العربية ، وبُعْدنا عن العصر
كشخص مخرقة » .

وفي رده عما إذا كان يحاول أن يجد قاسما مشتركا بينه وبين المجتمع عن طريق
الانتقال بغير الكتابة إلى فن القول :

« أنا إذا قلت وأجدت القول سأجد من يسمع وهذا أفضل .. ويجب
أن أقول ولا يجب أن أكتب لأن أمتي لا تقرأ .. وحين أقول يكثر مستمعي
لأن الناس ليسوا صمما . أنا لا أعتمد أن مخاطبة المثقفين مسألة ذات وزن ..
أنا سألت نفسي : لمن أكتب ؟ فوجدت أن الناس الذين أكتب عنهم لا يقرأو
في .. وهم منفيون ومختربون ومستكبرون .. لذا أعتمد أن القول أفضل
والقصص التي أكتبها سبق أن قلتها مائة ألف مرة لمائة ألف شخص .. لذا
أيضا أقول إنني لا أبذل أي جهد في الكتابة لأنني أدون ما أقوله في جلستاي
وتعاملاتي » .

ويضيف يحيى الطاهر

« أنا لا أسعى نحو الشكل .. الشكل تابع ذليل يأتي في النهاية .. ثم لماذا نحرمنى من أن أكون فنانا فيما دونته وفنانا في حياتى .. من الممكن أن أحول جلستنا هذه الى قصة قصيرة .. الكتابة بالنسبة لى صعة كما هو الأكل ؟ »

ويختم يحيى الطاهر حواره مع سمير شهاب ، قائلا :

« ربما يعتبر على واقع لا إنسانى أن يعطيك أشياء إنسانية .. يعنى الواقع الطبقي واقع لا إنسانى .. وكل ما يمكنك أن تفعله هو أن تحاول الحياة كرجل محترم .. وأن تسعى الى نفي إغترابك وهذا لا يكون إلا بالثورة . ولكنى أقول إن واقعا اللا إنسانى يمتلك من الطاقات والقدرات الإنسانية ما يجعلنى قادرا على التصرف .. هذا الواقع لا يعطى صديقا .. ولكننى قادر على الحصول على صديق » .

وعن عمرو ، يقول :

« أنا لى عمر حرمص عليه .. أنا وصلت للسن الحرجة .. أنا شاب ..
« أديب شاب »

محتويات الكتاب

صفحة

٣	يحى الطاهر عبد الله
	ثلاث شجرات كبيرة تنمر برتقالا
	مجموعة قصص
١٥	جبل الشاى الأخضر
٢٠	الكابوس الأسود
٢٤	معطف من الجبلد
٢٩	حصار طرواده
٣٣	السوارث
٣٦	طاحونة الشيخ موسى
٤١	محبوب الشمس
٤٧	ليل الشتاء
٥٥	قاييل الساعة الثانية
٦١	٣٥ البلتاجى ٥٢ عبدالحالى ثروت
٦٩	الثلاث ورقات
٧٨	ثلاث شجيرات كبيرة تنمر برتقالا

الدف والصندوق

مجموعة قصص

٩٣	المهر
٩٧	حج مرور وذنوب مغفور
١٠٠	الجند حسن

١٠٧	العالمية
١١٢	إيقاعات بطيئة ومنظمة أيضا
١١٦	الوشم
١٢١	الفخاخ منصوبة للمحبين
١٢٨	الشهر السادس من العام الثالث
١٣٤	الموت في ثلاث لروحات
١٣٨	الجلسة
١٤٠	الدف والصندوق

أنا وهي وزهور العالم مجموعة قصص

١٥٣	الشجرة
١٥٥	اليوم الأحد
١٥٧	أنشودة الطراد والمطر
١٥٩	البكاء والثالث
١٦١	تلاوة ماسونية
١٦٣	فانتازيا.. العنف القبيح
١٦٦	شمس
١٧٠	إلى الشاطئ الآخر
١٧٢	السلس
١٧٦	أنا وهي وزهور العالم

الرقصة المباحة مجموعة قصص

١٨٣	أغنية العاشق إليها
-----	-------	--------------------

١٩٣	الحكاية المثال
١٩٩	السيد أحمد السيد
٢٠٨	الفجري
٢١٥	كلام البحر
٢٢٤	الرقصة المباحة
٢٣٢	رؤسا
٢٣٤	الفلسطيني
٢٣٧	وغنا أيضا الأحد
٢٣٨	الغول
٢٣٩	هي وهو
٢٤٠	المسوع
٢٤١	اليكساء
٢٤٣	الضحك
٢٤٤	الخوف
٢٤٦	الموت
٢٤٨	أشكال
٢٤٩	كن المصري: كن السيد
٢٥١	إلى سنوحى
٢٥٢	في الحلم يمشق الموتى
٢٥٣	الرسول

حكايات للأمور حتى ينال مجموعة قصص

٢٥٧	من الزرقة الداكنة حكاية
٢٦٠	حكاية صيف
٢٦٢	حكاية عبدالحليم أفتى وما جرى له مع المرأة المارقة
٢٦٩	حكاية الريفية

٢٧٣	حكاية أم دالية .. طاعية للموت
٢٧٧	حكاية الصمعيدي
٢٨٢	حكاية لرأس ونيل
٢٨٥	حكاية بزخارف
٢٩١	حكاية مليحة رامية
٢٩٥	قصص لكل الطير
٣٠٢	هكذا تكلم القرآن
٣١١	حكاية للأمير عنوانها : من يطلق الجرس
٣١٧	ترنيمة للأمير
٣٢٠	حكاية أخيرة من الطير الأليف والطير الجارح

حكاية على لسان كلب قصة طويلة

٣٢٥	أيامي في الريف
٣٣١	أيامي في المدينة

الطوق والامسورة رواية

٣٤٥	القسم الأول
٣٥٤	القسم الثاني
٣٦١	القسم الثالث
٣٦٦	القسم الرابع
٣٧٠	القسم الخامس
٣٧٢	القسم السادس

٣٧٧ القسم السابع
٣٨١ القسم الثامن
٣٨٣ القسم التاسع
٣٨٧ القسم العاشر
٣٩٣ القسم الحادى عشر
٣٩٧ القسم الثانى عشر
٤٠٠ القسم الثالث عشر
٤٠٢ القسم الرابع عشر
٤٠٧ خاتمة

تصاوير من التراب والماء والشمس رواية

٤١٥
-----	-------

الحقائق القديمة صالحة لاثارة الدهشة رواية

٤٥١
-----	-------

٤٨٩ حديث صحفى مع يحيى الطاهر عبد الله
-----	-----------------------------------------

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٧٧٥٥ / ١٩٩٣
التسجيل الدولي : 8 - 055 - 932 - 977

في آخر مرة لقيت فيها يحيى الطاهر عبد الله، في أوائل ١٩٨١، قال لي: لا أريد أن أموت أبداً.

ولكن يحيى استجاب لغواية رسول الموت «المخادع القادر» بعد أسابيع قليلة، وترك في قلوب أصدقائه، ومحبيه، فجرة عميقة. كان يملأ حياتنا بصغبه، وحيويته، وشططه، وصدقه، بحكمته وجنونه، بشكاواه التي لا تنقطع وعطائه الذي لا حد له. كان يملأ أرواحنا بمحبة نادرة. كان يشتغل بمقدرة على الحياة متوجهة إلى آخر مدى، ومقدرة فن استطاع وحده، من بين أقرانه جميعاً أن يصوغه بيدين متقديتين ويجدان بأمره.

ولا تريد هذه الكلمة أن تكون على سبيل الرثاء ليحيى. فما من سبيل إلى رثاء يحيى. نحن نعرف أنه لا يموت، قاسما كما كان يريد. براءاته الكلية، وإيمانه، وقدره، وفنّه، كلها قيم لا مقدرة عليها لرسول الموت المخادع، مهما كان قادراً.

من أوجه تفرّده الكثيرة، أنه، بهرانة كلية - وعناد صعيدي، رفض أن يبيع شيئاً من ذات نفسه، وكان يعرف - ويقبل - الثمن الفادح لهذه الكبرياء.

ومنها أيضاً أنه عرف كيف يصغى - ويستجيب لما هو خاص جداً - ولذلك أصبل - في نفسه، وفي قومه، وفي شعبه، في حساسيته وفي تراثه، لذلك كان في الوقت نفسه حكماً - وراويّة من الطراز الأول، وشاعراً مرهف السمع ووثيق الوتر.

وإذا كانت حياته كلها حكاية، وقصيدة، فإنه مع ذلك عرف كيف يصوغ لنا الحكاية والقصيدة أو علي الأرجح، القصة - القصيدة وكان ذلك هو ما استلهمناه في هذا النسق الذي نضع فيه كتاباته الكاملة، بقدر ما أتبع لنا أن نستكملها - فقد كان هذا الكاتب زاوية أولاً، يحفظ كتاباته، ويلقيها، شفاهاً قبل أن يكتبها - أو وهو يكتبها.

ادوار الخراط

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٩٠.٤٧٢٧

في آخر مرة لقيت فيها يحيى الطاهر عبد الله، في أوائل ١٩٨١، قال لي: لا أريد أن أموت أبداً.

ولكن يحيى استجاب لغواية رسول الموت «المخادع القادر» بعد أسابيع قليلة، وترك في قلوب أصدقائه، ومحبيه، فجرة عميقة. كان يملأ حياتنا بصخبه، وحيوته، وشططه، وصدقته، بحكمته وجنونته، بشكاواه التي لا تنتقطع وعطائه الذي لا حد له. كان يملأ أرواحنا بمحبة نادرة. كان يشتغل بمقدرة على الحياة متوهجة إلى آخر مدى، وبمقدرة فن استطاع وحده، من بين أقرانه جميعاً أن يصوغه بيدين متقدتين ووجدان باهر.

ولا تريد هذه الكلمة أن تكون على سبيل الرثاء ليحيى. فما من سبيل إلى رثاء يحيى. نحن نعرف أنه لا يموت، تماماً كما كان يريد. براءاته الكلية، وإيمانه، وقدره، وفنّه، كلها قيم لا مقدرة عليها لرسول الموت المخادع، مهما كان قادراً.

من أوجه تفرّده الكثيرة، أنه، بهرانة كلية - وعناد صعيدي، رفض أن يبيع شيئاً من ذات نفسه، وكان يعرف - ويقبل - الثمن الفادح لهذه الكبرياء.

ومنها أيضاً أنه عرف كيف يصفى - ويستجيب لما هو خاص جداً - ولذلك أصيل - في نفسه، وفي قومه، وفي شعبه، في حساسيته وفي تراثه، لذلك كان في الوقت نفسه حكماً وراويّة من الطراز الأول، وشاعراً مرهف السمع وراقي الوتر.

وإذا كانت حياته كلها حكاية، وقصيدة، فإنه مع ذلك عرف كيف يصوغ لنا الحكاية والقصيدة أو علي الأرجح، القصة - القصيدة وكان ذلك هو ما استلهمناه في هذا النسق الذي نضع فيه كتاباته الكاملة، بقدر ما أتيت لنا أن نستكملها - فقد كان هذا الكاتب راويّة أولاً، يحفظ كتاباته، ويلقيها، شفاهاً قبل أن يكتبها - أو وهو يكتبها.

ادوار الخراط

دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة

تلفون: ٢٩٠٤٧٢٧